لقد قام الطالب بتصحيح الأخطاء التي طلبتها اللجنة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
المعهد العالي للشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا
فرع الكتاب والسنة

دكتور
مسعد عبد المولى الحفني النبراوي

طالب حماد ابو شعر

د. سمود علي حمايه

أسباب النصر والهزيمة في المعارك

بين الكتاب والسنة

رسالة مقدمة لنيل درجة «الماجستير»

إعداد الطالب
طالب حماد أبو شعر

٣٠١٠٢٠٠٠٠١٢٢٢

جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم الرسائل
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
مسعد عبد المولى الحفني النبراوي

العام الدراسي ١٤٠٦ / ١٤٠٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم
عليه متوكل وبه نستعين

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه
إلا قال في غده : لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن .
ولو زيد كذا لكان يستحسن . ولو قُدِّمَ هذا
لكان أفضل . ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل
وهذا من أعظم العبر . وهو دليل على استيلاء
النقص على جملة البشر .

" العماد الأصفهاني "

إهداء

إلى القادة والمفكرين والعلماء .

إلى العاملين في حقل الدعوة الإسلامية .

إلى المجاهدين الصادقين الذين يقاتلون لنصرة هذا الدين .

إلى الشباب المؤمن الذي بذل روحه لله سبحانه .

الباحث

شکر و تقدیر

شكـــــــر وتقـــــديـــــــر

الحمد لله الذى انعم علىّ نعما لاتعد ولاتحصى ، واولها نعمة الاسلام ، ثم نعمة مجاورة بيت الله الحرام . وله الحمد والمنة أن وفقنى لأن اكون من طلاب العلم الشرعي . واسأله سبحانه أن يزيدني من فضله ، وأن يجعلنى من العاملين باحكام شرعه ، وان يوفقنى لان اكون من دعاته وجنده ، انه سميع مجيب.

ثم اتقدم بجزيل الشكر لجامعة ام القرى التى اتاحت لنا الفرصة بالدراسة فى احضانها ، واستقدمت لنا العلماء الصالحين ، ووفرت لنا مانحتاجه فى دراستنا .

واتوجه بالشكر والتقدير الى القائمين على كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، واخص منهم بالذكر سعادة عميد الكلية ووكيله - حفظهماالله - الذيـــن سهرا من اجل راحة الطلاب.

وأتقدم بخالص شكرى وتقديرى لفضيلة شيخنا الاستاذالدكتور/ مسعد عبدالسمعطى الحفنى النبراوى على ماأحاطنى به من رعاية واهتمام ، فقـــد اعارني سمعه ، وفتح لى قلبه ، ولم يأل فى عونى وارشادى وتوجيهى جهدا . وقد كان لتوجيهاته العلمية النافعة الاثر الكبير فى انجـــاز هذه الرسالة.

كما ازجى شكرى وتقديرى الى كل من قدم لى مساعدة سواء كان ذلـــك فى اعارتى مرجعا ، او تنبيهى اليه ، ولكل من اسدى لى نصحا . وللجميع منـــــى الدعاء الصالح ، واللـــــه الموفـــــق . . . . . .

المقدمة

مقـــدمـــــــة

الحمد لله وحده ، الذى نصر عبده واعز جنده وهزم الاحزاب وحده ، والصلاة والسلام على الرسول الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم امام المتقين وقائد المجاهدين وعلى آله الكرام الطاهرين ، وعلى صحابته الذين نهجوا نهجه وساروا على دربـــه فنصرهم الله ومكنهم ، وعلى من تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد ،،

يقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : (إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكـــم)(١) . ويقول سبحانه : (ولينصرن الله من ينصره انّ الله لقوى عزيز * الذين انْ مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكـــر ولله عاقبة الامور)(٢) .

لقد بزغ فجر الاسلام يوم أن بعث الله سبحانه نبيه محمد بن عبد اللـــه صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة ، وبدأ ظلام الجاهلية يتبدد أمام هذا النـــور حتى تلاشـى .

واشرقت شمس الاسلام حتى أنارت الدنيا بنور الهداية والعدل والصـــلاح . واستيقظت أمتنا يوم بزوغ ذاك الفجر ، ثم ترعرعت مع شروق شمسه فسادت البشريـــة وساستها الى دروب الخير والفلاح .

وكان لهذا الدين الفضل على مابلغـه المسلمون من القوة والنصـــر والتمكين ، اذ نصروا الله فنصرهم وايدهم على عدوهم فأصبحوا ظاهرين .

---

(١) محمد (٧) .
(٢) الحج (٤٠ ، ٤١) .

واليوم تلبد سماء المسلمين بعض الغيوم التى تحجب شمس الاسلام ونوره عن البشرية ، وذلك لأن المسلمين انحرفوا عن دين الله فخسروا وخسر العالم بخسارتهم كذلك نور الهداية والسعادة .

ويظن بعض المسلمين - لرؤيتهم تلك الغيوم وهى تلوح فى الافق - أن شمس الاسلام أوشكت على المغيب . ولكن هيهات ، هيهات ، فانها غيوم سرعان ماتنقشع ، وستزول باذن الله قريبا . ولكن بعد أن يعود المسلمون الى دينهم ويصححوا مسارهم الذى انحرفوا به عن جادة الصواب .

ولنكن على يقين من نصر الله ، لانه سبحانه وعد عباده المؤمنين بالنصر والتمكين متى اقاموا شريعته ونصروا دينه - ، ووعد سبحانه أن يظهر دينه فقال جل جلاله (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)(١) .

وقال سبحانه : (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا)(٢) .

وبشر الرسول صلى الله عليه وسلم الامة الاسلامية بالنصر والتمكين .

أخرج الامام أحمد - واللفظ له - والحاكم عن ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : (بشر هذه الامة بالسناء والنصر والتمكين . .الحديث)(٣) .

وبشر ايضا بان الله سبحانه سيمكن لهذه الامة حتى يبلغ ملكها الدنيا من مشرقها الى مغربها .

---

(١) التوبة (٣٣) ، الصف (٩) .

(٢) الفتح (٢٨) .

(٣) اخرجه الامام احمد فى المسند (٥ / ١٣٤) . والحاكم فى المستدرك كتاب الرقائق (٤ / ٣١١) وصححه . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠ / ٢٢٠) : رواه احمد وابنه من طرق ورجال احمد رجال الصحيح .
قلت : اسناد الامام احمد فيه الربيع بن انس ، اخرج له الاربعة ، قال فيه النسائى لا بأس به . التهذيب (٣ / ٢٣٩) . وقال ابو حاتم : صدوق . الجرح والتعديل (٣ / ٤٥٤) وقال ابن حجر : صدوق له اوهام . التقريب (١ / ٢٤٣) وبقية رجاله ثقات . لذا فان اسناده حسن . وروى عبد الله الامام احمد الحديث فى المسند (٥ / ١٣٤) من طريق ايوب باسناد حسن ايضا . لذا فان الحديث حسن لذاته صحيح لغيره .

أخرج الامام مسلم - واللفظ له - وابوداود والترمذى وابن ماجة والامام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (١) (ان الله زوى لى الارض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان امتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها . . الحديث) .

واذا كانت الامة الاسلامية اليوم تعيش مرحلة جراح وهموم ومشاق فان هذه فى الحقيقة هموم ومشاق المخاض الذى يسبق الميلاد ، ثم يعقبه ميلاد مبارك ، ميلاد النصر والفتح المبين .

وفى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ هذه الامة ينبغى أن تتحفز طاقات المخلصين من ابنائها، وينبغى أن تبرز دواعي الاستجابة للتحدى الذى تواجهه هذه الامة ، وينبغى أن تتضافر العقول والقلوب والسواعد لكى تتخطى وتتجاوز هذه المحنة ، ثم تنطلق صوب القمة لتبنى مجدا تليدا لهذه الامة ونصرا عزيزا يعز فيه الحق وأهله ويذل الباطل وحزبه .

---

(١) اخرجه الامام مسلم فى الفتن / باب هلاك هذه الامة بعضهم ببعض (٤ / ٢٢١٥) .
وابو داود فى الفتن والملاحم / باب ذكر الفتن ودلائلها (٤ / ٨٧ ، ٩٨) .
والترمذى فى الفتن / باب ماجاء فى سؤال النبى ثلاثا فى امته (٤ / ٤٧٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح .
وابن ماجة فى الفتن / باب مايكون من الفتن (٢ / ١٣٠٤) .
والامام احمد فى المسند (٥ / ٢٧٨ ، ٢٨٤) .

سبب اختيارى هذا الموضوع:

ومن نعمة الله على أن وفقنى لان اختاروموضوعا يشكل جهدا متواضعا أساهم به فى القاء الضوء على أسباب النصر والهزيمة فى الكتاب والسنة كى نبصر الطريق الذى ينقلنا من الذل الى العزة والكرامة ومن الهزيمة الى النصر والريادة ، وعنوان هذا الموضوع : أسباب النصر والهزيمة فى الكتاب والسنة .

ويمكن تلخيص الأسباب التى دعتنى الى اختيار هذا الموضوع فيما يلي :-

(١) المساهمة فى القاء الضوء على القضية الكبرى التى تشغل ابناء الامة الاسلامية ، والتى تتمثل فى القدرة على مواجهة التحديات العالمية المعادية ، واحراز النصر عليها ليعود للمسلمين مجدهم. وتأصيل موقف الاسلام ومنهجه الكفيل بتخطى المحنة وتجاوز العقبة حتى تعود الامة خير امة اخرجت للناس.

(٢) المساهمة فى اقتلاع واجتثاث اليأس ، الذى سرى أو كاد يسرى فى قلوب ابناء هذه الامة من عودة المسلمين الى سابق مجدهم وحصول النصر والظفر لهم على اعدائهم ، واعادة الثقة اليهم فى وعدالله لهم بالنصر والتمكين .

(٣) الرد على من يريد أن يخلع ثوب الاسلام مدعيا أن الاسلام هو الذى أدى بالمسلمين الى ماهم عليه من ضعف ، ولاعلامه أن ماعليه المسلمون اليوم من ضعف انماهو بسبب بعدهم عن الاسلام ، وأن لاسبيل الى القوة والنصر الا بالاسلام.

(٤) تحديد ميزان النصر والهزيمة بالنسبة للامة الاسلامية من خلال الكتاب والسنة ليتسنى بذلك معرفة جوانب الخلل والضعف التى تعانيها الامة الاسلامية ليتم اصلاحها وتصحيح خطر الانحراف الذى ادى بنا الى الوقوع فى الهزيمة وللاستزادة من اسباب القوة والنصر التى بينتها نصوص الكتاب والسنة.

(٥) الاجابة على من يتساءلون عن سبب وقوع الهزيمة بالمسلمين او تأخر النصر عنهم، ليعرفوا الاسباب التى ادت بهم الى أن يؤلوا الى هذه الحال أوتلك.

(٦) الرد على من يطلبون النصر من الشرق او الغرب متناسين الاسلام وجاهلين او متجاهلين أن النصرمن عندالله يمنحه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء.

(٧) ابراز قيمة مايملكه المسلمون من الاسباب الشرعية التى تساهم فى ترجيح كفتهم على عدوهم ، وتساهم فى نزول نصرالله وتأييده لهم.

عملي فى الرسالة:

لقد حاولت جمع واستيعاب الآيات والاحاديث التى تعالج موضوع النصر والهزيمة مع بيان اقوال المفسرين والعلماء فيها لازالة الابهام او للكشف عن أحد المعاني التى يتضمنها النص.

واستشهدت بهذه النصوص في مواضع كثيرة حسب مايتطلبه الموضوع، وقد اجزئها اذا احتاج الامر، لذا فان بعض النصوص تعرضت لها بالشرح والتفصيل في موضع ولم اتعرض لها كذلك في موضع آخر، او تناولتها في موضع من الجانب الذي له صلة بهذا الموضع ، وتناولتها في الموضع الآخر من الجانب الذي له صلة بالموضع الجديد .

وعزوت الآيات الى مواضعها من كتاب الله واما الاحاديث فقد حرصت على تخريجها من كتب السنة مع الحكم على اسنادها ونهجت في عزوى لها تسجيل اسم المصنف والكتاب والباب والجزء والصفحة ليسهل بذلك الكشف عن الحديث في اي طبعة كانت. ونصوص السيرة والتاريخ وغيرها عزوتها الى المواضع التي اخذتها منها ، ودونت اسم الكتاب او المصنف ومؤلفه ، وطبعته ، ودار الطباعة او النشر في اول موضع يأتي فيه ،ثم اغفلته في المرات اللاحقة الا اذا اعتمدت على طبعة ثانية في موضع آخر فاسجلها بنفس الطريقة السابقة.

وحرصت على اخذ المعلومات من المصادر الاساسية مااامكن ، ومن كتب السنة خاصة -بعد كتاب الله-وحاولت ان اعتمد على نصوص يحتج بها لتوثيق المعلومات ليتسنى بذلك اعادة الثقة الى النفوس في نصر الله وفي الاسباب المشروعة لحصول النصر والظفر.

واستفدت مما كتب حديثا وله صلة بموضوع الجهاد والنصر، من اي مصدر يفيد .

واعددت للرسالة ثلاثة فهارس.

الفهرس الاول للموضوعات : سجلت فيه مباحث الرسالة وفصولها وابوابها حسب ترتيبها فى الرسالة ، واشرت الى رقم الصفحة .

الفهرس الثاني : للاحاديث : رتبت فيه الاحاديث والآثار الواردة فى الرسالة حسب ترتيب حروف الهجاء ، مع الاشارة الى ارقام الصفحات التى وردت فيها ، وذكرت الراوى ايضا مقابل كل حديث ، وصاحب الأثر كذلك ليسهل الكشف عن الاحاديث والآثار .

الفهرس الثالث : للمصادر والمراجع : رتبت فيه المصادر والمراجع حسب ترتيب حروف الهجاء ، وذكرت اسم المصدر او المرجع، ومؤلفه ، ودار الطباعة او النشر ، وطبعته .

عرض موجز لمباحث الرسالة :

قسمت الرسالة الى ثلاثة ابواب؛ الاول منها تمهيدى ، والآخران رئيسان . أما الباب الاول فهو بعنوان الجهاد والنصر فى الكتاب والسنة - وينقسم الى فصلين الاول بعنوان الجهاد فى الكتاب والسنة وفيه أربعة مباحث هى : فضل الجهاد ، وحكمه ومراتبه ، والجهاد طريق النصر . وأفردت هذا الفصل للجهاد خاصة لانه هو الطريق الوحيد الذى ينقذ الامة من الهزيمة ويكسبها العزة والقوة والنصر ، ولا يمكن للمسلمين بدونه أن يعيشوا فى عزة وكرامة ، بل وليس للمسلمين نجاة من الذل والهزيمة الا بالجهاد الذى ماتركه قوم الا ذلوا . لذا كان لزاما أن أبين هذه الفريضة ليتبين قيمتها واثرها باعتبارها طريق النصر والنجاة .

والفصل الثانى بعنوان النصر والهزيمة فى الكتاب والسنة ، وفيه ستة مباحث هى معنى النصر والهزيمة فى الكتاب والسنة ، والغاية من النصر فى الاسلام ، ووجوه النصر الرباني للمؤمنين ووعد الله للمؤمنين بالنصر ، والحكمة فيما يقع من هزيمة المؤمنين بسبب ذنوبهم ، وسنة الله فى النصر والهزيمة .

وهذه المباحث لازمة من اجل التمهيد لموضوع اسباب النصر والهزيمة.

والباب الثاني : الاسباب المعنوية للنصر والهزيمة فى الكتاب والسنة ، كما هو واضح من العنوان ـ خاص بالاسباب المعنوية للنصر والهزيمة ، وجمعت فيه اثنى عشر سببا يدخل فى جملتها الاسباب الشرعية.

والباب الثالث: الاسباب المادية للنصر والهزيمة فى الكتاب والسنة ، خاص بالاسباب المادية ، وجمعت فيه سبعة اسباب.

وحاولت عند عرضى لهذه الاسباب ان اتناولها فى البداية بالتقرير والتأكيد من الجانب النظرى معتمدا فى ذلك على الكتاب والسنة ، ثم اتبع ذلك باستعراض بعض الشواهد العملية من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الكرام لأؤكد على كل سبب من اسباب النصر والهزيمة من خلال الجانب التطبيقى المتمثل فى جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته الرائعة. وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هى التطبيق العملى لتعاليم الكتاب والسنة ، وهى سيرة حافلة بدروس النصر بالاضافة الى غيرها من العبر.

الباب الأول «تمهيدي»

الجهاد والنصر في الكتاب والسنة

تمهيـــــــــــــــد

النصر على الاعداء امنية غالية وعزيزة ، وقضيـــة كبرى تراود كل مسلم يهتم بأمـــور المسلمين . ولكن هل الامانى وحدها تكفى الامة مئونة النصر؟ وهـــــــــل الكلام والخطب الرنانة هما طريق المسلمين الى النصر ؟

لو كان الامر كذلك لكنا فى حال غير هذا الحال ، اما ونحن فيما نحن فيه من بـــــلاء الهـزيمة فلنبحث عن الطريق الصادق الذى يصل بنا الى مانبغى من النصـــــر والظفـــــر .

ولقد بينت لنا شريعتنا طريق النصر ، وصدقه تاريخ امتنا العريق بما حواه من امجـاد وانتصارات لم يسجلها التاريخ لامة منذ زمن بعيد غير امتنا الاسلاميـــــــــــة .

فماهو هذا الطريق ؟ انه الجهاد . . ، من سلكه حاز النصـــر كما دلت علـــى ذلك شريعتنا واثبت صدقه تاريخ امتنا . وقد فصلت الحديث عنه لادراك منزلته واهميتـه فى هذا الدين ، لنتأكد من سلامة هذا الطريق حتى نسير فيه مـــن بدايته واثقي الخطى مطمئنين الى نصر الله .

الفصل الأول

الجهاد في الكتاب والسنة

وفيه تمهيد وأربعة مباحث :

الأول : فضل الجهاد والشهادة .

الثاني : حكم الجهاد .

الثالث : بواعث الجهاد .

الرابع : الجهاد طريق النصر .

المبحث الأول

فضل الجهاد والشهادة في الكتاب والسنة

المطلب الأول : فضل الجهاد في القرآن .

وعد الله سبحانه وتعالى المجاهدين بالثواب العظيم - ترغيبا للمؤمنين في الجهاد - في آيات كثيرة منها قوله تعالى:(ياأيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين)(١) .

يدعونا الله تبارك وتعالى في هذه الآيات-وما أعظمها من دعوة تصدر عن رب العزة والجلال - الى عقد صفقة رابحة معه سبحانه .

وصدر الخطاب بالنداء لتنبيه المؤمنين الى هذه التجارة،وللتنويه بأهميتها حتى لا يفرطوا فيها ولا يفوتهم ربحها ، وخاطبهم الله سبحانه بوصف الايمان (ياأيها الذين آمنوا) لاعلامهم بأن هذا العقد خاص بالمؤمنين ، وانه من مستلزمات الايمان . ووجه اليهم الخطاب بصيغة الاستفهام (هل) تشويقا لهم واشعارا بأهمية مضمون الخطاب. وعبر بلفظ (ادلكم) ليفيد أنه سبحانه هو الذى سيتولى بنفسه ارشاد المؤمنين الى تلك التجارة ، ولاشك أن الانسان اذا وثق في صدق مرشده وامانته أنس به واطمأن اليه فما بالنا والمرشد هو رب السماوات والارض الذى له الاولى والآخرة ، والذى أحاط بكل شيء علما ، ان ذلك ولاشك يحمل المؤمنين على الحرص على هذه التجارة والاستمساك بها اذا كانوا مؤمنين حقا .

وعبر القرآن بلفظ (تجارة) ليوحى بالربح العظيم الذى يناله المؤمن بالجهاد ، وليؤكد على ضمان الصفقة. قال الشوكانى رحمه الله : (جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لانهم يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار)(٢) .

---

(١) الصف (١٠ - ١٣) .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى (٥ / ٢٢٢) . الناشر محفوظ العلى . بيروت

وأجمل الله سبحانه وتعالى ربح هذه التجارة بقوله:(تنجيكم من عذاب اليم) وهذا فضل عظيم وفوز كبير. يقول تبارك وتعالى:(فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز)[١].

وبعد ان اجمل القرآن ذكر التجارة ، فصلها ببيان السلعة والثمن ، أما الثمن فهو الايمان والجهاد فى سبيل الله ، واما السلعة فهي مغفرة الذنوب ودخول جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وفى ذلك من سرور قلب المؤمن وقرة عينه مالا يحاط به . واغراء للمؤمنين كى يحرصوا على هذه التجارة وعدهم الله سبحانه مساكن طيبة ، ومزيدا فى اغرائهم بين أن تلك المساكن فى جنات عدن ، تلك الجنات التى شرف الله من وصل اليها بدوام الخلود فيها مما استحق أن يسميه الله بالفوز ، ولا يكتفى بكونه فوزا بل يصفه بالعظيم ، مشيرا الى هذا الفوز باسم الاشارة للبعد لبيان انه نعيم لا يتناهى .

وزيادة فى اغرائهم كذلك بين الله سبحانه أن من جملة ارباح هذه التجارة ربحا دنيويا عاجلا يتمناه المسلمون ويحبونه كل الحب ، الا وهو النصر على الاعداء والفتح القريب(واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) والمراد بالفتح القريب : فتح مكة ، وقيل فتح فارس والروم[٢].

كل هذا الاغراء وماذكر من الثواب الآجل والربح العاجل انما هو للحث على الجهاد بما يدل على عظيم فضله وعلو منزلته عند الله تبارك وتعالى .

واكد القرآن على فضل الجهاد ، وفوز من يتعاطى هذه التجارة فى سبيل الله حيث يقول تبارك وتعالى:(ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)[٣].

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) تفسير النسفى (٤ / ٢٥٣) دار الكتاب العربى ، بيروت .

(٣) التوبة : (١١١) .

بينت الآية الكريمة أن ثمن دخول الجنة هو الجهاد بالمال والنفس ، ووعد الله سبحانه أن يمنح السلعة لمن قدم الثمن ، وجعل سبحانه هذا الوعد عهدا على نفسه-تأكيدا للأمر-لترغيب المؤمنين فى هذه التجارة .

وعدد ابن القيم-رحمه الله-ماشتملت عليه هذه الآية من وجوه لتأكيد تمام الصفقة وضمان الربح حيث قال : (فجعل الله سبحانه هاهنا الجنة ثمنا لنفوس المؤمنين واموالهم ، واكده بانواع من التوكيدات :-

اولا : اخبارهم بصيغة الخبر المؤكد باداة (ان) .

ثانيا : الاخبار بذلك بصيغة الماضى الذى وقع وثبت واستقر .

ثالثا : اضافة هذا العقد الى نفسه سبحانه ، وانه هو الذى اشترى هذا المبيع .

رابعا : انه اخبر بانه وعد بتسليم هذا الثمن ، وعدا لا يخلفه ولا يتركه .

خامسا : انه اتى بصيغة (على) التى للوجوب اعلاما لعباده بان ذلك حق عليه احقه هو على نفسه .

سادسا : انه اكد ذلك بكونه حقا عليه .

سابعا : انه اخبر عن محل هذا الوعد ، وانه فى افضل كتبه المنزلة من السماء وهى التوراة والانجيل والقرآن .

ثامنا : اعلامه لعباده بصيغة استفهام الانكار ، وانه لا احد اوفى بعهده منه سبحانه .

تاسعا : انه سبحانه وتعالى امرهم ان يستبشروا بهذا العقد ، ويبشر بعضهم بعضا ، بشارة من قدتم له العقد ولزم ، بحيث لا يثبت فيه خيار ، ولا يعرض له مايفسخه .

عاشرا : انه اخبرهم اخبارا مؤكدا بان ذلك البيع الذى بايعوه به هو الفوز العظيم والبيع هاهنا بمعنى المبيع الذى اخذوه بهذا الثمن ، وهو الجنة) .(١)

وللاستاذ سيد قطب رحمه الله تعليق لطيف يقول فيه:(. . حقيقة هذه البيعة و هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة ان الله سبحانه قد استخلص لنفسه انفس المؤمنين واموالهم ، فلم يعد لهم منها شىء . . لم يعد لهم ان يستبقوا منها

---

(١) نقلا عن موارد الظمآن لدروس الزمان/عبد العزيز السلمان (٣ / ٤٩٠) الطبعة الثالثة مطبعة المدينة بالرياض.

بقية لا ينفقونها فى سبيله . . . انها صفقة مشتراة لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء . . وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم . . والثمن هو الجنة . . والطريق هو الجهاد والقتل والقتال . . والنهاية هى النصر او الاستشهاد ، من ارتضى الثمن ووفى فهو المؤمن . . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا . . ، ومن رحمة الله ان جعل للصفقة ثمنا ، والا فهو واهب الانفس والاموال . . ولكنه كرم هذا الانسان فجعله مريدا ، وكرمه فجعل له ان يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - . . .) (١) .

ورفع الحق تبارك وتعالى درجة المجاهدين ، وجعلها من اعظم الدرجات وذلك لرفعة فضل الجهاد . يقول سبحانه وتعالى:(الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم .) (٢) .

سجل القرآن فى هذه الآيات ثواب المجاهدين ، ودرجتهم العالية الرفيعة ، ووصف هذه الدرجة بأنها أعظم الدرجات عنده ، فاعلى انواع الثواب ثواب المجاهدين ، ولا يدركهم الا من قضى دهره صائما لا يفطر ، وليله قائما لا يرقد . واضاف العندية لله سبحانه ليؤكد على حصول المجاهدين على هذه الدرجة الرفيعة ، وليفيد بأنها ليست من نوع الدرجات التى لدى البشر ، كما انها ليست فى يد احد منهم . ولا شك ان ميزان الله ليس كميزان الخلق ، و عدل الله لا يصل اليه احد من الخلق ، فلا خوف اذا ولا وجل مِنْ فقد الثواب فهو فى حفظ من لا تضيع عنده الودائع ولا تنتهى كنوزه وخزائنه . ولم تكتف الآيات بذكر درجة المجاهدين ، بل وصفتهم بانهم هم الفائزون:(واولئك هم الفائزون) ، وكأن احدا غيرهم ليس من الفائزين ، وذلك اكراما للمجاهدين وتقديرا لهم على جهادهم ، وهو اغراء للمؤمنين كى يحرصوا على الجهاد ليكونوا من الفائزين .

وبشرت الآيات المجاهدين بالنعيم المقيم ، والرحمة والرضوان ، (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . .) .

---

(١) فى ظلال القرآن . سيد قطب (٣ / ١٧١٦) دار الشروق ، الطبعة الثامنة ٩٩هـ / ٧٩م .
(٢) التوبة (٢٠ - ٢٢) .

واسند الله سبحانه الى نفسه تبشيرهم عطفا عليهم وحبا لهم. كما أن البشارة تكون لامر سار فاذا سمعها صاحبها يجب أن يطمئن لصحة هذه البشارة فيسأل عمن جاءت، فيجد انها من الله سبحانه ، فينقطع عن نفسه كل شك او ريب، ويبلغ به اليقين ذروته، حتى ليندفع المجاهد - عندها - بروحه الى المعركة حرصا منه على احراز مابشره الله به من الرحمة والرضى، ودخول الجنات ، والفوز بالنعيم المقيم. وجاءت هذه الامور الثلاثة بصيغة النكرة لفائدة بينها الشوكانى بقوله:(والتنكير فى الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم والمعنى انها فوق وصف الواصفين ، وتصور المتصورين)[١].

ووصف الله سبحانه هذا النعيم الذى بشروا به بالديمومة والإستمرار (وجنات لهم فيها نعيم مقيم) زيادة فى اغرائهم، ولادخال مزيد من الغبطة والسرور الى نفوسهم. وعقب للتأكيد على ذلك بقوله:(خالدين فيها ابدا) . والاوصاف (مقيم) و(خالدين) و (ابدا) احدها يكفى لبيان المعنى المشار اليه، ولكن جاءت الثلاثة زيادة فى التأكيد من جهة ، ولابراز معنى اضافى خاص بكل منها .

فالالفاظ الثلاثة يتميز كل واحد منها بلون خاص يساعد فى ابراز وتأكيد المعنى المذكور، فلفظ (مقيم) جاء صفة للنعيم الذى اعده الله جزاء للمجاهدين ، ولفظ (خالدين) وصف لبيان حياة المجاهدين فى تلك الجنات وذلك النعيم ، ولفظ (ابدا) جاء خاصا بالزمن ذاته، ولعل هذا سر من اسرار التكرار القرآنى الذى يأتى ليؤدى معنى يبرز المعنى الاساسى ولكن من زاوية اخرى .

وعقب سبحانه بقوله (ان الله عنده اجر عظيم) تأكيدا لما سبق ذكره من الثواب، وتعليلا كذلك لكونه اعطاهم هذه الاجور العظيمة، أى اعطاهم الله سبحانه هذه الاجور العظيمة لكون الاجر الذى عنده عظيما يهب منه مايشاء ، وهو ذو الفضل العظيم.

---

(١) تفسير فتح القدير للامام الشوكانى (٢ / ٣٤٥) .

المطلب الثانـــــــى :-
==========

فضل الجهاد فى السنـــــة .

السنة النبوية المطهرة حافلة بالاحاديث الصحيحة التى تبين فضل الجهاد ومرتبته ، وثواب المجاهد وجزاءه .ولاعتبارات البحث سأقتصر على بعض هذه الاحاديث ، محاولا القاء الضوء عليها بالدراسة والتحليل لابراز أهمية الجهاد الذى يمثل الطريـــق السليم لتحقيق النصر على الاعداء .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - والنسائى وابن ماجه عن ابى هريرة رضـى الله عنه قال :(١) (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لايخرجه الا جهادا فى سبيلى،وايمانا بى وتصديقا برسلى ، فهو على ضامن ان ادخله الجنة او ارجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا مانال من اجر او غنيمة ، والذى نفس محمد بيده مامن كلم(٢) يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم ، لونه لون دم وريحه مسك ، والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية(٣) تغزو فى سبيل الله ابدا ، ولكن لااجد سعة فاحملهم ولا يجدون سعـــــة ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت انى اغزو فى سبيل اللـه فاقتل ،ثم اغزو فاقتل ،ثم اغزو فاقتل) .

يبشر الرسول عليه الصلاة والسلام المجاهدين بالجنة يدل عليه قوله :

(تضمن الله لمن خرج فى سبيله . . -الى قوله - ان ادخله الجنة) ، وتأكيدا للبشارة عبر بلفظ (تضمن)،وفى روايات اخرى عبر بلفظ(تكفل) و(توكل) وكلها بمعنى تحقيق الوعد من الله سبحانه للمجاهدين بدخول الجنة ، والزم نفسه سبحانه بتنفيذ الوعـــــد

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد ، باب قول النبى : (احلت لكم الغنائم . .) (٢ / ١٩٢)
ط . دار المعرفة - بيروت . ومسلم فى الامارة ، باب فضل الجهاد (٣ / ١٤٩٥)
ط. دار الفكر - بيروت. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) .
والنسائى فى الجهاد ، باب ماتكفل الله عزوجل لمن يجاهد فى سبيله (٦ / ١٧٠١)
دار الفكر- بيروت - الطبعة الاولى (١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م) .
وابن ماجه فى الجهاد ، باب فضل الجهاد (٢ / ٩٢٠) دار الفكر - بيروت
تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى .

(٢) الكلم :الجرح ، انظر منال الطالب فى شرح طوال الغرائب لابن الاثير.تحقيق د / محمود الطناحى (٥١٩ ٥٣٢) طبعة مركز البحث العلمى بجامعة ام القرى / مطبعة المدنى .

(٣) السرية : تطلق على الطائفة من الجيش. انظر منال الطالب لابن الاثير ص ٥٧ .

ـ مع انه لا يلزم فى حقه شىء ـ لتطمين المجاهدين بحصول ما وعدهم به . قال العينى رحمه الله :(وعبر صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه وتعالى بتفضله بالثواب بلفظ الضمان ونحوه بما جرت به العادة بين الناس بما تطمئن به النفوس وتركن اليه القلوب)(١) .

وكرر لفظ الضمان بقوله (فهو على ضامن) لتأكيد الوعد المذكور . وقوله (لا يخرجه الا جهادا فى سبيلى ، وايمانا بى ، وتصديقا برسلى) شرط لحصول المجاهد على ماذكر من الثواب ودخول الجنات . فالاخلاص شرط قبول الاعمال ومنها الجهاد .

ولترغيب المؤمنين فى الجهاد بين المصطفى عليه الصلاة والسلام ان المجاهد لاتخلو حاله من احد امرين ، كلاهما خير : الشهادة او الرجوع بسلامة (فهو على ضامن ان ادخله الجنة او ارجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا مانال من اجر او غنيمة) . فبالشهادة يدخل المجاهد الجنة حال استشهاده اودخولا اوليا مع السابقين والمقربين بلاحساب ، واذا رجع سالما فانه يرجع باجر وغنيمة ، او بالاجر فقط اذا لم يغنموا فى المعركة .

واختلف العلماء فى معنى قوله عليه السلام (مع اجر اوغنيمة) ، فذهب بعضهم الى أن (أو) على بابها وليست بمعنى الواو ، والمعنى يرجع باجر لمن لم يغنم ، أوغنيمة ولاأجر . وجمهور العلماء على أن (أو) هاهنا بمعنى الواو الجامعة على مذهب الكوفيين . ويؤيد رأى الجمهور وقوعها بالواو فى رواية ابى داود ، وعند مسلم من طريق يحيى بن يحيى ، وعند النسائى من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب عن ابى هريرة ، وعند ابن ماجه من طريق عطية عن ابى سعيد الخدرى ، والتقدير : أو يرجعه بأجر وغنيمة(٢) .

وذهب الى هذا الراى جماعة من العلماء منهم : ابن بطال ، وابن التين ، والقرطبى ، وبه جزم ابن عبد البر ، ورجحه التوربشتى شارح المصابيح ، والكرمانى ، والعينى والنووى(٣) .

وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الحديث بان المجاهد المجروح يأتى يوم القيامة بجرحه وهو ينزف دما برائحة المسك ليكون ذلك وسام شرف له امام الاشهاد ،

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعلامة بدرالدين العينى (١٤ / ٨٤) طبعة دار احياء التراث العربى . بيروت .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (١٣ / ٢١) دار احياء التراث العربى . بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) . وانظر عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى (١٤ / ٨٤) .

ملاحظة : راجعت الحديث فى المراجع المذكورة فلم اجده بهذا اللفظ ، ووجدته عند ابن ماجه باللفظ المذكور فاثبته ، وهو زيادة على ماذكر النووى والعينى .

(٣) انظر عمدة القارى للعينى (١٤ / ٨٤) . وصحيح مسلم بشرح النووى (١٣ / ٢١) .

، وشهادة حال ينطق بها جرحه ايماء بفضله ودرجته المميزة عند الله وفى ذلك اغراء للمؤمنين على جهاد الاعداء .

واقسم الرسول عليه الصلاة وافضل السلام بانه لا يحب ان يتخلف عن سرية تقاتل فى سبيل الله (والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله ابدا . ولكن لا اجد سعة فاحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى) وبين كذلك انه لا يترك الخروج فى بعض السرايا حبا فى القعود ولكن رأفة بامته حيث ان الصحابة حريصون على الخروج للجهاد مع رسول الله ولا يجد الوسيلة التى يحملهم عليها ، كما لا يجدون هم الوسيلة التى يركبونها ، ويكرهون ان يتخلفوا عن رسول الله ، فلا يخرج رحمة بهم .

ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم باظهار رغبته فى الخروج خلف كل سرية لولا المشقة على امته ، بل تمنى - وهو اشرف الخلق - تمنى على ربه ان يغزو فى سبيله فيقتل ، ثم يحييه الله ليغزو ويستشهد كذلك . وكرر ذلك ثلاثا ، وقدمه بالقسم ليرغب المؤمنين فى الجهاد ، وليشير به الى فضل المجاهد وعلو منزلته عند الله .

واخبر عليه الصلاة والسلام بأن الجهاد افضل الطاعات واعظم القربات ، وذلك لما فيه من صيانة للامن فى الدين والنفس والمال والعرض والارض . اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - ومالك والنسائى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال[1]: (قيل للنبى عليه الصلاة والسلام مايعدل الجهاد فى سبيل الله عزوجل . قال لا تستطيعونه . قال : فاعادوا عليه مرتين

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد . باب فضل الجهاد والسير (٢ / ١٣٥) .

واخرجه مسلم فى كتاب الامارة / باب فضل الشهادة فى سبيل الله (٣ / ١٤٩٨) .
ومالك فى الموطأ . كتاب الجهاد . باب الترغيب فى الجهاد (٢٩٤) دار النفائس بير وت . الطبعة السابعة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .
والنسائى فى كتاب الجهاد . باب مايعدل الجهاد فى سبيل الله عزوجل (٦ / ١٩) .

١٢٢٢

او ثلاثا كل ذلك يقول : لاتستطيعونه . وقال فى الثالثة : مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله تعالى) .

سأل بعض الصحابة - فى هذا الحديث - رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمل يعدل الجهاد اذا لم يجاهدوا ، وكرروا السؤال مرارا رجاء أن يظفروا بطاعة وقربة الى الله تعالى تعدل الجهاد ، وفى كل مرة يقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام (لاتستطيعونه) ، وكشف لهم سر ذلك حيث ان المجاهد فى سبيل الله لا يساويه طائع مهما اجتهد فى طاعته ، اذ لا يساويه فى عمل الخير الذى هو فيه الا صائم ليله ونهاره لا يفطر ، وقائم ليله ونهاره يصلى ويتلو كتاب الله عن ظهر قلبه لا يفتر ، وذلك غير ممكن لان طبيعة الانسان لاتقوى على هذا الحال لما يعتريها من الوهن والضعف والحاجة الى الطعام والشراب. وقد اراد النبى صلى الله عليه وسلم بهذا المثل ان يبين للسائلين ان الجهاد هو افضل الاعمال وان المجاهد لا يلحقه الا من اتصف بصفته .

واكد الرسول عليه الصلاة والسلام على فضل الجهاد على سائر العبادات مشيرا اليها بذكر الصلاة التى هى عماد الدين وام العبادات.

اخرج الترمذى واحمد والحاكم - واللفظ له - عن ابى هريرة رضى الله عنه (١) (ان رجلا من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مر بشعب فيه عيينه من ماء عذب فاعجبه طيبه وحسنه فقال : لو اعتزلت الناس واقمت فى هذا الشعب . ثم قال : لا افعل حتى استأمر رسول الله ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لاتفعل فان مقام احدكم فى سبيل الله افضل من صلاته فى اهله ستين عاما ، الا تحبون ان يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ، اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فواق (٢) ناقة وجبت له الجنة) .

وفى رواية الترمذى (سبعين عاما) .

---

(١) اخرجه الحاكم فى المستدرك ، وصححه (٢ / ٦٨) مطابع النصر الحديثة. واخرجه الامام احمد فى المسند (٢ / ٤٤٦) المكتب الاسلامى . بيروت ط. الثانية ٩٨هـ-٧٨م والترمذى فى ابواب الجهاد ، باب فى الغدو والرواح (٤ / ١٨١) وحسنه ، ط . دار احياء التراث العربى . وحسن الالبانى اسناده كذلك فى مشكاة المصابيح (٢ / ١١٢٦) ط . المكتب الاسلامي قلت : واسناد الحديث حسن لأجل هشام بن سعد فهو صدوق . انظر تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى (٢ / ٣١٨) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار المعرفة - بيروت ، الطبعة الثانية ٩٥هـ ٧٥م . وتهذيب التهذيب لابن حجر (١١ / ٣٩) دار الفكر العربى . وميزان الاعتدال للذهبى (٤ / ٢٩٨) تحقيق على البجاوى - دار المعرفة - بيروت .

(٢) فواق ناقة : بفتح الفاء وضمها اى قدر الحلبتين من الناقة . انظر النهاية فى غريب الحديث والاثر (٣ / ٤٧٩) للامام مجد الدين ابى السعادات المبارك بن الجزرى

لقد رغب هذا الصحابى فى الاعتزال فى مكان بعيد عن الناس، يقف نفسه للصلاة والعبادة، وليبتعد عن المعاصى وشرور الناس بسبب المخالطة. ولكنه لم ينفذ فكرته حتى يسأل النبى عليه الصلاة والسلام ، وهذه عادة الصحابة رضوان الله عليهم. وجاء الجواب واضحا وصريحا وقويا حيث قال (لاتفعل) وهذا نهى صريح ،ثم ارشده عليه الصلاة والسلام الى الطريق الاصوب، والى افضل الطاعات الا وهو الجهاد حيث قال له (فان مقام احدكم فى سبيل الله . .) وبين له الثواب العظيم الذى يناله المجاهد ،حيث ان الوقفة الواحدة فى سبيل الله- وذلك على تقدير محذوف - افضل من مقامه فى بيته يصلى ستين او سبعين عاما ، فكيف بمن عاش حياته مجاهدا فى سبيل الله . والعدد هنا ليس المراد منه التحديد بل التكثير،(١) وفى هذا من الترغيب بما يحفز المؤمنين للجهاد والثبات فى وجه الاعداء.

وزيادة فى الترغيب دلهم على ان ذلك سبب فى تكفير السيئات ودخولهم الجنات التى يحبونها ويتشوقون اليها (الاتحبون ان يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة) ثم حثهم عليه الصلاة والسلام على الجهاد بقوله (اغزوا فى سبيل الله) وكرر ذكر ثواب المجاهدين بما يدل على كرم الله وعطائه الوافر حيث ان الجهاد لو بمقدار زمن مابين الحلبتين من الناقة يكفل لصاحبه دخول الجنة.

ومضى المصطفى عليه الصلاة والسلام فى حث الصحابة (رضوان الله عليهم) ومن ورائهم الامة الاسلامية على الجهاد والترغيب فيه من خلال ذكر الثواب العظيم الذى اعده الله سبحانه للمجاهدين. ويصور هذا الثواب بصور عديدة اغراء للمؤمنين وتحفيزا لهم حتى ان من يسمع هذا الثواب بقلب واع فانه لايتوانى لحظة عن الجهاد ، وهذا ماكان عليه جيل الصحابة رضوان الله عليهم . وهاهو الرسول عليه الصلاة والسلام يبين فضل الجهاد فى صورة يتضح فيها الاغراء باروع معانيه.

اخرج الشيخان(٢) - واللفظ للبخارى - عن سالم ابى النضر مولى عمر بن عبيد الله- وكان كاتبا له - كتب اليه عبدالله بن ابى اوفى فقرأته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى للامام محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفورى (٥ / ٢٩١) ط. دار الفكر ،الطبعة الثالثة ٩٩هـ ٧٩م.

(٢) اخرجه البخارى فى كتاب الجهاد . باب كان البنى اذالم يقاتل اول النهار . . (٢ / ١٦٤).
واخرجه مسلم فى كتاب الجهاد . باب كراهية تمنى لقاء العدو (٣ / ١٣٦٢).

فى بعض ايامه التى لقى فيها انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام فى الناس قال : ايها الناس لاتتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال : اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب ، وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم .)

اخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن حال المجاهد فى اثناء جهاده للعدو ، اذ تكون الجنة بين يديه ، دانية منه الى حد ان ظل سيفه كشجرة تضرب اغصانها فى الجنة . واعلام الرسول بهذا يمثل اعلانا لكل من أراد الجنة بان الطريق اليها يلزمه ان يحمل سلاحه من سيف او رمح اوبندقية . . فان الجنة حينها تكون قريبة منه ، اويكون هو قريبا منها ، بل ويعيش فى ظلها حالة رفعه سلاحه فى وجه عدوه . هكذا فهم الصحابة دينهم ووعوا خطاب رسولهم واستجابوا لندائه .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى عن ابى بكر بن عبد الله بن قيس عن ابيه (١) قال : (سمعت ابى وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف . فقام رجل رث الهيئة فقال : ياابا موسى آنت سمعت رسول الله (٢) يقول هذا؟ قال : نعم ، قال : فرجع الى اصحابه فقال : اقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فالقاها ، ثم مشى بسيفه الى العدو ، فضرب به حتى قتل) .

لقد سمع هذا الصحابى كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلب واع وصدر منشرح ، فعملت عملها اذ انطلق فور سماعه للحديث الى المعركة رغبة فيما عند الله وزهدا فيما عند الناس، وكسر جفن سيفه لكى يختم بهذا العمل سجل حياته ويفوز بالجنة .

---

(١) اخرجه مسلم فى كتاب الامارة . باب ثبوت الجنة للشهيد (٣ / ١٥١١) .
واخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد . باب ماجاء فى اى الاعمال افضل (٤ / ١٨٥) .

(٢) جفن سيفه : بفتح الجيم واسكان الفاء هو غمده . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ٢٨٠) .

لقد اصبحت الدنيا فى نظر هذا الصحابى لاتساوى شيئا ان لم يجاهد فيهـــــا . وهاهو المصطفى عليه الصلاة والسلام يبين لنا حقيقة الدنيا وقيمة ماتمثله بالنسبـــة الى الآخرة .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى عن انس بن مالك (رضى الله عنه) قول النبى صلى الله عليه وسلم (١) (لغدوة فى سبيل الله او روحة خير من الدنيا ومافيها) .

ان الدنيا لوجمعت بحذافيرها لاتعدل ثواب مشية واحدة فى الجهاد . هـــذا هو الميزان الحقيقى ، ميزان السماء والقيمة الحقيقية للدنيا ، والمنزلة الرفيعة التى يمثلها الجهاد ، فهل بقى فى نفس المؤمن حب الدنيا بعد كل هذا ، وهل لعاقل ان يترك الجهاد بعد كل هذا الثواب ، وهل لأمة ان تتنكب عن طريق الجهاد ، اذاً تكون الخسارة فى الدنيا بالذل والهوان والهزيمة ، وفى الآخرة بالعقاب من الله تعالى .

من خلال هذا الفضل العظيم الذى وعد الله به المجاهدين على جهادهـــم ندرك قيمة الجهاد فى هذا الدين ، وندرك كيف يعد الاسلام المسلمين للنصر وكيـــف يزرع اسباب النصر فى نفوس أبناء الامة الاسلامية .

إن الله سبحانه وتعالى لم يفرض الجهاد الا لمصلحة شرعية دنيوية واخرويـــة ، فليس الجهاد مامورا به فى ذاته وانما شـرع لحكمة وغاية يهدف الى تحقيقها ، تتمثـل فى اعلاء كلمة الله فى الارض . ويلزم من هذا الاقرار بان الجهاد هو الوسيلة التـــى يتحقق بها النصر على الاعداء ، واعلاء كلمة الله . ومن يريد النصر فليس له من سبيل ســـوى الجهـــاد . . . . . .

---

(١) اخرجه البخارى فى كتاب الجهاد : باب الغدوة والروحة فى سبيل الله (٢ / ١٣٦) .
ومسلم فى كتاب الامارة . باب فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله (٣ / ١٤٩٩) .

المطلب الثالث :

فضل الشهادة فى الكتاب والسنة .

ذكر الحق تبارك وتعالى الشهداء فى كتابه العزيز تكريما لهم ، ورفعا من شأنهم لبذلهم ارواحهم رخيصة فى سبيله . يقول سبحانه وتعالى : (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياءعند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المؤمنين) (١) .

قوله تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا) نهى من الله سبحانه وتعالى عن مجرد الحسبان وهو الظن - فضلا عن الاعتقاد - بان الذين يقتلون فى سبيل الله اموات . واضرب عن هذا الظن الخاطىء ، وارشد الى الاعتقاد السليم الذى يقرر الحياة للشهداء بقوله (بل احياء عند ربهم يرزقون) . واضاف العندية هنا الى ضميرهم تكريما لهم وتشريفا ، نقل الشوكانى عن سيبويه قوله فى نوع العندية فى الآية (هذه عندية الكرامة لاعندية القرب .) (٢) .

واشار الحق تبارك وتعالى هنا الى نفسه بصفة الربوبية التى تدل على تربيته لهم ورعايته وتكفله بكل مافيه انعامهم .

ولدفع ماقد يتوهمه البعض باعتبار الظاهر - سواء فى كون الشهداء احياء ، أوفى نوع حياتهم - فان الله سبحانه اثبت لهم الحياة ، وفصل بما يدل على انها حياة حقيقية ، اذ صرح بانهم يرزقون وذلك من نعيم الجنة ، وبانهم يفرحون ويستبشرون كذلك ، وهذه كلها مظاهر تدل على حياتهم الحقيقية وليس هذا فحسب بل ويهتمون بشأن اخوانهم الآخرين الذين لم يلحقوا بهم فيطمئنونهم بان لا خوف عليهم فى الدنيا من القتل فانه عين الحياة التى يجب ان يرغب فيها ، فضلا عن ان تخاف او تحذر ، ويستبشرون بكل ذلك ، ويستبشرون كذلك بنعمة الله وفضله . ونكر النعمة والفضل حتى تذهب النفس فيهما كل مذهب ، مما يزيد المؤمنين رغبة فيهما ، وتلهفا للحصول عليهما . ولاشك ان هذه الاوصاف تعد من مظاهر الحياة الكريمة التى من الله بها على الشهداء ، وفى هذا كله تقدير لهم واى تقدير ... ، وترغيب للذين لم يلحقوا بهم للسير فى طريقهم واى ترغيب . . .

---

(١) سورة آل عمران (١٦٩ - ١٧١) .

(٢) تفسير فتح القدير للامام الشوكانى (١ / ٣٩٩) .

هذا وقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام حقيقة الحياة التى صرحت بها الآيات السابقة ، وذلك فيما اخرجه الامام مسلم عن مسروق رضى الله عنه قال :(١) (سألنا عبدالله * عن هذه الآية (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون) قال : اما انّا قد سألنا عن ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ارواحهم فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل ، فاطلع اليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا؟ قالوا: اى شئ نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا انهم لن يتركوا من ان يسألوا قالوا: يارب نريد ان ترد ارواحنا فى اجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة اخرى ، فلما رأى ان ليس لهم حاجة تركوا) .

وفى سبب نزول الآية اخرج ابوداود - واللفظ له - واحمد والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنه قال :(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لما اصيب اخوانكم باحد جعل الله ارواحهم فى جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ اخواننا انا احياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا(٣) عن الحرب ، فقال الله سبحانه انا ابلغهم عنكم قال فانزل الله عزوجل (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا - الى آخر الآية -) .

---

١) اخرجه مسلم فى كتاب الامارة . باب ان ارواح الشهداء فى الجنة (٣ / ١٥٠٢) واللفظ له . وابن ماجه فى كتاب الجهاد . باب فضل الشهادة فى سبيل الله (٢ / ٩٣٦) .

(*) عبدالله بن مسعود . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٣ / ٣١) .

(٢) اخرجه الحاكم فى المستدرك ، وصححه (٢ / ٨٨) . واحمد فى المسند (١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦) ، وصححه الاستاذ احمد شاكر . انظر المسند بتحقيقه (٤ / ١٢٣ ، ١٢٤) ط . دار المعرفة بمصر ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م . واخرجه ابوداود فى الجهاد باب فى فضل الشهادة (٣ / ١٥) ط . دار احياء التراث العربى ، بيروت . واخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣ / ٣٠٤) تحقيق د / عبدالمعطى قلعجى ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت . الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م . قلت : الحديث حسن لأجل محمد بن اسحاق فانه صدوق . ولا يضر تدليسه مادام قد صرح بالسماع فى رواية الامام احمد .

(٣) لا ينكلوا : بضم الكاف اى لا يجبنوا . انظر النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير ٥ / ١١٧ .

واخرج الترمذى - واللفظ له - وابن ماجه فى سبب نزول الآية كذلك عن جابربن عبدالله قول النبى صلى الله عليه وسلم له (١) الا اخبرك ماقال الله لابيك ؟ قال : بلى . قال : ماكلم الله احدا الا من وراء حجاب، وكلم اباك كفاحا ، فقال ياعبدالله تمنّ علي اعطك قال : يارب احينى فاقتل فيك ثانية . قال : انه سبق منى انهم اليها لايرجعون ، قال : يارب فابلغ من ورائى ، فانزل الله تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون) .

مما سبق تبين لنا فضل الشهداء ، وحياة النعيم التى من الله بها عليهم من طيب مأكل ومشرب ومقيل ، وهاهى ارواحهم فى جوف طيور خضر تحلق فى ارجاء الجنة ، وهاهم يتمنون على الله ان يحييهم مرة اخرى ليستشهدوا فى سبيله ثانية وذلك لعظيم مارأوا من ثواب الشهادة .

وتأكيدا على حياة الشهداء ، وانها حياة حقيقية فى الجنة ، نهى الله سبحانه عباده المؤمنين ان يصفوا من يقتلون فى سبيل الله بانهم اموات ، ولم يكتف الحق سبحانه بذلك بل اكد حياتهم الحقيقية فى الجنة وان لم نشعر بها .

يقول سبحانه وتعالى (ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء ولكن لاتشعرون (٢)) لقد خص الله عزوجل الشهداء بوصفهم " احياء" تكريما لهم وتشريفا ، والحكمة فى ذلك ان من يذهب الى المعركة يظن بانه اذا قتل مات وانتهت حياته ، ومن رآه من المسلمين وقد انتقل من بين ظهرانيهم ظن به مثل ذلك باعتبار ظاهر مارأى، فاقتضى الامر تسفيه هذا الظن وتقرير الحياة للشهداء على الحقيقة جزاء لهم من جنس عملهم ، وتخليدا لهم على فعلهم ، وترغيبا لغيرهم من المسلمين فى السير على اثرهم كى يعيشوا الحياة الحقيقية الخالدة .

---

(١) اخرجه الترمذى فى كتاب التفسير . سورة آل عمران (٥ / ٢٣٠) . وحسنه . واخرجه ابن ماجه باسناد حسن كذلك فى الجهاد . باب فضل الشهادة (٢ / ٩٣٦) . قال المنذرى : رواه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه باسناد حسن . انظر الترغيب والترهيب للمنذرى (٣ / ١٣٨) . طبعة دار الفكر .

(٢) سورة البقرة آية (١٥٤) .

وصدر الخطاب فى الآية بالنهى (ولا تقولوا) مبالغة فى تأكيد حياة الشهداء ونفيا مؤكدا لدعوى موتهم. ونهى الله سبحانه عن مجرد القول بموتهم فضلا عن الاعتقاد به. واكد على حياتهم الحقيقية بقوله (بل احياء) مصدرا هذه الجملة بـ(بل) الاضرابية الدالة على خطأ ماقبلها وصواب مابعدها.

ولان الناس يحكمون على من يقتل فى المعركة بالموت باعتبار العادة المحسوسة والظاهر الملموس، لذا فقد ختمت الآية بقوله (ولكن لاتشعرون) اشارة الى أن حياة الشهداء لاتدرك بالحواس، بل ولا بالمشاعر، وان كانت حقيقة ثابتة فى نفس الوقت. واتفق جمهور العلماء[١] على ان الشهداء احياء فى الحقيقة، اذ تكون ارواحهم فى اجواف طيور/ خضر/ يأكلون ويتنعمون فى الجنة قال بعضهم: ترد اليهم ارواحهم فى قبورهم فينعمون كما يحى الكفار فى القبور فيعذبون، وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة وليس فيها.

والصحيح ان ارواحهم فى جوف طير خضر يتنعمون فى الجنة كما جاء فى حديث مسروق الذى تقدم ذكره.

لقد كرم الله الشهداء بان منع الارض ان تأكل اجسادهم، وميز ارواحهم عن سائر ارواح المؤمنين بدخولها الجنة واستقرارها فيها تسرح حيث شاءت وتأكل من رزق الله ماشاءت قبل ان تقوم الساعة. وللكرم العظيم الذى منا الله به على الشهداء، ولسمو المنزلة التى خصهم الله بها فانهم يتمنون من دون سائر المؤمنين ان يحييهم الله مرات ومرات ليجاهدوا فى سبيله ويفوزوا بالشهادة فى كل مرة.

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن انس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال:[٢] مامن احد يدخل الجنة يحب ان يرجع الى الدنيا وان له ماعلى الارض من شىء غير الشهيد فانه يتمنى ان يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة).

الشهداء يتمنون كما اخبر الرسول عليه الصلاة والسلام، والتمنى من ارقى درجات الرغبة والحب، يتمنون بان يقتلوا فى سبيل الله مرات وهم قد حازوا الشهادة من قبل وذلك لما رأوا من كرم الله وعطائه. فمابالنا ونحن لم نصل درجتهم بعد، ولم نفز بالشهادة مثلهم، يجب ان نكون اشد حرصا واكثر رغبة لاننا فى حاجة الى كرم الله وفضله وهم قد حازوه.

ولكى يطمئن المجاهدون وتستقر نفوسهم على طريق الشهادة، ولكى يتقدم المحجمون فينسون الخوف الذى يحول بينهم وبين الجهاد، فان الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر جملة

---

(١) انظر الجامع لاحكام القران /لابى عبدالله محمد بن احمد القرطبى (٤ / ٢٦٩) الطبعة الثالثة/دار الكتب المصرية. وانظر فتح القدير للشوكانى (١ / ١٥٩ ، ٣٩٩).

(٢) اخرجه البخارى فى الجهاد /باب الحوار العين (٢ / ١٣٦). ومسلم فى الامارة باب فضل الشهادة (٣ / ١٤٩٨).

من الخصال تصف بعضا من الكرامة التى من الله بها على الشهداء ترغيبا لهم وتحفيزا .

اخرج الامام احمد وابن ماجة والترمذى- واللفظ له -عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :([1] للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى اول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الاكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة فيها خير من الدنيا ومافيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من اقاربه).

ان هذا الثواب العظيم ليدل على رب كريم يهب الثواب بسخاء لا يقدره احد ، ولا يلم به احد ، بل لا يستطيع ان يصفه احد الا بالفاظ مقاربة تقرب المعنى وان كانت لا تمثل الحقيقة ، فليس فى الجنة مما فى الدنيا الا الاسماء ، ومن رحمة الله ان جاءت هذه الاسماء لتقرب الينا المعنى فقط والا فصف لى بربك تاج الوقار الذى جعل للشهيد الياقوتة الواحدة فيه خير من الدنيا ومافيها ، ولا شك ان عقولنا قاصرة عن ذلك لان مافى الجنة اكبر من كل ذلك .

وثواب مثل هذا يستحق منا أن نبذل انفسنا واموالنا وارواحنا - حتى وان كان لكل منا الف روح - نبذلها رخيصة فى سبيل الله لنستحق ثواب الله ونحوز رضاه .

-(١) اخرجه الترمذى فى كتاب فضائل الجهاد . باب ماجاء فى ثواب الشهيد . وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب (٤ / ١٨٧) . واخرجه ابن ماجه فى الجهاد ، باب فضل الشهادة (٢ / ٩٣٥) ، واسناده حسن لان فيه هشام بن عمار وهو صدوق ، واسماعيل بن عياش وهو صدوق فى روايته عن اهل بلده ، مخلط فى غيرهم وقد روى عن بحير بن سعيد وهو ثقة شامى من بلد اسماعيل . انظر تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى (٢ / ٣٢٠ ، ٧٣/١ ، ١ / ٩٣) .
واخرجه الامام احمد فى المسند (٤ / ١٣١) واسناده حسن لان فيه اسماعيل بن عياش يروى عن بحير كذلك ، وبقية رجاله ثقات . قلت ، الحديث حسن لذاته ، صحيح لغيره . ولعل هذا مراد الترمذى بقوله (هذا حديث حسن صحيح) ولعل هذا مراد الالبانى بتصحيحه فى مشكاة المصابيح (٢ / ١١٢٧) والا فالحديث حسن لذاته عند كل منهم .

ولننظر الى الدرجة السامية الرفيعة التى خص الله بها الشهداء ، والتى لا يدنو منها الا من بلغ درجة النبوة . اخرج الدارمي - واللفظ له - والامام احمد والبيهقي عن عتبة بن عبد الله السلمي قال : (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (القتلى ثلاثة : مؤمن جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ، اذا لقى العدو قاتل حتى قتل ، قال النبى فيه : فذلك الشهيد الممتحن (٢) فى خيمة الله تحت عرشه ، لا يفضله النبيون الا بدرجة النبوة . ومؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ، اذا لقى العدو قاتل حتى يقتل ، قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه مصمصة (٣) محت ذنوبه وخطاياه ، ان السيف محاء للخطايا ، وادخل من اى ابواب الجنة شاء . ومنافق جاهد بنفسه وماله فاذا لقى العدو قاتل حتى يقتل فذاك فى النار ، ان السيف لا يمحو النفاق .) .

بهذا الثواب العظيم يرغبنا الرسول عليه الصلاة والسلام فى الجهاد ، ويحبب الينا الشهادة ، لكى ننصر دين الله ، ونعلى شريعته ، ونرفع لواءه ، وندافع عن بلاد المسلمين واعراضهم واموالهم ، ولكى نتبوأ مكاننا فى صدارة الامم ، ولكى نقوم بواجبنا الريادى فى قيادة البشرية الى الايمان والهداية والسعادة .

وبهذه التعبئة يعد الاسلام ابناءه للواجب المقدس ، ويجعل منهم جيلا للجهاد والنصر ، وانها لتعبئة جديرة بأن تحقق العزة والقوة والنصر .

---

(١) اخرجه الدارمى فى الجهاد / باب فى صفة القتل فى سبيل الله (٢ / ١٢٦) الناشر / حديث اكادمى . باكستان ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م . تحقيق عبد الله هاشم قلت : اسناده صحيح . وصححه الالبانى فى مشكاة المصابيح (٢ / ١١٣٣) واخرجه الامام احمد فى المسند (٤ / ١٨٥) وحسن المنذرى اسناده فى الترغيب والترهيب (٣ / ١٤١) . واخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى السير ، باب فضل الشهادة (٩ / ١٦٤) ط . دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد . الهند . الطبعة الاولى .

(٢) الممتحن : هو المصفى المهذب . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ٣٠٤) .

(٣) فيه مصمصة : اى مطهرة من دنس الخطايا ، يقال مصمص اناءه اذا جعل فيه الماء ، وحركه ليتنظف . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ٣٣٧) .

المبحث الثاني

حكم الجهاد

المطلب الأول : حكم الجهاد في الأصل .

حكم الجهاد في الأصل فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين . يدل على هذا قوله تعالى : (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعدالله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما)(١) . ووجه الدلالة في الآية : أن الله سبحانه وتعالى وعد المجاهد والقاعد من غير ضرر بالحسنى ، ولكنّه رفع من درجة المجاهد ولم يذكر القاعد بالإثم ، فلو كان الجهاد فرض عين لذكر القاعد بالإثم لقعوده عنه ، ولما وعده بالحسنى(٢) .

ويدل على ذلك ايضا قوله تعالى :(وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)(٣) .

في هذه الآية الكريمة أمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن لاينفروا جميعا إلى القتال ، بل طائفة منهم تخرج للقتال ، وأخرى تتفقه في علوم الدين . وهذا يدل على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ولوكان فرض عين لأمر الجميع بالخروج له ، ولما أجاز لغير المعذور أن يتخلف عنه .

كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يبعث السرايا والبعوث للقتال ،

---

(١) النساء (٩٥) .

(٢) احكام القرآن لابى بكر احمد بن على الجصاص(٣ / ١١٦) دار الكتاب العربى/ بيروت . وتفسير القرآن العظيم لابى الفداء اسماعيل بن كثير (١ / ٥٤١) وشرح النووى على صحيح مسلم(١٣ / ٤٣) .

(٣) التوبة (١٢٢) .

ويبقى - أحيانا - هو وكثير من صحابته فى المدينة، ولوكان فرض عين للزم كل مسلم بعينه الخروج للقتال، ولما تخلف منهم أحد .

وأجمع العلماء على أن الجهاد فرض كفاية . نقل القرطبى عن ابن عطية قوله فى ذلك : (والذى استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد صلى الله عليه وسلم فرض كفاية ، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين ، إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين)(١) .

وقال ابن رشد : (فالجهاد الآن فرض على الكفاية يحمله من قام به بإجماع أهل العلم فإذا هو جر العدو وحميت أطراف المسلمين ، وسُدّت ثغورهم سقط فرض الجهاد عن سائر المسلمين ، وكان لهم نافلة وقربة مرغباً فيها إلا أن تكون ضرورة مثل أن ينزل العدو ببلد من بلاد المسلمين ، فيجب على الجميع إغاثتهم وطاعة الإمام فى النفير إليهم.)(٢) .

والجهاد فى هذه الحالة يكون لحماية نشر الدعوة الاسلامية ، ولكن يصبح الجهاد فرض عين فى احوال أخرى .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن لإبى عبدالله محمد بن أحمد القرطبى (٣ / ٣٨) .

(٢) كتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية (١ / ٢٦٣) والمعروف بـ(مقدمات ابن رشد) - مؤلفه محمد بن أحمد بن رشد مطبعة دار السعادة. مصر - دار صادر - بيروت .

المطلب الثانى :
==========

الحالات التى يصير الجهاد فيها فرض عيـــــــن .

يصبح الجهاد فرض عين فى حالات هـــى :-

الأولى : عند التقاء الجيشين :

يصير الجهاد فرض عين على كل من حضر إذا ما التقى جيش المسلمين بجيش الكفار ، ولا يجوز لهم الإنصراف من أرض المعركة .

يدل على هذا قوله سبحانه وتعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)(١) .

نهى الله سبحانه عن التولى يوم الزحف ووصفه بمايشين تقبيحاً لهذا الفعل ، وتوعد فاعله بالغضب والعذاب فى الآخرة ،مما يدل على وجوب الجهاد على من حضر ، وحرمة الفرار من المعركة .

وأمر الله سبحانه المجاهدين بالثبات عند لقاء العدو بقوله :(ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)(٢) . والأمر فى الآيـــة للوجوب حيث لا صارف يصرفه عن ذلك ، ومن ثم فإنه لا يجوز لمن حضر القتال أن ينصـــرف عنه إلا تحرفا لقتال أوتحيزا إلى فئة عندما يجد نفسه سيهلك إذالم يعتصم بفئـــة أخرى . قال الإمام ابن قدامة المقدسى :(إذا التقى الزحفان وتقابل الصفّان حرم على من حضر الإنصراف وتعيّن عليه المقام)(٣) .

الثانية : إذا عيّن الإمام مسلماً أوفئةً بعينها :-

ويجب الجهاد وجوباً عينياً على من استنفره الإمام للجهاد لقوله تعالى:(ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحيـــاة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابـــاً أليماً ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير)(٤) .

---

(١) الانفال (١٥ ، ١٦) .
(٢) الانفال (٤٥) .
(٣) المغنى بالشرح الكبير للإمام موفق الدين بن قدامة المقدسى (١٠ / ٣٦٥) دار الكتاب العربى - بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
(٤) التوبة (٣٨ ، ٣٩) .

قال القرطبى عند هذه الآية:(وقد قيل : إنَّ المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم ،-وأضاف القرطبى معلقاً على هذا بقوله - وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء ، فعلى هذا لايتجه الحمل على وقت ظهور المشركين ، فإنَّ وجوب ذلك لا يختص بالإستدعاء لأنه متعيّن . وإذا ثبت ذلك فالإستدعاء والإستنفار يبعد أن يكون موجباً شيئاً لم يجب من قبل ، إلا أنّ الإمام إذا عيّن قوماً وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عن التعيين ، ويصير بتعيينه فرضاً على من عيّنه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام.)(١)

وطاعة الامام - فى المعروف - واجبة على الرعية لقوله تعالى:(ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم. . .)(٢) والجهاد من أفضل المعروف ، ومن أعظم مصالح الامة ، فالطاعة فيه تجب من باب أولى .

ويدل على وجوب خروج من استنفره الامام إلى القتال ماأخرجه الشيخان - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس قال :(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح (فتح مكة) : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة ، وإذا استنفرتم فانفروا . . الحديث)(٣) .

والشاهد فى الحديث قوله:(وإذا استنفرتم فانفروا) وهذا أمر صريح للمسلمين بطاعة الامام إذا طلب منهم أو من بعضهم الخروج للجهاد . قال النووى فى شرحه : (معناه إذا دعاكم السلطان إلى غزو فاذهبوا)(٤) .

وقال الامام محمد بن عبدالله بن على الخرشي مقرراً وجوب الجهاد على من عيّنه الامام : (إنَّ الامام اذا عيّن طائفة تخرج لقتال العدو فإنه يتعين عليها ذلك ، ولا يسعها أن تخالف سواء كانت هذه الطائفة التى عيّنها الامام ممن تلى العدو أم لا ، كانت ممن تخاطب بفرض الجهاد أم لا كالعبد ونحوه كان هناك مانع من منع أحد الأبوين أو ربّ الدّين أم لا)(٥) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى -(٨ / ١٤٢)

(٢) النساء (٥٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الحج ، باب لا ينفّر صيد الحرم (١ / ٣١٥) .
ومسلم فى كتاب الحج / باب تحريم مكة ، وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها (٢ / ٩٨٦) .

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (٩ / ١٢٣) . وانظر شرح العينى على صحيح البخارى (١٠ / ١٩١) .

(٥) الخرشى على مختصر سيدى خليل مع حاشية الشيخ على بن أحمد الصعيدى العدوى (٣ / ١١١) طبعة دار الفكر - بيروت.

الثالثة : إذا اعتدى العدو على بلد مسلم أو أسر مسلما .

يصير الجهاد كذلك فرض عين إذا مادهم العدو بلداً من بلاد المسلمين لقوله تعالى:(انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)(١) . أمر الله سبحانه المسلمين بالخروج للجهاد شيباً وشباناً، أغنياء وفقراء ، رجالاً وركباناً . . ، وهذا التشديد فى الأمر بالجهاد أولى ماينطبق على حالة ماإذا غُزى بلد للمسلمين ،إذ يلزم خروج النساء والرجال،والشباب والشيوخ ، والعبيد والاحرار، الاغنياء والفقراء حتى يتمكنوا من دفع العدو، ويكونون مخاطبين بهذه الآية فى هذه الحالة بصفة خاصة من باب أولى .

قال القرطبي عن هذه الآية : (وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل ، وذلك إذا تعيّن الجهاد بغلبة العدو على قطر من الاقطار، أو بحلوله بالعُقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شبّاناً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتل أو مكثر)(٢) .

وإذا كان بعض العلماء قال بأن الآية منسوخة بقوله تعالى فى أهل الاعذار:(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج . . الآيات)(٣) إلا أننى أميل إلى ماقرره ابن العربى من عدم نسخها اذ قال:(والصحيح أنها غير منسوخة وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل إذا تعيّن الجهاد على الأعيان بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج إليه ، فان قصّروا عصوا)(٤) .

---

(١) التوبة (٤١) .
(٢) أحكام القرآن ـ القرطبى ـ (٨ / ١٥١) بتصرف يسير جدا .
(٣) التوبة (٩١ ، ٩٢) .
(٤) أحكام القرآن ـ ابوبكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربى ـ (٢ / ٩٥٤ ، ٩٥٥) تحقيق على محمد البجاوى ـ طبعة البابى الحلبى ، وانظر موافقة القرطبى له فى ذلك فى الجامع لأحكام القرآن (٨ / ١٥٠ ، ١٥١) .

واتفق الفقهاء على وجوب الجهاد وجوباً عينياً فى هذه الحالة : قال النووى فى روضة الطالبين،(الضرب الثانى : الجهاد الذى هو فرض عين ، فإذا وطىء الكفار بلدة للمسلمين أو أطلّوا عليها ونزلوا بها قاصدين ، ولم يدخلوا ، صار الجهاد فرض عين)[١] .

وقال الكمال بن الهمام فى شرح فتح القدير:(إذا لم يكن النفير عاما فإن كان) بأن هجموا على بلدة من بلاد المسلمين (فيصير من فروض الاعيان) سواء كان المستنفر عدلاً أو فاسقاً فيجب على جميع أهل تلك البلدة النفر ، وكذا من يقرب منهم إنْ لم يكن بأهلها كفاية ، وكذا من يقرب ممن يقرب إن لم يكن بمن يقرب كفاية أو تكاسلوا أو عصوا ، وهكذا إلى أن يجب على جميع أهل الإسلام شرقا وغربا)[٢] .

وقال ابن قدامة:(. . ومعناه أن النفير يعمّ جميع الناس، فمن كان من أهل القتال حين الحاجة إلى نفيرهم لمجىء العدو إليهم، ولا يجوز لأحد التخلف إلا من يحتاج إلى تخلفه لحفظ المكان والأهل والمال ومن يمنعه الأمير من الخروج ،أو من لا قدرة له على الخروج أو القتال)[٣] .

وذهب العلماء إلى أن الجهاد يكون فرض عين على جميع المسلمين إذا أسر العدو أحداً منهم . قال القاضى ابوبكر بن العربى:(إذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة ،أو استيلائه على الأسارى كان النفير عاماً ، ووجب الخروج خفافاً وثقالاً ، وركباناً ورجالاً ،عبيداً وأحراراً ، من كان له أب من غير إذنه ومن لا أب له ، حتى يظهر دين الله ، وتحمى البيضة ، وتحفظ الحوزة ، ويخزى العدو ، ويستنقذ الأسرى . ولا خلاف فى هذا)[٤] .

ونقل صاحب المنهاج الخلاف عند الشافعية فى وجوب الجهاد على التعيين لفك الأسير المسلم من العدو ، وصحح الرأى القائل بأنه على التعيين فقال:(ولو أسروا مسلما فالأصح وجوب النهوض إليهم)[٥] ،وهذا ماصححه النووى[٦] ، وذهب اليه الحنفية[٧] .

---

(١) روضة الطالبين للامام النووى (١٠ / ٢١٤) طبعة المكتب الاسلامى .
(٢) شرح فتح القدير - الكمال بن الهمام (٥ / ١٩١) دار احياء التراث العربى .
(٣) المغنى بالشرح الكبير لابن قدامة المقدسى (١٠ / ٣٨٩) .
(٤) أحكام القرآن/ابن العربى (٢ / ٩٥٥) .
(٥) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ،تأليف شمس الدين الرملى (٨ / ٥٩) ط. البابى الحلبى - الاخيرة / ٨٦هـ ٦٧م
(٦) انظر روضة الطالبين للنووى . (١٠ / ٢١٦) .
(٧) انظر شرح فتح القدير لابن الهمام (٥ / ١٩١) .

هذا وانّ العالم اليوم يعجّ بالصراعات والحروب الطاحنة، القوى فيها يأكل الضعيف، ويمتص موارده وخاماته، ممادعا إلى وجود تحالفات وتكتلات دولية لتتمكن من صد العدوان ، إذ لم يعد لدولة القدرة على أن تقف بمفردها في وجه تلك التحالفات والقوى .

والإسلام عظيم في تشريعاته كماهو عظيم في عقائده وعباداته ،إذ ربط بين قلوب المؤمنين برباط العقيدة وآصرة الأخوة والمحبة ، وجعلهم أمة واحدة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وألسنتهم.يقول سبحانه:(انّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)(١) ، وقال سبحانه:(انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)(٢) .

وحرّم الله سبحانه التفرق والتنازع حيث قال : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)(٣) .

وقال سبحانه وتعالى :(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)(٤) . من هذا يتبيّن أن الاسلام جعل المسلمين أمة واحدة ، تربطهم عقيدة واحدة، يلزمهم بها أن يقف المسلم بجانب أخيه المسلم في خندق واحد لدفع كيد المعتدين ، وحماية بلاد المسلمين،ونصرة هذا الدين .

وتشريع الاسلام للجهاد ، وفرضه على المسلمين ، يدل بصراحة على أن فيه النصر والغلبة،والقوة والعزة والمنعة ، ومارغّب الاسلام في الجهاد هذا الترغيب ، ولا فصّل في أحكامه وشدّد عليه هذا التفصيل والتشديد الاّ لما فيه من أسباب نصر المسلمين ، وأسباب نجاتهم من الذل والهزيمة امام المعتدين . . . .

---

(١) الأنبياء (٩٢) .
(٢) الحجرات (١٠) .
(٣) الانفال (٤٦) .
(٤) آل عمران (١٠٥) .

المطلب الثالث :

المعذورون من الجهاد

لا يجب الجهاد فى حق أصناف من الناس لأعذار تحول بينهم وبين تأدية واجب الجهاد .

يقول سبحانه وتعالى:(ليس على الضعفاء ولا على المرضى وعلى الذين لا يجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم* ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ماينفقون)(١) . بين الله عزوجل أن الجهاد ساقط فى حق الضعيف كالرجل الهرم أو الطفل الصغير أو الأعمى ، والأعرج ، أو من كان به مرض يمنعه من الجهاد ، أو من عجز عن توفير عدة الجهاد من النفقة والمركب.

ومما يدل على استثناء أهل الأعذار من الجهاد قول الله تعالى:(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما)(٢) . أخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن أبى اسحاق أنه سمع البراء(٣) يقول فى هذه الآية (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) فأمر رسول الله زيداً فجاء بكتف يكتبها فشكا إليه ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) .

ويدل كذلك على استثناء أهل الأعذار من الجهاد ماأخرجه الامام مسلم-واللفظ له- وابن ماجة ، عن جابر قال : (كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزاة فقال:إن بالمدينة لرجالاً(٤) ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم،حبسهم المرض) .

---

(١) التوبة (٩١ ، ٩٢) .
(٢) النساء (٩٥) .
(٣) أخرجه البخارى فى الجهاد /باب قول الله تعالى:(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر..) (٢ / ١٤٢) . وأخرجه مسلم فى كتاب الامارة باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين (٣ / ١٥٠٨) .
(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الامارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض(٣ / ١٥١٨) . وأخرجه ابن ماجة فى كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الجهاد (٢ / ٩٢٣) .

ويسقط الجهاد كذلك عن العبد . يقول ابن رشد : (والدليل على صحة اشتراط الحرية فى ذلك ، هو أن الجهاد من الفرائض المتوجهة الى الأبدان المتعينة فى الأموال فإذا سقط فرض الجهاد عمن لا مال له لقوله عزوجل:(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج . .) فهو ساقط عن العبد إذ لا مال له يقدر على إنفاقه . . . ، ومنافعه أيضاً مستحقة لسيده)[1] .

---

(١) المقدمات لابن رشد (٢ / ٢٦٨) .

وتُعَدَّ المرأةُ من أهل الأعذار الذين لا يجب عليهم الجهاد ، يدل على هذا ما أخرجه البخارى - واللفظ له - وأحمد عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : (استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فقال : جهادكن الحج)[1] .

نقل ابن حجر عن ابن بطال قوله فى هذا الحديث : (دلّ حديث عائشة على أن الجهاد غير واجب على النساء ، ولكن ليس فى قوله (جهادكن الحج) انه ليس لهن أن يتطوعن بالجهاد ، وانما لم يكن عليهن واجباً لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر ومجانبة الرجال ، فلذلك كان الحج أفضل لهن من الجهاد)[2] .

وماذكره ابن بطال من أن الجهاد جائز للنساء وليس بواجب ، لا يعنى جواز القتال لهن ، وانما يعنى جواز خروجهن مع المجاهدين لاعانتهم فى بعض شئون الغزو كما سأبينه قريباً ، فجهادهن الجائز مخصوص بأعمال تناسب طبيعتهن ، وليس القتال لغير ضرورة .

لذلك فقد استدرك ابن المنيّر على البخارى (رحمهما الله) تبويبه لحديث أنس - وسيأتى ذكره قريبا - الذى أخبر فيه أن عائشة وأم سليم كانتا تنقلان قرب الماء وتسقيان القوم فى إحدى الغزوات - استدرك عليه تبويبه له بقوله : (باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال) . قال ابن المنيّر : (بوب على قتالهن وليس هو فى الحديث) ، وحمل تبويب البخارى بقوله (فإما أن يريد (إعانتهن للغزاة غزو) واما أن يريد أنهن ماثبتن لسقى الجرحى ونحو ذلك إلا وهنّ بصدد أن يدافعن عن أنفسهن وهو الغالب)[3] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد / باب جهاد النساء (٢ / ١٤٩) وأحمد فى المسند (٦ / ٦٧ ، ١٢٠ ، ١٦٦) .

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى للامام أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٦ / ٧٦) - ترتيب محمد فؤاد عبد الباقى - نشر وتوزيع دار الافتاء بالسعودية .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٧٨) .

ووافقه ابن حجر فى استدراكه ، وأنكر ثبوت مايدل على التصريح لهن بالقتال حيث قال:(ولم أر فى شىء من ذلك التصريح بأنهن قاتلن) ، وحمل تبويب البخارى فقال : (ويحتمل أن يكون غرض البخارى بالترجمة أن يبين أنهن لا يقاتلن وإن خرجن فى الغزو، فالتقدير بقوله (وقتالهن مع الرجال) أى هل هو سائغ ؟ ،أو إذا خرجن مع الرجال فى الغزو يقتصرن على ماذكر فى حديث أنس من السقيا ونحو ذلك)[١] .

ومما يدل على أنّ القتال غير مفروض على النساء ، وغير جائز فى حقهن الا لضرورة ماأخرجه الامام أحمد وابن ماجة- واللفظ له - عن عائشة رضى الله عنها قالت:[٢] (قلت يارسول الله ،على النساء جهاد ؟ قال : نعم . عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة) .

قوله (لا قتال فيه) صريح فى نفى وجوب القتال على النساء ،اذ مع اثباته لجهاد النساء نفى عنه صفة القتال ، وهو مايعنى أن القتال ليس واجبا على النساء ، فقيّد بهذا الوصف نوع الجهاد الواجب فى حقهن ثم صرّح بأنه الحج والعمرة.

ويشهد لهذا ماأخرجه الطبرانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه حيث قال:[٣] (قالت أم سلمة : يارسول الله أخرج معك إلى الغزو ؟ فقال:ياأم سلمة إنه لم يكتب على النساء جهاد . فقالت: أداوى الجرحى ، و أعالج العين ، وأسقى الماء . قال : فنعم إذاً .) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى (٦/ ٧٨) .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى المسند (٦/ ١٦٥) . وابن ماجة فى المناسك/باب الحج جهاد النساء (٢/ ٩٦٨) . واسناد الحديث حسن لأجل (محمد بن فضيل) فهو صدوق . انظر التقريب لابن حجر (٢/ ٢٠٠) .
(٣) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (١/ ١١٧) طبعة دار الفكر - الطبعة الثانية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ٣٢٤) : رواه الطبرانى عن شيخه جعفر بن سليمان بن حاجب الانطاكى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات. قلت: بحثت عن شيخ الطبرانى فلم أجد له ترجمة ولم أجد فيه قولاً للعلماء ، لذا فانه مجهول ، والحديث ضعيف.

قوله (لم يكتب على النساء جهاد) معناه لم يفرض عليهن قتال ، وهو بهذا يجيب على طلبها بالخروج الى الغزو ، أى أن القتال غير مفروض على النساء فلا تخرج معهم لهذا الغرض. ولكن بعد أن بينت أم سلمة أن الغاية من خروجها هى مداواة الجرحى . . وليس القتال أجابها بقوله:(فنعم اذاً) .

جواب الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أجاب به أم سلمة أولا يفيد عدم جواز خروج النساء للقتال وأنه غير مفروض عليهن . وجوابه الثانى لها يبين جواز خروجهن مع المجاهدين من أجل القيام على خدمتهم. والحديث وان كان ضعيف الاسناد إلا انه لا يتعارض فى معناه مع الاحاديث الصحيحة بل يتفق معها .

كما أن الاسلام أمر المرأة بالستر والقرار فى البيوت ، والقتال نقيض ذلك ولا يمكن أن يوجب الاسلام الشىء ونقيضه .

قال ابن رشد : (والدليل على صحة اشتراط الذكورة فى ذلك أن الجهاد لا يتأتى للمرأة إلا بضد ماأمرت به من الستر والقرار فى بيتها. قال تعالى:(ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلا بيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما)[1] .)[2] .

ومما يؤيد وجهة نظر ابن رشد فيما ذهب اليه قوله تعالى : (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)[3] .

كما أن النساء عورة فلا يؤمن ظفر العدو بهن فيستحلون ماحرّم الله منهن .

والحكمة فى عدم وجوب الجهاد على النساء جليّة وواضحة، إذ أن الله سبحانه خلق المرأة على صورة تتناسب مع واجبها ووظيفتها فى الحياة الذى يتمركز فى القيام بواجبات البيت والأسرة ، لذا فإن المرأة تكون ضعيفة جسميا ونفسيا ، فلا تستطيع أن ترى مناظر الدماء والجرحى والقتلى ، ولا تملك من قوة القلب مايمكّنها من الوقوف فى وجه العدو ومصاولته بالسلاح ، ولا تقوى كذلك على تحمّل الشدائد التى هى سمة المعارك والحروب.

---

(١) الاحزاب (٥٩) .
(٢) مقدمات ابن رشد (٢ / ٢٦٧ ، ٢٦٨) .
(٣) الاحزاب (٣٣) .

قال الامام علاء الدين الكاسانى فى بدائع الصنائع : (ولا جهاد على الصبى والمرأة لأن بنيتهما لا تحتمل الحرب عادة)[١] .

جواز خروج النساء مع المجاهدين ، ومساهمتهن فى بعض المهام أثناء القتال :

ولكن يجوز خروج النساء مع المجاهدين بحيث تكون فى مأمن من العدو ، ويجوز لها أن تمارس بعض الأعمال والمهام فى أثناء القتال بما يتفق مع طبيعتها وقدراتها ، مثل السقاية واعداد الطعام ومداواة الجرحى ونقل الموتى . والدارمى واحمد[٢]

دليل ذلك ما أخرجه الامام مسلم - واللفظ له - وابن ماجة عن أم عطية الانصارية قالت : (غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، أخلفهم فى رحالهم فأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى) . فقد خرجت أم عطية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يمنعها من ذلك ما يفيد جوازه ، واقتصر عمل ام عطية على السقاية واعداد الطعام ، ومداواة الجرحى .

والأحاديث كثيرة تلك التى تحدد مقدار مشاركة المرأة فى الجهاد . منها حديث الربيع بنت معوذ قالت[٣] : (كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نسقى ونداوى الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة) .

---

(١) انظر بدائع الصنائع (٧ / ٩٨) للامام علاء الدين أبى بكر بن مسعود الكاسانى . دار الكتاب العربى / بيروت / الطبعة الثانية / ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

(٢) اخرجه مسلم فى الجهاد والسير / باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم (٣ / ١٤٤٧) . وابن ماجة فى الجهاد / باب العبيد والنساء يشهدون مع المسلمين (٢ / ٩٥٢) . والدارمى فى الجهاد / باب فى النساء يغزون مع الرجال (٢ / ١٣٠) تحقيق / عبدالله هاشم / الناشر احاديث اكادمى - باكستان . والامام احمد فى المسند (٥ / ٨٤) .

(٣) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب مداواة النساء الجرحى فى الغزو (٢ / ١٥٠) وباب رد النساء الجرحى والقتلى (٢ / ١٥٢) واللفظ له . واخرجه الامام احمد فى المسند (٦ / ٣٥٨) .

ومنها ماروا ه أنس قال:(١) لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر، وأم سليم وإنهما لمشمرتان ، أرى خدم(٢) سوقهما تنقزان القرب - وقال غيره تنقلان القرب - على متونهما ، ثم تفرغانه فى أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم) .(٣)

ومنها ماروا ه أنس ايضا قال(٤) : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى) .

ويستحب للمرأة اذا خرجت أن تتخذ لها سلاحا تدافع به عن نفسها اذا اقتضت الضرورة، نستفيد هذا من حديث أنس رضى الله عنه(٥) (أنّ أم سليم رضى الله عنها اتخذت يوم حنين خنجراً ، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال يارسول الله ، هذه أم سليم معها خنجر . فقال لها رسول الله : ماهذا الخنجر ؟ قالت: اتخذته ، إنْ دنا منى أحد من المشركين بقرت به بطنه . فجعل رسول الله يضحك . قالت يارسول الله : اقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك . فقال رسول الله: ياأم سليم إنّ الله قد كفى وأحسن) .

من كل هذا يتضح لنا الحدود التى حدها الشارع للمرأة اذا خرجت للجهاد

---

(١) اخرجه البخارى فى كتاب الجهاد/ باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال (٢ / ١٥٠)، وفى كتاب فضائل الصحابة، مناقب أبى طلحة (٢ / ٣١٤) واللفظ له، ومسلم فى الجهاد والسير/ باب غزوة النساء مع الرجال (٣ / ١٤٤٣) .

(٢) خَدَم سوقهما : الخدم بفتح الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة جمع خدمة، يعنى الخلخال ، سمى موضعها من الساق خدمة، وجمعها خِدام بالكسر . انظر غريب الحديث لابن الأثير (٢ / ١٥) ، وعمدة القارى للعينى (١٤ / ١٦٦) .

(٣) تنقزان القرب: أى تحملانها ، وتقفزان بها وثبا . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٥ / ١٠٦) .

(٤) اخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة النساء مع الرجال (٣ / ١٤٤٢) .

(٥) اخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة النساء مع الرجال (٣ / ١٤٤٣) واللفظ له . واخرجه الترمذى فى السير/ باب ماجاء فى خروج النساء فى الحرب (٤ / ١٣٩) . وابوداود فى الجهاد / باب فى النساء يغزون (٣ / ١٨) .

مراعاة لطبيعتها وقدراتها، فليس لأحد بعد هذا كله أن يخرج ليطالب بمشاركة المرأة في الحروب كالرجل تماما ، ويكلّفها بما لم يكلفها به الشارع، وبما لا تستطيعه أصلاً.

ويمكن للمرأة أن تشارك اليوم في أعمال كثيرة تساعد في إدارة الحروب، وتعزيز المجهود الحربي لدى المسلمين ، وذلك من خلال مشاركتها في أعمال الطباعة والتسجيل والاعلام، والاتصالات، والتصنت ، والتشويش . . فضلا عن أعمال التمريض، ونقل الجرحى والموتى ، وغيرها من الأعمال التي ليس فيها مشقة ، وتتناسب مع قدراتها الجسمية والنفسية. بعيدة عن الاختلاط بالرجال.

هذا كله في حالة ما إذا كان القتال خارج الدولة الاسلامية ، لتأمين نشر الدعوة . ولكن إذا داهم العدو بلدة للمسلمين ، فإنّ الجهاد يكون واجباً على جميع أهل تلك البلدة، ومنهم النساء ، إذ يكون الجهاد في تلك الحالة دفاعاً بحتاً عن النفس فضلاً عن الأرض والمال والمقدسات . ، وكل مسلم ذكراً كان أو أنثى مطالب بالدفاع عن نفسه ، ورد كيد عدوه عنه ، ولأن المرأة يمكنها أن تباشر الجهاد من على سطح بيتها ، أو من أي مكان فيه ، كما أنها عند الإضطرار يسهل عليها التحصن بالبيوت وما شابهها . .

****

المبحث الثالث
بواعث الجهاد

تمهيد :

ان الواقع البشرى على مدار التاريخ ، قائم على الصراع بين الحق والباطل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والحق والباطل قائمان منذ أن خلق الله الخلق ، والحق متمثل فى دعوة الانبياء عليهم السلام واتباعه حزب الله ، والباطل متمثل فى الطاغوت واتباعه حزب الشيطان ، فالصراع قائم بين الحق والباطل ، بين الايمان والكفر ، بين الخير والشر ، بين العدل والظلم ، والنصر فى النهاية للحق والايمان . يقول تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)(١) .

ومادام الناس فى الدنيا ، فالصراع قائم فيها ، لأن النفوس لها نوازع واهواء ومطامع ، وكل واحد من الناس يحب أن يحقق نوازعه وأهواءه ومطامعه ، كما أن كل فرقة تسعى لتحقيق مطامعها ونزواتها .

وبنظرة عابرة فى التاريخ البشرى ، نرى واقعا من الصراع الدائم والحروب الطاحنة بين قبيلة واخرى ، وبين دولة واخرى ، وبنظرة عابرة كذلك فى واقعنا المعاصر ، نرى أنه لاتكاد قارة من القارات تخلو من الحروب والصراعات بل لاتكاد دولة من الدول تخلو من ذلك ، وان خلت دولة ما فانها تحمل بين جنباتها اسباب الصراع التى قد تنفجر بين وقت وآخر ، حتى ان العالم اليوم انقسم الى معسكرين(٢) : المعسكر الشرقى ويتزعمه الاتحاد السوفيتى والمعسكر الغربى وتتزعمه أمريكا ،

---

(١) سورة الانبياء آية (١٨) .

(٢) لاشك ان الاسلام هو المنقذ للبشرية وسيتسلم المسلمون زمام القيادة فى العالم كما كان اسلافهم رضوان الله عليهم ، وذلك بتحكيم الاسلام فى كل شئوننا ، وسلوك طريق الجهاد لاعلاء كلمة الله .

والشرق والغرب يكاد يعلن افلاسه من القيم والمبادئ ، مما يفقدهم قيمة مدنيتهم فى حين يتقدم الاسلام ، والصحوة الاسلامية دليل ذلك ، مما يؤهل المسلمين الصادقين لاستلام زمام القيادة البشرية ، مع الانتفاع بالمدنية التى عند الشرق والغرب .

وكل معسكر يتحفز للآخر ويعد من القنابل مايكفى لازالة البشرية مرات ومرات ، (ففى عام ١٩٨٢م - على سبيل المثال - تم انفاق ٦٥٠ مليار دولار فى الاغراض العسكرية ، وذلك يكفى لتحميل كل رأس من رؤوس سكان الكرة الأرضية اربع أطنان من المتفجرات ذات النمط التقليدى)[١] .

هذا وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى أن الحروب لم تزل واقعة فى الخليقة منذ براها الله ، وقسم هذه الحروب الى أقسام أربعة من حيث اسبابها ودوافعها ، وهى[٢] :

القسم الأول : حروب سببها الغيرة والمنافسة .

القسم الثانى : حروب سببها عدوانى هدفها غلبة الآخرين .

القسم الثالث : الجهاد غضبا لله ودينه .

القسم الرابع : حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها .

ويقول الدكتور جوستاف لوبون فى بيان حتمية الصراع بين البشر وكونه سنة وقانونا ثابتا : (مافتئت الحرب تشغل بال الشعوب والامم على رغم تقدم الحضارة ومباحث الفلاسفة ، وانا لنشك فى أن مبتكرات العلم تجعلها فى المستقبل أقل منها فى الماضى ، وانما الأمر الذى لاريب فيه هو أن هذه المبتكرات جعلتها أكثر سفكا للدماء ، والحادثة اذا تكرر ظهورها بانتظام مستمر تكون بنت ضرورات مهيمنة)[٣] .

---

(١) رجاء جارودى/مستقبل الاسلام فى الغرب ص ١٢ ، بتصرف يسير جدا ، ترجمة د . رفيق المصرى ، دار العلم للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤ م .

(٢) ابن خلدون/المقدمة ص ٢٧٠- ٢٧١ ، دار احياء التراث العربى ، الطبعة الرابعة .

(٣) احمد نوفل - الحرب النفسية ١/٢٧ ، دار الفرقان - الاردن - الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، نقلا عن روح السياسة لمؤلفه جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ٥٥ ، ٥٧ .

والقرآن الكريم اخبرنا بهذه الحقيقة، حتى نكون على علم بسنة من سنن الله في الكون والخلق وذلك في قوله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)(١) .

وقوله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا * ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز * الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)(٢) .

من هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا مايأتي :

اولا : التدافع بين الناس، سواء بين قبيلة وأخرى ، أودولة وأخرى، أوبين جماعتين ، هو سنة الله تبارك وتعالى . والتدافع هو دفع كل من الطرفين للآخر بمايدفع به الخصم خصمه من سلاح وغيره .

ثانيا: الحكمة من هذا التدافع ، ازالة الفساد من الارض، ونصرة دين الله بتحقيق عبوديته ونصرة شريعته في الارض. ويلاحظ أن آية سورة البقرة أشارت الى أن الحكمة من التدافع ازالة الفساد من الارض، وآية سورة الحج اشارت الى أن الحكمة هي تحقيق العبادة لله في الارض، وبهذا يتبين أن عدم الخضوع بالعبودية لله في الارض هو افساد فيها ، ومن ثم فان اى جماعة، او فئة ينبغي أن يدفعها الى جهادها دافع تحقيق العبودية لله تعالى في الأرض . . .

---

(١) سورة البقرة (٢٥١) .

(٢) سورة الحج (٤٠ ، ٤١) .

ثالثا : سنة التدافع قاعدة الجهاد الاسلامى ، اذ ذكر الحق تبارك وتعالى آية سورة البقرة فى سياق تبرير جهاد طالوت لجالوت ، كما أن آية سورة الحج ، جاءت لبيان السبب غير المباشر ، الذى من أجله أذن الله للمسلمين بالجهاد ، فالسبب غير المباشر للاذن بالجهاد ، هو أن القتال والتدافع بين الناس سنة قائمة ، والسبب المباشر لهم بالاذن بالقتال ، هو دفع الظلم عن المسلمين الذين يقتلون ويخرجون من ديارهم بغير حق ، وفى هذا اشارة الى أنه لابد للحق من قوة تحميه ، وأن الطريق للدفاع عن الانفس والاوطان هو الجهاد ، كما أن فيه من جهة أخرى بيانا لباعث من بواعث الجهاد كما سيأتى .

مما سبق تبين لنا أن التدافع والقتال هو سنة الهية ، وبناء عليه ، فقد شرع الجهاد لكى يتحقق من خلاله عبادة الله فى الارض بكل مايعنيه لفظ العبادة من الخضوع لله ، سواء فى العقيدة ، اوالشعائر التعبدية ، او الشرائع القانونية - ولازالة الفساد بكل صوره وأشكاله .

وبعبارة اخرى شرع الجهاد لكى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وبهذا فان الاسلام حدّد المقصد الذى شرع من اجله الجهاد ، يقول سبحانه وتعالى : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا) (١) .

والجهاد لايكون فى سبيل الله الا اذا ابتغى به وجه الله ، وقصد منه اعلاء كلمة الله فى الأرض.

---

(١) سورة النساء (٧٦) .

يقول الاستاذ سيد قطب:(ان الاسلام لا يعرف قتالا الا فى هذا السبيل ، لا يعرف القتال للغنيمة ، ولا يعرف القتال للسيطرة ، ولا يعرف القتال للمجد الشخصى أو القومى ، انه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض، ولا الاستيلاء على السكان ، لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات والاسواق للمنتجات، أو لرؤوس الاموال ، يستثمرها فى المستعمرات . . انه لا يقاتل لمجد شخص. . . ولا لمجد بيت . . ولا لمجد طبقة . . . ولا لمجد دولة . . ولا لمجد أمة . . ولا لمجد جنس . . انه يقاتل فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله فى الارض ولتمكين منهج الله فى تصريف الحياة ولتتمتع البشرية بخيرات هذا المنهج)(١) .

والاسلام عندما حدد المقصد الذى شرع من أجله الجهاد ، أراد بذلك حماية البشرية من افساد المفسدين ، ومن ظلم الظالمين ، ومن اطماع الطامعين ومما يسعى اليه كثير من الجبابرة المتسلطين ، اذ لو أمسكوا بزمام الناس لأذلوهم ، واستعبدوهم ، وها هو فرعون استذل بنى اسرائيل وقتل ابناءهم واستحيى نساءهم ، يقول الله سبحانه وتعالى:(واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)(٢) .

وكذلك أراد لهم الاسلام أن يتفيئوا ظلاله ويسعدوا به .

واذا كان هذا هو الباعث للجهاد ، فانه عين الغاية المرجوة من النصر، فالجهاد انتصار لشريعة الله فى الارض، وانتصار للهداية والعدل والحق بين الناس، والنصر المرجو هو انتصار الايمان على الكفر، وانتصار العدل على الظلم، والحق على الباطل والخير

---

(١) أحمد فائز/طريق الدعوة فى ظلال القرآن ١ / ٢ ٠ ٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م

(٢) البقرة (٤٩) .

على الشر لتنعم البشرية بالايمان والعدل والحق والخير.

وللجهاد الاسلامى بواعث كلها تدخل فى دائرة المقصد الاساسى، ومدار هذه البواعث، اما دفع ظلم عن المسلمين أو تحقيق هداية للآخرين، أو حماية الدولة الاسلامية من الفتن الداخلية وسنوردها بالتفصيل:

الباعث الأول: حماية الدولة الاسلامية من الفتن الداخلية.

شرع الجهاد لحماية الدولة الاسلامية مما قد يطرأ عليها من فتن داخلية تضعف كيانها وتهددها بخطر الانقسام، والاخطار الداخلية هى:

اولا: المرتدين: عندما يتعصب المرتدون لردتهم وكفرهم، ويعلنون الحرب على الدولة الاسلامية فان واجب الامام حينئذ أن ينتدب من جند المسلمين من يقاتلهم حتى يعودوا الى الاسلام أويقضى عليهم، لأن بقاءهم خطر عظيم يهدد الدولة الاسلامية، ويغل من قوتها، ويشجع الكافرين الذين لم يدخلوا فى الاسلام على التجرؤ عليها، لأن كفر من كفر بعد اسلامه عامل من عوامل تشجيع من لم يدخل فى الاسلام أصلا، كما أنه يصرف من لم يدخل فى الاسلام عن التفكير فيه، معتقدا أنه لو كان خيرا ماتركه بعض من دخل فيه لهذا تختلف معاملة المرتدين عن سائر الكافرين، فليس للمرتدين الا أن يرجعوا الى دين الاسلام، أو أن يضربوا بحد السيف، بينما نرى الاسلام يدعو اليهود والنصارى والمجوس الى الدخول فى الاسلام، فان هم أبوا ذلك دعاهم الى الخضوع لسلطانه، مع بقائهم على دينهم اذا أدوا الجزية فان هم أبوا الثانية فعل بهم مايفعل بالمرتدين من ضربهم بحد السيف.

واستدل العلماء على قتل المرتد بما اخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (١) (من بدل دينه فاقتلوه) .

وبما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله الا باحدى ثلاث : النفس بالنفس، والثيب الزانى ، والمارق من الدين التارك الجماعة) .

وينقسم المرتدون الى قسمين : قسم كفر بالدين كله ، وقسم جحد بعض أركانه ككفر مانعى الزكاة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بحجة أنهم كانوا يؤدونها لأجل دعائه خاصة ، وهى لا تلزمهم بعد وفاته .

ولا فرق فى الحكم بين من ارتد عن الدين كله او عن بعضه ، ولذا فقد قاتل الصديق رضى الله عنه الصنفين ، وانتدب لهم الجيوش، ولما وجد عمر فى نفسه من مقاتلة من قال لا اله الا الله وجحد الزكاة بين له الصديق أن الزكاة حق المال ، فمن امتنع من أدائها كان مرتدا عن ركن من أركان الاسلام ، يقاتل عليه ، كما يقاتل على ترك الصلاة جحودا ، فان هذا الحكم مستقر فى القلوب لا يُمارى فيه أحد من الناس

---

(١) اخرجه البخارى فى كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب حكم المرتد ٤ / ١٩٦ واللفظ له ، واخرجه الترمذى فى الحدود - باب ماجاء فى المرتد ٤ / ٥٩ .والنسائى فى كتاب تحريم الدم-باب الحكم فى المرتد ٧ / ١٠٤ ، وابن ماجه فى كتاب الحدود-باب المرتد عن دينه ٢ / ٨٤٨ ، والامام احمد فى المسند (٧ / ٣٢٢ - ٣٢٣).

(٢) صحيح البخارى-كتاب الديات - باب قول الله تعالى (ان النفس بالنفس . .الآية) ٤ / ١٨٨ واللفظ له ، ومسلم فى كتاب القسامة باب مايباح به دم المسلم (٣ / ١٣٠٢) والترمذى فى كتاب الحدود - باب ماجاء من شرب الخمر فاجلدوه ، ومن عاد الرابعة فاقتلوه ٤ / ٤٩ ،وكتاب الديات-باب ماجاء لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث ٤ / ١٩ .والنسائى فى كتاب القسامة،باب ذكر مايحل به دم مسلم ٧ / ٩٠ ، وابن ماجه فى كتاب الحدود - باب لا يحل دم امرئ مسلم الا فى ثلاث . . ٢ / ٨٤٧ ، والدارمى فى كتاب الحدود باب مايحل به دم مسلم(٢ / ٩٣ .

فجحود الزكاة والامتناع عن ادائها مثله فى الحكـــــم .

أخرج الشيخان وغيرهما-واللفظ للبخارى - عن ابى هريرة قال : (لما توفى النبى (١) صلى الله عليه وسلم واستخلف ابوبكر وكفر من كفر من الاعراب قال عمر : ياأبابكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله فمن قال لااله الا الله عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله .

قال أبوبكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال ، والله لومنعونى عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهـــم على منعها . قال عمر : فوالله ماهو الا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبى بكـــر للقتال ، فعرفت أنـــه الحـــق) .

مما سبق يتبين أن من واجب الخليفة تسيير الجيوش لمقاتلة المرتدين اذا امتنعوا وتعصبوا ولم يتوبوا ، أسوة بالخليفة الاول ابى بكر الصديق رضى الله عنـــه ، وحفاظا على المجتمع المسلم ، وهذا واحد من المقاصد التى شرع من اجلها الجهاد .

ثانيا : البغـــــاة : ========== ان من حق الخليفة على المسلمين الطاعة فى غير معصية . يقول الله سبحانه : (ياأيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . (٢)

أخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - وابوداود والترمذى وابن ماجه واحمـــد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (على المرء المسلـــم (٣) السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعـــة) .

---

(١) البخارى - كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب قتل من ابى قبول الفرائض ومانسبوا الى الردة ٤ / ١٩٦ ، ومسلم كتاب الايمان - باب الامر بقتال الناس حتى يقولوا لااله الا الله محمد رسول الله ويؤتوا الزكاة (١ / ٥١ - ٥٢) ، وابوداود كتاب الزكاة - باب وجوبها ٢ / ٩٣ ، والترمذى كتاب الايمان - باب ماجاء أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله (٥ / ٣) ، والنسائى كتاب تحريم الدم - الباب الاول (٧ / ٧٧) .

(٢) النساء ٥٩ .

(٣) اخرجه البخارى فى الجهاد ، باب السمع والطاعة للامام (٢ / ١٦٣) ، ومسلم فى كتاب الامارة ، باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية (٣ / ١٤٦٩) واخرجه ابوداود فى الجهاد - باب فى الطاعة (٣ / ٤٠ - ٤١) ، والترمذى فى الجهاد - باب ماجاء لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق (٤ / ٢٠٩) وابن ماجه فى الجهاد - باب لاطاعة فى معصية الله (٢ / ٩٥٦) ، واحمد فى المسند (٢ / ١٧) .

وحذر رسول الله عليه الصلاة والسلام من ترك طاعة الامام .فقد أخرج الامام مسلم عن نافع ، قال:جاء[1] عبدالله بن عمر الى عبدالله بن مطيع حين كان من امر الحرة ماكان زمن يزيد بن معاوية،فقال:اطرحوا لأبى عبدالرحمن وسادة،فقال:انى لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعه مات ميتة جاهلية) .

من ذلك يتضح وجوب طاعة الامام العادل فى غير معصية ، وعدم جواز الخروج عليه سواء كان الخارج فردا أم جماعة بتأويل أم بدون تأويل[2].

ومن الخارجين على الامام البغاة (وهم القوم الذين يخرجون على الامام بتأويل سائغ ولهم منعة وشوكة[3]) .

وقد اشترط الفقهاء شروطا ، ينبغى توفرها فى الخارجين على الامام حتى ينطبق عليهم وصف البغاة " وهى :

الأول :- أن يكون الخروج من طائفة قوية لها منعة وشوكة بحيث تحتاج الى رجال ومال وسلاح وقتال لردها الى طاعة[أولى] الأمر.

فان لم يكن ردهم يحتاج الى ذلك بأن يكونوا افرادا قلائل لا يملكون من السلاح والعتاد

---

(١) صحيح مسلم:كتاب الامارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ٣ / ١٤٧٨.

(٢) الخارجون على الامام اربعة أصناف : الاول : الخارجون عن طاعة الامام بغير تأويل وهم قطاع الطريق . الثانى : الخارجون عن طاعة الامام بتأويل الا انهم نفر يسير لا منعة لهم ، وهؤلاء حكمهم حكم قطاع الطريق وليس حكم البغاة ، الثالث: الخوارج الذين يكفرون بالذنب ويكفرون عليا وعثمان وطلحة والزبير وكثيرا من الصحابة ويستحلون دماء المسلمين واموالهم،وحكمهم عند جمهور الفقهاء وجمهور اهل الحديث حكم البغاة ، ويرى مالك استتابتهم فان تابوا والا قتلوا على افسادهم لا على كفرهم ، وذهبت طائفة من اهل الحديث الى انهم مرتدون . الرابع: البغاة: قوم من اهل الحق يخرجون من قبضة الامام بتأويل سائغ وفيهم منعة يحتاج فى كفهم الى جيش . انظر ذلك فى المقنع لابن قدامة - المؤسسة السعيدية ٤ / ١٤٧ - ١٤٩.والفقه على المذاهب الأربعة لعبدالرحمن الجزيرى/دار احياء التراث العربى ٥ / ٤١٨ .

(٣) ابن قدامة القدسى ،المقنع ، ٤ / ١٤٦ .

الذى يمتنعون به فان حكمهم حكم قطاع الطريق لسهولة ضبطهم واعادتهم الى الطاعة دون الحاجة الى القتال .

الثانى : الخروج من قبضة الامام ، فان لم يخرجوا من قبضته لم يكونوا بغاة .

الثالث : أن يكون لهم تأويل سائغ يدعوهم الى الخروج على حكم الامام وان اخطأوا فى ذلك كما تأول بنو حنيفة منع الزكاة بقوله تعالى : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم)[١] ، فقالوا أمر الله بدفع الزكاة الى من صلاته سكن لنا وهو رسول الله . فأما ابن قحافة فليست صلاته سكنا لنا .

الرابع : واختلف العلماء فى اشتراط عدالة الامام لوصف جريمة الخارجين عليه بالبغى ، فذهب الحنفية[٢] والمالكية[٣] الى اشتراط عدالة الامام لتحقق جريمة البغى فى الخارجين عليه ، وخالفهم فى ذلك الشافعية[٤] حيث قالوا بعدم اشتراط عدالة الامام ، ولكن فرقوا بين الامام الجائر الذى تولى السلطة بالطرق المشروعة والذى تولاها بالغلبة والقهر ، واعتبروا الخروج بغيا على الامام الجائر الذى تولى بطريق شرعى والا فليس ببغى . وأما الحنابلة فلم يفرقوا فى ذلك ، واعتبروا أن الخروج عليهما خروجا[٥] .

---

(١) التوبة (١٠٣) .

(٢) انظر بدائع الصنائع للامام الكاسانى (٧/ ١٤٠) .

(٣) انظر الخرشى على مختصر سيدى خليل للامام على بن احمد العدوى (٨/ ٦٠) .

(٤) انظر المجموع شرح المهذب بتكملة المطيعى (١٩/ ١٩٨) طبعة دار الفكر .

(٥) شرح منتهى الايرادات للامام منصور البهونى (٣/ ٣٨٠) دار الفكر ، والمغنى بالشرح الكبير لابن قدامة (١٠/ ٥٢ ، ٥٣) .

واذا تحقق من هذه الشروط فيمن خرج عليه فانه من الواجب عليه أن يراسلهم ويسألهم ماينقمون منه ، ويزيل مايذكرونه من مظلمة ، ويكشف مايدعونه من شبهة ، ويستجيب لنصحهم ، ويقبل الحق الذى عندهم ، وينصحهم بالعودة الى الحق والدخول فى الطاعة قبل أن يبدأهم بالقتال ، ولا يجوز له أن يبدأهم بالقتال قبل أن يفعل ذلك أخذا من قوله تعالى:(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله)* حيث ان الله سبحانه وتعالى أمر بالصلح قبل القتال وعين القتال عند البغى ، واقتداء بالامام على (رضى الله عنه) حيث بعث عبدالله ابن عباس الى الحرورية لما خرجوا عليه قبل أن يقاتلهم.(١) هذا ماذهب اليه الشافعية والحنابلة والمالكية ، وذهب الحنفية الى استحباب دعوتهم الى الطاعة وكشف شبهتهم ، وقالوا أن ذلك ليس بواجب لأنهم كمن بلغتهم الدعوة الاسلامية لا تجب دعوتهم ثانية.(٢)

والذى اطمئن اليه هو ماذهب اليه جمهور الائمة لظاهر الآية ، وفعل على رضى الله عنه ، ولأن الاصل فى دماء المسلمين الحرمة فلا يجوز قتلهم الا دفعا وهم مسلمون ، خاصة وأن الآية وصفتهم بوصف الايمان (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . .) ،

---

(١) انظر هذا الخبر فى المستدرك للحاكم فى كتاب قتال أهل البغى (٢ / ١٥٢ ، ١٥٤) وصححه الحاكم ، وانظر السنن الكبرى للبيهقى (٨ / ١٧٩-١٨٠) كتاب قتال أهل البغى - باب لا يبدأ الخوارج بالقتال حتى يسألوا مانقموا .
وانظر مسند الامام احمد (١ / ٨٦-٨٧) كلهم يرويه عن عبدالله بن شداد .
وقد صحح ابن كثير اسناد الامام احمد فى البداية والنهاية (٧ / ٢٨٠- ٢٨١) مكتبة المعارف-بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٤ - ١٩٧٤ ، وصحح الاستاذ احمد شاكر اسناده كذلك فى تحقيقه على المسند (٢ / ٦٦ / رقم ٦٥٦) ، وصححه الالبانى فى ارواء الغليل (٨ / ١١١ / طبعة المكتب الاسلامى-الاولى ١٣٩٩ - ١٩٧٩ .

(٢) انظر ذلك فى المراجع المذكورة فى الصفحة السابقة .

(*) الحجرات (٩) .

ولأنهم قد يعودون الى الطاعة من خلال معرفتهم الحق باقامة الحجة عليهم كما حصل وأن عاد أربعة آلاف من الخوارج الى الحق وطاعة الامام "علي" بعد أن حاججهم ابن عباس ثلاثة أيام وأقام عليهم الحجة (١).

فاذا ماتحقق الامر على ماسبق ولم يعودوا الى الحق، فان من واجب الامام أن يقاتلهم حتى يعودوا الى الحق ويدخلوا في الطاعة . واستدل العلماء على قتال البغاة بآية سورة الحجرات المذكورة في السطور القليلة السابقة . فقد قال ابن العربي عندها (٢) (هذه الآية هي الاصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عول الصحابة واليها لجأ الأعيان من اهل الملة، واياها عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (٣) (يقتل عمارا الفئة الباغية)).

وقال القرطبي (في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الامام أو على أحد من المسلمين (٤)). والآية وان لم تنص على الخروج على الامام الا انها تشمله لعمومها أو تقتضيه لأنه اذا طلب القتال للبغي على طائفة فللبغي على الامام من باب أولى .

ويجب قتالهم لما يترتب على خروجهم من الفتنة وتفريق جماعة المسلمين، يدل على ذلك ما أخرجه مسلم - واللفظ له - وغيره عن عرفجة قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انه ستكون هنات وهنات فمن اراد أن يفرق هذه الامة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان (٥)).

---

(١) سبق تخريجه في هامش رقم (١) من الصفحة السابقة .

(٢) احكام القرآن لابن العربي (١٧١٧/٤) .

(٣) اخرجه الامام مسلم عن ام سلمة وعن ابي سعيد الخدري في كتاب الفتن - باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٢٣٥/٤ ، ٢٢٣٦)، والترمذي عن ابي هريرة في المناقب - باب مناقب عمار بن ياسر (٦٦٩/٥) وقال هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث العلاء بن عبدالرحمن . واخرجه الحاكم عن ابن عباس في كتاب قتال اهل البغي (١٤٩/٢) وصححه .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٧/١٦). وانظر فتح القدير للشوكاني ٥/ ٦٣ .

(٥) اخرجه مسلم في كتاب الامارة - باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (١٤٧٩/٣) ،

==========

قال النووى فى شرحه (فيه الامر بقتال من خرج على الامام أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك ، وينهى عن ذلك فان لم ينته قوتل ، وان لم يندفع شره الا بقتله فقتل كان هدرا)[1] .

ويدل كذلك على قتال البغاة قتال ابى بكر الصديق رضى الله عنه للبغاة الذين منعوا الزكاة بتأويل ظنا منهم أنها سقطت بموت النبى صلى الله عليه وسلم ، وقتال على رضى الله عنه أهل الجمل وأهل صفين والخوارج بالنهروان[2] .

مما سبق يتضح مشروعية القتال لردع البغاة حتى يدخلوا فى طاعة الامام ويحافظوا على وحدة جماعة المسلمين .

هذا واذا قاتلهم الامام فلا يقاتلهم بما يعم اتلافه كالمنجنيق والنار الا للضرورة ، ولا يستعين فى حربهم بكافر ، ولا يتبع لهم مدبرا ، ولا يجهز لهم على جريح ، ولا يغنم لهم مالا ، ولا يسبى لهم ذرية ، ومن اسر من رجالهم حبس حتى تنقضى الحرب ثم يخلى سبيله الى غير ذلك من الاحكام الخاصة بالبغاة والمذكورة فى مظانها من كتب الفقه .

=== وابوداود فى كتاب السنة - باب قتال الخوارج (٤ / ٢٤٢) . والنسائى فى كتاب تحريم الدم - باب قتل من فارق الجماعة (٧ / ٩٢) والامام احمد فى المسند (٤ / ٣٤١) . والحاكم فى المستدرك - كتاب قتال اهل البغى (٢ / ١٥٦) وصححه .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (١٢ / ٢٤١) .

(٢) انظر احكام القران لابن العربى (٤ / ١٧٢١) .

ثالثا : قطـــــاع الطرق والعصابات التى تهدد الأمـــن :

وشرع الجهاد كذلك لمحاربة قطاع الطرق ويسمى حد (الحرابة)، فاذا قام جماعة بتهديد الناس وقتالهم لسلب اموالهم فان هؤلاء محاربون لله ورسولـــــه ويعيثون فى الارض فسادا، لذا فانه يجب قتالهم أخذا من قوله تعالى : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلُهم من خلاف أو يُنفَوْا من الارض)(١).

وسواء فى ذلك الفرد أو الجماعة صغيرة كانت أم كبيرة ، وسواء المباشـــر للفعل او الردء كالذى يدلهم أوينظر لهم من يجيء ، هذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين ، ولأن المباشر انما يمكن من قتله بقوة الردء ومعونته ، وهذا ماذهب اليه جمهور العلماء(٢).

وأكثر العلماء على انهم لوشهروا السلاح فى البنيان للقتل والسلب فهم محاربون كما لوفعلوا ذلك فى الصحراء ، وهذا قول مالك - فى المشهور عنه - والشافعى وأكثر أصحاب احمد وبعض اصحاب ابى حنيفـة وخالف بعضهم فاشترطوا لحد الحرابة أن يخرج المحاربون فى الصحراء ، والا فهم بمنزلة المختلس والمنتهب لأن المطلوب يدركه الغوث اذا استغاث بالناس(٣).

وهؤلاء المحاربون على أصناف أربعـــــة(٤) :

الأول : من قتل منهم فقط ولم يأخذ مالا فحكمه القتل، ولا حق لاصحاب الجناية فـــى العفو عنه ، ولا يجوز للامام اسقاط الحد عنه بحال .

---

(١) المائدة ٣٣ .

(٢) انظر السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية لابن تيمية (٨٧ ومابعدها) دار الكتاب العربى .

(٣ / ٢)

(٤) انظر المجموع شرح المهذب للنووى مع تكملته للمطيعى (٢٠ / ١٠٥ - ١١٠) . والاقناع لابن قدامة المقدسى (٤ / ١٤٠ - ١٤٢) ، واحكام القرآن لابن العربى (٢ / ٥٩٦ ومابعدها)، وفقه السنة للشيخ سيد سابق (٢ / ٤٦٤ ومابعدها) طبعة دار الكتاب العربى - بيروت .

وفطرة سليمة الحكم الصحيح فيما ادعوه من ربوبية تلك المعبودات.

كل ذلك يبين قوة حجة ابراهيم عليه السلام ، وقوة دلائله وبراهينه مع بساطتها ، ويبين مخالفة عقائد القوم للعقل والفطرة والمنطق ، بل ويكشف عن خرافية تلك المعتقدات.

وكشف القرآن على أن الحجة التى رزقها ابراهيم عليه السلام هى من توفيق الله له (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) (تلك) : اشارة الى جميع ما احتج به ابراهيم عليه السلام على قومه ، وما فى اسم الاشارة من البعد لتفخيم شأن المشار اليه والاشعار بعلو طبقته وسمو منزلته فى الفضل ، واضاف نون العظمة فى قوله (حجتنا) للتعظيم من شأن الحجة المشار اليها . ومعنى قوله (نرفع درجات من نشاء) أى رتبا عظيمة عالية، ومعنى قوله (ان ربك حكيم عليم) أى حكيم فى كل ما فعل من رفع وخفض ، وعليم بحال من يرفعه.(١)

من خلال العرض السابق لمعنى الآيات تبين مدى توفيق الله سبحانه لابراهيم عليه السلام فى اقامة الحجة على قومه بالعقل والفكر والمنطق السليم حتى اثبت خطأ ما يزعمونه من معبودات ، ودحض ما يثيرونه من شبهات ، وأثبت لهم عقيدة التوحيد . واذا كانت النتيجة التى صدع بها فى وجوههم جميعا هى فساد عقيدتهم، وصلاح ايمانه وعقيدته فان ذلك يمثل فى الحقيقة ظهورا ونصرا له ولعقيدته وهزيمة لهم ولعقيدتهم الضالة.

وكما ذكرت الآيات بان هذه الحجة منحة من الله سبحانه لابراهيم (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) وهذه الاشارة تشعر بان هذه الحجة هى نوع نصر لابراهيم على قومه أمده بها ارادة تأييد نبيه واظهار دينه.

وقد حكى لنا القرآن الكريم فى سورة الانبياء جزءا آخر من صورة النصر الفكرى لابراهيم عليه السلام على قومه من خلال محاججته القوية لهم بحيث اثبت لهم فساد عقيدتهم فى عبادة الاصنام . وكان من نتيجة ذلك شعورهم واحساسهم بالنكسة والهزيمة النفسية والفكرية امام قوة حجة ابراهيم عليه السلام . يقول سبحانه وتعالى : (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا الا

---

(١) رجعت فى تفسير الآيات المذكورة الى تفسير النسفى (٢/ ١٩ - ٢١) وتفسير ابى السعود (٣/ ١٥١ - ١٥٦).

كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أءنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون * فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون * قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين * قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم .* واراد وا به كيدا فجعلناهم الأخسرين .) (١) .

بدأت الآيات بتقرير هداية الله سبحانه لابراهيم عليه السلام وتقرير اهليته لذلك ، ثم عرض القرآن بداية الحوار بين ابراهيم عليه السلام وبين والده وقومه بسؤال منه موجه لهم (ماهذه التماثيل التى انتم لها عا كفون) أى ماهذه الاصنام المصورة التى تدينون لها بالعبادة ، ويبدو من هذا التساؤل تعمده عليه السلام تجاهل مايسأل عنه مع علمه به ، فقد (سألهم عن هذه الاصنام بـ(ما) التى يطلب بها بيان الحقيقة اوشرح الاسم ، كأنه لايعرف انها ماذا ، مع احاطته بان حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا ، وعبّر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها وازلالها وتوبيخا لهم على اجلالها) (٢) .

وبسؤاله عليه السلام لابيه وقومه كذلك اراد ان يردهم لاعادة النظر والتفكير فى حقيقة مايعبدون من الاصنام ، اهى خالقة حتى تجب لها العبادة ام هى مخلوقة ؟ بل أهى تعقل اوتدرك حتى تعبد ؟ ولاشك ان ابراهيم عليه السلام قد وجه اليهم ضربة قوية - بسؤاله هذا لهم - فى صميم مايعتقدون ويعبدون بحيث افقدتهم بذلك كل حجة منطقية ترد بالاجابة الصحيحة . ولذا فقد كان جوابهم على سؤاله جواب المهزوم الذى لايجد حجة يجيب بها مباشرة على حقيقة السؤال ، ولم يجدوا شيئا حقيقيا يبرر عبادتهم الاصنام ، ولما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا الى التقليد (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) وهذا الجواب يمثل غاية الهزيمة والعجز الفكرى حيث يدل على انهم لايعبدون مايعبدون الا تقليدا لآبائهم دون أن يكلفوا أنفسهم بالنظر والتفكير

---

(١) الانبياء ٥١ - ٧٠ .

(٢) تفسير ابى السعود (٦/ ٧٢) . بتصرف يسير جدا .

فى صحة ماجاء عن آبائهم ، وكأنهم عطلوا عقولهم عن التفكير. واجاب عليه السلام بقوله (لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين) اى ظاهر بيّن لا يخفى على عاقل .

ثم تعرض الآيات سوء الهم (قالوا أجئتنا بالحق) اى بالجد (ام انت من اللاعبين) فتقول ذلك على وجه المزاح والمداعبة؟ وتأتى الاجابة من ابراهيم عليه السلام قوية تنفى كل مايتوهمونه من مزاح ابراهيم ومداعبته لهم فيما قاله لهم ، وصريحة فى الافصاح عن حقيقة الربوبية فى خالق السموات والارض وهو الله سبحانه (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين) ورجع الضمير الى التماثيل أدخل فى تضليلهم واظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى (١) عن التأمل من كون مايعبدونه من جملة المخلوقات .

هذه مرحلة اخرى من اقامة الحجة على فساد عقيدتهم ، واثبات سلامة عقيدة التوحيد ، وفى كلتا المرحلتين نلمس الحجة القوية لابراهيم عليه السلام التى تحسم النتيجة بالنصر لابراهيم والهزيمة لقومه . ويستمر بعد ذلك السياق فى نقل صورة واقعية من صراع ابراهيم مع قومه لاقامة الحجة على فساد عقيدتهم ، ولكن هذه المرحلة بصورة عملية ليزداد وايقيناً بفساد هذه الآلهة ، ولينزع كل ما ورثوه عن آبائهم من الخوف والمهابة من هذه الاصنام ، وليبين لهم حقيقة هذه الاصنام لدرجة انها لاتستطيع ان تجلب لنفسها النفع او تدفع عن نفسها الضر ، فضلا عن ان تجلب لهم النفع او تدفع عنهم الضر .

وتبدأ الصورة بالتهديد (تالله لأكيدن اصنامكم) ثم ينتقل التهديد الى تنفيذ (فجعلهم جذاذا) أى قطعا ، (الا كبيرا لهم) أى للأصنام (لعلهم يرجعون)

---

(١) انظر تفسير ابى السعود (٦ / ٧٣) .

الى ابراهيم عليه السلام فيحاججهم ، أو يرجعون الى هذا الكبير فيسألونه عن الكاسر لأن من شأن المعبود أن يرجع اليه فى الملمات ، والنتيجة انه لن يجيبهم بشىء ، أو يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع مايصيبهم من الاضرار . ولاشك أن ترك كبير الاصنام كان لغاية فى نفس ابراهيم عليه السلام حتى يستخدم ذلك فى اقامة الحجة على خطأتأليههم لتلك الاصنام ، ولذا لما سألوه هل هو الذى حطم الاصنام أجاب (بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) أسند ابراهيم عليه السلام تحطيم الاصنام الى كبيرها ، فكانت هذه الاجابة بمثابة الصدمة التى تردهم الى معرفة حقيقة هذه الاصنام ، اذ ليس من المألوف ولا من المتصور عقلا أن يحمل الصنم الاكبر الفأس ويحطم الاصنام ، ومن ثم يدفعهم هذا الى الرجوع بالاعتقاد بأن هذا الصنم ماهو الا حجر لايفعل شيئا فضلا عن ان يدفع عن نفسه الضرر ، ولزيادة الزامهم الحجة تحداهم بأن تجيبهم الاصنام عن فعل ذلك بآلتهم ، (فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) ولاشك بأنها عاجزة عن الاجابة عن الفاعل الحقيقى ، واذا كانت هى عاجزة عن اخبارهم بهذا الامر - كما هى عاجزة عن دفع الضرر عن نفسها من قبل - فهى اعجز عن اخبارهم عما يستفسرون من احوالهم أو العلم بمايحتاجونه من دفع الضرر عنهم ، ومن ثم فما هى الاحجارة واشجار لاتفعل شيئا . وبعد هذا شعر قومه بالنكسة والهزيمة الفكرية فرجعوا الى انفسهم خزايا واتهموا انفسهم - فيما بينهم - بانهم هم الظالمون ، ورفعوا عن ابراهيم التهمة بأنه من الظالمين ، ولكن امام ابراهيم استكبروا واصروا على شركهم من خلال الاستعراض السابق ظهر لنا مدى النصر والغلبة التى احرزها ابراهيم على قومه ، ومدى الهزيمة الفكرية التى لحقت بقومه ، وذلك من خلال اقامة الحجة عليهم باثبات فساد عقيدتهم فى عبادة الاصنام ، واثبات عقيدة الايمان والتوحيد .

ولما كانت نتيجة مواجهة الكفار لابراهيم (عليه السلام) هى الهزيمة الفكرية فيما يعتقدون ، لجأوا الى البطش والتعذيب من اجل الانتصار لعقيدتهم المهزومة .

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) ، وكما نصر الله سبحانه نبيه بالحجة والبرهان ، فقد نصره كذلك بانقاذه من النار ، (قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . .) .

هذه صورة للنصر الفكرى تمثلت فى انتصار ابراهيم عليه السلام على قومه بالحجة والبرهان حيث اثبت فساد عقيدتهم وآلهتهم ، واثبت لهم سلامة عقيدة التوحيد . ولم يجدوا هم مايردون به على ابراهيم عليه السلام أو يثبت صحة دعوى عبادتهم مما أصابهم بالنكسة والهزيمة فى معتقدهم . والأمثلة على هذا النوع من النصر كثيرة كقصة الغلام والراهب مع الملك والساحر الواردة فى صحيح مسلم (١) ، وقد اكتفيت بقصة ابراهيم عليه السلام لكفايتها فى بيان المراد ، اذ الغاية هى التمثيل لهذا النوع من النصر وليس الحصر .

الوجه الثانى : النصر بانجاء المؤمنين من كيد الاعداء

هذه صورة أخرى حقيقية للنصر يبطل الله بها كيد الأعداء ، ويفشل خططهم ومؤامراتهم التى تهدف الى النيل من المسلمين ، وينجى الله سبحانه بها عباده المؤمنين مما دبّر لهم من سوء . فالله سبحانه توكل بالدفاع عن المؤمنين (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) (٢) .

وأمثلة هذا النوع من النصر كثيرة فى كتاب الله ، ولا يمكن حصرها هنا ، ولذا فسأكتفى ببعض النماذج للتمثيل وليس للحصر ، لأن مرادى هنا هو بيان هذا الوجه من النصر .

يقول سبحانه وتعالى فى سورة الانبياء : (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) (٣) .

---

(١) انظر صحيح مسلم : كتاب الزهد / باب قصة اصحاب الاخدود والساحر والراهب والغلام (٤ / ٢٢٩٩) .

(٢) الحج (٣٨) .

(٣) الانبياء (٧٦ ، ٧٧) .

يحكى لنا القرآن مناجاة نوح لربه (ونوحا اذ نادى من قبل) وهى صريحة فى طلب النصر من الله سبحانه كما صرحت بذلك آية سورة المؤمنون (قال رب انصرنى بما كذبون)[١]، وكما فى آية سورة القمر (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر)[٢].

واستجاب الله سبحانه لدعاء نوح (فاستجبنا له) أى دعاءه ، وفصّل نوع النصر الذى أيده به (فنجيناه وأهله) أى المؤمنين من ولده وقومه (من الكرب العظيم) من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) اى منعناه من اذاهم.

وذكر القرآن استجابة الله سبحانه لدعاء نوح بالنصر، والتعبير بقوله (ونصرناه) صريح بأن تنجية الله سبحانه نوحا ومن معه من المؤمنين هو من تمام نصر الله لهم ، مما يثبت ان هذا نوع نصر يؤيد الله به عباده المؤمنين.

ومما يؤكد هذا الوجه من النصر ماجاء فى شأن نصرة موسى وهارون عليهما السلام فى سورة الصافات (ولقد مننا على موسى وهارون . ونجينا هما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين)[٣].

ذكرت الآيات ماأنعم الله به على موسى وهارون عليهما السلام من ايتائهما النبوة ، وتنجيتهما ومن آمن معهما من بنى اسرائيل من الكرب العظيم، وهو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بألوان البطش والتعذيب، ثم صرحت بأن هذا من تمام نصر الله لهما (ونصرناهم) أى موسى وهارون وقومهما على عدوهم (فكانوا) بسبب ذلك (هم الغالبين) غلبة لاغاية وراءها بعد ان كان قومهما فى أسرهم وقسرهم مقهورين تحت ايديهم يسومونهم سوء العذاب.

من ذلك يتضح أن تنجية الله للمؤمنين من كيد الاعداء هو نوع نصر يؤيد الله به عباده المؤمنين. ولا أحب أن اطيل فى ذكر الشواهد ، فالآيات كثيرة تلك التى تبين نصر الله لكثير من انبيائه بهذا النوع من النصر، اذكر منها قوله تعالى فى تنجيته

---

(١) المؤمنون (٢٦).
(٢) القمر (١٠).
(٣) الصافات (١١٤ - ١١٦).

لوطا عليه السلام:(ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين)(١).

وقوله تعالى فى تنجيته لوطا وابراهيم عليهما السلام:(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين * قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم* وارادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين * ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين)(٢).

وقوله تعالى فى شأن هود عليه السلام:(فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين)(٣).

---

(١) الانبياء (٧٤) .

(٢) الانبياء (٦٨- ٧٢) .

(٣) الاعراف (٧٢) .

الوجـــه الثالـــث : نصر المؤمنين بانزال المهلكات الكونية باعدائهم

هذه صورة أخرى للنصر يؤيد الله بها دينه ورسله وعباده المؤمنين ، وينتقم بها من اعدائهم الكافرين ، يسخر فيها الحق تبارك وتعالى القوى الكونية لتهلـــك الكفار وتنزل بهم الخراب والدمار .

والله بيده الخلق والأمر ، والكون كله مربوب له سبحانه يجرى فيه حكمه وينفذ فيه أمره ،(ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا لـــه الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)(١) .

والخسف والزلازل والبراكين والفيضانات والرياح والأعاصير كلها من المهلكات التى سخرها الله سبحانه على الكافرين اهلاكا لهم ونصرة لعباده المؤمنين .

ولكن لا يتحقق ذلك للمؤمنين الا بعد أن يستنفذوا مافى وسعهم وطاقتهم من الجهد والجهاد متوكلين على الله سبحانه ، والا فلا يحدث ذلك للقاعديـــن أو المنافقيـــن .

وأمثلة هذا النوع من النصر كثيرة فى كتاب الله ، ولا يسعنى فى هذا المقام الا أن أمثل لهذا النصر ببعض الأمثلـــة .

نصر هود عليه السلام على قومـــه :

دعا هود عليه السلام قومه عاداً للايمان فلم يؤمنوا وانكروا البعث والنشور ، واصروا على كفرهم حتى ايس منهم عليه السلام فدعا عليهم :(قال رب انصرنى بمـــا كذبـــون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فاخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالميـــن)(٢) .

---

(١) الاعراف (٥٤) .
(٢) المؤمنون (٣٩ - ٤١) .

ودعاء هود عليه السلام صريح فى طلب النصر من الله على قومه الذين كذبوه لينتقم له منهم على تكذيبهم له (قال رب انصرنى بما كذبون) واستجاب الله لدعائه فأجابه بقوله: (قال عما قليل ليصبحن نادمين) فأن الله نبيه هوداً بأنه عما قليل سيندمون على تكذيبهم له واصرارهم على الكفر، (فأخذتهم الصيحة) هذه الاجابة الفعلية من الله لدعاء نبيه بالنصر، حيث أخذ الله قومه بالصيحة لينصره عليهم، فهذا هو نوع نصر من الله .

وأخبر الله سبحانه أن هذا الانتقام والاهلاك انما هو (بالحق) أى بالعدل، وبين ما وقع بهم من اثر الصيحة حيث أصبحوا (غثاء) والغثاء هو ما يحمله السيل من بالى الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك على ظاهر الماء. والمعنى: صيرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء.(١)

وذكر الله سبحانه فى سورة الحاقة عذابا آخر سخره عليهم وهى الريح الصرصر (٣) (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)(٢) والصرصر = شدة الصوت أو شدة البرودة.

واستمرت الريح تعصف بهم سبع ليال وثمانية أيام (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما)(٤) ومعنى (حسوما)(٥) أى بتتابع ودون انقطاع.

ثم بين الله سبحانه حالهم من شدة ما وقع بهم من الهلاك والدمار فى تلك الأيام فقال: (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)(٦) (الأعجاز) أى الاصول. (الخاوية) أى الساقطة أو البالية،(٧) شبه الله سبحانه حالهم بعد وقوع العذاب بهم بأصول النخل الساقطة البالية، وهو منظر يفصح عن الدمار والهلاك الشديد الذى أصابهم. وعقّب الله تبارك وتعالى بما يفيد استئصالهم بالعذاب المتقدم

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى (٣ / ٤٨٣) .
(٢) الحاقة (٦) .
(٣) انظر أبى السعود (٩ / ٢٢)، النسفى (٤ / ٢٨٦) .
(٤) الحاقة (٧) .
(٥) انظر أبى السعود (٩ / ٢٢)، النسفى (٤ / ٢٨٦) .
(٦) الحاقة (٧) .
(٧) النسفى (٤ / ٢٨٦) .

(فهل ترى لهم من باقية)[١] استفهام انكارى معناه لن ترى منهم احدا أو بقية .

نصر لوط على قومه :

ومثل آخر يبين هذا النوع من النصر، وهو نصر الله سبحانه لوطا على قومه باكفاء الارض عليهم وانزال حجارة مسومة .

وذلك أن لوطا عليه السلام حذر قومه من فعل الفاحشة، ونهاهم عن فعل المنكر فلم يستجيبوا له، بل نازعوه فى ضيوفه، وتحدوه بأن ينزل عليهم عذابا .

وتوجه لوط عليه السلام الى الله تعالى يسأله النصر على قومه لفسادهم وعنادهم فقال :(رب انصرنى على القوم المفسدين)[٢] .

واستجاب الله سبحانه لدعاء نبيه ، فأرسل اليه ملائكة :(قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك انه مصيبها ماأصابهم ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب)[٣] . وطمأن الملائكة لوطا عليه السلام انه لن يصيبه أذى منهم بالخلوص الى ضيوفه كما كانوا يرجون، وامعانا فى طمأنينته كشفوا له عن حقيقتهم :(قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) . وأمروه أن يخرج هو وأهله فى آخر الليل ، وأن لا يلتفت منهم احد بمعنى لا يتخلف أو لا ينظر الى الوراء حين سماعهم وقوع العذاب على قومه المفسدين ، واستثنى من ذلك زوجته لأنه سيصيبها مايصيب قومه من العذاب لاشتراكها معهم فى الفساد ، ثم اخبروه بأن موعد نزول العذاب بهم وقت الصبح .

ثم بينت الآيات العذاب الذى وقع عليهم عندما جاء موعده وهو الصبح (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد)[٤] . يخبر الله سبحانه عما فعله فى قوم لوط حين جاء موعد عذابهم حيث قلب قراهم وجعل عاليها سافلها ليهلكهم، وأخبر بأنه انزل عليهم حجارة من سجيل :اى من طين متحجر،[٥] وعبّر بلفظ (وامطرنا) للاشعار بغزارة

---

(١) الحاقة (٨) .
(٢) العنكبوت (٣٠) .
(٣) هود (٨١) .
(٤) هو (٨٢ ، ٨٣) .
(٥) هناك معانى اخرى يمكن الرجوع اليها فى كتب التفاسير، وانظر تفسير ابى السعود (٤ / ٣٣٠) .

ماأسقط عليهم من الحجـــــارة .

وأخبر تبارك وتعالى بان هذه الحجارة ليست كبقية الحجارة وانما هـــى (مسومة) أى معلمة ومميزة بعلامة وميزة خاصة صيّرها الله بها لتوقـع الهلا ك والتدمير بقوم لوط ، فهى مخلوقة لهذه الغاية ومن ثم فانها مميزة بما يحقق هـــذه الغاية من قوة الفعل والتأثير فى الهلاك والتدمير . وحذر الله سبحانه الظالمين من أن يقع بهم مثل ماوقع بقوم لوط .

من هذا المثل يتضح بأن المهلكات الكونية هى من ضور النصر الربانية، اذ دعا لو ط عليه السلام بالنصر، فأجاب الله دعاءه، وأرسل على قومه الحجارة المسومـــــة ، وقلب عليهم الارض ليهلكهم . ولا شك أن ماوقع لقوم لوط انما هو من تمام جواب الله لدعاء نبيه لوط الصريح بالنصر على قومه ، ومن ثم فان انزال المهلكات الكونية علـــى اعداء الانبياء والمؤمنين هو نصر صريح وحقيقى لا مراء فيه .

وصدق الله العظيم حيث يقول:(ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين)[١] . يطمئن الله عزوجل الرسول صلى الله عليه وسلم بوعده الحق بالنصر من خلال تذكيره بانتقامه من الاقوام السابقة المجرمة فى حق رسلها . ومجيء ذكر الانتقام من اعداء الرســـل فى معرض التأكيد على وعد الله بالنصر هو تمثيل لنصر الله ، ولا شك أن الانتقـــام من الأمم السابقة المجرمة فى حق رسلها كان باهلاكها بقوى كونية ، وهذا يؤكـــد بأن الاهلاك والتدمير للاعداء بالمهلكات الكونية هو نوع نصر ينصر الله به رسله وعباده المؤمنيـــــن .

---

(١) الروم (٤٧) .

الوجه الرابع: النصر العسكـــــــــــرى

هـذا النصر هـو المألوف والمعروف لدى الناس، وهـو الذى يكتب الله سبحانه به الغلبة للمؤمنين على الكافرين بتوريثهم ارضهم واموالهم .

ويكون هـذا النوع من النصر عند التقاء كتائب الايمان مع الكفـــــار فى ميادين القتال ،كما كان الحال يوم بدر اذ شـهد ذلك اليوم قتال المسلميـــــن للمشركين ، وماأمد الله به المؤمنين من النصر والتأييد والتمكين .

يقول سبحانه وتعالى:(ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكـــــم تشكرون)(١) يخبر القرآن عن نصر المؤمنين يوم بدر على قريش رغم قلة المؤمنين فى العـدد والعتاد عن المشركين ، ولذا فقد عبّر بقوله (وانتم اذلة) وهى حال من مفعول نصركم. واذلة : جمع ذليل ، وانما جمع جمع قلة للايذان باتصافهم حينئذ بوصفي القلة والذلة اعلاماً بضعفهم يومها ، لقلة عدد المؤمنين وعتادهم.(٢)

ورغم أن المشركين كانوا ثلاثة أضعاف المسلمين يوم بدر الا أن الله سبحانـــه هـزم المشركين شر هـزيمة ، ونصر المؤمنين أعز نصر حتى انهم قتلوا من المشركين / سبعيـــن واسروا سبعين ، وعاد المشركون الى مكة وهم يلبسون ثوب الخزى والعار والهزيمـــــة .

وكان هـذا النصر المؤزر بفضل تأييد الله للمسلمين حيث أمدهم بالملائكـــــة كما فى قوله سبحانه وتعالى:(اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بالفٍ مـــــن الملائكة مردفين * وماجعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وماالنصر الا من عند اللـــــه ان الله عزيز حكيم)(٣) .

وكما فى قوله تعالى:(اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف مـــن الملائكة منزلين * بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هـذا يمددكم ربكم بخمســـة الاف من الملائكة مسوّمين * وماجعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وماالنصـــر الا من عند الله العزيز الحكيم)(٤) .

---

(١) آل عمران (١٢٣) .
(٢) انظر تفسير ابى السعود (٢ / ٧٩) .
(٣) الانفال (٩ ، ١٠) .
(٤) آل عمران (١٢٣ - ١٢٦) .

فقد أمد الله سبحانه المسلمين يوم بدر ابتداء بألف من الملائكة ، ثم اردفهم بألفين فأصبحوا ثلاثة آلاف ، ثم أردفهم بألفين آخرين فأصبحوا خمسة آلاف ملك(١) .

والحكمة من تدرج الامداد وتتابعه هي اشعار المؤمنين بمتابعة الله سبحانه لهم في المعركة بين اللحظة والاخرى مما يطمئنهم بانهم في رعاية الله وكنفه ، وفيه أيضا اشعار بأن قوة الله ومدده ليس لها حدود . ولهذا وذاك وقع حسن على نفوس المؤمنين في اثناء المعركة حيث يلقى في قلوبهم السكينة والطمأنينة ، ويزيد من نشاطهم وحماسهم في المعركة .

وقد قاتلت الملائكة مع المؤمنين في بدر ، يقول سبحانه وتعالى: (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب الحريق)(٢) .

ويقول سبحانه وتعالى: (اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان)(٣) .

والحكمة من قتال الملائكة مع المؤمنين في بدر مع أن ملكا واحدا قادر على أن يدفع الكفار هي كما قال السبكي : (لارادة أن يكون الفعل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الاسباب وسنتها التي اجراها الله تعالى في عباده ، والله تعالى هو فاعل الجميع)(٤) .

واشار القرآن الكريم الى الغاية من شهود الملائكة للمعركة وقتالهم فيها بقوله سبحانه وتعالى: (وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم)(٥) . أي أن الغاية من الامداد بالملائكة هي تبشير المؤمنين بالنصر ، وتثبيت قلوبهم في المعركة .

وذيلت الآية بقوله (وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم) لاعلام المسلمين بأن النصر الذي احرزوه يوم بدر هو من الله عز وجل ، واستعمل القرآن اسلوب الحصر والقصر ليقصر النصر عليه وحده سبحانه . والحكمة في ذكر هذا بعد ذكر الامداد بالملائكة هي دفع ما قد يطرأ من توهم بان الذين نصروهم هم الملائكة .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٤٠١) وزاد المعاد (٢ / ٢٢١) .
(٢) الانفال (٥٠) .
(٣) الانفال (١٢) .
(٤) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٧ / ٣١٣) .
(٥) الانفال (١٠) .

ولا أحب أن اترك الحديث عن انتصار المؤمنين فى بدر دون أن أستشهد على ذلك من السنة بحديث يلخص ماكان عليه المسلمون من القوة مقابل ماكان عليه المشركون ويبين مامنّ الله به على نبيه من النصر والتأييد فى هذه المعركة مقابل ماأوقع بالمشركين من الهزيمة.

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى وابوداود عن عمر بن الخطاب أنه قال (١) :

(لما كان يوم بدر نظر رسول الله الى المشركين وهم ألف واصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل نبى الله القبلة ثمّ مدّ يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لى ماوعدتنى، اللهم آت ماوعدتنى ، اللهم ان تهلك هذه العصبة من اهل الاسلام لاتعبد فى الارض . فمازال يهتف بربه مادّاً يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فاتاه ابوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال: يانبى الله، كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك، فانزل الله عزوجل : (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فامده الله بالملائكة . قال ابوزميل (هو سماك الحنفى) (٢) ، فحدثنى ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى اثر رجل من المشركين امامه اذ سمع ضربة السوط فوقه وصوت الفارس يقول : اقدم حيزوم، فنظر الى المشرك امامه، فخرّ مستلقيا فنظر اليه فاذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك اجمع، فجاء الانصارى فحدث بذلك رسول الله فقال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة. فقتلوا سبعين واسروا سبعين) .

هذا مثل للنصر العسكرى الذى يمنحه الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين فى مواطن القتال وساحات الجهاد . وهذا النصر أوذاك يتناسب مع طبيعة هذه المعركة او تلك فالله سبحانه وتعالى ينصر عباده فى كل معركة وكل موطن بمايجعل الفوز لهم وحسن العاقبة فى هذا الموطن او ذاك ، وبمايؤكد ان النصر حليفهم فى كل معركة لهم مع الكافرين . .

---

(١) اخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير/باب الامداد بالملائكة فى غزوة بدر واباحة الغنائم . (٣/١٣٨٣) ، والترمذى فى التفسير سورة الانفال (٥/٢٦٩-٢٧٠) ، وابو داود فى الجهاد ، باب فى فداء الأسير بالمال (٣/٦١) مختصرا .

(٢) أحد رجال الاسناد . وهو من التابعين .

المبحث الرابع

وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين، ووعيده للمشركين بالهزيمة

وعد الله للمؤمنين بالنصر:

لقد تكفل الله سبحانه في كتابه العزيز بنصر عباده المؤمنين الصادقين ، وذلك من خلال تسخير أسباب النصر لهم وتيسيرها عليهم ، أو من خلال تأييدهم بالملائكة أو بجنود أخرى يعلمها الله .

وقد تضافرت النصوص على ذلك بما يجعل نصر المؤمنين حقيقة ثابتة ، ووعدا قاطعا من الله عزوجل ، والله لا يخلف الميعاد . يقول الله سبحانه :(انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)(١) في هذه الآية الكريمة يقرر الله سبحانه وعده بالنصر لعباده المؤمنين، فضلا عن رسله صلوات الله وسلامه عليهم (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا) ، ويبشرهم بالنصر على الاعداء (في الحياة الدنيا) وذلك بغلبتهم والظهور عليهم ، والانتقام منهم بالقتل والسلب والاسر والقهر ، وفي الآخرة (ويوم يقوم الاشهاد)(٢) وذلك بفوز المؤمنين ودخولهم الجنات ومجازاة الكافرين ودخولهم النار .

وقد اكد الله سبحانه على نصر المؤمنين في هذه الآية بجملة من التأكيدات ، فأخبر عن نصره للمؤمنين بالجملة الاسمية التي تفيد التوكيد ، وباضافة الضمير (انا) له سبحانه ، ليفيد انه هو الذي تكفل بالنصر للمؤمنين ، فاذا كان هو ناصرهم فمن ذا الذي يغلبهم ؟ يقول سبحانه (ان ينصركم الله فلاغالب لكم)(٣) كما وأكد الله سبحانه نصره للمؤمنين بلام التوكيد في كلمة (لننصر) لتقرير هذه الحقيقة .

---

(١) غافر ٥١ .

(٢) انظر تفسير فتح القدير للشوكاني (٤ / ٤٩٥) .

(٣) آل عمران ١٦٠ .

وفي آية أخرى أنزل الله عزوجل نصر المؤمنين منزلة الحق الواجب على نفسه مع أنه سبحانه لا يجب عليه شيء فقال:(وكان حقا علينا نصر المؤمنين)(١).

قال ابن كثير : (أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا)(٢).

وفي ذلك تطمين لقلوب المؤمنين كي يستقر فيها وعد الله الذي لا يتخلف بنصره لهم ان هم قاموا بموجبات النصر.

وأكّد القرآن على هذه الحقيقة في قوله تعالى:(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون)(٣).

يخبر الله سبحانه بأنه قضى بالنصر لرسله ولعباده المؤمنين.وأكد الله سبحانه على هذا المعنى بالقسم وبلام التوكيد ، و"قد" التي تفيد التحقيق لمجيئها مع الفعل الماضي ، وتكرر التأكيد في الجملتين (انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون) بان المؤكدة وبلام التوكيد .

واردف الله سبحانه بجملة (وان جندنا لهم الغالبون) بعد ذكر وعده بنصر رسله لئلا يتوهم أحد بأن هذا الوعد خاص بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وانما هو للرسل ولاتباعهم من المؤمنين الصادقين .

ولفظ (الغالبون) يوحي بأن هذا النصر في الدنيا - فضلا عن نصر الله لهم في الآخرة - قال الآلوسي - رحمه الله - (وظاهر السياق يقتضي أن ذلك في الدنيا وأنه بطريق القهر والاستيلاء والنيل من الاعداء ، اما بقتلهم او تشريدهم أو اجلائهم عن اوطانهم أو استئسارهم أو نحو ذلك - واضاف بقوله - : والجملتان دالتان على الثبات والاستمرار)(٤)

وقد وعد الله سبحانه عباده المؤمنين بالنصر والاستخلاف والتمكين - اذا أخلصوا في عبادتهم لله وحده - فقال سبحانه:(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا * يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)(٥).

---

(١) الروم ٤٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ٤٣٦) .
(٣) الصافات ١٧١ ، ١٧٢ .
(٤) روح المعاني للآلوسي ٨ / ٢ / ١٥٦ .
(٥) النور ٥٥ .

اللام فى قوله تعالى (ليستخلفنهم فى الارض) جواب لقسم محذوف ، اوجواب للوعد بتنزيله منزلة القسم لانه ناجز لامحالة ، ومعنى ليستخلفنهم فى الارض : ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى مملوكاتهم.

والمراد بالذين استخلفهم الله من قبل : كل من استخلفه الله من المؤمنين قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم فى ارضه،فلا يخص ذلك بنى اسرائيل ولاأمة من الامم دون غيرها .

وجملة (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) معطوفة على (ليستخلفنهم) داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب، والمراد بالتمكين هنا : التثبيت والتقرير: أى يجعله اللهثابتا مقررا ويوسع لهم فى البلاد ويظهر دينهم على جميع الاديان . والمراد بالدين هنا : الاسلام.

وجملة " وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا" معطوفة على التى قبلها ، والمعنى أن الله سبحانه يجعل لهم مكان ماكانوا فيه من الخوف من الاعداء أمنا.(١)

والوعد بالاستخلاف والتمكين عام فى جميع امة محمد صلى الله عليه وسلم وليس خاصا فى الصحابة، روى ذلك عن ابن عباس ومجاهد (٢) ،وذهب اليه كثير من المفسرين : كابن عطيه والقرطبى (٣) ، وابن كثير (٤) والآلوسى (٥) والشوكانى ، ولا وجه لتخصيصه بالصحابة (رضوان الله عليهم) فان الايمان وعمل الصالحات لايختص بهم بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة (٦) .

---

(١) انظر المعانى السابقة فى فتح القدير للشوكانى ٤/٤٧ .
(٢) تفسير روح المعانى للآلوسى (٦/٣/٢٠٢) .
(٣) احكام القرآن العظيم للقرطبى ١٢/٢٩٨ .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٠٠ .
(٥) تفسير روح المعانى للآلوسى (٦/٣/٢٠٢) .
(٦) انظر تفسير فتح القدير للشوكانى ٤/٤٧ .

من خلال التفصيل السابق للآية المذكورة يتبين وعد الله الثابت والأكيد باستخلاف المؤمنين والتمكين لهم ، (وقد جاء ذكر التمكين بعد الاستخلاف ليفيد أن الاستخلاف ليس على وجه العروض والطروّ ، بل على وجه الاستقرار والثبات)[١] - ما اخلصوا لله - وفي ذلك نصر وأي نصر ؟! بل وجعل الله سبحانه وتعالى نصر المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل - ما قام المسلمون بموجبات النصر - فقال سبحانه وتعالى:(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا * سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا)[٢] .

قال ابن كثير : (يقول عزوجل مبشراً لعباده المؤمنين بانه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفر فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا لانهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين)[٣] .

وصرحت الآيات بذكر نتيجة قتال الكفار وهي الهزيمة لحصول مزيد الايلام لهم بذكرها ، ولشفاء صدور المؤمنين من ذكرها ، ولم تصرح بذكر نتيجة قتال المؤمنين - وهي النصر - اشعارا بان ذلك معلوم ، بل هو لا يحتاج الى بيان ، وخصوصا أنه سنة ثابته لله عزوجل .

وقوله تعالى (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . تقرير لوعد الله الحق بنصر المؤمنين ، وتأكيد بأن نصر المؤمنين على اعدائهم هو سنة الله الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل .

---

(١) انظر تفسير فتح القدير (٤ / ٤٧) .
(٢) الفتح ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ١٩٢) .

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : (أى هذه سنة الله وعادته فى خلقه، ماتقابل الكفر والايمان فى موطن فيصل الا نصر الله الايمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين ، نصرهم على اعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم)(١) .

وقال الشوكانى فى بيانه للمراد بالسنة هنا ، (أى طريقته وعادته التى قد مضت فى الامم من نصر أوليائه على اعدائه)(٢) وقد خص الله سبحانه النصر بنفسه ، وبين أنه بيده وحده فقال معقبا على ماذكره من نصر المؤمنين فى بدر (ومالنصر الا من عند الله العزيز الحكيم)(٣) وقال (ومالنصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم)(٤) فقد عبّر بصيغة الحصر ليقصر النصر عليه وحده .

قال الامام ابو السعود فى معنى قوله (ومالنصر) أى حقيقة النصر على الاطلاق (الا من عند الله) أى الا كائن من عنده عزوجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد ، وانما هى مظاهر له بطريق جريان السنة الالهية(٥) . وعبّر بوصفى العزة والحكمة مناسبة لما قرره من قصر النصر عليه وحده ، اذ أن صفة العزة تقتضى تفرده بالامر وعدم منازعته فى حكمه، كما ان صفة الحكمة تدل على ان فعله من منح النصر او منعه انما يكون حسب ماتقتضيه الحكمة والمصلحة .

واذا كان الله جلت قدرته وعد عباده المؤمنين وعدا قاطعا بالنصر والتمكين كما بينت سابقا ، وكشف لهم بأن النصر بيده وحده كماتبين هنا ، فان هذا يعنى أن انتصار المؤمنين هو انتصار ثابت ومستقر لا يملك احد تحويله او تبديله أو زعزعته مادام المسلمون قد حافظوا عليه بحفظ دينه والاخذ بسنته ، فاذا مافرط المسلمون

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ١٩٢) .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى (١٣٧ ، ١٣٨) .
(٣) آل عمران ١٢٦ .
(٤) الانفال ١٠ .
(٥) تفسير ابى السعود (٤ / ٨ ، ٩) .

فى ذلك فان النصر قد يتحول عنهم ويتبدل الى هزيمة او يتزعزع ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . ولذا فقد خاطب الله سبحانه المسلمين عقب انهزامهم فى احد - وهو خطاب للمسلمين من بعدهم - لتقرير هذه الحقيقة فى نفوسهم ، وتأكيدها لكى تكون نصب أعينهم فى كل معركة يخوضونها مع عدوهم ، فيستقر فى قلوبهم أن النصر حليفهم لا محالة ، فاذا تخلف عنهم لسبب منهم-كما حدث فى احد - فان احدا لا ينفعهم ولا ينصرهم بل ولا يمنعهم من أن ينهزموا أمام عدوهم الا الله جل وعلا ، ولذا تتوجه القلوب اليه متوكله عليه فى عامة شأنها وفى قتال عدوها خاصة . يقول سحانه وتعالى : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمنذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنين)(١) .

وعيد الله للمشركين بالهزيمة :

وكما أن الله سبحانه وعد المؤمنين بالنصر فانه توعد الكافرين بالهزيمة فقال تعالى : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد * قد كانت لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار)(٢) .

نزلت هاتان الآيتان فى اليهود عندما جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منهم أن يسلموا قبل أن يصيبهم ماأصاب قريش، فقالوا : يامحمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا اغمارا لا يعرفون القتال . . ، فنزلت الآيتان(٣) . ولا شك أن هذا هو السبب الخاص بالنزول ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والآية جاءت عامة فى الكفار للاخبار بأنهم سيغلبون ويهزمون فى الدنيا ، وانهم سيدخلون النار وبئس المصير .

وقوله تعالى (قد كانت لكم آية) أى دلالة على أن الله ناصر دينه ورسوله وفئته أو حزبه المؤمنين . ومثّل الله تبارك وتعالى لذلك بيوم بدر حيث نصر الله من يقاتل فى سبيله-وهم المسلمون-على الفئة الكافرة وهى قريش.

---

(١) آل عمران ١٦٠ .
(٢) آل عمران (١٢ ، ١٣) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٣٥٠) .

وعقّب الحق تبارك وتعالى بقوله (والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولي الأبصار) للتأكيد على ما تقدم فى الآية ، وقال ابن كثير فى معنى هذا التعقيب : (أى ان فى ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به الى حكم الله وافعاله وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)(١) .

من هنا يتبين وعده سبحانه بنصر عباده المؤمنين ، وبالمقابل وعيده سبحانه بالهزيمة للكافرين .

واذا حدث وأن انهزم المسلمون فى معركة امام اعدائهم فان هذا لا يعنى تخلف وعد الله ، فمعاذالله أن يتخلف وعده ، فوعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو احكم الحاكمين ، وانما يكون هذا بسبب من المسلمين انفسهم ، لتقصيرهم فى واجبات دينهم ومخالفتهم لاحكامه بما يجلب عليهم غضب الله وسخطه ، اولعجزهم وتقصيرهم عن الاخذ باسباب النصر . ولا يعنى هذا ان العاقبة ستكون للكافرين ، بل ستكون عليهم الدائرة ولوبعد حين ، عندما يعود المسلمون لاحكام هذا الدين ، لأن هذا ماجرت عليه سنة الله فيهم كما أخبر القرآن الكريم .

ففى يوم احد عندماتنزع المسلمون - بسبب منهم - ذكرهم الله سبحانه ابتداءا بسنته فى عاقبة الكافرين لكى لا يتوهموا بان الله سيجعل العاقبة لعدوهم فقال تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)(٢) .

فى الآية الاولى بين الله سبحانه سننه الجارية فى جعل العاقبة للمؤمنين والدائرة على الكافرين .

وبين فى الثانية الغاية من ذكر ذلك وهى :-

- اعلان للناس مؤمنهم وكافرهم ليعلموا حكم الله وقدره السابق .
- توجيه خاص للمؤمنين لتحصل لهم الهداية والعبرة بان الله سيجعل العاقبة لهم والدائرة على عدوهم . . . .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٣٥٠) .
(٢) آل عمران ١٣٧ ، ١٣٨ .

وقد بين الله سبحانه في آيات كثيرة بأن التدمير والاهلاك هو عاقبة الكافرين فقال سبحانه:(افلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين امثالها)(١).

وقال سبحانه وتعالى :(وكأيّن من قرية هي اشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم)(٢).

وقال سبحانه وتعالى:(وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين)(٣).

وقال سبحانه وتعالى:(وكم اهلكنا قبلهم من قرية هل تحسّ منهم من احد اوتسمع لهم ركزا)(٤).

وبين الله سبحانه ان اهلاكه للاقوام السابقة والقرون الاولى من الكفار الذين ذكرتهم هذه الآيات وغيرها هو سنته الثانيه فقال سبحانه:(فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا * اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وماكان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض انه كان عليما قديرا)(٥) (فهل ينظرون) استفهام انكاري موجه للمشركين .

وذكر المفسرون ان المراد بسنة الاولين هنا هي انزال العذاب والهلاك بالكافرين(٦)، ومعنى (فلن تجد لسنة الله تبديلا) أي لا يقدر احد أن يبدل سنة الله بالامم المكذبة بأن يضع موضع العذاب غير العذاب. ومعنى (ولن تجد لسنة الله تحويلا) أي بأن ينقله من المكذبين الى غيرهم. وَنَفْي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما ،

---

(١) محمد ١٠ .
(٢) محمد ١٣ .
(٣) القصص ٥٨ .
(٤) مريم ٩٨ .
(٥) فاطر ٤٣ ، ٤٤ .
(٦) انظر تفسير فتح القدير (٤ / ٣٥٦) ، وروح المعاني (٨ / ١ / ٢٠٦) وتفسير ابي السعود (٧ / ١٥٦) .

وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائها (١).

وبعد أن افصح القرآن عن سنة الله الجارية بانزال التعذيب والهلاك بالكفار استشهد على هذه السنة بما كان من عاقبة الامم السابقة المكذبة بقوله (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) .

قال الشوكانى : (هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ماقبلها وتأكيده ، أى ألم يسيروا فى الارض فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وامثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل فان ذلك هو من سنة الله فى المكذبين التى لاتتبدل ولاتتحول (٢)) .

مماسبق تبين أن نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين هو سنة الله الجارية مادام الصراع بين الايمان والكفر بين الحق والباطل ، فهل علم المسلمون قيمة مايملكون من حق يسعدون به فى دنياهم واخراهم ، ويكتب لهم به العزة والتمكين والنصر المبين . إن هذا الدين العزة والقوة والغلبة والنصر ، وهو سلاح فيه صلاحنا وقوتنا ، ولكننا لاندرك اهميته أو نحسن استعماله فى حياتنا .

---

(١) انظر هذه المعانى فى التفاسير المذكورة فى الصفحة السابقة نفس الاجزاء والصفحات .

(٢) تفسير فتح القدير (٤ / ٣٥٦) .

المبحث الخامس

الحكمة فيما يقع للمسلمين من الهزيمة

قد ينهزم المسلمون فى معركة لهم مع أهل الكفر، وذلك لمخالفتهم شريعة الله، أو لعدم أخذهم بأسباب النصر . وهذا لا يتناقض مع وعد الله لهم بالنصر إذ تحقق الوعد مرهون بتحقيق موجباته وشروطه، ولا يعنى هذا بأن الله سيديل أهل الكفر والباطل على أهل الإيمان والحق، وانما هى جولة ثم تكون العاقبة للمؤمنين، كما حدث للصحابة (فى أحد) حيث فقدوا النصر يومئذ بعد أن كان قاب قوسين او ادنى بسبب المعصية والتنازع، ولم تكن (أحد) الا جولة ثم كانت العاقبة للصحابة بالفتح المبين . ووقوع الهزيمة او فقدان النصر فيه حكم وعظات وعبر للمؤمنين، ينبغى عليهم ان يستخلصوها من درس الهزيمة كما يستخلصون العبر والعظات من دروس النصر، وذلك لكى يستفيدوا منها فى جولاتهم القادمة مع العدو، ولكى يتعلموا الخضوع فى العسر واليسر والمنشط والمكره، ولكى لا يستسلموا لما يصيبهم من أذى الهزيمة وانما ليزدادوا تصميما لنصرة هذا الدين . وقد أورد ابن القيم رحمه الله جملة من الحكم أنقلها عنه بتصرف وايجاز: (١)

(١) تعريف المؤمنين بسوء عاقبة تركهم لإحدى سنن الله فى النصر والهزيمة، كما حدث للمؤمنين فى أحد من تغير سير المعركة لصالح عدوهم بعد أن كان النصر فى جانبهم حتى سقط لواء المشركين ولم تحمله الا امرأة منهم، وذلك بسبب مخالفة الرماة أمر قائدهم، وتنازعهم فيما بينهم، فأراد الله عزوجل أن يعطيهم درسا عمليا فى أهمية طاعة القائد وعدم التنازع . ورغم أن هذا الدرس فيه قسوة وشده، إلا أنها قسوة المربى الناجح والطبيب الماهر، فلا يعود المؤمنون إلى المعصية مرة أخرى، بل ويكونون أشد حذرا ويقظة، وتحرزا من أسباب الخذلان .

---

(١) انظر جملة هذه الحكم فى زاد المعاد لابن القيم (١/٢/ ٩٩-١٠٢) . مطبعة البابى الحلبي - الطبعة الثانية (١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م) .

وأشار القرآن الكريم إلى سبب تغير موقف المؤمنين فى المعركة يوم أحد لكى تتم الفائدة فقال الله عزوجل :(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر، وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم)(١).

(٢) حكمة الله وسنته فى رسله وأتباعهم جرت بأن يُدالوا مرة ، ويُدال عليهم أخرى لكن يكون لهم العاقبة ، فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المسلمون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره . ولو انتصر عليهم دائما لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة فاقتضت حكمة الله : أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وماجاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

(٣) ومنها أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب.يقول تعالى:(وماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)(٢).

أى ماكان الله ليذركم على ماأنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الايمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أحد .

(٤) ومنها استخراج عبودية أوليائه وحزبه فى السراء والضراء ، وفيما يحبون ومايكرهون ، وفى حال ظفرهم وفى حال ظفرأعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون ويكرهون فهم عبيده حقا ، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد ؛ من السراء والنعمة والعافية.

(٥) ومنها أنه سبحانه لو نصرهم دائما لطغت نفوسهم ، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا فى الحال التى يكونون فيها(فيمالو) بسط لهم الرزق ، فلا يصلح عباده الا السراء والضراء،والشدة والرخاء،والقبض والبسط.

---

(١) آل عمران (١٥٢).
(٢) آل عمران (١٧٩).

(٦) ومنها : أنه اذا امتحنهم بالغلبة والهزيمة ذلّوا وانكسروا وخضعوا له فاستوجبوا منه العزة والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولا يةالذل والانكسار. قال تعالى فى شأن المسلمين يوم بدر:(لقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة)[1] .

وقال تعالى فى شأن المسلمين يوم حنين:(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا)[2] . فهو سبحانه اذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا ، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره .

(٧) ومنها أنه سبحانه هيّأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة ، فقيض لهم الأسباب التى توصلهم اليها من ابتلائه وامتحانه ، كما وفقهم للاعمال الصالحة التى هى من جملة أسباب وصولهم اليها .

(٨) ومنها : ان النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانا وركونا الى العاجلة . وذلك مرض يعوقها عن جدها فى سيرها الى الله والدار الآخرة ، فمن رحمة الله بها أن يقيض لها من الابتلاء مايكون دواء لذلك المرض ، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليل الدواء الكريه ، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه ، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه .

(٩) ومنها أن الشهادة عنده سبحانه من أعلى المراتب ، والشهداء هم خواصه المقربون من عباده ، وهو يحب أن يتخذ من عباده شهداء ، تُراق دماؤهم فى محبته ومرضاته ، ويؤثرون رضاه ومحابّه على نفوسهم . ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقديرالاسباب المفضية اليها من تسليط العدو .

---

(١) آل عمران (١٢٣) .

(٢) التوبة (٢٥) .

(١٠) ومنها أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيّض لهم الاسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم . ومن أعظمها - بعد كفرهم - بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم كما جاء في قوله تعالى:(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)[١] .

يتبين من هذا أن الهزيمة لا تخلو من حكم وعبر ينبغي على المؤمنين ادراكها خلال مسيرتهم وجهادهم ، وان كانت الهزيمة لا تقع أصلا الا لسبب فيهم استوجب وقوعها ، ولكن المسلم على فرض وقوع الهزيمة يطمئن الى قدر الله ولا يخالطه اليأس او الشك في وعد الله بالنصر. لذلك فان القران الكريم خاطب كل من شك من المشركين والمنافقين في نصر الله لرسوله ولدينه ، واساء الظن بالله بما يكشف كيده وشدة غيظة على دين الله ، وبما يجعل نفسه تموت حسرة لعظم مايرى من نصر الله لدينه ورسوله.يقول سبحانه وتعالى :

(من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ)[٢] .

بهذا فان الله سبحانه يسفه ظن المشركين والمنافقين ، ويؤكد ايضا لعباده المؤمنين وعده لهم بالنصر والتمكين .

وللمفسرين في هذه الآية[٣] تأويلات،أقف عندها لبيان شدة انكار القرآن على من ظن بالله خلاف ماوعد رسوله وعباده بالنصر .

التأويل الأول : من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة (فليمدد بسبب) أي بحبل (الى السماء) اى سماء بيته (ثم ليقطع)

---

(١) آل عمران (١٣٩ - ١٤١) .
(٢) الحج (١٥) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ٢١٠) . وفتح القدير (٣ / ٤٤٤) .

ثم ليختنق به .

حكاه ابن عباس وقال به مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم ، ورجحه ابن كثير .

التأويل الثانى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليتوصل الى بلوغ السماء ، فإن النصر انما يأتى محمدا من السماء ، ثم ليقطع عنه ان قدر على ذلك .

حكاه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال عنه النحاس هو أحسن ماقيل فى هذه الآية (١) .

وكل من هذين التأولين فيه من عمق المعنى بما يحسن للرد على من يسىء الظن بالله ، ولكن أرجح الرأى الثانى لدقة موافقة معناه لألفاظ الآية ، فقد ورد التعبير (فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ) ورد لفظ الكيد وهو أظهر فى الدلالة على المكر والحيلة . وتعليق الرأس بحبل فى أعلى السقف ثم الاختناق لايدل على معنى الحيلة والمكر إلا اذا أريد بالكيد : الصنيع والفعل ، ولكن كما قلت معنى الحيلة والمكر أظهر ، وبهذا يكون المعنى أكثر مناسبة للتأويل الثانى . أى ليستخدم كل وسيلة وكل مايستطيع من خداع ومكر ليمنع النصر فلن يستطيع ذلك .

ثم بينت الآية سبب ظنهم السىء فأشارت الى الغيظ الذى فى نفوسهم الناشىء عن حسدهم للمؤمنين على فوزهم بنصر الله . ومن ثم يكون هذا الظن اسقاطا لرغباتهم ، فالابلغ فى هذه الحالة ابقاء هذا الغيظ فى نفوسهم وزيادته وذلك بتعليق امكانية تحقيق رغبتهم وكيدهم على مستحيل ، إذ لا يمكنهم ان يؤخروا أو يقدموا فى نصر الله شيئا لأنه من عند الله عزوجل ، ومن ثم فتفسير معنى السماء بارادة الله الذى يتجلى على العرش أبلغ من تفسيرها بسماء البيت أى سقفه ، والله اعلم .

---

(١) فتح القدير للشوكانى (٣ / ٤٤١) .

بهذه الصورة الرائعة من التوكيد ، يسفه القرآن الكريم أحلام الكفار والمشركين ويبدد أمانيهم ومكائدهم ، ويفنّد ظنونهم الباطلة ليثبت لهم أن كيدهم وتآمرهم لهزيمة هذا الدين انما هو سراب لا يزيدهم إلا ظمأ وغيظا حتى يموتوا كمداً من شدته ، وهو يزيد المؤمنين إيمانا وثقة بنصر الله . وليثق المؤمنون اليوم بنصر الله ، وليطمئنوا لوعد الله فانه قادر لا يحول دون تحقيق وعده بالنصر أحد ، وهو لا يخلف الميعاد . . . .

ولا ييأس المسلمون مما أصابهم من الهزيمة ، فإن هذه غمامة ستزول لتشرق شمس المسلمين من جديد بالنصر والعزة والقوة والتمكين . . . .

ولكن لا بد من التفكير في حاضرنا وواقعنا بالدراسة والتحليل لادراك الأسباب الحقيقية التي أدت بنا الى الهزيمة . . . ، ولا بد من العودة الى الله في كل مناهج حياتنا العقائدية والعبادية والتشريعية ، لكي نفوز برضى الله . . حتى نكون أهلا لوعد الله . . . وان نصر الله لقريب من المؤمنين . . . . .

المبحث السادس

سنة الله فـــى النصـــــر والهزيمـــــــة .

لقد سنَّ الله سبحانه سننا تنظم حركة الانسان والكون والحياة ، وجعلها ثابتة لا تتغيـــر أو تتبدل إلا بأمره .

وتنظيم الكون والحياة من خلال سنن ثابتة يملك الانسان إدراكها ومعرفتها فيـــه حكمة ظاهرة للناس ، تقوم على تسخير قوى الكون وَفق هذه السنن للنهوض بأعباء الخلافـــة ، وتعمير الارض ، والاستفادة من أقواتها وأرزاقها ومنافعها وطاقاتها لصالح البشريـــة .

سنة الله فى تحقيق المسببات هى اتخاذ الأسباب:

وان من سنة الله فى الكون والحياة أن جعل لكل مسبَّب سببا ينتج عنه إذا تحققت الشروط ، وانتفت الموانع . وهذه السنة تشمل كل شىء فى الوجود ، وكل حادث فى الكون ، فليس من موجود أو حادث إلا وله سبب ، سواء أكان ذلك الشىء أمرا مادياً أم معنوياً فالصحة لها أسبابها والمرض له أسبابه ، والغنى له أسبابه والرزق له أسبابه ، والنعمة لها أسبابها والنقمة لهـا أسبابها ، والنصر له أسبابه والهزيمة لها أسبابها .

وهذه السنة بدهية فى نظر الشرع والعقل ، حيث يراها الانسان العاقل فى كـــل مايراه من موجودات أو احداث بل ويراها الانسان اول مايراها فى نفسه حيث ان اصـــل الانسان نطفة كما أن أصل الشجرة بذرة ، ولا يمكن لعاقل أن يحكم بان الانسان خلـــق من غير نطفة وأن الشجرة نبتت من دون بذرة - مالم يكن ذلك بمعجزة الهية - ، ولا يحكـــم كذلك بأن الانسان خلق من بذرة قمح وأن الشجرة خلقت من نطفة رجل ، إذ ليس ذلـــك من سنة الله فى خلق الانسان أو الشجرة .

ولقد جاءت هذه السنة موافقة لما أرشد اليه سبحانه من سبيل معرفته والاهتداء الى وجوده ، حيث أمر بالتفكر في خلق السموات والأرض للاستدلال بهذه المخلوقات على الخالق سبحانه ، وهذا الاستدلال هو من قبيل رد المسبب الى سببه ، فاذا كان الخالق سبحانه قد دل على نفسه بخلقه فان هذا دليل على اثبات سنة الله في رد المسبب الى سببه .

وجعل الله سبحانه قاعدة الثواب والعقاب مبنية على مايقع من أسباب تقتضي هذا أوذاك ، فقال سبحانه:(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)(١) فرد الله مايقع من خير وشر الى فاعله ومسببه ، ورتب على نوع فعله ، ماينال من الثواب أو العقاب.

وهذا مايتفق مع العدل الرباني ، اذ لايستوي الذي يفعل الخير والذي يفعل الشر ، ولا يستوي الذي يفعل الخير والذي لا يفعله،كما لا يستوي الذي يأخذ بأسباب النصر والذي يأخذ بأسباب الهزيمة أويقعد عن الأخذ بأسباب النصر.

وكذلك فقد جعل الله سبحانه أسباباً لرضاه وأسباباً لسخطه ، وجعل أسباباً لدخول الجنة وأسباباً لدخول النار ، وجعل أسباباً للهداية وأسباباً للضلال . ورتب قاعدة الجزاء الدنيوي على مايفعل المسلم من أسباب توجب تنفيذ الحكم عليه ، فجعل الردة سبباً لإقامة حد القتل على المرتد وكذلك منعه من الارث والتزاوج والدفن في مقابر المسلمين . وجعل السرقة سبباً في إقامة حد القطع ، والقتل سبباً في إقامة حد القصاص أو الدية باعتبار نوع القتل ، والزنا سبباً لاقامة حد الرجم وكذلك بقية أحكام التشريع كالميراث وغيره . وهذه التشريعات كلها ترد المسبَّب إلى سببه ، وتبنى على ذلك حكماً في الدنيا فضلاً عن حكم الآخرة ، مما يثبت أن سنة ارتباط الاسباب بالمسببات هي سنة الله في الدنيا والآخرة.

---

(١) الزلزلة (٧ ، ٨) .

وهذا يؤكد أن اتخاذ الأسباب هو سنة الله فى إحراز النتائج .

قال القرطبى رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى فى شأن داود عليه السلام (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون)(١) قال رحمه الله : (هذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة والأغبياء القائلين بأن ذلك انما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلقه فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة)(٢) .

ورد القرطبى فى موضع آخر من تفسيره على قول من يدعى بأن الاسباب انما شرعت للضعفاء .

قال القرطبى رحمه الله : (قال لى بعض مشايخ هذا الزمان فى كلام جرى : ان الأنبياء عليهم السلام انما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء ، فقلت مجيبا له : هذا قول لا يصدر الا من الجهال والأغبياء ، والرعاع والسفهاء ، أو من طاعن فى الكتاب والسنة العلياء ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه أخذهم بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق :(وعلمناه صنعة لبوس لكم)(٣) وقال (وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق)(٤) قال العلماء : (أى يتّجرون ويحترفون . . ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون وفى أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ، أتراهم ضعفاء ؟ بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم الخلف الصالح اقتدى ، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء . . . . ،

---

١) الانبياء (٨٠) .
(٢) احكام القرآن للقرطبى (١١ / ٣٢١) .
(٣) الانبياء (٨٠) .
(٤) الفرقان (٢٠) .

ثم انّ هذا القول يدل على ضعف النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لأنهم أيدوا بالملائكة وثُبّتوا بهم ، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا الى تأييد الملائكة ، وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر ، نعوذ بالله من قول واطلاق يؤول إلى هذا ، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله ، وهو الحق المبين ، والطريق المستقيم الذي انعقد عليه اجماع المسلمين ، وإلا كان يكون قوله الحق:(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل)(١) ـ الآية ـ مقصوراً على الضعفاء ، وجميع الخطابات كذلك . وفى التنزيل حيث خاطب موسى عليه السلام (اضرب بعصاك البحر)(٢) وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا . وكذلك مريم عليها السلام (وهزى اليك بجذع النخلة)(٣) وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هز ولا تعب ، ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان ، أو تجاب دعوته ، أو يكرم بكرامة فى خاصة نفسه أو لأجل غيره ولا نهدّ لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية . هيهات هيهات ! لا يقال فقد قال الله تعالى: (وفى السماء رزقكم وما توعدون)(٤) فانا نقول : صدق الله العظيم ، وصدق رسوله الكريم ، وان الرزق هنا المطر باجماع أهل التأويل ، بدليل قوله تعالى:(وينزل لكم من السماء رزقا)(٥) وقال سبحانه وتعالى :(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد)(٦) ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم ، بل الأسباب أصل فى وجود ذلك)(٧) .

---

(١) الانفال (٦٠) .
(٢) الشعراء (٦٣) .
(٣) مريم (٢٥) .
(٤) الذاريات (٢٢) .
(٥) غافر (١٣) .
(٦) ق (٩) .
(٧) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى (١٣ / ١٤ ، ١٥) .

من هذا تبين أن سنة الله فى احراز النتائج كالغنى والفقر والسعادة والشقاوة والنصر والهزيمة تقوم على اتخاذ الأسباب لكل منها حتى تتحقق فى عالم الوجـــــــود .

تأثير الأسباب فى المسبَّبات :

واقتران السبب بالنتيجة هو اقتران فاعلية وتأثير وليس كما يقول الجهمية بأنه مجرد اقتران عادى كاقتران الدليل بالمدلول ، وأن وجود الأسباب كعدمها ونسبتهم الأفعال الى العبد نسبة مجازية كما تنسب إلى الجمادات كقولك : أثمرت الشجرة وطلعت الشمس، أو كما يدّعيه بعضهم من نفى قدرة العبد وبالتالى نفى الأسباب بالكلية (١) .

ولقد أنكر ابن تيمية على الجهمية قولهم هذا وبيّن مخالفتهم فيه لعقيدة أهل السنة وجمهور علماء أهل الاسلام فقال:(وكذلك أيضا الذين قالوا لا تأثيـــــر لقدرة العبد فى أفعاله هم هؤلاء أتباع جهم نفاة الأسباب ، والا فالذى عليـــــه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الاسلام المثبتون للقدر المخالفون للمعتزلة إثبات الأسباب ، وأن قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الاسباب فى مسبباتها (٢)) .

ورد عليهم ابن تيمية رحمه الله تذرعهم بالقدر واتكالهم عليـــه ، فقال :(ومن قال أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالا على القدر ، كان مخطئا أيضا : لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التى ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه ، واذا قدّر للعبد خيرا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء ، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير الى المواقيت ، فليس فى الدنيا والآخرة شئ الا بسبب، والله خالق الأسباب والمسبَّبات (٣)) .

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى (٨٦ ، ٨٧) مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الاولى ١٩٧٧م

(٢) مجموعة فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية (٨/ ٤٨٧) .

(٣) الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٦٩ ، ٧٠) .

واذا كان الجهمية قد خالفوا أهل السنة بنفى الأسباب أو نفى تأثيرها وفاعليتها و رجعوا الأمرالى قدرة الله فقط، فإن المعتزلة خالفوا أهل السنة كذلك بإضافتهم الافعال والمسببات الى الفاعل والسبب فقط، مع نفيهم لقدرالله سبحانه فى إيجادها، وقالوا : لا قدر والأمر أنف .(١)

من هذايتبين أن مذهب أهل السنة يثبت القدرة للعبد ، ويثبت الأسباب ويثبت لها الفاعلية ، ولكن السبب ليس مستقلا فى التأثير ولا يوجب حصول المسبَّب بمفرده اذ لابد من تمام الشروط وزوال الموانع . يقول ابن القيم رحمه الله : (ليس فى الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير، بل لا يؤثر سبب البتة الا بانضمام سبب آخر اليه ، وانتفاء مانع يمنع تأثيره هذا فى الأسباب المشهودة بالعيان ، وفى الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس فى الحيوان والنبات فانه موقوف على أسباب أُخَر من وجود محل قابل وأسباب أُخَر تنضم الى ذلك . وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل ، وكذلك جميع الأسباب مع مسبَّباتها فكل مايخاف ويرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تاثيره على غيره الا الله الواحد القهار ، فلا ينبغى أن يرجى ولا يخاف غيره)(٢) .

الأسباب والمسببات من خلق الله :

ومع تقرير أن الأسباب هى سنة الله فى حصول المسببات والنتائج ينبغى التأكيد على أن الأسباب والمسببات كلها من خلق الله سبحانه ، كما أن السنّة نفسها التى فيها ترتيب لحصول المسببات بأسبابها هى من خلق الله ، والأسباب المتممة والمانعة هى من خلق الله كذلك . والله سبحانه وتعالى يقول:(والله خلقكم وماتعملون)(٣) .

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى (٤٩). وانظر تاريخ المذاهب الاسلامية (١٢٤/١) تأليف الامام محمد ابو زهرة. طبعة دار الفكر العربى .

(٢) الفوائد لشمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بان القيم (٥٢) دار الفكر. وانظر الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٧٠ ، ١٣٣).

(٣) الصافات (٩٦).

قال القرطبى عند تفسيره للآية بعد إيراده لأقوال المفسرين فى موضع (ما) الإعرابى ، قال:(والأحسن أن تكون (ما) مع الفعل مصدراً ، والتقدير : والله خلقكم وعملكم .-وأضاف بقوله : هذا مذهب أهل السنّة : أن الافعال خلق لله عزوجل واكتساب للعباد . وفى هذا إبطال مذاهب القدرية والجهمية)(١).

عدم ركون المؤمن إلى الأسباب، وتخليص شعوره من التبعية لها :

واذا كان السبب والنتيجة مخلوقين لله سبحانه وذلك بتقديرهما مع إثبات فعلهما للانسان فإنَّ هذا يوجب على المؤمنين أن لا يلتفتوا الى الأسباب أو يركنوا اليها ، بل يفوّضوا أمرهم الى الله ويعتمدوا عليه ، مع ضرورة اتخاذ الأسباب حسب ما أمر الله ، وحسب ماتقتضيه سنة الله . والتعلق بالأسباب فى حقيقته تعلق رجاء من أجل تحقيق منفعة أو دفع مضرة ، وبهذا فإن الانسان يتوجه بالعبادة إلى الأسباب ، وهذا خطأ محض لأن النافع والضار هو الله ، ومايقع من أسباب هو بأمر الله . ولذلك فقد نقل ابن تيمية عن العلماء قولهم: (الإلتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير فى وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع)(٢).

ولتخليص شعور المؤمن من ضغط الأسباب الظاهرة فان القرآن الكريم مع إثباته للأسباب التى يفعلها الانسان - أضاف فعل المسببات الى الله سبحانه فى مواضع كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى: (انَّ الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم)(٣) ذكرت الآية تغييرين : تغيير مابالأنفس، وتغيير مابالقوم ، ورتبت حصول الثانى على فعل الأول فكان هذا بمثابة السبب والثانى بمثابة المسبب الذى ينشأ عنه . ولكن أضافت الآية التغيير الأول وهو السبب الى الانسان باعتباره المباشر لفعله والذى هو من دائرة عمله وقدرته وواجبه ، وأضافت المسبب وهو تغيير مابالقوم الى الله سبحانه (ان الله لا يغير مابقوم) حتى

---

(١) احكام القرآن - للقرطبى (١٥ / ٩٦) .
(٢) الفتاوى لابن تيمية (٨ / ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٧٥ - ١٧٩) .
(٣) الرعد (١١) .

تتعلق النفوس بالله سبحانه ، وتنفض يدها وشعورها من التبعية للأسباب.

وقال سبحانه وتعالى مخاطباً المسلمين إثر غزوة بدر:(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم)(١).

قال القرطبى : (..فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد انما يشارك بتكسبه و قصده. وهذه الآية تردّ على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم.فقيل المعنى : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم)(٢).

وقال الشوكانى عند تفسيره للآية:(الفاء جواب شرط مقدّر : أى إذا عرفتم ماقصّه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة وايقاع الرعب فى قلوبهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بمايسّره لكم من الأسباب الموجبة للنصر. ونقل عن ثعلب تفسيره لقوله (ومارميت):أى الفزع والرعب فى قلوبهم ، وقوله (اذ رميت):أى بالحصباء فانهزموا، وقوله (ولكن الله رمى):أى أعانك وأظفرك . وأضاف : والعرب تقول : رمى الله لك : أى أعانك وأظفرك وصنع لك)(٣) فالآية بهذا أثبتت فعل الرمى للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأثبتت من جهة أخرى أثر الرمى ونتيجته لله سبحانه لكى تتوجه القلوب الى الله وتركن اليه ، وتزداد ثقة بنصره وتأييده ، وتتخلص من ضغط الأسباب الظاهرة.

نقل الشوكانى فى تفسيره للآية القول (بأن تلك الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ،لأنك لو رميتها مابلغ أثرها الا مايبلغه رمى البشر ، ولكنها رمية الله حيث أثّرت ذلك الأثر العظيم)(٤).

---

١) الأنفال (١٧).
(٢) القرطبى/أحكام القران (٧ / ٣٨٤).
(٣ ، ٤) فتح القدير للشوكانى (٢ / ٢٩٤ - ٢٩٥) بتصرف يسير جدا .

اتخاذ الأسباب سنة الله فى النصر والهزيمة :

انَّ حركة التا ريخ الإنسانى ومايواكبها من مد وجزر وصعود وهبوط ونصر وهزيمة ، لاتصير بالمصادفة ، بل يحكمها نظام - كماهو الحال فى الأمور الماديه والطبيعية ، وكما هو شأن هذا الكون الذى يتصف بالنظام والدقة فى كل شأن من شئونه من الذرة الى المجرة . . - وذلك من خلال سنة ربانية ثابتة تنظم وقوع المسببات بناء على أسبابها المقدرة كماقررته سابقا . وبالتالى فان السنة فى النصر والهزيمة تقوم على أن لكل منهما أسبابه المفضية الى وقوع هذه النتيجة أو تلك ، ولا يقع أى من ذلك من فراغ ومن دون أسباب إلا بمعجزة ربانية . والمعجزة هى قانون الله الذى يخرق فيه السنّة ، فهو خاص به سبحانه ، أما السنة فانها هى قانون الله الذى أودعه الكون ، لكى يعمل به البشر فى هذا الكون ، ولكى يحققوا مايريدون بواسطته .

والله سبحانه قضى بأن تكون سنته فى النصر والهزيمة - كما هو الشأن فى غيرهما - قائمة على فعل البشر للأسباب ، وذلك لما يتصف به سبحانه من العدل حيث أن من يعمل بالاسباب لايستوى ومن يتركها . وقضى الله سبحانه بهذه السنة على المؤمنين كذلك - وهو القادر على أن ينصرهم بدون أسباب - ليناسب ذلك كون الدنيا دار ابتلاء وامتحان وتكليف ، فيظهر من يجاهد فى سبيل الله ممن يتخاذل - والله عليم بعباده - ثم يكون بعد ذلك الجزاء له فى الآخرة على ماكان منه . يقول سبحانه وتعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)(١) .

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)(٢) .

---

(١) آل عمران (١٤٢) .
(٢) البقرة (٢١٤) .

(أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعلمون)(١) .

وإذا أراد الله سبحانه أن يمكّن لأحد من عباده المؤمنين فإنّه يسخّر له الأسباب التي يتوصل بها إلى التمكين مجاراة لسنته سبحانه في أنّ للنصر والتمكين أسبابه كما ذكر القرآن في شأن تمكين ذي القرنين ، يقول تبارك وتعالى:(ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنّا مكّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا)(٢) .

بين الله سبحانه أنه مكن لذي القرنين في الأرض ،ثم أتبع ذلك بذكر الوسيلة التي أتم له بها التمكين وهي الأسباب ،تقريرا لسنته سبحانه بأن النصر والتمكين له أسبابه .

والسبب في الأصل هو الحبل ،ثم استعير للدلالة على كل مايتوصل به الى شيء .

وقال بعض المفسرين في معنى الأسباب هنا بأنها العلم . وقيل : تعلم الألسنة وقيل : من كل شيء يحتاج اليه الخلق . وقيل : من كل شيء يستعين به الملوك في فتح المدائن وقهر الاعداء(٣) .

قال ابن كثير في تفسيره لمعنى الأسباب هنا : (أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض وإذلال أهل الشرك ، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببا)(٤) .

وكما أنّ الله سبحانه إذا أراد أنْ يمكّن لأحد من عباده المؤمنين فإنه ييسر له الأسباب ، فكذلك إذا أراد سبحانه أن يهزم أو يهلك أمة من الناس فإنه يملي لها حتى تتخذ الأسباب المفضية إلى هلاكها أو هزيمتها .

يقول سبحانه وتعالى:(وإذا أردنا أنْ نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)(٥) .

---

(١) التوبة (١٦) .
(٢) الكهف (٨٣ ، ٨٤) .
(٣) انظر فتح القدير للشوكاني (٣ / ٣٠٨) .
(٤) تفسير ابن كثير (٣ / ١٠١) .
(٥) الاسراء (١٦) .

قال المفسرون فى معنى كلمة (أمرنا) بالتخفيف:أى أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة ، وهو مروى عن ابن عباس وقاله سعيد بن جبير . وقيل هى بمعنى سخرنا . وهناك قراءة أخرى (أمّرنا) بتشديد الميم: أى جعلناهم أمراء مسلّطين فيرتكبون المعاصى ، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله ، وفى قراءة ثالثة (آمرنا) بالمد والتخفيف ،أى أكثرنا مترفيها ففعلوا المعاصى فأهلكهم الله .* من هذه المعانى يتضح أن تغيير حال القوم والجماعة من الناس من الرخاء إلى الشدة ومن النعيم إلى الهلاك له أسبابه المفضية إلى وقوعه ، وإلّا فلا يقع . فكل حال تكون بالأمة إنما هى لأسباب تكون منها تصديقا لقوله تعالى :(انّ الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم)(١) . وهذه الآية تكشف عن سنة الله فى التغيير الخاصة بالأمم والمجتمعات حيث عبّرت الآية بلفظ (قوم) . وهى عامة فى كل قوم مؤمنين كانوا أم كفاراً ، لورود هذا اللفظ بالتنكير الذى يدل على العموم ،ثم هى عامة فى كل حال تكون عليها الأمة من الرخاء أو الشدة ، والفقر أو الغنى ، والنصر أو الهزيمة ، والآية بينت أن سنة الله فى تغيير أحوال الأمم تقوم على تغيير هذه الأمم لما فى نفسها ، باتخاذها الأسباب الكافية بإصلاح شأنها حتى يصلح الله أمرها .

بهذا فإن القرآن الكريم يردّ مايقع بالأمة من النصر أو الهزيمة - وغيرها - إلى الامة نفسها التى تفعل الأسباب المفضية لهذه النتيجة أوتلك ، ويرشد إلى أنّ إحراز النصر للأمة يستوجب إصلاح شأنها بالإستقامة على شرع الله ، والأخذ بأسباب القوة التى أمر بها الله سبحانه فى آيات أخرى من كتابه العزيز .

ولقد أمر الله سبحانه فى كتابه العزيز المؤمنين بإعداد مايستطيعونه من أسباب القوة اللازمة لإحراز النصر على عدوهم وإرهابهم ، فقال وقوله الحق:(وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)(٢) .

---

(١) الرعد (١١) .
(٢) الانفال (٦٠) .
(*) انظر تفسير ابى السعود (٥ / ١٦٣) . وفتح القدير للشوكانى (٣ / ٢١٤) .

وانهزام المسلمين فى (أُحد) لم يكن من غير سبب، بل كان بسبب يعود إلى المؤمنين أنفسهم، وهذا ماكشف عنه القرآن بعد انهزامهم حيث يقول سبحانه وتعالى :

(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير)(١) .

المصيبة هى الغلبة، والقتل اللذان أُصيبوا بهما يوم أُحد . وقوله (قد أصبتم مثليها) هو يوم بدر ، وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعون وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين وأُسروا سبعين .

وأجاب الله سبحانه على تساؤل بعض الصحابة عن سبب انهزامهم وهم يقاتلون فى سبيل الله ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وعدهم الله بالنصر عليهم، فقال: (قل هو من عند أنفسكم) فبين لهم أن ماحدث إنما هو بسبب منهم، حيث خالف الرماة أمر رسول الله بلزوم المكان الذى عيّنه لهم، وعدم مفارقتهم له بأى حال(٢) .

من هذا يتبين أن للنصر والهزيمة سنة ربانية ثابتة تقوم على أن لكل منهما أسبابه ، فليس لأحد أن يطلب النصر دون إعداد وجهاد ، وليس لأحد أن يشكو الهزيمة قبل أن يدع أسبابها . وليس النصر يأتى بعصاً سحرية غامضة تدور فى الكون نبحث عنها فلا نجدها ، بل هو فى أسباب واضحة وجلية سأتحدث عنها بالتفصيل فيما يأتى .

ولا أود أن أدع الكلام عن سنة الله فى النصر والهزيمة دون أن أنبه على أن كون هذه السنة قائمة على اتخاذ الأسباب لا يعنى أن انتصار المسلمين يتوقف على تفوق المسلمين على أعدائهم فى هذه الاسباب ، اذ إن هذا هو من شأن انتصار الكفار بعضهم على بعض، كما أنه من شأن قتال المسلمين مع اعدائهم اذا تخلى المسلمون عن دينهم، حيث يكلهم الله الى أنفسهم ويحجز نصره عنهم

---

(١) آل عمران (١٦٥) .
(٢) انظر فتح القدير للشوكانى (١/ ٣٩٦) .

فيصبحون هم واعداؤهم سواء فى هذا الشأن ، وتكون الغلبة فقط لمن تفوق على خصمه فى حشد أكبر قدر من الأسباب المادية .

وأما اذا صلح حال المسلمين فانهم مأمورون بأخذ المستطاع من أسباب القوة . وان لم تبلغ بهم الاستطاعة إلا مقدار ثلث قوة العدو ، فإن الله جلّ وعلا تكفل بنصرهم وتأييدهم على عدوهم إذا أحسنوا التوجه إليه ، وكانوا أهلا لنصره وتأييده . ولا يلزم للانتصار على عدوهم أن يكونوا متفوقين عليهم فى العَدد والعُدد - اذا لم يكن هذا فى استطاعتهم - ، كما أنهم قد ينتصرون عليهم بأقل من ثلث قوة العدو كما حصل للمسلمين فى بعض معاركهم .(١)

والذى يفيد أن النصر على الاعداء غير مقيد بالتفوق عليهم ، بل يحصل من امتلاك المسلمين ثلث قوتهم هو قوله تعالى:(ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين * ياأيها النبى حرّض المؤمنين على القتال إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وانْ يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإنْ يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وانْ يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين)(٢) .

لقد بيّن الله سبحانه كفايته لرسوله ولمن تبعه من المؤمنين فى جميع أمورهم ، خاصة الأمور الواقعة بينهم وبين الكفرة بقوله (ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)(٣)، والكفاية هنا هى كفاية النصر وحصول الظفر بالأعداء فى المعارك .

وأمر باعداد أسباب النصر من خلال التذكير بتحريض المؤمنين على القتال فقال :(ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال) أى بالغ فى حثهم عليه وترغيبهم فيه . والأمر بالتحريض على القتال جاء فى سياق بيان كفاية الله لهم بالنصر والتأييد ، مما يفيد ضرورة إعداد الأسباب التى سيرتب الله عليها حصول كفايته لهم بالنصر والامداد . وفصّل ذلك بقوله : (إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . . الآيات) أفادت الآيات وجوب ثبات المقاتل المؤمن أمام عشرة من المقاتلين الكفار ، ثم خُفف الأمر إلى أن يثبت الواحد أمام الإثنين منهم .

---

(١) انظر مبحث عدم الاغترار بالكثرة أو اليأس من القلة . صفحة (٢٣١) .
(٢) الانفال (٦٤ - ٦٦) .
(٣) انظر تفسير ابى السعود (٤ / ٣٣ ، ٣٤) وابن كثير (٢ / ٣٢٤) .

وحملت أيضا وعداً من الله وبشارة بنصر المؤمنين وانْ كانوا - بعد التخفيف - ثلث عدوهم ، مادامُوا صابرين .

وقد فسّر الإمام الطبرى الآيات على أنها إخبار من الله بحصول الغلبة للمسلمين فى حالتى القوة والضعف على ماذُكر فيها ، وأثبت فى نفس الوقت مايقتضيه الخبر من إيجاب الثبات فى وجه العدو. ونقل فيما نقل بسنده عن مجاهد فى قوله تعالى:(ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) أنّه قال : كان فرض عليهم إذا لقى عشرون مائتين أن لا يفروا ، فإنهم إن لم يفروا غلبوا ، ثم خفف الله عنهم فقال:(إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله) فيقول : لا ينبغى أن يفر ألف من ألفين ، فإنهم إن صبروا لهم غلبوهم.(١)

وفسّر الإمام أبو السعود الآيات على سبيل الإخبار بالوعد المتضمن للأمر بالثبات فقال عند قوله تعالى:(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين):وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الإستئناف بعد الأمر بتحريضهم.(٢) وكذا فسرها ابن كثير(٣)، والنسفى(٤) ، والشوكانى ، وأضاف بذكر الجواب على من خالف ذلك لمخالفة الواقع للخبر أحياناً، إذ يكون المسلمون مثل عدوهم فلا ينتصرون عليهم فقال: (وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا فى الخارج لا يخالف مافى الآية ، لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر)(٥) .

ومرادى مماسبق ذكره هو التأكيد على أنه لا يلزم لانتصار المسلمين على الكفار أن يكونوا مساوين لعدوهم أو متفوقين عليهم فى أسباب القوة ، بل يكفى لإحراز النصر عليهم أن يكونوا فى ثلث قوتهم اذا كانت هذه غاية استطاعتهم.

ولا شك أن الأسباب المعنوية والشرعية منها خاصة تعوّض مابهم من نقص، وتكفل لهم رضى الله وتأييده ، وهو بيده العزة والنصر جميعا . واما الأسباب المادية فهى الغطاء لتحقيق قدر الله بالنصر. وهى فى حق المؤمنين ابتلاء لاظهار صدق توجههم الى الله .

---

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن للإمام محمد بن جرير الطبرى (٦ / ٣٨ ، ٤١) دار الفكر بيروت ١٤٠٥هـ/٨٤م

(٢) تفسير ابى السعود (٤ / ٣٤) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ / ٣٢٤) .

(٤) تفسير النسفى (٢ / ١١٠) .

(٥) تفسير فتح القدير للشوكانى (٢ / ٣٢٤) .

الباب الثاني

الأسباب المعنوية للنصر والهزيمة في الكتاب والسنة

ويشتمل على تمهيد واثنى عشر سببًا وهي :-

١ - الإيمان والعقيدة البناءة .
٢ - الإخلاص وسلامة المقصد .
٣ - التقوى وعدم مقارفة المعاصي والذنوب .
٤ - الشورى في المعركة .
٥ - الحرب النفسية .
٦ - عدم الإعجاب بالكثرة أو اليأس للقلة .
٧ - الاتحاد في المعركة .
٨ - الشجاعة وإرادة القتال .
٩ - التوكل على الله .
١٠ - الطاعة والانضباط في المعركة .
١١ - الذكر والدعاء في المعركة .
١٢ - الصبر والثبات في المعركة .

تمهيـــــــــــــــــــد

أسباب النصر تعود فى أصلها إلى أسباب القوة التى تمتلكها الأمة، لأن النصر هو أثر عن حالة القوة فى الأمة ، كما أن الهزيمة أثر عن حالة ضعف الامة . وتسهم القوة بنوعيها المعنوى والمادى فى إحراز النصر، كما يسهم الضعف بصنفيه فى وقوع الهزيمة، ولذلك فإن أسباب النصر والهزيمة تنقسم إلى أسباب مادية وأسباب معنوية .

ويدخل فى جملة الأسباب المعنوية الأسباب الشرعية، التى شرعها الخالق جل وعلا لعباده المؤمنين، كى يتوصلوا بها إلى تأييده وامداده ونصره وحسن توفيقه، كالدعاء والتوكل والتقوى ، فإنها من الأسباب التى يستعين بها المؤمن لقضاء حوائجه ، كما تستعين بها الأمة للفوز بتأييد الله ونصره .

ولا يمكن فصل أسباب النصر عن أسباب الهزيمة، لأن فقدان سبب من أسباب النصر يعنى فى المقابل ظهور سبب من أسباب الهزيمة ، كما ان اجتناب سبب من أسباب الهزيمة يعنى فى المقابل توفر سبب من أسباب النصر. فالسبب إذا وجد كان سببا فى النصر، واذا فقد أو وجد نقيضه كان سببا فى الهزيمة .

وتتفوق الأسباب المعنوية على الأسباب المادية فى درجة التأثير على المعركة واحراز النصر، لأن الأسباب المعنوية - على وجه العموم - تكون خافية على العدو، ويكون من الصعب عليه رصدها ، وتقدير حجمها ، ومواجهتها بأسلحة تبطل تأثيرها . كما أنها من جهة أخرى تكون نابعة من صميم قلب الأمة وجيشها ، وتمثل وزنا كبيرا فى تحفيز الأمة واستنهاض همتها ضد العدو. . . ، ولذلك فان نابليون قدّر تأثير العامل المعنوى بثلاثة أضعاف تأثير العامل المادى (١)، وذهب كلا وزفتز الى أكثر من هذا حيث قال : (ان القوى المعنوية هى التى تحدد نتيجة المعركة (٢)) .

---

(١) الرسول القائد / اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٧٩ - دار الفكر الطبعة الخامسة .

(٢) استراتيجية الفتوحات الاسلامية / الرائد وليد محمد جرادات - ص ٤٤ طبعة مديرية المطابع العسكرية .

ولوقدر لنابليون أو كلاوزفتز أن يكونا مسلمين معتقدين بالأسباب الشرعية ، فكم ياترى سيكون تقديرهما لقيمة الأسباب المعنوية - حسب مفهوم المسلمين - فى احراز النصر ؟ انّ دخول الأسباب الشرعية فى جملة الاسباب المعنوية يجعل هذه الاسباب كفيلة بقلب موازين المعركة واحراز النصر ، لأن الأسباب الشرعية - فى حقيقتها - هى مناط حصول النصر الربانى للمؤمنين .

وليس ما ذكرت هو دعوة لترك الاسباب المادية أو التهوين من قيمتها فقد اهتم الاسلام بها كما سترى . ولكن المراد هو وضع كل قسم من هذه الاسباب فى الاطار والحجم الصحيحين الذين وضعها فيه الاسلام ، وحتى لا نقع فريسة لخديعة الاستعمار بأنا لا نقوى على النصر الا بالسلاح المادى وحده ، لالقاء الخور واليأس فى نفوس المسلمين ، ولسلخهم عن عقيدتهم وشريعتهم التى هى مصدر قوتهم وعزتهم .

وسأحاول تفصيل الاسباب المعنوية للنصر والهزيمة من خلال استعراض نصوص الكتاب والسنة مع التمثيل بنماذج من جهاد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، لأن هذه السيرة هى بمثابة التطبيق العملى لنصوص الكتاب والسنة ، وهى خير شاهد على قيمة كل سبب من الاسباب المعنوية والمادية فى احراز النصر ، لأنها سيرة حافلة بمشاهد الفتح والنصر . . . . . .

السبب الأول

الايمان

الايمان بالله هو سر انتصارات المسلمين :

إن الايمان بالله سبحانه هو مصدر القوة والعزة والنصر. وبيان هذا من وجهين :

الأول : أن الله سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والتمكين مع الأخذ فى الاعتبار سنة الله فى النصر - وبذلك فإن الايمان شرط تحقيق الوعد بالنصر.

يقول سبحانه وتعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)(١). فهذا هو وعد الله الذى أنزله بمنزلة الحق الواجب على نفسه ، وهو نصر المؤمنين من أى جنس أولون كانوا وفى أى زمان أو مكان ، فإنهم حقيقون بنصر الله ماتحقق فيهم الايمان بالله.

وسبق بيان هذا الوجه فى موضوع وعد الله للمؤمنين بالنصر. لذا فقد فأكتفى بالايجاز هنا.

الثانى : إن الايمان بالله يزود المجاهدين بطاقة وقوة عظيمة تجعل منهم جيشا لا يقهر. وهو ماسأفصله فى هذا المبحث.

إن الايمان بالله يجعل قلب المجاهد موصولا به سبحانه فى أشد ساعات المعركة فضلاً عن أهونها ، يتوجه الى الله ، ويعتمد عليه سبحانه ، ولا يخشى أحداً سواه. يقول الله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم* الذين قال لهم الناس ، ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل* فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم)(٢).

---

(١) الروم (٤٧).

(٢) آل عمران (١٧٣ - ١٧٥).

لقد د فع الايمان الصحابة - رضوان الله عليهم - لأن يستهينوا بتهديدات المشركين لهم عقب أُحد ، وأن لا يهابوا الجموع التى أعدوها لقتالهم.

أخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن عائشة رضى الله عنها : (الذين استجابوا (١) لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . . .)-الآية - قالت لعروة يا ابن أختى كان أبوك منهم (٢) الزبير وأبوبكر لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - ما أصاب يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا ، قال : من يذهب فى إثرهم ، فانتدب منهم سبعون رجلا قال : كان فيهم أبوبكر والزبير) .

لقد خرج الصحابة لقتال المشركين رغم خروجهم من معركة أُحد ، وقد أصابهم ما أصابهم يومها .

وكان للايمان بالله شأنه فى خروج الصحابة لمقاتلة المشركين فى حمراء الاسد ، وعدم تخوفهم من جموعهم وتهديداتهم ، إذ الإيمان بالله يقتضى ترك مخافة غير الله (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) . كما أنه جعل قلوبهم تطمئن الى جنب الله ، وتتوكل عليه سبحانه ، وتفوض الأمر اليه وحده ، دون أن ينال ذلك من عزيمتهم أو إيمانهم بل زادهم إيمانا مع إيمانهم .

فالايمان بالله هو الذى ثبتهم فى الخروج لقتال أعدائهم بعد أحد ، وقد نالهم فيها ما نالهم ، وهو سبب نصرهم عليهم .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى - باب الذين استجابوا لله والرسول (٣ / ٢٦) ومسلم فى كتاب الفضائل ، باب فضائل طلحة والزبير (٤ / ١٨٨٠ ، ١٨٨١) .

(٢) هكذا وردت . والصواب : كان منهم ابوك الزبير ، وابوبكر .

ان الايمان بالله قوة عظيمة تقلب كل موازين القوى فى أى معركة تسلّح المجاهدون فيها بالايمان الحق ، لأنه يزودهم بدوافع نفسية - كما سنفصله قريبا - تملأ نفوسهم فداء وتضحية واستبسالاً فتحارب هذه الدوافع إلى جانب أصحابها كما يحارب الجندى إلى جانب أخيه . ولهذا كان حساب المسلمين فى موازين القوى أضعاف غيرهم من الكفار ، فقد كلف الله سبحانه المجاهد المؤمن فى أول الاسلام أن يثبت أمام عشرة ، ثم خفف الله عنهم فجعل المؤمن الصابر يثبت لإثنين ، وجعل ذلك حكما يلزم كل مؤمن الى يوم القيامة . فالمجاهد المؤمن مُقَدّر بما فى قلبه من إيمان وعقيدة تبعث فيه روح الشجاعة والفداء والتضحية ، وتخلع من نفسه أسباب الخوف أو الضعف . والكافر ليس فى قلبه عقيدة صادقة تدفعه الى كل ذلك فيؤثر الدنيا على الآخرة ، والقعود على القتال .

يقول الله سبحانه: (يأأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله ، والله مع الصابرين)(١) .

فالله سبحانه بين لنبيه عليه الصلاة والسلام أنهم بالايمان والصبر مؤهلون للنصر ، وأما الكفار فهم غير مؤهلين لأنهم لا يفقهون ، أى لا يؤمنون .

والايمان بالله سبحانه يحتّم على كل مؤمن - قادر - أن يكون مجاهداً فى سبيل الله بماله ونفسه . يقول تبارك وتعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون)(٢) . فالمجاهد بنفسه وماله هو المؤمن الصادق ، ومن سواه لا يملك دليلا على صدق دعواه .

---

(١) الانفال (٦٥ ، ٦٦) .

(٢) الحجرات (١٥) .

يقول عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم - واللفظ له - وأبوداود والنسائى عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله : (من مات ولم يغزُو ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبة من نفاق)[1] .

فالمؤمن الصادق هو المجاهد فى سبيل الله أو المعد نفسه للجهاد ، والا فهو من المنافقين .

واذا كان الأمر كما تبين سابقا ، فإن كل مؤمن هو جندى فى جيش الاسلام - الا من عذره الله لعذر لا يمكنه من الجهاد - ، ومن ثم فان المجتمع الاسلامى كله مجتمع مجاهد . . ، بهذا نرى أن الايمان يستنفر كل الطاقات البشرية والمادية للافادة منها فى معركة التحرير والنصر . . .

والايمان بصفات الله عزوجل يجعل المجاهد يلجأ الى الله وحده يستعين به فى السراء والضراء وحين البأس ، ويجعله فى درجة عالية من الأمن والطمأنينة ، حتى فى أشد ساعات المعركة لأنه يؤمن بأن الناصر هو الله ، وأنه سبحانه معهم أينما وحيثما كانوا بالنصر والمعونة والامداد ، ومن ثم فان الايمان سبب للنصر .

يقول الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - مانصه : (ان الايمان بالله اتصال بالقوة الكبرى التى لا تضعف ولا تفنى . . . وان الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها . . . ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة فى هذا الكون . . .)[2] .

---

(١) اخرجه مسلم فى الامارة ، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو (٣ / ١٥١٧) . واخرجه ابوداود فى الجهاد ، باب كراهية ترك الغزو (٣ / ١٠) . والنسائى فى الجهاد ، باب التشديد فى ترك الجهاد (٦ / ٨) .

(٢) انظر طريق الدعوة فى ظلال القرآن / أحمد فائز (١ / ٣٤٧ ، ٣٤٨) .

ولقد حقق المسلمون عبر تاريخهم الطويل انتصارات لم يشهد لها تاريخ الانسانية مثيلا ، مما دعا المفكرين والساسة والعسكريين الى الوقوف أمام هذه الانتصارات وقفة دهشة واعجاب واكبار.

ومبعث الدهشة عند هؤلاء يكمن في أمور أهمها :

١ . النُّقلة البعيدة التي انتقلها أهل الجزيرة العربية ، فبعد أن كانوا رعاة أصبحوا قادة ودعاة ، حققوا كل تلك الانتصارات.

٢- السرعة الفائقة التي تحققت فيها تلك الانتصارات (والتي لم يسبق لها مثيل حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا في ثمانين سنة اكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة سنة، وكان نابيلون يقول ان العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن[1]) .

٣- تحقق تلك الانتصارات رغم الفجوة الهائلة بين المسلمين وخصومهم ، فقد كان الفرس والروم يملكون قوى مادية وبشرية أضعاف ما لدى المسلمين مما يعني في الحسابات البشرية- تفوقهم عليهم، رغم هذا فانهم حطموا تلكما الامبراطوريتين ، وحققوا الانتصارات رغم قلة امكاناتهم ، ووفرة امكانات عدوهم وتقدم خبراتهم القتالية .

ولا شك أن الاسلام هو الذي خَرَّج أولئك القادة وحقق تلك الانتصارات، والا فما هي الحال التي كان عليها العرب، وما هو شأنهم بين الأمم قبل الاسلام؟

ان السبب الرئيس في انتصارات المسلمين هو ما كانوا عليه من عقيدة بناءة أُحيت قلوبهم ، وألهبت حماستهم فجعلتهم يندفعون أُسوداً في ساحات الوغى وميادين القتال يستميتون في سبيل هذه العقيدة ، وعلى النقيض منهم كان عدوهم ، فلا عقيدة صادقة تجمعهم ، ولا إيمان صادق يدفعهم ، فكانوا يحرصون على الحياة حرص المسلمين على الممات في سبيل الله ، ومن ثم فلا قوة لهؤلاء الأعداء بأن يقفوا في وجه جنود الله .

---

(١) آيات الجهاد في القرآن الكريم / د . كامل الدقس ص ١٤٧ / دار البيان. الكويت (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) .

ويجمل بنا هنا أن نستشهد بما كتبه أحد أبرز القادة المسلمين المعاصرين اللواء الركن محمود شيت خطاب، إذ يقول : (. . لم ينتصر العرب والمسلمون مطلقا بكثرة العدد، وقد كان أعداؤهم متفوقين عليهم بالعدد في كل معركة خاضوها ، وقد انتصرت الفئة القليلة من العرب المسلمين على الفئة الكثيرة من العرب غير المسلمين ، ومن الفرس والروم وحلفائهم ، بالعقيدة وحدها ، وأتحدى من يثبت خلاف ذلك . . ، ان الاسلام بالنسبة للعرب هو السلاح السري الذي جعلهم يقودون العالم قرونا طويلة في ميادين السياسية والحضارة والحرب) (١) .

ولقد أدركت فئة - كما سنبينه - من أولئك المفكرين والساسة والعسكريين بأن الاسلام هو سر ماحققه العرب المسلمون من انتصارات رائعة ، ولذا فقد نبه كثير من المنصرين والمستشرقين الدول الاستعمارية في العصر الحديث على ضرورة سلخ المسلمين عن إسلامهم بوسائل عديدة ، لنزع سر القوة من أيدي المسلمين حتى لا يتحقق لهم ماتحقق لأجدادهم بهذا الدين .

---

(١) الاسلام والنصر/ اللواء الركن محمود شيت خطاب . ص ٢٧ ، باختصار . طبعة دار الفكر. الطبعة الاولى (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) .

أركان الايمان واثرها فى تحقيق النصر.

معلوم أن للايمان أُركانا يعتقد بها كل مؤمن مسلم، ولهذه الأركان ثمرات فى حياة الفرد والجماعة، إذ تجعل الفرد مقاتلا مؤمنا، يجاهد بدافع الايمان والعقيدة، وفى المجموع تكون الأُمة كلها مجاهدة لنصرة الايمان والعقيدة. ويمكن استعراض بعض أركان الإيمان لبيان أثرها فى إعداد جيش العقيدة، واحراز النصر، بعد أن تبين أن الايمان بالله هو سر النصر.

أولا - أثر الايمان باليوم الآخر: إنَّ من أبرز مقررات العقيدة الاسلامية الايمان بالبعث واليوم الآخر.

فالدنيا ليست هى الغاية القصوى فى نظر الاسلام، وليست دار مقر، وانما هى ممر يوصل إلى الآخرة.

واذا كان الأمر كذلك، فماذا يُتصور بالنسبة لحال المقاتل المؤمن وحال المقاتل الكافر؟ لاشك أن المقاتل المؤمن سيضحى بالدنيا وزينتها ليفوز بالحياة الآخرة، دار القرار النعيم.

والايمان باليوم الآخر سيجعله لا يكترث للدنيا ومتاعها ولا يخشى مايفوته منها باستشهاده، بل ويسعى بجهاده من أجل الوصول الى الحياة الآخرة.

وعلى النقيض من ذلك تكون الدنيا غاية الكافر ونهاية مايصبو إليه فيسعى ليتلذذ بها، ويحرص على أن لا يفوته شىء منها بوفاته، فيجبن فى المعركة، ويسيطر عليه الخوف لأن نهاية حياته ستكون بنهاية أجله كما يعتقد.

ومن ثم فإنا نجد أن الإيمان باليوم الآخر يدفع المجاهدين المؤمنين لخوض المعركة بمعنويات عالية، وعزيمة صادقة، وشجاعة نادرة لا يملكها العدو، مما يساهم فى احراز النصر عليهم.

ثانيا : أثر الايمان بالقضاء والقدر. وان من اركان العقيدة الاسلامية أيضا الايمان بأن الأمور مقدّرة بيد الله عزوجل ، وماأصاب الانسان ماكان ليخطئه ، وماأخطأه ماكان ليصيبه إلا باذن الله . يقول سبحانه:(قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(١) .

ولهذه العقيدة أثر واضح فى إعداد وتكوين نفسية المجاهدين على الصبر وتحمل المشاق ، والرضى بما يصيبهم من قضاء الله وقدره .

ولها أثرها فى جعل المؤمنين يثبتون فى المعركة ويواجهون المهام الصعبة والمواقف الحرجة بصلابة ، وقوة ورباطة جأش.

كما أنها تعد نفوس المجاهدين لعدم الخوف من كثرة المشركين وقلة المؤمنين ، فالنصر بيد الله .

ثالثا : أثر الايمان بأن الأجل بيد الله عزوجل . من مقررات العقيدة الاسلامية أيضا أن الحياة والموت بيد الله سبحانه ، وأن لكل نفس أجلا لا يتقدم أويتأخر عن قدر الله سبحانه .

يقول جل شأنه:(وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا موجلا)(٢) .

ويقول سبحانه وتعالى:(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)(٣) .

وهذه الحقيقة الايمانية تثبّت قلوب المجاهدين فى المعركة ، وتنزع من نفوسهم الجبن والخوف فلا يهابون الموت لأنه بأجل لا يقدمه القتال ولا يؤخره الفرار .

---

(١) التوبة (٥٠) .

(٢) البقرة (١٤٥) .

(٣) الاعراف (٣٤) .

وهذه الحقيقة الايمانية ينتصر المؤمن على نفسه وعلى عدوه لأنه بها يحطم أوهام الخوف من الموت، أو الخوف من الأعداء ، وينطلق مجاهدا فى سبيل الله لا يوقفه عن غايته إلا أن يستشهد أو ينتصر.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم المخالف لاعتقاد المؤمنين فى ذلك يقول سبحانه : (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزى لوكانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيي ويميت والله بماتعملون بصير* ولئن قتلتم فى سبيل الله أومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) (١) .

نهى الله سبحانه أهل الايمان عن مشابهة أهل الكفر فى عقيدتهم الفاسدة الدال عليها قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار أو الحروب لوكانوا تركوا تلك الأسفار والحروب لما أصابهم ماأصابهم من الموت أو القتل.

واذا كان هذا اعتقاد أهل الكفر فلن تمكنهم هذه العقيدة الفاسدة من دخول المعركة بعزم وصدق ، ولن تثبّتهم عند الشدة ، وستدفع بهم الى الفرار من ساحة المعركة حرصاً على أرواحهم وحياتهم كما يظنون ،مما يعنى أنها ستكون سببا من أسباب هزيمتهم ،كما أن عقيدة المؤمنين بالله ستكون سبباً من أسباب انتصارهم.

من هنا نلمس الاختلاف البيّن بين عقيدة الإيمان وعقيدة الكفر، والدوافع التى توجدها كل من هاتين العقيدتين فى المعركة، والمساهمة التى تساهم بها فى تحقيق النصر أو الهزيمة.

فإذا كان اعتقاد المؤمنين يدفعهم إلى الشجاعة والصبر والثبات فإن اعتقاد الكفر يدفع بأهله الى الفرار من المعركة خوفا من الموت ظناً منهم بأن القتل قرين القتال.

---

(١) آل عمران (١٥٦ ، ١٥٧) .

ولقد شنّع الله سبحانه على المنافقين لالتقائهم مع أهل الكفر فى هذه العقيدة الفاسدة وماترتب عليها من أخلاق الفرار والجبن فى المعركة، وأفسد ظنهم وبدّد أحلامهم بالنجاة من القتل أو الموت اذا فرّوا من المعركة، وأعلمهم سبحانه بأن الموت سيدركهم وقتما وحيثما قدّر عليهم.

يقول سبحانه : (قل لن ينفعكم الفرار إنْ فررتم من الموت أو القتل واذاً لا تمتعون الا قليلا)(١) .

ويقول جل جلاله :(قل لوكنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم والله عليم بذات الصدور)(٢) .

رابعا : أثر الايمان بالجزاء فى الآخرة.

من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة أن الدار الدنيا دار عمل ، وأن الدار الآخرة دار جزاء ، فمن عمل فى دنياه خيراً جزاه الله فى الآخرة خيراً ، ومن عمل شراً جزاه الله به فى الآخرة.

وخلَق الله الجنة ثواباً لعباده المؤمنين والنار عقابا للكافرين.

لهذا فإن المؤمنين يبيعون حياتهم الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله وثوابه.

يقول سبحانه:(ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ، والله رؤوف بالعباد)(٣) .

ومن باع نفسه فى سبيل الله فقد هانت عليه الدنيا ، ولم يعد له فيها مايأسف عليه وذلك لطيب ماوعده الله به فى الآخرة ، يقول الله عزوجل :(فمامتاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل)(٤) .

---

(١) الاحزاب(١٦) .

(٢) آل عمران (١٥٤) .

(٣) سورة البقرة (٢٠٧) .

(٤) التوبة (٣٨) .

والجهاد فى سبيل الله من أعظم الطاعات وأكمل العبادات، ولذ لك وعد الله المجاهدين أرفع الدرجات فى الجنات كما بيّنت فى فضل الجهاد .

كما أن المجاهد المؤمن فى المعركة لا يخلو حاله من أحد أمرين : إما أن يُقتل وإما أن ينتصر، وفى كلا الأمرين وعده الله الثواب العظيم.

يقول جل شأنه : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (١) .

وعد الله سبحانه المجاهدين المؤمنين الجزاء فى حالتى النصر أو الشهادة ولذلك فإن المجاهد يشعر بالغبطه والبهجة للنتيجة ، فيقبل على المعركة غير هيّاب فى حين أن الكافر يشعر بالعذاب والألم.

يقول سبحانه:(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون) (٢) .

ولقد تكفل الله تبارك وتعالى بالثواب فى كل مايبذله المجاهد ، وفى كل مايتحمله من مشاق الجهاد ، ممايعنى خلق الدوافع الايمانية عند المجاهد التى تجعله يبذل كلّ مافى وسعه لتحقيق النصر . وفى هذا يقول سبحانه وتعالى:(ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون) (٣) .

---

(١) النساء (٧٤) .

(٢) التوبة (٥٢) .

(٣) التوبة (١٢٠ ، ١٢١) .

من كل ماسبق يتبين لنا دور الايمان والعقيدة الاسلامية باعتبارها سببا من أهم أسباب النصر، وبناء عليه ينبغى التأكيد على هذا السلاح ،الذى أغفله المسلمون فى بعض معاركهم مماسبب لهم الهزيمة أمام عدوهم.

ينبغى التأكيد على إعداد الجيش الاسلامى إعدادا إيمانيا مثلما يعد عسكريا حتى يكون جيش عقيدة يكتب على يديه وعد الله بالنصر.

وينبغى أن يرتفع لواء العقيدة شعارا للمعركة، وليس بعد هذا لدعىّ أن يدعو لاقصاء العقيدة عن المعركة فبهذه العقيدة يمكن أن نحقق ماحققه أسلافنا من النصر وبدونها نعيش فى ذل وهزيمة.

شهادات الأعداء بأثر الايمان والعقيدة الاسلامية فى إحراز النصر:

لقد أدرك بعض المفكرين والقادة والمنصرين من الغرب بأن سر عظمة المسلمين وقوتهم يكمن فى العقيدة الاسلامية. فقد نوه المؤرخ سير توماس أرنولد بأهمية العقيدة كسبب من أسباب النصر عند المسلمين فقال:(وكان ظهور مبادىء هذه العقيدة لأهالى بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى ،على يد النبى العربى - صلى الله عليه وسلم - الذى انضوى تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة، فلما امتلأ وا من آثار هذه الحياة القومية الجديدة (١)، ومن هذه الحماسة ،وتلك الحماية التى أمدت جنودهم بقوة لاتقهر، تدفقوا فى أنحاء ثلاثة يفتحون البلاد ويخضعون العباد)(٢).

وقال الفيلد مارشال مونتجمرى فى كتاب الحرب عبر التاريخ :(كان العرب (المسلمون) يندفعون نحو القتال ويحركهم أقوى دوافع الحرب، ألا وهو الايمان والعقيدة)(٣).

---

(١) ماكانت هذه الحياة قومية بالمعنى المتعارف عليه للقومية،بل هى حياة من صنع الاسلام.

(٢) الدعوة الى الاسلام(٢٥ ، ٢٦) تأليف توماس ارنولد .

(٣) عوامل النصر والهزيمة (٢١) تأليف شوقى ابو خليل /دار الفكر.

وكشف الأسقف (لفردى) في كتابه الكنيسة والعالم - عن طبيعة العقيدة الاسلامية وأثرها في قوة المسلمين وعظمتهم ونهضتهم فقال : (إن سر القوة الخارقة للعادة التي يظهرها الاسلام يرجع إلى إدراك هذا الدين وجود الله بإرادته العليا وسيادته المطلقه على الكون فوق أنه كامن في وحدانيته ، فهذا الايمان هو الذى منح المسلمين في عصورهم الزاهية روح الانقياد والنظام وازدراء الموت الذى لم نعرفه في أى نظام آخر . . هذا بالاضافة إلى أن العقيدة الاسلامية خالية من التعقيدات والتجريدات فهى من ثم في متناول إدراك الشخص العادى . إنها تملك قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس) (١) .

لذلك فإن الدوائر الاستعمارية أعلنت حربا ضارية على الاسلام لكى يجرد والمسلمين من دينهم وعقيدتهم ، فيسهل عليهم بعد ذلك إذلالهم واستعبادهم . . ، وعملت في سبيل ذلك بكل ماأوتيت من أساليب ووسائل لخصها المستشرق (ولفرد كانتول سمث) بقوله:(إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية لحرب الاسلام ، وانه خلق اسرائيل في قلب العالم الاسلامى كجزء من هذا المخطط المرسوم) (٢) .

ولكن ستبقى العقيدة الاسلامية - رغم كل هذه الحرب والمكيدة - مصدرا لقوة المسلمين ومنعتهم في وجه العدو ، وليس أدل على ذلك من وصف المبشر النصرانى (لورانس بروان) الاسلام بقوله : (إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربى) (٣) .

---

(١) الله او الدمار (٧٠ - ٧١) تأليف سعد جمعه .

(٢ ، ٣) أجنحة المكر الثلاثة (٥٧ - ٥٨) تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى .

ومن العجيب الغريب - بعد هذا كله - أن يعتقد بعض القادة فى العالم الاسلامى بأن لا صلة للعقيدة بالنصر . ومن الغريب كذلك أن تسعى بعض فئات المسلمين للنصر من دون هذه العقيدة بل مع عقوقهم لها ، ومجاهرتهم فى مخالفة أحكامها ، ويرفعون الشعارات الزائفة - التى لم تجلب لنا إلا الهزائم - ، فى حين أن اليهود اليوم يعبئون قادتهم وجيوشهم بالعقيدة التوارتية رغم فسادها - لأهمية الدافع الدينى فى شحذ همم الجيش ورفع معنوياته ، وتتم تعبئة الجيش بتلك العقيدة الفاسدة من خلال تدريسهم التوراة ، وعمل مسابقات سنوية فيها للجيش ، مع إكرام المتفوقين منهم ومنحهم الجوائز الفاخرة ، كما أن أفراد قوات المظلات الاسرائلية يؤدون يمين الولاء عند حائط المبكى يحملون البندقية بيد والتوراة فى اليد الأخرى ، كما ويتوافد أفراد الجيش وضباطه الى حائط المبكى لإقامة شعائرهم الدينية هناك (١) .

---

(١) اهداف اسرائيل التوسعية (٨٦) تأليف اللواء ركن محمود شيت خطاب. دار النصر للطباعة .

السبب الثانى :
==========

الاخلاص وسلامة المقصد

ان من اهم اسباب النصر وضوح المقصد لدى المقاتلين وايمانهم بسلامة هذا المقصد ، لما لذلك من الاهمية فى اقدام المقاتلين وصبرهم وثباتهم فى سبيل هذا المقصد . فهو بمثابة الوقود المعنوى للمقاتلين فى المعركة . لذا فان العسكريين يحاولون تحديد الهدف والقضية التى يقاتلون من اجلها . ويبذلون جهودا مكثفة واوقاتا طويلة لتثبيت هذه القضية فى نفوس المقاتلين ، وتتولى اجهزة التعبئة المعنوية فى الجيش محاولة اقناع الجيش بهذه القضية ، كما تتولى اجهزة الاعلام تكوين رأى عام مؤيد للقتال من أجل مقصدهم ذاك .

باعث الجهاد لدى المسلمين : والاسلام حدّد للمسلمين مقاصد جهادهم بوضوح ، وهى تنزل فى نفوس المجاهدين منزل الايمان الذى لا يتزعزع . وتتميز هذه المقاصد بالسلامة من كل المطامع البشرية التى هى من وراء قتال الكفار ، وسيتضح مدى ايمان المسلمين بالمقصد ، ومدى سلامة هذا المقصد ، وما لذلك من الاهمية فى تحقيق النصر .

لقد صرّح القرآن الكريم بأن مقصد المؤمنين من القتال هو (سبيل الله) كما فى قوله تعالى (١) : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) .

وقد وردت كلمة (الجهاد) وكلمة (القتال) فى كتاب الله مقيدة بعبارة (فى سبيل الله) أكثر من خمسين مرة تقريبا ، أذكر منها قوله جل شأنه : (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله) (٢) ، وقوله جل شأنه : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (٣) .

---

(١) النساء (٧٦) .
(٢) التوبة (٤١) .
(٣) التوبة (٨١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم بيّن كيف يكون القتال فى سبيل الله ، وذلك فيما أخرجه الشيخان - واللفظ للبخارى - عن ابى موسى الاشعرى قال : (جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال الرجل : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) (١) .

بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم ان القتال فى سبيل الله يعنى القتال لاعلاء كلمة الله . فسبيل الله هى كلمته ، أى دينه ودعوته .

يقول الشيخ محمود شلتوت : (كلمة (سبيل الله) وردت كثيرا فى القرآن الكريم وكلمة (سبيل) فى الاصل بمعنى الطريق المعبد ، تستعمل فى الخير ، وتستعمل فى الشر ومنه سبيل المجرمين ، وتضاف الى الله والى المؤمنين فيقال : سبيل الله ، وسبيل المؤمنين وهى حينئذ تلتقى بمعناها مع كلمة (الصراط المستقيم) وكلاهما بمعنى مارسم الله لعباده من الايمان بالحق والدعوة اليه وعمل الخير والحث عليه ، فاعلاء كلمة الله ونشر دعوة الاسلام من سبيل الله . ودفع الاعداء اذا هددوا امتنا من سبيل الله ، او اغاروا على ارضنا ، او نهبوا اموالنا من سبيل الله ... وعلى العموم فسبيل الله عبارة عن تأييد الحق واحلال الخير والصلاح محل الشر والفساد ، ووضع العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة) (٢) .

فاذا ما تبين ان القتال فى سبيل الله معناه القتال لاعلاء كلمة الله فان هذا هو بمثابة المقصد الاساسى للجهاد ، ويدخل فيه جملة البواعث التى فصلتها فى فصل (بواعث الجهاد) لانها جميعا يتحقق فيها المقصد الاساس وهو اعلاء كلمة الله . ولا شك ان هذا السبيل هو سبيل الحق والخير والعدالة والهداية ، وفيه صلاح البشرية

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا (٢ / ١٣٩) . ومسلم فى الامارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله (٣ / ١٥١٢ ، ١٥١٣) .

(٢) تفسير القران الكريم (٦٤٩ ، ٦٥٠) باختصار وتصرف . دار الشروق ، الطبعة العاشرة (١٩٧٣م) .

وسعادتها وهدايتها فى الداريـن . فاذا ماتقرر القتال من اجله فانما هو قرار وقتـال من اجل هداية الناس وصلاحهم، وهو منزه عن المطامع البشرية والنوازع العدوانية التـى هى من حال قتال البشر الذين يحكمهم الطاغوت ، وقد فصلت هذا فى موضوع (بواعث الجهاد) فيمكن الرجوع اليه .

واذا كانت هذه هى المقاصد المشروعة من جهاد المؤمنين ، فان نزول تأييد اللـه ونصره عليهم مرهون بالتزامهم بهذه البواعث وخلاصهم مما سواها مما ليس فيه اعلاء لكلمة اللـه كما سأبينه فى نهاية هذا المبحث ان شاء الله .

وكما يلزم ان تكون البواعث العامة للجهاد خالصة من الاغراض الدنيوية والمطامـع العدوانية، فان الباعث الذاتى للجهاد عند كل مجاهد ينبغى ان يكون هو باعث الاخـلاص لوجه الله تعالى .

أخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول اللـه صلى الله عليه وسلم :(تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه الا جهادا فى سبيلى وايمانـا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن ان ادخله الجنة او ارجعه الى مسكنه الذى خرج منـه نائلا مانال من اجر او غنيمـة . . . .) (١) .

قال النووى فى معنى قوله (لايخرجه الا جهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى) قال: معناه لايخرجه الا محض الايمان والاخلاص لله تعالى . (٢)

يجب ان يكون الاخلاص كباعث ذاتى فى نفس المجاهد هو المحرك له لتحقيق الباعـث الخارجى الذى يتم به اعلاء كلمة الله ، وبهذا وذاك يكون المجاهد/ مجاهدا فى سبيل الله كما يكـون الجهاد فى سبيل الله ، وبهما معا يتكفل الله سبحانه للمجاهدين بالثواب والجنة ، كمـا يكفل لهم النصـر .

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد ، باب قول النبى (احلت لكم الغنائم) (٢ / ١٩٢)
ومسلم فى الامارة ، باب فضيلة الجهاد والخروج فى سبيل الله (٣ / ١٤٩٥) .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى (١٣ / ٢٠) .

وحتى يكون الجهاد خالصا لوجه الله تعالى ينبغى ان لاتشوبه شائبة من الاغراض النفسية او الطائفية او القومية ، ويجب ان لاتشوبه شائبة من الشهوات كحب المال او الجاه او الرياء والسمعه ، والا فهو مجاهد من اجل ذلك الغرض او تلك الشهوة وليس مجاهدا فى سبيل الله .

فقد مرّ فى حديث ابى موسى الاشعرى - فى اول هذا المبحث - ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله ؟ فاجابه النبى صلى الله عليه وسلم : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) فنفى بهذا ان يكون القتال من اجل الغنيمة او الفخر والرياء والسمعة قتالا فى سبيل الله ، وخص القتال فى سبيل الله بمن قاتل لاعلاء كلمة الله .

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر - ان اول ماتسعّر به النار من استشهد ولم يرد بقتاله وجه الله وانما اراد به شيئا من الدنيا كالرياء والسمعة .

اخرج الامام مسلم بسنده عن ابى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (١) (ان اول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لان يقال جرىء فقد قيل ، ثم امر به فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار . . . .) .

وحذر صلى الله عليه وسلم من ان يقاتل المرء لغرض قومى اوطائفى . اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والنسائى عن جندب بن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) (من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية ، او ينصر عصبية فقتلة جاهلية) .

---

(١) اخرجه مسلم فى الامارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (٣ / ١٥١٣ ، ١٥١) .

(٢) اخرجه مسلم فى الامارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (٣ / ١٤٧٨) . والنسائى فى كتاب تحريم الدم ، باب التغليظ فيمن قتل تحت راية عمية (٧ / ١٢٣) .

نقل النووى عن الامام احمد قوله فى المقصود بالراية العمية : هى الامر الاعمى لا يستبين وجهه .(١)

وفى هذا تحذير من القتال تحت راية غير راية التوحيد ولغاية غير اعلاء كلمة الله ، لذا فانه من الواجب استبيان الغاية التى يقاتل من اجلها والراية التى يقاتل تحتها ، اذ لابد ان تكون الراية اسلامية واضحة والغاية اسلامية نظيفة من كل الاهواء والمطامع البشرية .

ومن المطامع والاهواء البشرية التى حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث القتال لنصرة القوم او الطائفة من الناس غضبا لهم وتعصبا من اجلهم . وهذا القتال قتال غير مشروع ، بل هو قتال جاهلى ، اذ أن من شأن اهل الجاهلية ان يقاتل كل فريق منهم الآخر نصرة لفريقه من بنى قومه او جنسه او طائفته . لذا فقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث من قتل فى قتال كهذا بصفة الجاهلية (فقتلة جاهلية) اى انه مات على صفة اهل الجاهلية ، وذلك لاتفاقه معهم فى الغاية التى يقاتلون عليها فاهل الجاهلية لا يقاتلون فى سبيل الله ، وهو بقتاله نصرة لعصبية لم يقاتل فى سبيل الله كذلك .

ولا يقتصر تجرد المجاهد من هذه الاهواء والشهوات فقط ، بل ينبغى ان يتجرد من كل شىء يخالط قصد اعلاء كلمة الله . وجماع هذا الامر قوله تعالى :(وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين . .)(٢) والجهاد من اعظم العبادات وافضل القربات فالاخلاص فيه واجب لاتصح العبادة ولا تقبل عند الله الا به .

والخلاصة مما سبق ان المقصد الاساسى الذى يدفع المؤمن للجهاد هو ماذكر فى الكتاب والسنة بلفظ (سبيل الله) ، ويمكن تقسيم هذا المقصد باعتبارات الى اقسام : -

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٢٣٨) .

(٢) البينة (٥) .

الاول : باعث ذاتي (داخلي) يدفع المؤمن الى الخروج للجهاد ، وهو عبارة عن محض الايمان والاخلاص لله تعالى .

الثاني : باعث خارجي يسعى المجاهد الى تحقيقه في الدنيا وهو اعلاء كلمة الله في الارض يفصله موضوع بواعث الجهاد .

والغاية القصوى التي يرجوها المؤمن من جهاده في الآخرة هي نيل رضوان الله ورحمته ومغفرته ، وبلوغ جنته والظفر بما اعده من ثواب عظيم للمجاهدين في سبيله .

باعث القتال عند الكفار :-

اما وقد تبين سمو مقاصد الجهاد الاسلامي عن كل المطامع والنزوات الدنيوية التي هي من شأن الحروب الجاهلية ، فانه يجمل بنا الوقوف هنا لبيان ماذكره القرآن في المقاصد العامة من القتال عند الكفار ليتضح مدى سلامة مقاصد الجهاد الاسلامي . ومدى اثم مقاصد اهل الكفر والشرك واجرامهم .

لقد بين الله سبحانه وتعالى مقصد الكفار من القتال بعد أن بين مقصد المؤمنين فقال جلا وعلا:(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا)[١] .

قال الاستاذ محمد عبده في معنى الطاغوت : الطاغوت من المبالغة في الطغيان وهو مجاوزة حدود الحق والعدل والخير الى الباطل والظلم والشر .[٢] وأوّله الشوكاني بالشيطان .[٣]

اي ان معنى القتال في سبيل الطاغوت : هو القتال الذي يتجاوز فيه الناس الحق والعدل والخير الى الباطل والظلم والشر ، بدافع من الشيطان الذي يزين لهم الباطل في صورة الحق ، والظلم في صورة العدل ، والشر في صورة الخير ، او لارضاء الشيطان الذي اصبح بمثابة معبودهم من شدة انقيادهم له .

---

(١) النساء (٧٦) .

(٢) تفسير المنار : الاستاذ / محمد رشيد رضا (٥ / ٢١١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) فتح القدير للشوكاني (١ / ٤٨٧) .

غيرهم

و قتال الكفار في العموم هو تجاوز للحق والعدل والخير من اجل التمكين لباطلهم بالقهر والظلم، وليعيثوا في الارض الفساد ، وهو انقياد للشيطان الذى يوحى اليهم الشرور والاثام وفعل السوء ، وهو ارضاء لنزوات نفوسهم المريضة بالشهوات والمطامع والغرور .

وبعد ان بيّن الله سبحانه وتعالى غاية القتال عند الكفار قال : (فقاتلوا اولياء الشيطان) وصفهم بانهم اولياء للشيطان ، ووصفهم بهذه الولاية هو لبيان ان اعمالهم وقتالهم انما هو موالاة للشيطان وابتغاء مرضاة الشيطان .

وهو في المقابل - يشعر بأن المؤمنين اولياء لله تعالى حيثان قتالهم في سبيله. وكل ذلك لتقوية عزائم المؤمنين على القتال ، لان ولاية الله تعالى عَلَم في العزة والقوة ، كما ان ولاية الشيطان مثل في الذلة والضعف (١) ، وصرح الله سبحانه بضعف الشيطان بالتعقيب بقوله (ان كيد الشيطان كان ضعيفا) .

ولقد بين الله سبحانه غاية كفار قريش من خروجهم لقتال المسلمين في بدر في سياق نهي المؤمنين عن التشبه بهم ، فقال سبحانه : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) (٢) .

خرج المشركون ليحفظوا العير التى مع ابى سفيان ومعهم القيان والمعازف، فلما علموا بنجاة العير قالوا : لا نرجع حتى نرد بدرا ونحر الجزور ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا ابدا (٣) .

فكان ذلك منهم بطرا وطلبا للثناء من الناس وللتمدح اليهم والفخر عندهم. وكان خروجهم للصد عن سبيل الله ، والصد : اضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية (٤) ،

---

(١) انظر تفسير ابى السعود (٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣) .
(٢) الانفال (٤٧) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٣١٧) .
(٤) انظر تفسير فتح القدير للشوكانى (٢ / ٣١٥) .

ومعلوم ان قريشاً كانت تبذل كل مافى وسعها من اجل ا ن لاتنتشر الدعوة الجديدة فى الآفاق ، لذا فقد حاربت قريش المسلمين فى مكة والمدينة بكل مالديها من وسائل .

والقتال بقصد الصد عن دين الله جريمة كبيرة ، اذ ان الاسلام هو المنقذ للبشرية ، فهو دين الحق والعدل فيه الهداية والصلاح ، ومن حق الناس جميعا ان يروا نوره ، ويسعدوا باحكامه وتشريعاته ، ومن صدهم عن ذلك فانه لم يقصد بذلك خير البشرية وصلاحها .

اهمية كون الجهاد (فى سبيل الله) فى احراز النصر :

لقد تبين المقصد الذى شرع الله من اجله الجهاد ، والاحترازات اللازمة لصحته كعبادة ، كل ذلك مبين بالكتاب والسنة ، مما يعنى أن الجهاد بهذا المقصد وتلك الاحترازات هو المأمور به شرعا ، وغيره فمنهى عنه شرعا كذلك .

والله سبحانه وتعالى وعد عباده المجاهدين بالنصر كما هو مبين فى موضوع (وعد الله للمؤمنين بالنصر) ، فاذا قصد المجاهدون من جهادهم نفس المقاصد المشروعة وتجردوا من الاحترازات المحظورة فقد اصابوا فى جهادهم . واذا كان الامر كذلك فانهم هم الموعودون بنصر الله . واما اذا جاهدوا لغير تلك المقاصد فانهم لن ينالوا نصر الله لانهم لم يجاهدوا فى سبيل الله ، فلا يستحقون نصره .

ولما كان قتالهم فى سبيل الله فانهم بهذا قد دخلوا فى ولاية الله التى هى عنوان العزة والقوة والنصر . وقد تكرر فى مواضع كثيرة من كتاب الله الجمع بين ولاية الله للمؤمنين وصفة النصير مما يشعر ان من تولاهم الله - لجهادهم فى سبيله - فهو ناصرهم ، وانظر الآيات مثل قوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير * وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير)(١) .

---

(١) الانفال (٣٩ ، ٤٠) .

ومثل قوله تعالى:(واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير)[1] .

وقوله تعالى:(والله اعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا)[2] .

وقوله تعالى:(بل الله مولاكم وهو خير الناصرين)[3] .

وبين القرآن الكريم ان ولاية الله للمؤمنين تحوطهم الحفظ والرعاية ، وتنزل بعدوهم القهر والتعذيب والتدمير.يقول تعالى:(افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين امثالها * ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم)[4] . وصرح القرآن هنا ان لا مولى للكافرين ، وصرح فى غير هذا الموضع ان الشيطان مولى الكافرين فقال تعالى:(فقاتلوا اولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا) .

وقد يتوهم احد التعارض بين هاتين الآيتين ، ولا تعارض فى الحقيقة اذ المراد بان لا مولى للكافرين :اى لا ناصر لهم ، والمراد بولاية الشيطان فى الآية الاخرى هى ولاية الاضلال ، والتزيين ، والاغراء بفعل السوء .

والكفار وليهم الشيطان (فقاتلوا اولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا) وكيد الشيطان ضعيف فى ذاته ، ولا شأن لكيده امام قوة الله وجبروته ، ولذا فان ابليس -لعنه الله- عندما التقى جيش المسلمين بجيش المشركين يوم بدر فرّ هاربا ونكص على عقبيه وتبرأ منهم بعد ان جاءهم فى صورة سراقة بن مالك واطمعهم فى قتال المسلمين[5] ، وزين لهم قتالهم ، ومنّاهم بانه سيمنعهم مما اصابهم لاحقا ، وذلك لان كيد الشيطان ضعيف.

يقول سبحانه وتعالى:(واذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال انى برئ منكم انى ارى مالا ترون انى اخاف الله ، والله شديد العقاب)[6] .

---

(١) الحج (٧٨) .
(٢) النساء (٤٥) .
(٣) آل عمران (١٥٠) .
(٤) محمد (٩ ، ١٠) .
(٥) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٣١٧) .
(٦) الانفال (٤٨) .

كما أن المؤمنين اتبعوا الحق وهو التوحيد والايمان ، واذا قاتلوا فى سبيل الله فهم يقاتلون من اجل الحق . والكفار اتبعوا الباطل بكفرهم فهم يقاتلون من اجل الباطل.

وفى هذا يقول الحق جلا وعلا:(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل اعمالهم* والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم واصلح بالهم* ذلك بان الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين امنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس امثالهم)(١) .

قال القرطبى مبينا معنى الحق والباطل فى الاية (فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق . والباطل:الشرك ، والحق:التوحيد والايمان)(٢) .

ولا شك ان الحق هو الذى يعلو وينتصر ، اما الباطل فيخبو ويندثر. يقول سبحانه : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)(٣) .

قال الاستاذ محمد عبده :(ومن سنن الله فى تعارض الحق والباطل ، ان الحق يعلو. والباطل يسفل ، وفى مصارعة المصالح والمفاسد بقاء الاصلح ، ورجحان الامثل ، فالذين يقاتلون فى سبيل الله يطلبون شيئا ثابتا صالحا تقتضيه طبيعة العمران ، فسفن الوجود مؤيدة لهم ، والذين يقاتلون فى سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء فى الارض بغير حق ، وتسخير الناس لشهواتهم ولذاتهم ، وهى امور تأباها فطرة البشر السليمة ، وسنن العمران القويمة)(٤) .

هذا وان ظهور الباطل واهله اليوم ليس الا لنومة اهل الحق عنه ، ولوقام جهاد فى سبيل الله بحق- مع اتخاذ المستطاع من الاسباب - لانتصر الحق واهله .

ووضوح المقصد من القتال وسلامته يجعل المجاهد يجاهد على بصيرة ، وفى طمأنينة . وكون الراية التى يقاتل تحتها ، والغاية التى يقاتل من اجلها هى (اعلاء كلمة الله) فان هذا سيجعل المجاهد يستبسل من اجل رفع هذه الراية خفاقة ، ونصرة هذه الغاية ، ويجعل قلب المجاهد موصولا بالله سبحانه فيكون مطمئنا الى ولاية الله له بالرعاية

---

(١) سورة محمد (١- ٣)
(٢) احكام القرآن للقرطبى (١٦ / ٢٢٥) .
(٣) الانبياء (١٨) .
(٤) تفسير المنار (٥ / ٢١١ - ٢١٢) .

والامداد والتأييد والنصر،

كما ان المقاصد الشريفة والنبيلة المشروعة للجهاد تجعل المجاهد يؤمن بأن معركته مع الكفر انما هى معركة الحق مع الباطل، والخير مع الشر، والعدل مع الظلم ، مما يكون له عظيم الاثر على المجاهد، حيث تتكون لديه ارادة قتالية عالية تدفعه الى التفانى فى نصرة الحق والخير والعدل .

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب (اذا تذكرنا اهداف القتال فى الاسلام وتعاليمه ، علمنا بان ارادة القتال التى تغلغل فى اعماق المسلم الحق ، مبنية على اسس سليمة رصينة ، لان هذا المسلم يؤمن ايمانا عميقا بانه يخوض (حربا عادلة) وهذه الحرب هى (حافز) جديد تجعل من المؤمن مقاتلا رهيبا كما يعبر عن ذلك العسكريون المحدثون)[١] .

من ذلك كله يتضح مالهذا السبب من بالغ الاثر فى احراز النصر، فهلا رفع المسلمون راية التوحيد شعارا لمعركتهم حتى يفوزوا بنصر الله ؟

---

(١) ارادة القتال فى الجهاد الاسلامى ، اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٢٥ دار الفكر - الطبعة الثالثة (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) .

السبب الثالث :

التقوى وعدم مقارفة المعاصي والذنوب

تقوى الله تجلب نصر الله وتدفع كيد الاعداء :

ارشد القرآن الكريم الى التقوى باعتبارها من الاسباب المفضية الى نصر المؤمنين على اعدائهم ، وذلك من خلال اخباره عن معية الله للمجاهدين المتقين بالنصر والتأييد كما ورد في آيات كثيرة ، منها قوله جل وعلا : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين)(١) . امر الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يجتمعوا لقتال عدوهم كما هم يجتمعون لقتالهم ، ثم طمأنهم بمعيته للمتقين بالنصر والعون ، وفي هذا توجيه لهم بأن يتزودوا بالتقوى ، واعلام أيضا بأن التقوى سبب في الفوز بمعية الله المتضمنة للعون والامداد والنصر .

قال الامام ابو السعود في المراد بالمعية في الآية الكريمة : (اي معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال) واشار الى الحكمة من وضع المظهر في موضعه بقوله (وانما وضع المظهر موضعه مدحا لهم بالتقوى وحثا للقاصرين عليه)(٢) وايذانا بأنه المدار في النصر ، وقيل هي بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم)(٣) .

وقال الامام النسفي : (حثهم على التقوى بضمان النصرة لاهلها)(٤) . وهذا يدل على أن التقوى سبب مهم للفوز بالنصر .

---

(١) التوبة (٣٦) .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٣٥٥) .
(٣) تفسير ابي السعود (٤ / ٦٤) .
(٤) تفسير النسفي (٢ / ١٢٥) .

ومثال هذه الآية قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم (١)
من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين) ، معنى قوله (يلونكم) اى يقربون منكم ويجاورونكم ، ومعنى (غلظة) أى شدة . أمر الله سبحانه بقتال (٢)
الكفار الاقرب فالاقرب، ثم اخبرهم بمعيته للمتقين (واعلموا أن الله مع المتقين) قال الشوكاني فى معناها : (أى بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ، ومن كان (٣)
الله معه لم يقم له شيء) .

واخبر الله سبحانه أن العاقبة لاهل التقوى فقال مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم فى سياق الحث على الصبر على مشاق الدعوة : (فاصبر ان العاقبة (٤) (٥)
للمتقين) ، وفسر النسفى العاقبة هنا بالفوز والنصر والغلبة .

ووعد القرآن الكريم المؤمنين بالنصر اذا ماتزودوا بالتقوى فقال سبحانه مخاطبا المؤمنين : (يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم (٦)) ، بين الله سبحانه مايكون بسبب التقوى من الجزاء ، ومن ذلك نصره وتأييده للمتقين حيث قال (ويجعل لكم فرقانا) والفرقان هنا بمعنى النصر ، لانه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر باذلال حزبه (٧)
والاسلام باعزاز اهله ، وقيل بمعنى البيان والظهور واشهار الصيت . وترتيب النصر على حصول التقوى باسلوب شرطي يدل على تعلق حصول النتيجة على تحقق المقدمة اولا وهى التقوى .

---

(١) التوبة (١٢٣) .
(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٤٠١) .
(٣) تفسير فتح القدير (٢ / ٤١٦) .
(٤) هود (٤٩) .
(٥) تفسير النسفي (٢ / ١٩٣) .
(٦) الانفال (٢٩) .
(٧) انظر تفسير النسفى (٢ / ١٠١) وتفسير ابي السعود (٤ / ١٨) .

وارشد الله سبحانه المؤمنين الى التزود بالتقوى ، والى لزوم الصبر لدفع كيد اعدائهم فقال سبحانه (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط)[١] .

قال النسفى فى هذه الآية : (وهذا تعليم من الله وارشاد الى أن يستعا ن على كيد العدو بالصبروالتقوى)[٢] .

والمح القرآن الى أن التقوى كانت من اسباب نصر الصحابة فى بدر ، حيث قال سبحانه : (ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون)[٣] اخبر سبحانه عن نصره للمسلمين فى بدر رغم قلتهم وضعف قوتهم ، وامرهم بالتقوى باجتناب معاصيه والصبر على طاعته والثبات مع رسولهم . وفى ترتيب الامر بالتقوى على الاخبار بالنصر اعلام بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم ، اى اذا كان الامر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ[٤] . ومعنى قوله (لعلكم تشكرون) أى راجين أن تشكروا ماينعم به عليكم بتقوا كم من النصرة[٥] .

واخبر القرآن عن امداد الله للمسلمين يومها بثلاثة آلاف من الملائكة ليثبتوهم فى المعركة تحقيقا لوعده بالنصر ، فى قوله تعالى : (اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)[٦] ، الخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم ، خصص به لتشريفه وللاشعار بأن وقوع النصر فى بدر كان ببشارته عليه الصلاة والسلام ، وقوله (اذ تقول للمؤمنين) ظرف لقوله (ولقد نصركم) والمعنى نصركم الله وقت مقالتكم التى انكرتم فيها كفاية الامداد بثلاثة آلاف من الملائكة للانتصار على المشركين ، وعبر بقوله (لن) التى هى لتأكيد النفى ،

---

(١) آل عمران (١٢٠) .
(٢) تفسير النسفي (١/ ١٧٨) .
(٣) آل عمران (١٢٣) .
(٤) انظر تفسير ابي السعود (٢/ ٧٩) ، وتفسير روح المعانى للآلوسي (٢/ ١/ ٤٤) .
(٥) انظر تفسير ابي السعود (٢/ ٧٩) .
(٦) آل عمران (١٢٤) .

للاشعار بأنهم كانوا لقلتهم . . وكثرة عدوهم كالآيسين من النصر.[١] ولذا فقد اسرع القرآن فى الاجابة عن انكارهم ، واثبت كفاية الامداد بثلاثة آلاف من الملائكة ، ثم دلهم على مايكون سببا لزيادة نصرهم وتأييدهم الا وهو الاستزادة من الصبر والتقوى فقال سبحانه (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)[٢] . قوله (بلى) ايجاب لما بعد (لن) معناه يكفيكم الامداد بثلاثة آلاف من الملائكة . والباعث هو عدم اطمئنان الصحابة سابقا ، فاراد بذلك تطمينهم وتبشيرهم . ثم اضاف بعد ذلك بقوله (ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ليدل على أن استزادتهم من الصبر والتقوى تستدعي زيادة امداد الله لهم بالملائكة من ثلاثة آلاف الى خمسة آلاف ، اى زيادة قوتهم وتأييدهم ونصرتهم .

المعاصي سبب للهزيمة :

اذا كانت التقوى سببا للنصر كما بينت سابقا ، فان مايخالفها من مقارفة المعاصي والذنوب سبب للهزيمة ، ويشهد لذلك ماوقع للمسلمين فى أحد فقد كان سببه المعصية ، يقول تبارك وتعالى : (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم)[٣] . المراد بقوله (منكم) اى المؤمنين ، وقوله (يوم التقى الجمعان) اى يوم أحد والجمعان هما جمع النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام ، وجمع ابى سفيان والمشركين ، ومعنى قوله (استزلهم) اى انما كان سبب انهزامهم ان الشيطان طلب منهم الزلل ، ومعنى قوله (ببعض ماكسبوا) اى من الذنوب والمعاصى التى هى مخالفة امر النبى صلى الله عليه وسلم ، وترك المركز ، والحرص على الغنيمة

---

(١) انظر تفسير النسفى (١ / ١٨٠) وتفسير ابي السعود (٢) آل عمران (١٢٥) .
(٣) آل عمران (١٥٥) . /// (٢ / ٨٠) .

او الحياة. وقيل : الاستزلال هو التولى ، وقع بسبب ذنوب تقدمت لهم حيث ان المعاصي يجر بعضها الى بعض كالطاعات (١).

والمعنى الذى ارشدت اليه الآية هو ان انهزام المسلمين فى (أحد) كان بسبب ذنوبهم ، سواء كانت هذه الذنوب تتمثل فى مخالفة امر النبى صلى الله عليه وسلم وترك المركز . . ، او بسبب ذنوب سابقة افضت الى الذنوب الاولى وبذلك تكون المعاصى والذنوب على وجه العموم سببا للهزيمة.

وهذا التشخيص القرآني يحمل توجيها ربانيا للمؤمنين مفاده ان المعاصي والذنوب من اسباب النكبة والهزيمة ، حتى يتجرد منها المؤمنون اذا كانوا جادين فى طلب النصر واستبدال الهزيمة.

وسرّى القرآن عن الصحابة فيما اصابهم فى (أحد) بما اصاب اتباع الانبياء السابقين ، وارشدهم الى الدعاء والصبر والتحرز من المعاصى. يقول سبحانه وتعالى:

(وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وماكان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (٢).

قال ابن القيم رحمه الله : (لما علم القوم ان العدو انما يدال عليهم بذنوبهم ، وان الشيطان انما يستزلهم ويهزمهم بها ، وانها نوعان : تقصير فى حق ، او تجاوز لحد ، وان النصر منوط بالطاعة ، قالوا (ربنا اغفرلنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا) ، ثم علموا ان ربهم تبارك وتعالى ان لم يثبت اقدامهم وينصرهم لم يقدروا هم على تثبيت اقدام انفسهم ونصرها على اعدائهم فسألوه مايعلمون انه بيده دونهم. . فوفوا المقامين حقهما : مقام المقتضى وهو التوحيد والالتجاء اليه سبحانه ومقام ازالة المانع من النصرة وهو الذنوب والاسراف) (٣).

---

(١) انظر تفسير ابي السعود (٢ / ١٠٣) ، وتفسير روح المعانى للآلوسي (٢ / ١ / ٩٨).
(٢) آل عمران (١٤٦ ، ١٤٧).
(٣) زاد المعاد لابن القيم (٢ / ٢٥٤ - ٢٥٥) بتصرف يسير.

وكتب امير المؤمنين عمر بن الخطاب الى قائد جيش المسلمين سعد بن ابى وقاص يحذره من مغبة المعصية وسوء عاقبتها فقال : (امابعد فانى امرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله افضل العدة على العدو ، واقوى المكيدة فى الحرب. وآمرك ومن معك ان تكونوا اشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش اخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لان عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة والا ننصر عليهم بفضلنا لم نَغْلِبهم بقوتنا . واعلموا ان عليكم فى مسيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وانتم فى سبيل الله . ولا تقولوا ان عدونا شرمنا فلن يسلط علينا ، فرب قوم قد سلط عليهم شرمنهم كما سلط على بنى اسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا . واسألوا الله العون على انفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم) .(١)

واذا كان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يوصي سعدا ، فانه يوصي قائدا وجيشا معظمهم من الصحابة ، واين نحن من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واين تقوانا من تقواهم ، وكم هى ذنوبنا بالنسبة لذنوبهم ، فما احوجنا الى العمل بوصية الفاروق ، وان نترك المعاصي والذنوب.

---

(١) نهاية الارب فى فنون الادب (٦ / ١٦٨ ، ١٦٩) تاليف / شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويرى . مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة الطبعة الاولى (١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) .
والعقد الفريد (١ / ١٣٠) تاليف احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي دار الكتاب العربي / لبنان - (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .

واذا كانت هذه وصية امير المؤمنين لقائده ، فلنر رأى القائد وشدة خوفه من الذنوب على جيشه . لقد كان سعد بن ابى وقاص - عندما خاض المسلمون نهر دجلة لفتح المدائن ، وقد هابه المسلمون اولا - واثقا من النصر ، لا يخاف من عدوه وانما من ذنوب جيشه فكان يقول : (حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن الله عدوه ان لم يكن فى الجيش بغي اوذنوب تغلب الحسنات . فقال له سلمان - وكان يسير الى جواره - ان الاسلام جديد ، ذلل لهم البحور كما ذلل لهم البر ، اما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه افواجا كما دخلوا افواجا ، فخرجوا منه كما قال سلمان ، لم يغرق منهم احدا ولم يفقدوا شيئا)[1] .

وان تبدل حال المسلمين من النصر الى الهزيمة من اسبابه المعاصى والآثام التى اقترفها المسلمون انفسهم ، واذا كانت الامة تعصي الله فانها تكون قد هانت على الله ، واستحقت عقوبته ، فيسلط الله عليها من يسومها سوء العذاب.

وان ماأصاب الامة الاسلامية اليوم من مصائب ونكسات كاف لان تعود الامة الى رشدها فتسلك سبيل ربها ، وتتطهر من ذنوبها حتى تكون اهلا لنصر الله .

واذا لم تتطهر الامة من اد ران الذنوب ، ولم يسع الدعاة الى تزكيتها بالاعمال الصالحة ، فلاشك ان العاقبة ستكون وخيمة ، تحمل كل رزية ومصيبة ، لاتفرق بين صالح وطالح ، حذرنا منها النبى صلى الله عليه وسلم وذلك فيما اخرجه الشيخان واللفظ لمسلم - عن زينب ابنة جحش أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول : (لااله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه . وحلق باصبعه الابهام والتى تليها .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٣) .

قالت زينب ابنة جحش : فقلت : يارسول الله انهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم اذا كثر الخبث) (١)

وفسر جمهور العلماء الخبث بالفسوق والفجور ، وخصه البعض بالزنـــــا ، وقال آخرون معناه اولاد الزنا . وقال النووى : (والظاهر انه المعاصى مطلقا ومعنى الحديث ان الخبث اذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وان كان هنـــاك صالحون) (٢) .

من هذا ندرك ماللذنوب من الاثر البالغ فيمايصيب الامة الاسلاميـــــــة من ابتلاء وهزائم امام اعدائها .

وهذا هو احد امراض الامة اليوم فينبغي التخلص منه ، وينبغى اتباع سبيـــل التقوى والطاعة والصلاح ، فان هذا هو سبيل النصر والعزة والفلاح .

---

(١) اخرجه البخارى فى الفتن / باب يأجوج ومأجوج (٤ / ٢٣٣) ومسلم فى الفتن واشراط الساعة / باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤ / ٢٢٠٧) .
(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١٨ / ٤) .

السبب الرابع

الشـــــورى فى المعركـــــة

مشاورة القائد لجنوده فى التخطيط للمعركة وفى تنظيمها وتنفيذها امر هام ينعكس اثره على المعركة وعلى المقاتلين انفسهم. لذا فالواجب على القيادات العسكرية اليوم أن تتخذ لها مجالس حربية ، تجمع ذوى الخبرة فى الجيـــــش ممن يمثلون اركانا فى الحرب ليستشيروهم فى امور القتال ، وليستعينوا بقدراتهم العسكريـــــة .

حث الاسلام على الشورى :- ومبدأ الشورى مبدأ اسلامى اصيل ، حث الاسلام المسلمين على الاخذ به فى شئونهم عامة وفى شأن الجهاد خاصة. يقول سبحانه وتعالى واصفا عباده المؤمنين : (وامرهم شورى بينهم)(١) ، ويقول جل شأنـــه مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم : (وشاورهم فى الامر)(٢) ، وهو أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بمشاورة اصحابه فيما يقدم عليه من امر ، وهو المؤيد بمدد ربـــه المسدد بوحيه . والامر بالشورى هو امر عام فى كل مايعرض على رسول الله ، والامور الحربية تدخل فى ذلك دخولا اوليا ، لورود ذلك فى سياق الكلام عن معركـــة احد . كما أن ذِكْر الشورى والامر بها فى سياق التعليق على غزوة (أحـــد) رغم ماحدث للمسلمين فى هذه الغزوة ، يوحى بالاهمية البالغة للشورى ، وبضرورة العمل بالشورى مهما كانت الدواعى والظروف ، وأن هذا من الاسباب التـــى تعين المسلمين فى قتالهم ضد أعدائهم.

وقد تمثل هذا المبدأ فى جهاد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام على أمثل وجـــــه .

---

(١) الشورى (٣٨) .
(٢) آل عمران (١٥٩) .

نماذج للشورى من جهاد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم:

ان المتتبع لجهاد الرسول القائد يجد ان الشورى صفة بارزه فى قيادته وجهاده ، وهو مايبين لنا أن الشورى هى سمة العسكرية الاسلامية ، كما أنها عنصر من عناصر القوة الاسلامية كما سأبينه قريبا .

الشورى فى غزوة بدر:

لقد تعددت مواقف الشورى فى هذه الغزوة . ، وتمثلت فيها بنوعيها ، سواء مشاورة القائد لجنوده او مشاورة الجندى لقائده وقبوله مشورته . وكان للشورى فضلها فى تعزيز قوة المسلمين وتوحيد كلمتهم ، وتدعيم مركزهم وموقفهم العسكرى ضد العدو ومساهم فى احراز النصر عليهم ، ومواقف الشورى فى بدر هى كمايأتى :-

اولا : مشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة عند ما علم بافلات القافلة وخروج قريش للقتال .

ثانيا : مشاورة الحباب بن المنذر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ان ينزل المسلمون عند اقرب ماء من المشركين ، ثم يغوروا ماوراءه من الابار ، ويبنوا حوضا ليشرب منه المسلمون ، ويمنعوا الماء عن المشركين .(١)

ثالثا : مشورة سعد للنبى صلى الله عليه وسلم ببناء العريش.(٢)

رابعا : مشاورته عليه الصلاة والسلام لابى بكر وعمر فى شأن الاسرى.(٣)

---

(١) انظر الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبدالبر (١٠٦) مؤسسة علوم القرآن الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ. وزاد المعاد لابن القيم (٢ / ٢١٩) .

(٢) انظر الخبر فى البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٦٨) .

(٣) انظر الخبر فى صحيح مسلم كتاب الجهاد ، باب الامداد بالملائكة فى غزوة بدر واباحة الغنائم (٣ / ١٣٨٣- ١٣٨٥) ، والمستدرك للحاكم فى المغازى وصححه (٣ / ٢١) ، والحديث يرويه عمر بن الخطاب.

ومخافة التطويل فسأكتفى بذكر خبر مشاورته عليه الصلاة والسلام للمهاجرين والانصار فى قتال المشركين يوم بدر فقط.

لمّا عادت قريش بتجارتها من الشام انتدب الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه لملاقاتها ،تأديبا لقريش على مارزأت به المهاجرين من اخذهم اموالهم وديارهم ، وعلى استمرار مناوأتهم للاسلام واهله.

ولم يأمر النبى صلى الله عليه وسلم جميع الصحابة بالخروج ، فخرج منهم من خرج وبقى منهم من بقى. ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العير افلتت من ايديهم وان الصحابة لم يخرجوا للقتال ، وانه صلى الله عليه وسلم اذا امرهم به دون ان يمهد لذلك اضطربت قلوبهم ،شاورهم فى امر القتال.

اخرج الامام مسلم (١) - واللفظ له - وابو داود عن انس(ان رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه اقبال ابى سفيان ، قال : فتكلم ابوبكر ،فاعرض عنه ،ثم تكلم عمر فاعرض عنه ، فقام سعد بن عبادة فقال : ايانا تريد يارسول الله والذى نفسى بيده لو امرتنا ان نخيضها (٢) البحر لاخضناها ، ولو امرتنا ان نضرب اكبادها الى برك الغماد (٣) لفعلنا . قال : فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا . . الحديث).

الح الرسول صلى الله عليه وسلم فى طلب الشورى ليسمع رأى الانصار (لانه لم يكن بايعهم على ان يخرجوا معه للقتال وطلب العدو، وانما بايعهم على ان يمنعوه ممن يقصده (داخل المدينة) (٤) . وكشف الصحابة من المهاجرين والانصار عن غاية استعدادهم للجهاد مع رسولهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام وكان جواب الانصار قويا بقوة الحاح الرسول فى معرفة رأيهم مما يدل على تضحيتهم وطاعتهم.

---

(١) اخرجه مسلم فى الجهاد ،غزوة بدر (٣/ ١٤٠٣ ، ١٤٠٤). واخرج ابوداود طرفا من القصة فى الجهاد باب فى الاسير ينال منه ويضرب(٣/ ٥٨ - حديث رقم ٢٦٨١).

(٢) نخيضها : يعنى الخيل.

(٣) برك الغماد : قال ابن الاثير (تفتح الباء وتكسر ، وتضم الغين وتكسر وهو اسم موضع باليمن وقيل هو موضع وراء مكة بخمس ليال)غريب الحديث (١/ ١٢١).

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم(١٢/ ١٢٤).

وافصحت الشورى فى هذا الموقف العصيب عن شدة تلاحم المسلمين وتماسكهم وتآخيهم ، مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يطمئن الى قوة جبهته الداخلية ، وهذا عنصر مهم من عناصر القوة الرئيسة فى المعركة . ومشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة هيأت لهم دخول المعركة عن ايمان وقناعة وحماس عبرعنه قادتهم ابوبكر وعمر وسعد ، وهذا له اثره الكبير فى المعركة . كما ان الظروف الجديدة التى طرأت بسبب افلات القافلة ، وخروج المشركين للقتال ، استدعت بالضرورة عملية المشاورة لاعلام الصحابة بهذه الظروف ، واتخاذ قرار جديد يتناسب مع طبيعة الموقف الجديد - وهو موقف قتالى - وبصفة جماعية من خلال المشاورة حتى تتهيأ النفوس وتستعد للمواجهة العسكرية .

الشورى فى أحد :- وشاور الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه لما علم بقدوم المشركين لقتال المسلمين ، وكان موضوع الشورى هو هل يقاتل المسلمون المشركين من داخل المدينة ، ام يقاتلونهم خارجها .

اخرج الامام احمد - واللفظ له - والدارمى وابن الجارود عن جابر بن عبدالله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(١) رأيت كأنى فى درع حصينة ، ورأيت بقرا منحرة ، فاولت ان الدرع الحصينة المدينة ، وان البقر هووالله خير . قال : فقال لاصحابه : لو انا اقمنا بالمدينة فان دخلوا علينا فيها قاتلناهم ؟ فقالوا يارسول الله

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (٣/ ٣٥١) ، والدارمى فى الرؤيا (٢/ ٥٥ حديث رقم ٢١٦٥) . وابن الجارود فى المنتقى ، باب ماجاء فى لبس الدرع ص ٣٥٤ ، حديث رقم (١٠٦١) ، مطابع الاشرف - باكستان . الناشر حديث اكادمى - باكستان ، الطبعة الأولى (١٤٠٣ - ١٩٨٣ .
قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٠٧) : رواه احمد ورجاله رجال الصحيح. قلت : الا ان فيهم ابا الزبير وهو ثقة مدلس من المرتبة الثالثة ، وثقه جماعة منهم النسائى وابن معين. انظر ميزان الاعتدال (٤/ ٣٧ - ٤٠) .
والحديث رواه ابو الزبير عن جابر بالعنعنة ، ولم يصرح بالسماع فى اى من رواياته . وصحح الالبانى الحديث بشواهده ، انظر سلسلة الاحاديث الصحيحة (٣/ ٩٠) حديث رقم (١١٠٠) .

والله ما دخل علينا فيها فى الجاهلية ، فكيف يدخل علينا فيها فى الاسلام ؟ قال عفان فى حديثه ، فقال : شأنكم اذا ، قال : فلبس لامته ، قال فقالت الانصار : رددنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه ، فجاءوا ، فقالوا يانبى الله شأنك اذا ، فقال : انه ليس لنبى اذا لبس لأمته ان يضعها حتى يقاتل) .

يكشف لنا هذا الحديث عن حرص النبى صلى الله عليه وسلم على مشاورة اتباعه ، وهو تعليم للمسلمين فى صورة عملية على الاخذ بالشورى فيما ليس فيه نص ، كما ويكشف عن اصالة هذا المبدأ فى العسكرية الاسلامية ، حيث عمل الرسول القائد عليه الصلاة والسلام برأى الاغلبية وان خالف رأيه ، كما وان فيه تشجيعاً عملياً للصحابة على الابداء بالرأى والنصيحة وقت الشورى بما يحقق مصلحة المسلمين .

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يلم من اشار بالقتال خارج المدينة على رأيه ، بعد ما حدث فى أحد ، ولم يخطئهم فى اجتهادهم ، وذلك لحرصه على تقرير مبدأ الشورى بين الصحابة ، ولعلمه بأن رأيهم نابع من حرصهم على المصلحة العليا للمسلمين .

وفى الحقيقة ان تعدد الاراء - فى مرحلة الشورى - يثرى الفكرة ، ويساعد فى تحديد اسلم الاختيارات المطروحة ، وقد كان لكل من الرأيين السابقيين مبرراته العسكريه بما يكفى لاعذار اهله وتقديرهم على اجتهادهم . فرأى الاغلبية (١) من الصحابة وفيهم الشباب كان مبنيا على ان خير وسيلة للدفاع هى الهجوم ، وحرصا على نقل المعركة بعيدا عن ارضهم (المدينة) التى هى عبارة عن مركزهم وقاعدة انطلاقهم ، فلا تصاب قاعدتهم اذا ما اصيب المسلمون فى المعركة ، وتؤمن بذلك عمقا استراتيجيا لجيش المسلمين . كما وان هذا فيه اشعار بقوة المسلمين وقدرتهم على التحدى والمواجهة مما يضعف من معنويات المشركين .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٤٢٠) .

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن وافقه من شيوخ الصحابة مبنى على تخطيط عسكرى آخر يعتمد اسلوب الحرب الشعبية، حيث يمكن الاستفادة مما فى المدينة من الحصون المنيعة ،كما ويمكن الاستفادة من سائر طاقات السكان حتى النساء والصبيان من خلال مشاركتهم فى القتال من فوق السطوح ، وبالامكان (١) كذلك تحصين المدينة من الخارج سواء باستغلال الموانع الطبيعية التى تمنع العدو من التقدم والاقتراب من المدينة ،او بعمل استحكامات عسكرية تمنع العدو من التقدم كذلك مثلما طبق يوم الاحزاب من حفر الخندق ، وقد نجحت هذه الخطة فى غزوة الاحزاب حيث لم تتمكن قريش وبقية الاحزاب من دخول المدينة ، واضطروا فى النهاية الى الفرار والعودة من حيث أتوا .

الشورى فى غزوتى الخندق والحديبية :

ودروس الشورى فى جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كثيرة لاتكاد تخلو منها معركة . فيوم الاحزاب اشار سلمان الفارسى (رضى الله عنه) بحفر الخندق فحفره عليه الصلاة والسلام . واستشار الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فى مصالحة غطفان ، واعطائهم ثلث ثمار المدينة على ان يرجعوا... فاشار كل منهما بعدم مصالحتهم.(٢)

وعام الحديبية قصد النبى صلى الله عليه وسلم زيارة البيت الحرام لاداء العمرة، وعلم وهو فى طريقه الى مكة ان قريشا تريد صده عن البيت ، وجمعت له الجموع لقتاله ، فاستشار النبى عليه افضل الصلاة والسلام الصحابة وقال:(اشيروا ايها الناس علىّ ، اترون ان اميل الى عيالهم ، وذراری هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فان يأتونا كان الله عزوجل قد قطع عينا من المشركين ، والا تركناهم محروبين . قال ابوبكر : يارسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل احد

---

(١) انظر المجتمع المدنى فى عهد النبوة/د اكرم ضياء العمرى ، ص ٦٨ ، ١٤٠٤-١٩٨٤ .

(٢) انظر كشف الاستار عن زوائد البزار للهيثمى ، تحقيق حبيب الرحمن الاعظمى (٢/ ٣٣١) .قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٣٢): رواه البزار والطبرانى ورجال البزار والطبرانى فيها محمد بن عمرو ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات .

ولا حرب احد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه . قال عليه الصلاة والسلام امضوا على اسم الله)(١) .

ولقد احتفل الجهاد النبوى بنماذج كثيرة للشورى ، اكتفى بما قدمته منها هنا . واذا كنت اطلت فى ذكر شواهد الشورى فى جهاد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فان القصد من ذلك هو التأكيد على ان الشورى هى ركيزه اساسية من ركائز العسكرية الاسلامية(٢) .

قيمة الشورى فى المعركة :- ومن خلال الدراسة فى جهاد النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته يمكن الاطلاع على مميزات الجهاد النبوى وخصائصه ، وبالتالى يمكن التعرف على جوانب القوة والفاعلية والتأثير لدى المسلمين آنذاك ، ومن ثم تحصل المعرفة بأسباب الانتصارات التى حققها المسلمون آنذاك ليأخذ بها المسلمون اليوم .

واذا كانت الدراسة قد دلت على ان الشورى سمة اساسية من سمات الجهاد النبوى ، فانه يستدل بذلك على ان الشورى سبب من اسباب القوة والنصر ، وذلك لان الجهاد النبوى نموذج رائع يكشف للمسلمين عن اسباب النصر ، لانه حقق فى الواقع انتصارات عظيمة .

---

(١) انظر الحديث فى صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، غزوة الحديبية (٣ / ٤٥) ، واخرج ابوداود بعضا منه فى الجهاد ، باب فى صلح العدو (٣ / ٨٥ ، ٨٦ حديث رقم ٢٧٦٥) . والحديث يرويه المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

(٢٢) يقول اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ : (تستخدم الدول عادة فى تنظيم جيوشها نمطين : يسمى الاول بالتنظيم الرأسى ، والثانى بالتنظيم الرأسى الاستشارى . اما التنظيم الرأسى فتمتد فيه السلطة من القائد الى مرءوسيه عن طريق التسلسل القيادى الذى تصدر تعليماته اليهم ، كما ترفع اليه تقاريرهم من خلاله . ويعيب هذا النمط خلوه من عنصر المستشار او المساعدين المتخصصين ، مما يلقى على القائد وحده عبء الدراسة والبحث ... ، كما انه يؤدى الى تركيز السلطة فى يد شخص واحد ... ، واما التنظيم الرأسى الاستشارى فانه يوفر عنصر المستشارين والمساعدين المتخصصين الذين يقدمون للقائد النصح والمشورة ، وبذلك يسد ما فى النمط الاول من التنظيم من نقص) . وبعد ان عرض موضوع الشورى فى الاسلام اضاف قائلا : (وعلى هذا يمكن ان نستخلص من قاعدة الشورى مبادئ وتوجيهات عديدة اولها : ان يكون نمط التنظيم الرأسى الاستشارى هو النمط السائد فى تنظيم الجيوش الاسلامية وبذلك تتحقق لها مزاياه فتأتى قرارات قادتها على اسس من العلم والخبرة والتخصص ، وتستطيع الجيوش تنفيذ مهامها بكفاية عالية) انظر النظرية الاسلامية فى القيادة الحربية ، للواء الركن / محمد جمال الدين محفوظ (٩٣ - ٩٥) ، دار الاعتصام .

ومن الواضح ان للشورى من الفعالية والتأثير فى المعركة بما يساعد على احراز النصر، وتتمثل تلك الفعالية فى امور اهمها :-

(١) عرض آراء المستشارين وتجاربهم مما يسهم فى الاطلاع على اكبر قدر من الخبرات والتجارب والاراء للاستفادة منها.

(٢) الاسهام فى اتخاذ القرارات الحكيمة والسليمة.

(٣) الاسهام فى عدم الوقوع فى اخطاء واخطار الارتجالية والعقليات الفردية التى تريد الانفراد بالتخطيط والتنظيم.

(٤) الاسهام فى رفع معنويات المجاهدين لشعورهم بمشاركة قادتهم من خلال ابداء المشورة والرأى.

(٥) الاسهام فى توثيق عرى المحبة والمودة والثقة فى القيادة.

(٦) الاسهام فى توحيد الاراء والافكار.

(٧) تتيح الفرصة لتحسين ثقافة وتجارب الافراد المشاركين فى عملية الشورى وتتيح الفرصة لظهور قيادات جديدة للمستقبل.

وكل هذه الامور المذكورة تسهم فى حسن التخطيط والتنظيم وقيادة المعركة، وتسهم فى الارتفاع بمستوى التنفيذ لدى المقاتلين، مما ينعكس على المعركة انعكاسا مباشرا فيكون سببا من اسباب النصر.

يقول اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ (ومن اهم ميزات القيادة الاقناعية انها تؤدى الى توليد شعور الارتياح والرضا عند المرؤوسين ، وبالتالى تؤدى الى ارتفاع روحهم المعنوية وتوليد روح المحبة والاخلاص للقائد ، وتؤدى الى توفير الكفاءة العالية لدى المرؤوسين فى تحقيق الاهداف التى يوجههم اليها ، والى خلق روح الايجابية فيهم والى زيادة انتاجهم ومساهمتهم فى حل المشاكل التى تواجههم

والى الاقبال على العمل باخلاص وحماسة حتى فى غيبة القائد (١) .

وليس معنى تقرير مبدأ الشورى هو الزام القائد بالمشورة فى كل امر، ومشاركة كل فرد فى الامور التى هى موضوع المشورة ، والزام القائد بان يشاور فى كل امر صغير وكبير ، بل المراد تعميم مبدأ الشورى فى كل قطاعات الجيش وفى كل دوائره القيادية والتنظيمية عموما لما فى الشورى من الاثار الايجابية المهمة على المعركة .

واما القيادة الفردية او الارغامية التى لاتأخذ بمبدأ الشورى مطلقا .. فان لها اخطارا كبيرة ، وقد يؤدى اطلاق الحرية الكاملة لها الى الهزيمة والنكبة .

فتاريخ الحرب العالمية الثانية يدلل على ان هزيمة الما نيا فى هذه الحرب انما كان بسبب استئثار هتلر بالتخطيط والتنظيم وادارة المعركة ، وعدم اكتراثه بآراء قواده ومستشاريه . وهجومه الاخير على الحلفاء والمسمى بحركة تعرض الاردين- على سبيل المثال- كان من بنات افكار هتلر فقط ، ودون استشارة كبار قواده مثل رونشتد ، ومودل ، بل وضرب بآراء هذين القائدين - وهما المكلفان بالهجوم - عرض الحائط ، ولم يقبل اعتراضاتهما او تعديلاتهما على خطة الهجوم ، ففشل الهجوم وتقهقر الجيش الالمانى ، وسقطت المانيا فى ايدى الحلفاء (٢) .

---

(١) النظرية الاسلامية فى القيادة الحربية ، اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ (٥٤) .

(٢) انظر اسرار الحرب العالمية الثانية فى سيرة ابرز قائد المانى: المشير فون رونشتد . تأليف اللواء كونثر بلو منتريت ، ترجمة اللواء الركن / محمود شيت خطاب (٣١٥- ٣٢٥) دار مكتبة الحياة . بيروت .

السبب الخامس

الحرب النفسيـــــة

تعريف الحرب النفسية : تداول الباحثون والعسكريون تعريفات كثيرة لمعنى الحرب النفسية ، اختار منها تعريفا جامعا ، وهو قولهم ان الحرب النفسية هى عبارة عن (استخدام مخطط من جانب دولة او مجموعة من الدول فى وقت الحرب اوفى وقت السلام لاجراءات اعلامية ، بقصد التأثير فى آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات اجنبية معادية او محايدة او صديقة بطريقة تساعد على تحقيق سياسة واهداف الدولة او الدول المستخدمة)(١) .

فالحرب النفسية - اليوم - علم قائم بذاته تستخدمه الدول لتحقيق اغراضها المختلفة ، وتستخدمه خاصة فى المعارك والحروب بهدف تحطيم معنويات الخصم ليفقد الامل فى النصر ، تمهيدا لهزيمته فى المعركة والظفر به .

مجال الحرب النفسية : الحرب النفسية تكون موجهة الى نفوس القادة والمقاتلين والامة باسرها ، فمجال الحرب النفسية هى النفس الانسانية بما تحويه من عواطف وافكار وطاقات معنوية . والنفس الانسانية فيها اهواء ومصالح ، وطاقات ، وتصورات ، من تمكن من التأثير فيها فقد تمكن من التأثير على سلوك الانسان وقتاله ، وذلك لان سلوك الانسان هو اثر لما فى نفسه ، وبلاء المقاتل هو اثر لما فى نفسه من الايمان والشجاعة . . . ولذلك فان المخططين للحرب النفسية يستفيدون من علم النفس بفروعه المختلفة ، وخاصة علم النفس العسكرى ، لرفع معنويات جيوشهم وتحطيم معنويات اعدائهم فى المقابل .

---

(١) الحرب النفسية د. احمد نوفل (١ / ٣٤) .

اهداف الحرب النفسية ووسائلها : الهدف العام من الحرب النفسية هو تفتيت القوة المعنوية للخصم مما يساعد في تحطيم قوته المادية، وبالتالي احراز النصر عليه في المعركة. يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب (والحرب النفسية - كما هو معلوم - تستهدف تحطيم المعنويات ، لان الامة التي تخسر الحرب وتحتفظ بمعنوياتها سليمة لابد وان تعيد الكرة على اعدائها وتنتصر عليهم في المدى البعيد او القريب) (١).

ويمكن تفصيل الهدف العام للحرب النفسية في اهداف جزئية يساهم كل منها في تحقيق الهدف العام، وهي :-

(١) بث اليأس من النصر في نفوس القوات المعادية ، وخفض قوة العدو القتالية باضعاف روحه المعنوية، والتشكيك في قدرته على النصر ، وتهيئة الجماهير للوقوف ضد فكرة الحرب، وبث الرعب في قلوب القوات المسلحة، وبث روح التذمر في اوساط الجنود ، وذلك عن طريق المبالغة في وصف القوة وفي وصف الانتصارات ، والمبالغة في وصف هزائم العدو حتى يشعر هذا العدو انه امام قوة لا تقهر . . .

(٢) تفتيت وحدة الامة ، واضعاف الجبهة الداخلية ، باثارة اسباب الاختلاف، واثارة النعرات العرقية والطائفية.

(٣) التشكيك في اخلاص وكفاءة القيادة.

(٤) زعزعة ايمان العدو بمبادئه واهدافه ، وذلك عن طريق اثبات استحالة تحقيق هذه المبادئ والاهداف.

(٥) ارباك القيادات السياسية والعسكرية عند العدو (٢).

---

(١) الاسلام والنصر /اللواء الركن محمود شيت خطاب(٢٠) .

(٢) انظر الحرب النفسية/د.احمد نوفل (١ / ٧٤- ٧٦) .

ويتم تحقيق اهداف الحرب النفسية بوسائل كثيرة ومختلفة ،كالدعاية والاشاعة واثارة الذعر والرعب فى نفوس العدو ، واثارة الخلافات ، والافادة من التناقضات ، والتهديد والوعيد واستعراض القوة والظهور بمظهر الجيش الذى لا يقهر ، والشدة فى القتال مع التنكيل بالعدو لاثارة عوامل الخوف فى نفوس المقاتلين ، والمباغتة فى القتال لارباك العدو وتحطيم معنوياته ، وتوجيه الضربة القاضية الى العدو منذ البداية الى غير ذلك من الوسائل .

ويستخدم فى ذلك مختلف إساليب ووسائل الاعلام من الصحف والمجلات والاذاعة والتلفاز ، اوغيرها من الاجراءات الكفيلة بالتأثير فى معنويات الجيش والامة .

اثر الحرب النفسية فى احراز النصر :-

ان المحافظة على معنويات الجيش امر مهم قبل المعركة وإثنائها وفيما بعدها ، لان الجيوش لاتحرز النصر بقوة السلاح والعتاد فقط ، وانما بما فى نفوس المقاتلين من معنويات عالية ، وارادة قتالية جادة . يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب : (لقد أثبتت الحروب فى كل ادوار التاريخ ان التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ، مالم يتحلّ المقاتلون بالمعنويات العالية . لقد كان تنظيم وتسليح الايطاليين فى الحرب العالمية الثانية متميزين ، كما كان عددهم ضخما ، فلم يغن عنهم كل ذلك لان معنوياتهم كانت منهارة ! لذلك كانوا عبئا ثقيلا على حلفائهم الالمان فى كل معركة اشتركوا فيها معهم . بل كان الحلفاء يعتبرون المناطق التى تشغلها القوات الايطاليه فراغا عسكريا لايكترث به)[1] . فهزيمة العدو معنويا كافية لهزيمتهم ماديا فى المعركة ، ولن يجدى السلاح شيئا مادامت الايدى التى تحمله خائفة يائسة من النصر .

---

(١) الرسول القائد / اللواء الركن محمود شيت خطاب (١٢٠ ، ١٢١) .

واذا كانت الروح المعنوية بهذه الاهمية فى المعركة ، فان الحرب النفسية لها نفس القدر والاهمية فى احراز النصر ، والحاق الهزيمة بالعدو ، لانها تستهدف تحطيم معنويات العدو فى المعركة .

وسلاح الرعب الذى منحه الله عزوجل لرسله وعباده المؤمنين هو من صميم الحرب النفسية التى تستهدف تحطيم معنويات العدو لينهزم فى المعركة . فحقيقة الرعب هى امتلاء القلب بالخوف والفزع ، وهو مايعنى انهيار الروح المعنوية للمقاتل ، وهذا هو المقصود من الحرب النفسية . وهذا السلاح هو سلاح خاص بالمسلمين لايملكه احد فى الشرق او الغرب ، لانه سلاح ربانى يؤيد الله به - وبغيره - رسله وعباده المؤمنين على عدوهم .

والمسلمون يعتمدون فى ممارسة الحرب النفسية على امرين :-

الاول : تأييد الله لهم بالقاء الرعب فى قلوب اعدائهم .

الثانى : ممارسة الحرب النفسية على العدو بحشد واعداد القوة العسكرية الرادعة ، واستعراض قوة المسلمين لادخال الرعب فى قلوب الاعداء ، وبمطاردة العدو فى نهاية المعركة . . ، الى غير ذلك من الاساليب ونظريات الحرب النفسية عند المسلمين والتى سيرد بعضها عند ذكر تطبيقات الحرب النفسية لدى المسلمين .

ولقد ارشد القرآن الكريم الى هذين الامرين ليحرص عليهما المسلمون عند قتال اعدائهم وبين اثر هذه الحرب النفسية بشقيها فى هزيمة العدو فى المعركة ليعلم المسلمون ماللحرب النفسية من عظيم الاثر فى احراز النصر .

لقد ذكر القرآن نصر الله وتأييده للمسلمين فى بدر فى قوله تعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان)(١) . قصّ سبحانه على عباده المؤمنين كيف نصر المسلمين فى بدر فاخبر سبحانه عن امداده لهم بالملائكة وتثبيته لهم ، واخبر

---

(١) الانفال (١٢) .

عن قذفه الرعب فى قلوب الكفار (سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وعبّر بقوله (سألقى) ليفيد انه سبحانه هو الذى تولى ارعاب المشركين وتخويفهم وتخذيلهم.

وفى حمراء الاسد-عقب غزوة احد - همّ المشركون بالعودة لاستئصال المسلمين فالقى الله فى قلوبهم الرعب فرجعوا عن رأيهم من شدة ما وقع فى روعهم من الخوف. وهو ما اخبر عنه سبحانه فى كتابه العزيز بقوله (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وماواهم النار وبئس مثوى الظالمين)(١).

قال الشوكانى (والرعب: بالضم الاسم، واصله الملء ، يقال : سيل راعب اى يملأ الوادى، ورعبت الحوض ملأته ، فالمعنى : سنملأ قلوب الكافرين رعبا : اى خوفا وفزعا ، والالقاء يستعمل حقيقة فى الاجسام ، ومجازا فى غيرها كهذه الآية ، وذلك ان المشركين بعد وقعة احد ندموا ان لا يكونوا استأصلوا المسلمين وقالوا بئسما صنعنا قتلناهم حتى اذا لم يبق منهم الا الشريد تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك القى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به)(٢).

والآية وان كانت خاصة بالمشركين فى حمراء الاسد الا انها عامة فى كل الكفار والمشركين ، وان كانت نزلت فى شأن الصحابة فى حمراء الاسد ، الا انها للصحابة فى كل موطن وكل حين ، ولبقية المؤمنين فى كل عصر من العصور . يدل على ذلك التعبير بالفعل المضارع (سنلقى) الذى يفيد الاستمرار، اى استمرار القاء الرعب فى نفوس الكفار تأييدا للمؤمنين ، ويدل عليه ايضا التعميم فى قوله (الذين كفروا) اذ يفيد القاء الرعب فى عموم الكفار، ويدخل فيهم مشركو قريش دخولا اوليا والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن ثم فان هذا السلاح هو تأييد للمؤمنين جميعا على عموم اعدائهم الكافرين والمشركين .

---

(١) آل عمران (١٥١) .

(٢) فتح القدير للشوكانى (١ / ٣٨٩) .

وقذف الله الرعب فى قلوب بنى النضير ، وذلك لما خرج اليهم النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منهم المشاركة فى دية قتيلين قتلا ، همّ بنو النضير بالقاء الصخرة من اعلى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مجلسه ليقتلوه ، فاعلمه الله بكيدهم واخرجه سالما من بينهم ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه الصحابة لقتالهم بسبب مابيتوا من نية الغدر والخيانة ، وحاصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب والزعر والخوف حتى استسلموا واجلاهم رسول الله (١) ونزلت فى ذلك سورة الحشر وجاء فيها قوله تعالى (هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الابصار)(٢) .

صورت الآية نفسية المؤمنين واليهود كذلك قبل ان يدب الرعب فى قلوب اليهود بان كليهما كان لا يتوقع حدوث ما حدث بعد ذلك ، وخصوصا اليهود الذين كانوا يركنون الى حصونهم المنيعة .

وصورت كذلك ماوقع من اليهود بعد ان وقع فى قلوبهم الرعب والخوف اذ انهم خربوا بيوتهم بايديهم . ولاشك ان الرعب هو الذى دفعهم الى كل ذلك .

وقذف سبحانه الرعب كذلك فى قلوب يهود بنى قريظة لمظاهرتهم المشركين فى غزوة الاحزاب ضد المسلمين ، وذلك بعد ان رحل المشركون عن المدينة - لما اصابهم من الريح الشديد التى سخرها تبارك وتعالى عليهم وخرج رسول الله لقتالهم ، ونزل فى ذلك قوله تعالى (وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا)(٣) .

---

(١) انظر خبر اجلائهم فى صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب حديث بنى النضير (٣ / ١٥) . وانظر الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر (١٨٣ ، ١٨٥) .

(٢) الحشر (٢) .

(٣) الاحزاب (٢٦ ، ٢٧) .

المراد بقوله (الذين ظاهروهم من اهل الكتاب) يهود بنى قريظة ، اذ ظاهروا المشركين يوم الخندق ، ومعنى (صياصيهم) اى حصونهم (وقذف فى قلوبهم الرعب) اذ امتلأت قلوبهم خوفا ورعبا من المسلمين حتى استسلموا لهم كاستسلام الشاة للجزار ، فقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذرياتهم واموالهم نزولا على حكم سعد بن معاذ ، الذى حكم فيهم بحكم الله ، (١) وهو كما اخبر القرآن من حصول القتل والاسر فيهم ، ووراثة ارضهم وديارهم واموالهم ، وارض اخرى لم يطؤها بشرهم القران بفتحها ، قيل هى خيبر ، وقيل ارض فارس والروم وقيل كل ارض تفتح الى يوم القيامة . (٢)

واخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى نصره على عدوه بالرعب ، وذلك فيما اخرجه الشيخان والنسائى - واللفظ للبخارى - عن جابر ابن عبدالله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اعطيت (٣) خمسا لم يعطهن احد من قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . .) . والمعنى ان الله سبحانه ينصره على عدوه بالقاء الرعب فى قلوبهم ، فينهزم العدو من مسيرة شهر ، قبل ان يصلهم الرسول صلى الله عليه وسلم وجيشه ، وذلك لما يدب فى قلوب العدو من الرعب الذى يحطم معنوياتهم ويجعلهم يدخلون المعركة وهم مهزومون من الداخل فيصابون بالهزيمة فى الخارج ساعة اللقاء . والحكمة فى الاقتصار على الشهر كما قال ابن حجر هى (انه عليه الصلاة والسلام لم يكن بينه وبين الممالك الكبار التى حوله اكثر من ذلك ، كالشام والعراق واليمن ومصر ، ليس بين المدينة للواحدة منها الا شهر فما دونه) . (٤)

---

(١) انظر الخبر فى صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب مرجع النبى من الاحزاب ومخرجه الى بنى قريظة . . (٣ / ٣٤) .

(٢) انظر تفسير ابن السعود (٧ / ١٠٠) .

(٣) اخرجه البخارى فى التيمم (١ / ٧٠) . ومسلم فى المساجد (١ / ٣٧٠ ، ٣٤١) . والنسائى فى كتاب الغسل والتيمم (١ / ٢٠٩ ، ٢١٠) .

(٤) فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ١٢٨) .

ويشهد لذلك واقع الجهاد النبوى ، اذ قاد الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه ثمانياً وعشرين غزوة ، قاتل العدو في تسع منها فهزم العدو في معظمها شر هزيمة ، وفر من قتال المسلمين في بقية الغزوات ، (١) وذلك بسبب الرعب الذى ملأ الله به قلوبهم .

ولا يظن احد أن هذا السلاح خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، بل هو عام في جميع امة محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة .

اخرج الامام احمد عن حذيفة بن اليمان قال : (غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فلم يخرج حتى ظننا انه لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة فظننا ان نفسه قد قبضت منها ، فلما رفع رأسه قال : ان ربي تبارك وتعالى استشارني في امتي ماذا افعل بهم فقلت : ماشئت اى رب ، هم خلقك وعبادك . فاستشارني الثانية فقلت له كذلك فقال : لا احزنك في امتك يا محمد ، وبشرني ان اول من يدخل الجنة من امتى سبعون الفا مع كل الف سبعون الفا ليس عليهم حساب ، ثم ارسل الىّ فقال : ادعُ تُجَبْ ، وسَلْ تُعْطَ ، فقلت لرسوله أومعطى ربى سُؤلى ؟ فقال : ماأرسلنى اليك الا ليعطيَك . ولقد اعطاني الكوثر فهو نهر في الجنة يسيل في حوضي ، واعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدى امتى شهرا ، واعطانى اني اول الانبياء ادخل الجنة ، وطيّب لى ولأمتى الغنيمة ، واحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا من حرج) . (٢)

---

(١) انظر ذلك في مبحث القيادة الراشدة ، صفحة (٢٨٢ ، ٢٨٣) من هذه الرسالة .

(٢) اخرجه الامام احمد في المسند (٥ / ٣٩٣) . قال الهيثمى في مجمع الزوائد (١٠ / ٦٨ ، ٦٩) : رواه احمد واسناده حسن .

من هذا يتبين ان سلاح الرعب هو من انواع الحرب النفسية التى يتوصل بها الى النصر ، وهو اخطر من كافة صور الحرب النفسية المعروفة ، كما انه سلاح خاص لا يمتلكه الا اهل الايمان ، وذلك لانه سلاح ربانى يؤيد الله به عباده المؤمنين على اعدائهم .

وكما ان سلاح الرعب هو من انواع الحرب النفسية ، فان للحرب النفسية صورة بشرية تتمثل فى مجموعة من التدابير والاعمال المعنوية والمادية التى تؤثر فى المعركة وتساهم فى احراز النصر .

ويحصل المسلمون على سلاح الرعب بالاخلاص والتقوى والاستقامة على شرع الله . ، كما ويحصلون على النوع الثانى ببذل الاسباب البشرية التي فى مقدورهم . ومن هنا فان المسلمين يجاهدون باعمالهم العبادية كما يجاهدون باعمالهم المادية ، وينصرون باخذ الاسباب فى كل .

ولقد نبه القرآن الكريم المؤمنين الى ممارسة الحرب النفسية من خلال الحشد والاعداد للقوة العسكرية الرادعة التى ترهب العدو ، وتحطم معنوياته ، فقال سبحانه وتعالى : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . .) (١) .

امر سبحانه باعداد كل ما فى الوسع من القوة ، واشار الى الغرض من ذلك بقوله (ترهبون به عدو الله . .) .

---

(١) الانفال (٦٠) .

فالغاية هي ارهاب العدو وارعابه ، وهو مايعني ممارسة الحرب النفسية عليه بسياسة الحشد والاعداد للردع العسكري . والمراد بقوله (عدو الله وعدوكم) أهل مكة ، والمرادون في قوله (وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم) هم اليهود والمنافقون بالمدينة والروم وفارس ، وسائر ملل الكفر ممالا يعلمون الى يوم القيامة .(١)

والمقصود من ذلك ان الحشد والاعداد العسكري فيه ارهاب وترويع للعدو المباشر في المعركة ، ولغيره من الاعداء الآخرين البعيدين عن المعركة ، وذلك لان مجرد سماعهم بقوة المسلمين وحشودهم يكفي لتخويفهم وارعابهم ، وهو ما يعني ممارسة الحرب النفسية عليهم .

وامر سبحانه وتعالى المؤمنين بالتنكيل بالعدو في المعركة لادخال الرعب في نفوس بقية الاعداء ممن لم يشهدوا القتال ، وليسلبهم ارادة القتال فلا يفكروا في مواجهة المسلمين ، وليزرع في قلوبهم اليأس منهم ، وليضطرهم الى الاستسلام اذا سار المسلمون لقتالهم ، وذلك لهول ماسمعوا مما حصل لاخوانهم في الكفر قريبا .

وهذا الاسلوب من الحرب النفسية ذكره القرآن في قوله تعالى (فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون)(٢) .

معنى قوله (تثقفنهم) اي تقابلهم وتظفر بهم ، ومعنى قوله (فشرد بهم من خلفهم)(٣) اي انذر بهم من خلفهم ، قاله سعيد بن جبير ، وقال ابو عبيد (شرد بهم) سمّع بهم ، وقال الضحاك : نكّل بهم وقال الزَجّاج : افعل بهم فعلا من القتل تفرّق به من خلفهم .(٤)

ولاشك ان الاية تدل على كل هذه المعاني ، وهي معاني متقاربة ، واختلافها اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد .

---

(١) انظر تفسير النسفي (٢ / ١١٠) .
(٢) الانفال (٥٧) .
(٣) انظر تفسير فتح القدير (٢ / ٣١٩) .
(٤) انظر احكام القرآن للقرطبي (٨ / ٣٠ ، ٣١) .

والآية خطاب لجميع المسلمين فى شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة ، فالواجب على المسلمين اذا قابلوا اعداءهم فى الحرب ان تكون سطوتهم عليهم شديدة ليشردوا بمن لا قوة لهم غيرهم من الكفار حتى لا يفكروا فى العدوان ، وحتى يهابوا قتال المسلمين .

فالآية صريحة فى توجيه المسلمين الى ممارسة الحرب النفسية على الاعداء الغائبين عن ارض المعركة بالتنكيل بالعدو الذى يقابلهم فى المعركة ، اذ يسمع اولئك الاعداء بما حصل من تقتيل وتنكيل فتخور عزيمتهم ، وتنهار معنوياتهم من هول ما سمعوا .

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله - فى ظلال القرآن عند هذه الآية (وانه لتعبير عجيب يرسم صورة للاخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود . فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب ؟ انها الضربة المروعة ، يأمر الله تعالى رسوله ان يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد . . ، ليؤمن المعسكر الاسلامى اولا ، وليدمر هيبة الخارجين عليه اخيرا ، وليمنع كائنا من كان ان يجرؤ على التفكير فى الوقوف فى وجه المد الاسلامى من قريب او من بعيد . .) (١) .

وارشد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الى اهمية الحرب النفسية فى المعركة ، وذلك فيما اخرجه الدارمى - واللفظ له - وابوداود والنسائى واحمد والحاكم عن انس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (جاهدوا المشركين باموالكم وانفسكم والسنتكم) (٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن / للشهيد سيد قطب (٣ / ١٥٤٢) .

(٢) اخرجه ابوداود فى الجهاد ، باب كراهية ترك الغزو (٣ / ١٠) ، والنسائى فى الجهاد ، باب وجوب الجهاد (٦ / ٧) ، والدارمى فى الجهاد ، باب فى جهاد المشركين باللسان واليد (٢ / ١٣٢) ، والامام احمد فى المسند (٣ / ١٢٤ ، ١٥٣) ، والحاكم فى الجهاد (٢ / ٨١) وصححه . وصححه النووى فى رياض الصالحين ، فى آخر كتاب الجهاد ص ٤٩١ طبعة دار احياء الكتب العربية . قلت اسناد الحديث صحيح ، ورجاله ثقات . وتدليس حميد الطويل - من الثالثة - لا يضر هنا لانه كان يدلس عن انس بواسطة ثابت وهو ثقة ، واشار الى هذا الحافظ ابو سعيد العلائى . انظر الضعفاء الكبير للحافظ العقيلى ، تحقيق د / عبد المعطى قلعجى (١ / ٢٦٦) دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الاولى . وانظر الميزان للذهبى (١ / ٦١٠) .

نبه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الى ضرورة الجهاد الاعلامى من خلال الا شارة الى الجهاد باللسان ، وقرنه بجهاد المال وجهاد النفس، واطلق عليه لفظ الجهاد ، وامر المسلمين ان يجاهدوا به كما يجاهدون بانفسهم واموالهم.

والحرب الاعلامية - وهى صورة من صور الحرب النفسية - تعتمد كثيرا على اللسان ، خاصة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ لم تعرف الوسائل الحديثة كالوسائل البصرية او المطبوعات . . ، وهى تدخل فى اطار الجهاد المأمور به قياسا على الامر بالجهاد باللسان .

والاذاعة - وهى وسيلة اعلامية - تعتمد بالكلية على اللسان فى بث الاخبار والمعلومات والشائعات . . ، وهى وسيلة مؤثرة جدا فى زمن السلم والحرب. لذلك فان الدول الحديثة تبنى محطات موجهة للعدو ، والخصم فى المقابل يبنى محطات تشويش لمنع وصول اذاعة العدو خوفا مما تحمله من احاديث واخبار.. تشكل حربا نفسية على المجتمع والجيش (١) .

---

(١) يقول الدكتور احمد نوفل نقلا عن جريدة الوطن الكويتية : (فالاتحاد السوفيتى بمساعدة حلفائه . . يقوم منذ زمن بالتشويش على حوالى ٨٠٪ من الموجات المرسلة من دول غرب اوربا . واذاعة موسكو قامت ببناء الفى وحدة ارسال بهدف التشويش على اذاعة صوت امريكا ، وبالفعل تمكنت هذه الوحدات من بث ٢٢٠٠ ساعة بـ ٨٦ لغة مختلفة ، الامر الذى اثار قلق مسؤولى اذاعة صوت امريكا من احتمال فقدانهم لعدد كبير من مستمعيهم . والسبب الواضح وراء كل هذا القلق والسباق نحو التحكم بموجات الراديو يدل دلالة اكيدة على اهمية هذا الجهاز كأداة سياسية موجهة للجمهور لاتقل خطرا عن مهمة بناء جيش عسكرى . فهناك مايقرب من مليارى جهاز راديو فى العالم . وليست اذاعات الدول الاوروبية ببريئة من محاولات التشويش ، فاذاعة صوت امريكا يرى الكثيرون انها امتداد للمخابرات الامريكية ، ويقال ان العاملين فيها يحملون جوازات سفر دبلوماسية ، كما ان الرئيس (ريغان) قام بضخ ملايين اخرى من الدولارات ليكسر حاجز التشويش الشيوعى امام اذاعة صوت امريكا واذاعة اوربا الحرة التى تتخذ من المانيا مقرالها) الحرب النفسية د /احمد نوفل (١ / ٤٣) بايجاز وتصرف يسير جدا .

مما سبق عرضه يتبين اهمية الحرب النفسية فى المعركة وفى احراز النصر ، ويتبين مدى حرص الاسلام على ارشاد المسلمين الى الحرب النفسية ، ليأخذوا بها فى صراعهم مع عدوهم ، وسيتضح هذا اكثر عند الاطلاع على تطبيقات الرسول القائد للحرب النفسية فى جهاده .

ولقد نوه حديثا القادة والزعماء باهمية الحرب النفسية واثرها البالغ فى ادارة الصراع وفى تقرير افضل النتائج ، من ذلك قول القائد الالمانى (روميل) : (ان القائد الناجح هو الذى يسيطر على عقول اعدائه قبل ابدانهم) . وقول الجنرال (ديجول) : (لكى تنتصر دولة ما فى حرب عليها ان تشن الحرب النفسية قبل أن تحرك قواتها الى ميادين القتال ، وتظل هذه الحرب تساند هذه القوات حتى تنتهى من مهمتها) ، وقول (تشرشل) :(كثيرا ماغيرت الحرب النفسية وجه التاريخ)(١) .

واذا كان هؤلاء القادة اطلعوا حديثا على خطر الحرب النفسية فى المعركة فان للعسكرية الاسلامية فضل السبق فى التأكيد على اهمية الحرب النفسية واثرها فى احراز النصر . ولقد طبق الرسول القائد عليه الصلاة والسلام الحرب النفسية فى معاركه منذ اربعة عشر قرنا من الزمان ، وحقق اروع الانتصارات .

تطبيقات الحرب النفسية فى جهاد الرسول القائد واثرها فى احراز النصر على الاعداء :

لقد اخذ الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بمبدأ الحرب النفسية وطبقها فى جهاده مع اعدائه ، وذلك من اجل تحطيم معنوياتهم واشاعة روح الهزيمة بينهم . واتبع فى ذلك وسائل عديدة ، منها (الشعر) اذ كان آنذاك وسيلة اعلامية مؤثرة جدا فى حياة الناس فى السلم والحرب .

واستخدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الوسيلة فى حربه مع المشركين لتسفيه آلهتهم ، ولتوهين عزيمتهم وتبديد آمالهم ، وللرد على افتراءاتهم

---

(١) انظر الاقوال الثلاثة السابقة فى اقتباس النظام العسكرى (١٤٧) اللواء الركن محمود شيت خطاب وزملاؤه ، مطابع قطر الوطنية - قطر .

ففى غزوة بنى قريظة امر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين . وذلك فيما اخرجه الشيخان - واللفظ للبخارى - عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : (١) (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قريظة لحسان بن ثابت : اهج المشركين فان جبريل معك) .

واخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ان وقع الشعر على نفوس المشركين كوقع النبل، وهو مايبين ان الحرب النفسية تساهم فى المعركة كبقية الاسلحة القتالية الاخرى .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (٢) (اهجوا قريشا فانه اشد عليها من رشق النبل ، فارسل الى ابن رواحة فقال : اهجهم فهجاهم ، فلم يرض، فارسل الى كعب بن مالك ثم ارسل الى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان : قد آن لكم ان ترسلوا الى هذا الاسد الضارب بذنبه ثم ادلع لسانه فجعل يحركه فقال : والذى بعثك بالحق لافرينهم بلسانى فريَ الاديم . فقال رسول الله : لاتعجل فان ابابكر اعلم قريش بانسابها ، وان لى فيها نسبا حتى يلخص لك نسبى ، فاتاه حسان ، ثم رجع فقال يارسول الله : قد لخص لى نسبك والذى بعثك بالحق لاسلنك منهم كما تُسل الشعرة من العجين . قالت عائشة : فسمعت رسول الله يقول لحسان ان روح القدس لايزال يؤيدك مانافحت عن الله ورسوله . وقالت : سمعت رسول الله يقول : هجاهم حسان فشفى واشفى . قال حسان :

هجوتَ محمداً ، فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاءُ

هجوتَ محمداً براً حنيفا ... رسولَ الله شيمتُهُ الوفاءُ

فإنَّ أبي ووالِدَهُ وعِرْضِي ... لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى ، باب مرجع النبى من الاحزاب ومخرجه الى بنى قريظة (٣ / ٣٥) ، ومسلم فى فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان بن ثابت (٤ / ١٩٣٣)

(٢) اخرجه البخارى فى الادب ، باب هجاء المشركين (٤ / ٧٤) ، ومسلم فى الفضائل باب فضائل حسان بن ثابت (٤ / ١٩٣٥ - ١٩٣٨) .

ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي ان لم تروها ... تُثيرُ النقعَ (١) من كنفى كداء (٢)

يُبارينَ الأعنةَ مصعداتٍ (٣) ... على اكتافها الأسل الظماء (٤)

تظلُّ جيادُنا متمطراتٍ (٥) ... تُلطِّمُهُنَّ بالخُمرِ النساءُ (٦)

فان أعرضتموا عنا اعتمرنا ... وكان الفتحُ وانكشف الغطاءُ

والا فاصبروا لضِرابِ يومٍ ... يُعِزُّ اللهُ فيه من يشاءُ

وقال اللهُ قد يسّرتُ جُنداً ... هُمُ الانصارُ عُرْضَتُها اللِّقاءُ (٧)

يُلاقي كلَّ يومٍ من مَعَدٍّ ... سِبابٌ او قِتالٌ او هِجاءُ

فمنْ يهجو رسولَ اللهِ منكمْ ... ويمدحُهُ وينصرهُ سواءُ

وجبريلٌ رسولُ اللهِ فينا ... وروحُ القُدْسِ ليسَ له كِفاءُ

وشنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حربا نفسية عارمة على قريش قبل الفتح تمهيدا لغزوهم بعد ان نقضوا العهد ، فقد قال حسان بن ثابت فيهم ماقال ، ثم جهز الرسول صلى الله عليه وسلم جيشا عظيما لم يسبق أن رأت قريش مثله ، واخفى رسول الله مسيره الى مكة (٨) ، حتى يكونوا فى عماية من الامر ، وهذا له اثره فى مباغتتهم وتحطيم معنوياتهم . ولما جاء ابوسفيان الى المدينة للصلح (أتى رسول الله فكلمه فلم يرد عليه شيئا) (٩) ، ثم طلب ابو سفيان من ابى بكر وعمر وعلى كل على حده ان يشفع لقريش عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفضوا ، فعاد خائبا مما ادخل الرعب والخوف فى قلوبهم . . . .

---

(١) تثير النقع : اى ترفع الغبار وتهيجه .
(٢) كنفى كداء : اى جانبى كداء بفتح الكاف وبالمد هى ثنية على باب مكة .
(٣) يبارين الاعنة : المباراة هى المجاراة والمسابقة ، والمعنى انها لصراتها وقوة نفوسها تضاهى اعنتها . (مصعدات) اى مقبلات اليكم ومتوجهات .
(٤) (الاسل الظماء) الاسل : الرماح ، والظماء : الرقاق فكأنها لقلة مائها عطاش وقيل المراد عطاش لدماء الاعداء .
(٥) تظل جيادنا متمطرات : اى تظل خيولنا مسرعات يسبق بعضها بعضا .
(٦) تلطمهن بالخمر النساء : اى تمسحهن النساء بخمرهن . والمعنى يزلن عنهن الغبار ، وهذا لعزتها وكرامتها عندهم .
(٧) عرضتها : اى مطلوبها ومقصودها . انظر المعانى السابقة فى شرح النووى على صحيح مسلم (١٦ / ٥٠ - ٥١) .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٩٧) .
(٩) المصدر السابق (٣ ، ٤ / ٣٩٦ - ٣٩٧) .

وفى مسير الرسول القائد الى مكة قابله ابو سفيان فى الطريق بين مكة والمدينة والتمس الدخول فلم يسمح له بالدخول - مبالغة فى الحرب النفسية - فقال ابوسفيان (والله ليأذنن رسول الله او لآخذن بيد ابنى هذا ، ثم لنذهبن فى الارض حتى نموت عطشا وجوعا)(١) . وقوله هذا يدل على انهيار روحه المعنوية بسبب ما مر من الحرب النفسية . ورق رسول الله صلى الله عليه وسلم له فاذن له بالدخول ، فدخل واسلم .

ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بما مرّ من اثارة الرعب فى نفس ابى سفيان حتى بعد ان اسلم ، اذ امر العباس بقوله (٢) احبس اباسفيان عند حطم الخيل حتى ينظر الى المسلمين . فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع النبى صلى الله عليه وسلم تمر كتيبة كتيبة على ابى سفيان ، فمرت كتيبة قال ياعباس : من هذه ؟ قال هذه غفار ، قال مالى ولغفار . ثم مرت جهينة قال مثل ذلك ، ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك . حتى اقبلت كتيبة فلم ير مثلها ، قال: من هذه ؟ قال: هؤلاء الانصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية . فقال سعد بن عبادة ياابا سفيان اليوم يوم الملحمة . . ثم جاءت كتيبة وهى اقل الكتائب فيهم رسول الله واصحابه وراية النبى مع الزبير بن العوام . . الحديث) .

وكما رأيت فقد تعمد الرسول صلى الله عليه وسلم توقيف ابى سفيان لمشاهدة هذا العرض والحشد العسكرى الهائل ليؤثر فى قواه المعنوية حتى بعد ان اسلم ليفقده اى امل فى النصر فلا يعاوده مجرد التفكير فى العودة عن الاسلام او حرب المسلمين .

---

(١) فقرة من حديث اخرجه الحاكم بسنده عن ابن عباس فى المغازى ، وصححه (٣ / ٤٣ ، ٤٤) . قلت اسناده ضعيف لاجل احمد بن عبد الجبار ، انظر الميزان للذهبى (١ / ١١٢ ، ١١٣) والتقريب لابن حجر (١ / ١٩) . ولكن ورد الحديث نفسه عند ابن هشام فى السيرة (٣ ، ٤ / ٣٩٩ ، ٤٠٠) عن ابن عباس واسناده حسن .

(٢) اخرجه البخارى عن عروة بن الزبير فى المغازى / باب ، أين ركز النبى الراية يوم الفتح (٣ / ٦٠ ، ٦١) واوله . (لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فبلغ ذلك قريشا خرج ابو سفيان . .) .

ونجحت الحرب النفسية مع ابى سفيان ، فهاهو يقول للعباس بعد أن استكمل العرض العسكرى : (مالاحد بهؤلاء قبل ولاطاقة ، والله ياابا الفضل لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما . قال العباس قلت ياابا سفيان انها النبوة . قال فنعم اذن)(١) .

كما ان اباسفيان كان فى مركز الزعامة فى قريش ، لذا فان ماسمعه ورآه واحس به من قوة المسلمين وشدتهم فتّ فى عضد المشركين وحطم معنوياتهم وقادهم الى الاستسلام والهزيمة بعد ان اخبرهم به . فهاهو لما جاءهم صرخ فيهم باعلى صوته يحذرهم من القتال ويدعوهم الى الاستسلام ويقول (يامعشر قريش هذا محمد قد عليه جاءكم فيما لاقبل لكم به ، فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن . . ، ومن اغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد)(٢) . واعطاء الامان لقريش على لسان زعيمها ابى سفيان كان بمثابة الضربة النفسية القاضية التى قادتهم الى الاستسلام .

ولقد علق اللواء الركن / محمد جمال الدين محفوظ على الاحداث السابقة الخاصة بالحرب النفسية يوم الفتح ـ تعليقا مطولا جاء فيه (كل هذه الاعمال احدثت خللا كبيرا فى التوازن النفسى للمشركين ، واوقعتهم على وجه التأكيد تحت وطأة الضغوط النفسية التالية :

أ ـ الاحساس بانهم يواجهون موقفا سيئا .

ب ـ التشتت الذهنى والتمزق النفسى والشعور بانهم قد وقعوا فى فخ يصعب التخلص منه .

جـ تولد الشعور بالعجز عن القيام بعمل مضاد لحركة المسلمين . وهذا ماأكده الخبير الحربى (ليدل هارت) حين قال (ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور وفى جميع الحروب الحاسمة على التقريب ان الاخلال بتوازن العدو نفسيا وماديا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٤٠٤) .
(٢) السرية النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٤٠٤ ، ٤٠٥) باختصار .

هو المقدمة التى لا محيص عنها للقضاء عليه)[١] .

فيما مر من مشاهد تجلت الحرب النفسية باوضح صورها ، وبرز اثرها وقيمتها فى احراز النصر .

ولقد مارس الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب النفسية على العدو فى مواطن كثيرة ، وباساليب مختلفة . ففى يوم الخندق اجتمعت الاحزاب من قريش وغطفان وغيرها من قبائل العرب ، وحالفهم يهود المدينة ، وانخذل المنافقون ، وكان يوم المسلمين عصيبا . فعمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مواجهتهم بالحرب النفسية - عندما توفرت له فرصة استخدامها - من خلال اثارة اشاعة بينهم لتفريق جمعهم وتشتيت شملهم ، وذلك بان ارسل اليهم نعيم بن مسعود[٢] - بعد ان جاءه ليخبره باسلامه - ليوقع بكل طرف على الآخر ، وكان موثوقا عندهم ولم يعلموا بخبر اسلامه . وتمكن نعيم بن مسعود من تحقيق الهدف حتى شك كل منهم فى الآخر ، فتفرقوا ، ورجعت قريش ومن مالأها من قبائل العرب دون ان ينالوا من المسلمين شيئا . وكان لاشاعة التفريق التى اطلقها نعيم كبير الاثر فى ان يرتدوا بغيظهم لم ينالوا شيئا مما جاءوا من اجله واجتمعوا بسببه .

والشائعة من اهم اساليب الحرب النفسية . يقول اللواء الركن / محمود شيت خطاب :

(ان الحرب الحديثة تعتمد على بث الاشاعات المثيرة لتصديع الصفوف ، وبلبلة الافكار . وقسم بث الاشاعات من اهم أقسام شعب الاستخبارات فى تشكيلات الجيوش . وهو اسلوب من اشد اساليب الحرب النفسية فتكا)[٣] .

---

(١) مجلة الامة القطرية ، العدد السابع والخمسون ، السنة الخامسة .
(٢) ستأتى القصة بالتفصيل فى فصل الخداع . صفحة (٤٤٦) .
(٣) الرسول القائد / محمود شيت خطاب (٢٣٨) .

ومارس الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب النفسية على المشركين في عمرة القضاء، وذلك لان المشركين فرحوا بما اصاب المسلمين من وهن الحمى لما نزلت بالمدينة وكانوا يقولون (يقدم عليكم وفد وهنهم حمى يثرب)[١]. وكان الصحابة يومذاك هم طلائع البعث وبشائر الفتح ، لذلك احب الرسول عليه الصلاة والسلام ان يظهروا بمظهر القوة والشدة والعافية ليغيظ الكفار وليخيب آمالهم ، فامر الصحابة في الطواف (ان يرملوا الاشواط الثلاثة وان يمشوا مابين الركنين ، ولم يمنعه ان يأمرهم ان يرملوا الاشواط كلها الا الابقاء عليهم)[٢]. وقال ابن عباس (انما سعى النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت وبين الصفا والمروة ليرى المشركين قوته)[٣].

ونجح الرسول صلى الله عليه وسلم بصنيعه هذا في التأثير على معنويات المشركين وفي فرض هيبة المسلمين عليهم[٤]. يدل على هذا ماجاء في رواية مسلم للحديث الاسبق (فقال المشركون هؤلاء الذين زعمتم ان الحمى قد وهنتهم هؤلاء اجلد من كذا وكذا) .

من هنا فان هذه الحرب النفسية حققت فرضا مهما للمسلمين هو تغيير افكار المشركين في المسلمين - خصوصا بعد مرحلة الاستضعاف - ليعتقدوا بان المسلمين اليوم قوة لا يستهان بها ، قادرة على تهديدهم وقتالهم ان لزم الامر.

ومارس الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب النفسية في غزوه يهود خيبر ، اذ باغتهم في الصباح الباكر وهم خارجون للفلاحة ، وصاح فيهم صيحات مدوية زلزلت اركانهم وخلعت منهم قلوبهم.

---

(١) حديث اخرجه البخاري في المغازي ، باب عمرة القضاء (٣ / ٥٧) واللفظ له ، واخرجه مسلم في الحج ، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة (٢ / ٩٢٣) كلاهما من طريق ابن عباس .

(٢) فقرة من الحديث السابق ، رواية البخاري .

(٣) اخرجه الشيخان في المواضع السابقة ، واللفظ للبخاري .

(٤) سبق تخريجه في هامش رقم (١) من هذه الصفحة.

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : (١)
(صبحنا خيبر بكرة فخرج اهلها بالمساحى (٢)، فلما بصروا بالنبى صلى الله عليه وسلم قالوا : محمد والخميس (٣)، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الله اكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . .) .

لقد ادت مباغتة الرسول عليه الصلاة والسلام لليهود الى الاخلال بتوازنهم والى شعورهم بالاحباط واليأس من القدرة على المقاومة . وكان كذلك وقع ندائه فيهم كوقع الصاعقة عليهم . وهذا دفعهم الى الاستسلام للمسلمين .

ومن صور الحرب النفسية التى كان يمارسها الرسول القائد عليه الصلاة والسلام على عدوه ، انه كان يقيم فى مكان المعركة - بعد انتهائها - ثلاث ليال لاظهار القوة والغلبة ، ولتعميق شعور الخيبة لدى العدو .

اخرج البخارى - واللفظ له - والترمذى وابوداود والدارمى واحمد عن ابى طلحة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم (انه كان اذا ظهر على قوم اقام (٤) بالعرصة (٥) ثلاث ليال) .

نقل ابن حجر عن ابن الجوزى قوله فى هذا الحديث (انما كان يقيم ليظهر تأثير الغلبة وتنفيذ الاحكام وقلة الاحتفال ، فكأنه يقول : من كانت فيه قوة منكم فليرجع الينا (٦)) .

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى ، باب غزوة خيبر (٣ / ٤٩) ، ومسلم فى الجهاد والسير ، باب غزوة خيبر (٣ / ١٤٢٦ ، ١٤٢٧) .
(٢) المساحى : جمع مسحاة ، وهى المجرفة من الحديد . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ٣٢٨) .
(٣) الخميس : الجيش سمى به لانه مقسوم بخمسة اقسام : المقدمة ، والساقة ، والميمنة والميسرة ، والقلب . وقيل لانه تخمس فيه الغنائم . انظر المصدر السابق (٢ / ٧٩)
(٤) اخرجه البخارى فى الجهاد ، باب من غلب العدو فاقام على عرصتهم (٢ / ١٨١) والترمذى فى السير ، باب فى البيات والغارات (٤ / ١٢١) ، وابوداود فى الجهاد ، باب الامام يقيم عند الظهور على العدو بعرصتهم (٣ / ٦٣) ، والدارمى فى السير ، باب ان النبى اذا ظهر على قوم فاقام بالعرصة ثلاثا (٢ / ١٤٠) ، واحمد فى المسند (٤ / ٢٩) .
(٥) العرصة : مكان واسع لابناء فيه . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ٢٠٨) .
(٦) فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ١٨١) .

ومارس رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب النفسية من خلال المطاردة العسكرية للعدو لارعابه وتخويفه وتهديده كما هو الحال فى خروجه اثر المشركين فى حمراء الاسد .

روى الطبرى بسنده المتصل عن عكرمه قوله : (. . وانما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو ، وليبلغهم انه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة ، وان الذى اصابهم لم يوهنهم عن عدوهم) (١) .

وكان من اثر ذلك ان رجع العدو عن رأيه فى العودة لاستئصال المسلمين ، وذلك من شدة ما وقع فى نفوسهم من الخوف . فافقدهم بذلك لذة النصر وغرس فى نفوسهم اليأس من النيل من المسلمين .

كما واحبط امانى اليهود والمنافقين الذين توقعوا استسلام المسلمين لما اصابهم فى احد . كما واعاد للمسلمين وللمقاتلين منهم خاصة ثقتهم فى قوتهم وقدرتهم على مواجهة العدو فى المعركة ، ومحا من نفوسهم غبارما أصابهم فى أحد .

هذه نماذج من تطبيقات الحرب النفسية من جهاد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام يظهر منها اهمية الحرب النفسية فى المعركة وقيمتها فى احراز النصر . واكتفى بهذه النماذج مخافة التطويل اذ المقصود هو التمثيل فقط .

الوقاية من الحرب النفسية فى الاسلام :

ان تعاليم الكتاب والسنة تعد المؤمن فضلا عن المجاهد - اعدادا معنويا رفيعا لامثيل له . ولاغرو فى ذلك ، اذ أن تعاليم الكتاب والسنة هى تعاليم سماوية ، وهذا هو شأن التعاليم السماوية الخاصة بالرسالة الخاتمة .

---

(١) تاريخ الامم والملوك لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢ / ٥٣٤) دار سويدان بيروت . وسنده ضعيف الا انه يقبل فى الروايات التاريخية التى ليس فيها احكام شرعية .

واذا كانت الحرب النفسية تخوف بالموت فان الاسلام يعدّ معتنقيه ليدفعوا بانفسهم في حمام الموت طالبين راغبين في الشهادة . واذا كانت الحرب النفسية تخوف المقاتل على اولاده فان الاسلام يعد المقاتل المؤمن الذى يدفع باولاده الى المعركة كى يفوزوا بالشهادة في سبيل الله . واذا كانت الحرب النفسية تخوفبالفقر فان الاسلام يعد مجاهديه لان ينفقوا اموالهم رخيصة في سبيل الله . واذا كانت الحرب النفسية تخوف من قوة العدو فان الاسلام يربى مجاهديه على عدم الخوف إلا من الله سبحانه . واذا كانت الحرب النفسية تهدف الى سلب ثقة المقاتلين في النصر فان الاسلام يزرع في نفوس ابنائه ومقاتليه تفويض الامر الى من بيده العزة والنصر جميعا ... .

كل هذا يؤدى الى الوقاية من الحرب النفسية ، بل ويؤدى الى ايجاد جدار معنوى صلب لا يمكن اختراقه بحرب نفسية او عسكرية . ولن اطيل هنا في بيان ذلك، لانى سأفصله في موضوع الشجاعة . واكتفي هنا بتفصيل توجيهات الاسلام للوقاية من أخطر اساليب الحرب النفسية وهو الاشاعة ، ثم اختم الموضوع بتسجيل مواقف من السيرة في مقاومة الحرب النفسية .

لقد نبه القرآن الكريم الى الاشاعات وانواعها وخطورتها وكيفية التعامل معها في قوله سبحانه وتعالى : (واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به . ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا)[1] .

معنى قوله (أمر من الامن او الخوف) اى مايوجب الامن والخوف ، و(اذاعوا به) اى افشوه واظهروه[2] . قال الشوكانى : (وهؤلاء هم جماعة من ضعفة المسلمين كانوا اذا سمعوا شيئا من امر المسلمين فيه امن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم ، او فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم افشوه وهم يظنون انه لاشيء عليهم في ذلك)[3] .

---

(١) النساء (٨٣) .
(٢) روح المعنى للآلوسى (٢ / ٢ / ٩٣) .
(٣) فتح القدير للشوكانى (١ / ٤٩١) .

روى هذا عن الحسن ، وذهب اليه غالب المفسرين ، وروى عن ابن عباس والضحاك انهم المنافقون ، وقيل الطائفتان معا .(١)

والمراد باولى الامر :الولاة وامراء السرايا ، وقيل هم اصحاب العقول الراجحة ، ومعنى قوله (الذين يستنبطونه منهم) اى يستخرجون تدبيره بفطنتهم وتجاربهم ومعارفهم بامور الحرب ومكايده .(٢)

وكتب الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - فى ظلاله عند هذه الآية الكريمة يقول (والصورة التى يرسمها هذا النص، هى صورة جماعة فى المعسكر الاسلامى لم تألف نفوسهم النظام ، ولم يدركوا قيمة الاشاعة فى خلخلة المعسكر وفى النتائج التى تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ، لانهم لم يرتفعوا الى مستوى الاحداث ، ولم يدركوا جدية الموقف وان كلمة عابرة وفلتة لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها مالا يخطر له ببال ، ومالا يتدارك بعد وقوعه بحال . او - ربما - لانهم لا يشعرون بالولاء الحقيقى الكامل لهذا المعسكر (يقصد المنافقين) ، وهكذا لا يعنيهم مايقع له من جراء اخذ كل شائعة والجرى بها هنا وهناك واذاعتها حين يتلقاها لسان عن لسان سواء اشاعة امن او اشاعة خوف . . فكلتاهما قد يكون لاشاعتها خطورة مدمرة - فان اشاعة امر الامن مثلا فى معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو . . اشاعة امر من الامن فى مثل هذا المعسكر تحدث نوعا من التراخى ، مهما تكن الاوامر باليقظة ، لان اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الاوامر ، وفى ذلك التراخى قد تكون القاضية . وقد تحدث اشاعة امر الخوف فيه خلخلة وارتباكا ، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف . . وقد تكون كذلك القاضية) .

---

(١) روح المعانى للالوسى (٢ / ٢ / ٩٣) .
(٢) تفسير النسفى (١ / ٢٣٩) .

واستطرد الاستاذ سيّد فى بيان تربية القرآن للجندى المسلم من خلال هذه الآية ـ على الحذر من تداول الاشاعة ، وكيفية علاجها فقال (وهكذا كان القران يربى . . فيغرس الايمان والولاء للقيادة المؤمنة ، ويعلم نظام الجندية فى آية واحدة . . بل بعض آية . . فصدر الآية يرسم صورة منفردة للجندى وهو يتلقى نبأ الامن او الخوف ، فيحمله ويجرى متنقلا مذيعا له ، من غير تثبت . . ومن غير رجعة الى القيادة . . ووسطها يعلم ذلك التعليم . . وآخرها يربط القلوب بالله فى هذا ويذكرها بفضله ويحركها الى الشكر على هذا الفضل ، ويحذرها من اتباع الشيطان الواقف بالمرصاد . .)(١) .

بهذا فان القرآن نبه الى خطورة الاشاعة اذا وصلت الى الصف المسلم وحذر منها بقسميها : اشاعة الامن وهى التى تحتوى على معلومات تضفى الامن والطمأنينة الى الحال ، ليكون بعد ذلك الركون والاسترخاء ، فيسهل المباغتة وتوجيه الضربة القاضية . واشاعة الخوف وهى التى تحوى معلومات تثير الخوف والفزع فى الجيش لتفقده توازنه واستقراره ، وتضعف معنوياته العسكرية ، حتى تتم المواجهة العسكرية وهو مجرد من ارادة القتال محطم المعنويات .

وارشد القرآن المسلم الى كيفية مواجهة الاشاعة وذلك من خلال :ـ

١) التحقق من كل خبر يسمعه بالتحقيق فى راوى الخبر ، يقول سبحانه وتعالى: (ياايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين)(٢) .

٢) والتحقق ثانيا برد الخبر الى القيادة العليا القادرة على معرفة مصادر هذا الخبر واهدافه ومدى صحته اوغلطه (ولوردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم) .

---

(١) فى ظلال القرآن / للشهيد سيد قطب (٢ / ٧٢٣ ، ٧٢٤) .

(٢) سورة الحجرات (٦) .

٣- كتمان الخبر وعدم اذاعته بين الآخرين - سوى القيادة -، وهو احسن وسيلة للقضاء على الاشاعة . والامر بكتمان الخبر وعدم اذاعته بين الناس يفهم من استنكار القرآن على الذين يذيعون الاخبار والشائعات دون ان يردوها الى ولى الامر (واذا جاءهم امر من الامن او الخوف اذاعوا به . .) .

٤- اهتمام القيادة بما ينشر العدو من شائعات ، وضرورة وجود قسم مختص بالتقاط الشائعات وتحليلها وتفنيدها والرد عليها بالحقائق او الشائعات المضادة (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) .

مصاولة الحرب النفسية فى المعركة : ان من واجب القيادة ان لا تكتفى بالاعداد المعنوى للرجال من اجل تجنيبهم الحرب النفسية التى يشنها العدو ، بل ينبغى ان تكون قادرة على مقاومة الحرب النفسية اثناء المعركة وقبلها وبعدها لتجنيب الجيش المسلم كل مايسبب اضعاف قواه النفسية والمعنوية .

لقد تحرى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم فيما سمعه يوم الخندق من نقض قريظة للعهد وتحالفها مع الاحزاب (فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، ومعهما عبدالله بن رواحة ، وخوات ابن جبير فقال : انطلقوا حتى تنظروا احق مابلغنا عن هؤلاء القوم ام لا ؟ فان كان حقا فالحنوا لى لحنا اعرفه ، ولا تفتوا فى اعضاء الناس ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس . قال فخرجوا حتى اتوهم فوجدوهم على اخبث مابلغهم عنهم . . ثم اقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة اى كغدر عضل والقارة باصحاب الرجيع خبيب واصحابه فقال رسول الله : الله اكبر ابشروا يا معشر المسلمين)(١)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٢٢١ ، ٢٢٢) باختصار ، وانظر تاريخ الطبرى (٢ / ٥٧١ ، ٥٧٢) .

يمثل نقض قريظة للعهد خطرا عظيما على المسلمين لانه كان بامكان قريظة التسلل الى داخل المدينة والتعرض للنساء والاطفال ، خاصة وانهم يعرفون تفاصيل مسالك المدينة ، مماله كبير الاثر على معنويات المسلمين فى خطوط القتال اذ سيصبحون غير مطمئنين على مصير ذراريهم واموالهم، كما كان بامكان اليهود القيام بقطع خط رجعة المقاتلين المسلمين الى داخل المدينة وبذلك يفسحون المجال للاحزاب الاخرى لاقتحام الخندق دون مقاومة مما يعنى شدة وقع نقض قريظة للعهد على نفوس المسلمين .

لذا فان الرسول القائد تصرف بدقة وحكمة اذ تحقق من الامر اولا ، وثانيا حرص على كتمانه عن المسلمين بعد أن تثبت من صحته ، وثالثا كبر وبشر بالنصر ليرفع المعنويات ويدفع الشك والظن بنقض العهد ، وهو من قبيل الاشاعة المضادة لابطال ماقد ينتشر من خبر نقض العهد .

من هنا نخلص الى براعة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم فى مواجهة حرب نفسية خطيرة - لو تمكنت من الوصول الى نفوس المسلمين - ، وحكمته فى مقاومة هذه الحرب والحيلولة دون وصولها الى نفوس المقاتلين . وبالتالى فانه نجح فى تجنيب المسلمين سببا من الاسباب التى قد تؤدى الى انهزامهم فى المعركة .

وفى مسير الرسول صلى الله عليه وسلم الى حنين (جاء رجل فارس فقال: يارسول الله انى انطلقت بين ايديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فاذا انا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا الى حنين ، فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله . . الحديث)[1] .

يبدو من كلام الفارس انه اهتم لكثرة المشركين ، وكونهم خرجوا بظعنهم ونعمهم . . ، وهذا بالطبع له اثره فى اضعاف معنويات القتال لدى المجاهد

---

(١) اخرجه ابوداود عن سهل بن الحنظلية فى كتاب الجهاد ، باب فى فضل الحرس فى سبيل الله (٣ / ٩) . والحاكم فى المستدرك (٢ / ٨٣ ، ٨٤) وصححه . والحديث اسناده صحيح ، ورجاله ثقات . وانظر الحديث بتمامه فى موضوع المباغتة . صفحة (٤٦٦) .

فادرك الرسول ذلك وبشره بان مارآه سيكون باذن الله غنيمة للمسلمين . فازال من نفسه ماقد تعلق بها من شعور الخوف بسبب كثرة العدو ، ورفع معنوياته بحيث اصبح مارآه - وخاف منه سابقا - مشجعا له على الجهاد وقتال العدو .

من هذا يتبين كيف كان يقاوم الرسول القائد الحرب النفسية فى المعركة ، وكيف كان يحافظ على معنويات جنوده لتكون قوية وعالية ويجنبها ماقد يؤثر فيها .

واذكر مثلا آخر على محافظة القائد على معنويات جنوده فى المعركة من سيرة خالد بن الوليد احد ابرز قادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

لقد كان خالد بن الوليد يقود المسلمين معركة ضارية مع الروم فى اليرموك ، وابّان ذلك (قدم البريد من نحو الحجاز ، فدفع الى خالد بن الوليد فقال له : ماالخبر ؟ فقال له - فيما بينه وبينه - : ان الصديق رضى الله عنه قد توفى ، واستخلف عمر واستناب على الجيوش اباعبيدة عامر بن الجراح ، فاسرّها خالد ولم يبد ذلك للناس ، لئلا يحصل ضعف ووهن فى تلك الحال ، وقال له والناس يسمعون : احسنت ، واخذ منه الكتاب فوضعه فى كنانته ، واشتغل بماكان فيه من تدبير الحرب والمقاتلة ، واوقف الرسول الذى جاء بالكتاب الى جانبه)[1] .

كتم خالد بن الوليد الخبر عن المسلمين وقال للرسول (احسنت) ليوهم المسلمين بانه لايحمل الا خبرا سارا ، واحتفظ بالرسالة لنفسه ، وجعل الرسول بجواره ليضمن عدم تسريب الخبر الى المقاتلين ، لان اعلان الخبر واشاعته بين المسلمين يؤدى الى الوهن والضعف النفسى والمعنوى فى المعركة ، ومن ثم اضعاف القدرة القتالية عندهم ، فهو بذلك جنّب الجيش الاسلامى صورة من صور الحرب النفسية الخطيرة التى قد تؤدى بهم الى اسوأ النتائج .

من خلال ماسبق ذكره تبين اهمية الحرب النفسية وخطورتها فى المعركة واثرها فى احراز النصر او الوقوع فى الهزيمة .

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ١٤) . وتاريخ الطبرى (٣ / ٣٩٨) .

السبب السادس

عدم الاعجاب بالكثرة او اليأس من القلة

ان الكثرة او القلة لاتحسم المعركة ،لان النصر بيد الله سبحانه (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم)(١) فلا يجوز الاغترار بالكثرة او اليأس للقلة . ولن يضر اهل الحق كثرة اهل الباطل ، فان النصر لاهل الحق وان قلوا مالم يغتروا، والا فهو سبب لهزيمتهم وان كثروا . وسترى نماذج لانهزام المؤمنين بسبب اغترارهم كما سترى نماذج اخرى لانتصار القلة المؤمنة ولم يضرها كون اهل الباطل اضعافها .

زعزعة المؤمنين في حنين لاغترارهم بكثرتهم : اذا ما اغتر المسلمون واعجبوا بكثرتهم فانهم يكونون قد ركنوا الى الاسباب، واعتمدوا على انفسهم ولم يعتمدوا على الله سبحانه ، مما يستوجب حرمانهم تأييد الله ونصره .

لقد كان اغترار المسلمين بكثرتهم في حنين سببا لانكشافهم لولا ان تداركهم الله برحمته وتأييده . يقول سبحانه وتعالى (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)(٢) .

ذكر ابن كثير في تفسيره عن مجاهد قوله (هذه اول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم واحسانه لديهم في نصره اياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وان ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعُددهم، ونبههم على ان النصر من عنده سواء قل الجمع او كثر فان يوم حنين اعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما اجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين الا القليل منهم مع رسول الله ثم انزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ليعلمهم ان النصر

---

(١) آل عمران (١٢٦) .
(٢) التوبة (٢٥ ، ٢٦) .

من عنده تعالى وحده وبامداده وان قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)[١] .

وكان ان اجتمع فى حنين عشرة آلاف مقاتل من المسلمين - الذين فتحوا مكة - وانضم اليهم الفان من اهل مكة من مسلمة الفتح فاصبح عدد جيش المسلمين اثني عشر الفا .[٢] وهذا يعنى ان نسبة المسلمين كانت كبيرة بالنسبة الى ماسبق من غزوات ، مما جعل بعض المسلمين - وفيهم الذين خرجوا من اهل مكة طلبا للغنيمة - يركنون الى انفسهم ويعجبون بكثرتهم .

اخرج البزار بسنده عن انس رضى الله عنه قال :[٣] (قال غلام منا من الانصار يوم حنين لم نغلب اليوم من قلة ، فما هو الا أن لقينا عدونا فانهزم القوم . . الحديث .

وهذا ماكشف عنه القرآن فى قوله تعالى (ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم) حيث ادركت المسلمين كلمة الاعجاب بالكثرة ، وزلت عنهم ان الله هو الناصر لاكثرة الجنود فلم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، وانهزم الناس . وثبت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولزمه جماعة من الصحابة ، فلطف الله بهم لثباتهم ودعائهم وحسن توكلهم فنصرهم وايدهم على عدوهم . من هنا فان القرآن يعطينا درسا مهما فى الهزيمة ليحذر المسلمون اغترارهم بكثرتهم ، فان هذا يفضي الى هزيمتهم .

وقد كان اغترار نبى من الانبياء عليهم السلام بكثرة ماأعطى من جنود سببا لغضب الله عليهم ونزول العقاب بهم .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٣٤٣) .

(٢) ورد فى حديث عند الحاكم فى المستدرك ، كتاب الجهاد . وصححه (٢ / ١٢١) ، وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٤٤٠) . وتاريخ الامم والملوك لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٣ / ٧٣) .

(٣) كشف الاستار عن زوائد البزار (٢ / ٣٤٦) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢ / ٣٤٦ ، ٣٤٧) : رواه البزار ، وفيه على بن عاصم بن صهيب وهو ضعيف لكثرة غلطه وتماديه فيه وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات .

(١)

اخرج الامام احمد - واللفظ له - والترمذى عن صهيب رضى الله عنه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى همس شيئا لا افهمه ولا يخبرنا به ، قال : افطنتم لى ؟ قلنا نعم . قال : انى ذكرت نبيا من الانبياء اعطى جنودا من قومه فقال من يكافىء هؤلاء اومن يقوم لهؤلاء اوغيرها من الكلام ، فاوحى اليه أن اختر لقومك احدى ثلاث : اما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم ، او الجوع ، او الموت . فاستشار قومه فى ذلك فقالوا : أنت نبى الله فكل ذلك اليك ، خر لنا . فقام الى الصلاة ، وكانوا اذا فزعوا الى الصلاة فصلى ماشاء الله . قال ثم قال : اى رب اما عدو من غيرهم فلا ، او الجوع فلا ، ولكن الموت فسلط عليهم الموت فمات منهم سبعون الفا . فهمسي الذى ترون انى اقول : اللهم بك اقاتل وبك اصاول ولا حول ولا قوة الا بالله) .

لقد دل النبى صلى الله عليه وسلم بقوله (اللهم بك اقاتل وبك اصاول ولا حول ولا قوة الا بالله) على ان الناصر هو الله ، وان الكثرة او القلة لا تقدم أو تؤخر فى نصره سبحانه ، فينبغى اللجوء اليه والاستنصار به والتوكل عليه .

واحب ان أؤكد بان نصر الله ينزل على المخلصين من عباده قلوا أم كثروا ، فاذا رافق جهادهم عجب وغرور فانهم يتسببون بهذا فى حرمانهم من النصر ، بل ووقوعهم فى الهزيمة قلوا ام كثروا كذلك ، اذا المعول عليه الاخلاص والتقوى وحسن التوجه الى الله ، وليست النسبة العددية المجردة عن الاخلاق الايمانية ، بل ان كثيرا من انتصارات المسلمين الباهرة كانت وهم قلة - فى العدد والعدد - بالنسبة لعدوهم ، كما سترى .

نصر الله للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة :-

اذا ماتقابلت الكثرة الكافرة مع القلة المؤمنة فى المعركة ، فان النصر يكون حليف الفئة المؤمنة - اذا جاهدت باستطاعتها - اتباعا لسنته سبحانه التى افصحت عنها وعوده القاطعة فى كتابه الكريم كما رأيت

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (٤ / ٣٣٢ / ٣٣٣) ، (٦ / ١٦) . والترمذى فى التفسير سورة البروج (٥ / ٤٣٧) . والحديث صحيح ، ورجاله ثقات .

سابقا فى فصل وعد الله بالنصر.

ويعوض الله سبحانه قلة المؤمنين بمعيته لهم فى المعركة بالتأييد والعون والامداد سواء بالملائكة ،او الرعب،او بغيرها من الجنود الاخرى التى يسخرها الله لنصر المؤمنين واذلال الكافرين .

انتصار طالوت على جالوت: وقصة طالوت وجنوده فيها عظة وعبرة لانتصار القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ،اذ لما جاوز طالوت بمن معه النهر رأوا قلتهم، وكثرة اعدائهم من الكفار بزعامة جالوت، فخاف بعضهم من ذلك كما ذكره الله سبحانه ذلك بقوله (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده)(١) اى لا قدرة لنا بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن الغلبة عليهم . والقائل بعض المؤمنين لبعض ، وهو اظهار ضعف لا نكوص لما شاهدوا من الاعداء ماشاهدوا من الكثرة والشدة ، قيل :كانوا مائة الف مقاتل شاكى السلاح ، وقيل ثلاثمائة الف.(٢)

وطمأنتهم فئة من القلة المؤمنة بالنصر على جالوت وجنوده رغم كثرتهم استبشارا بنصر الله لكثير من الفئات المؤمنة القليلة على غيرها من الفئات الكافرة الكبيرة.

(قال الذين يظنون انهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)(٣). (كم) هنا خبرية،(٤) والمعنى كثير من الفئات المؤمنة القليلة غلبت كثيرا من الفئات الكثيرة الكافرة ، وعبر بقوله (غلبت) ولم يقل اطاقت كما وقع فى كلام اخوانهم ، لتطمينهم بحصول ما استبعدوه وزيادة ثقة فى تأييد الله ونصرته للمؤمنين ، ولذلك قالوا (باذن الله) قال ابو السعود فى معناها : (اى بحكمة الله وتيسيره ، فان دوران كافة الامور على مشيئته تعالى ، فلا يذل من نصره وان قل عدده ولا يعز من خذله وان كثر اسبابه وعدده)(٥).

---

(١) البقرة (٢٤٩).
(٢) روح المعانى للآلوسى (١/ ٢/ ١٧١). باختصار يسير جدا .
(٣) البقرة (٢٤٩) تتمة الآية السابقة.
(٤) انظر تفسير النسفى (١/ ١٢٦).
(٥) تفسير ابي السعود (١/ ٢٤٣).

وختمت الآية بقوله (والله مع الصابرين) اى بالنصر ، وهو ختام يتناسب مع مايفيده السياق من انتصار القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، اذإن أى فئة مهما قلت فهى بمعية الله سبحانه منصورة .

وقد انتصرت الفئة المؤمنة القليلة بقيادة طالوت على الكثرة الكافرة. يقول سبحانه (فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت . .)[1] اى هزم طالوت وجنده جالوت وجيشه رغم كثرتهم حتى قتل جالوت بنفسه .

وعلق الاستاذ سيد قطب فى ظلاله على القصة تعليقا مفيدا ،عن اثر العقيدة اقتطف منه قوله (. . على الرغم من هذا كله فان ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبنى اسرائيل نتائج ضخمة جدا . . فقد كان فيها النصر والعز والتمكين ، بعد الهزيمة المنكرة ، والنهاية الفاضحة والتشريد الطويل والذل تحت اقدام المتسلطين . ولقد جاءت لهم بملك داود ، ثم ملك سليمان - وهذه اعلى قمة وصلت اليها دولة بنى اسرائيل فى الارض ، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه ، والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة الكبرى . . وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ، وثبات حفنة قليلة عليها امام جحافل جالوت .)[2] .

واذا كان هذا المثل هو من التاريخ البعيد فان الامثلة فى التاريخ القريب - تاريخ هذه الامة - كثيرة اسوق بعضها حتى يعتمد المسلمون فى جهادهم على ربهم ، ولا يركنوا الى انفسهم او يعجبوا بكثرتهم ، ولا ييأسوا كذلك لقلتهم .

---

(١) البقرة (٢٥١) بعض آية .
(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب (١ / ٢٦٢) .

انتصار القلة المؤمنة فى بدر:

ففى معركة (بدر) كان عدد المشركين الف مقاتل(١)، معهم مائتا فرس(٢)، وكان عدد المسلمين (بضعة عشرة وثلاثمائة)(٣) ومعهم سبعون بعيرا يتعاقبون عليها(٤). وباستعراض النسبة فان المشركين يمثلون ثلاثة أضعاف المسلمين تقريبا. لذا فان اباجهل لما علم بنجاة القافلة ابى العودة وقال: (لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزور، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا ابدا)(٥) كل ذلك اعجابا بكثرتهم وطمعا فى المسلمين لقلتهم.

واشار القرآن الى ذلك فى سياق نهى المؤمنين عن التشبه بما كان من المشركين يومئذ فقال سبحانه وتعالى (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط)(٦).

ذكر ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ان الآية نزلت فى المشركين الذين قاتلوا رسول الله يوم بدر(٧).

ومعنى قوله (بطرا) اى فخرا واشرا، (ورئاء الناس) هو المفاخرة والتكبر عليهم، يدل عليه قول ابى جهل المتقدم.

---

(١) ورد فى حديث سبق تخريجه فى وجوه النصر. ص(١٢٨) هامش(١).
(٢) تاريخ الطبرى (٢ / ٤٢٣).
(٣) صحيح البخارى، كتاب المغازى، باب عدة اصحاب بدر، من طريق البراء (٤/٣).
(٤) الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر (١٠٢).
(٥) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٣١٧)، والنسفى (٢ / ١٠٧).
(٦) الانفال (٤٧).
(٧) تفسير ابن كثير (٢ / ٣١٧).

ولقد استهان ابو جهل كذلك بالمسلمين لقلتهم عندما قرب الفريقان من القتال فقال : (انما محمد واصحابه كأكلة جزور ، لو قد التقينا)[١] وهو يريد انهم سيهزمون المسلمين لقلتهم ظنا منه بان النصر يحصل بالكثرة .

وقال المنافقون مثلما قال ابوجهل ، يقول سبحانه وتعالى (اذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم)[٢] .

قال ابن القيم عند هذه الآية : (ولما رأى المنافقون ومن فى قلبه مرض قلة حزب الله وكثرة اعدائه فى بدر ظنوا ان الغلبة انما هى بالكثرة وقالوا " غر هؤلاء دينهم" فاخبر الله سبحانه ان النصر بالتوكل عليه ، لا بالكثرة ولا بالعدد . والله عزيز لا يغلب ، حكيم ينصر من يستحق النصر وان كان ضعيفا ، فعزته وحكمته اوجبت نصر الفئة المتوكلة عليه)[٣] .

ورغم قلة المسلمين - كما رأيت - فقد نصرهم الله عليهم نصرا مؤزرا ، يقول سبحانه وتعالى (ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة)[٤] .

وسد الله سبحانه يومئذ ضعف المسلمين فى العدد والعدد بالملائكة تقاتل معهم ، يقول سبحانه وتعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان)[٥] .

وقتلوا منهم يومئذ سبعين واسروا سبعين[٦] . بل وتهددهم الله سبحانه ان عادوا لقتال المسلمين ان يعيد عليهم الكرة بالهزيمة دون ان تنفعهم كثرتهم شيئا فقال سبحانه (وان تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وان الله مع المؤمنين)[٧] .

---

(١) كشف الاستار عن زوائد البزار (٢ / ٣١٣) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ٧٦) : رواه البزار ، ورجاله ثقات . قلت : اسناده صحيح ، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي .

(٢) الانفال (٤٩) . (٤) آل عمران (١٢٣) .

(٣) زاد المعاد لابن القيم (٢ / ٢٢٣ ، ٢٢٤) هامش ص ١٢٨ . (٥) الانفال (١٢) .

(٦) ورد فى حديث سبق تخريجه فى وجوه النصر . (٧) الانفال (١٩) .

معركة الخندق : وفى هذه الغزوة كان عدد المشركين عشرة آلاف ، عدا يهود المدينة . وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف.(١) رغم هذا فان المشركين لم يحرزوا أدنى نصر ، ولم تنفعهم كثرتهم ، اذ ايد الله سبحانه القلة المؤمنة بريح وجنود لم يروها ، زلزلت المشركين واضطرتهم الى الفرار بارواحهم. يقول سبحانه وتعالى (ياايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا)(٢) .

غزوة مؤتة : كان عدد المسلمين فى هذه الغزوة ثلاثة آلاف ، وعدد الروم ومن معهم من نصارى العرب مائتا الف.(٣) ولما اسكثر المسلمون عدد عدوهم وا راد بعضهم الكتابة للنبى صلى الله عليه وسلم كى يمدهم او يأمرهم بالقتال ، قال لهم عبدالله بن رواحة : (ياقوم ان التى تطلبون قد اركتموها - يعنى الشهادة - ومانقاتل الناس بعدد ولا قوة ، ومانقاتلهم الا بهذا الذين الذى اكرمنا اللهبه فانطلقوا ، فهى احدى الحسنيين : اماظهور ، واما شهادة . فوافقه الجيش كله على هذا الرأى)(٤) .

وقاتل المسلمون ، ثم انسحب خالد بن الوليد بالجيش ، ولم يصبهم اذى من كثرة الروم يومها ، الا انه استشهد من المسلمين اثناعشر فقط حسب من سمتهم المصادر.(٥) ولاشك ان انسحاب المسلمين بخسائر محدودة جدا ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣ ، ٤ / ٢١٩ ، ٢٢٠) .
(٢) الاحزاب (٩) .
(٣) انظر تاريخ الطبرى (٣ / ٣٦ - ٣٨) . وسيرة ابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٧٥) .
(٤) انظر تاريخ الطبرى (٣ / ٣٦ - ٣٨) . وسيرة ابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٧٥) .
(٥) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٨٨ - ٣٨٩) .

ووقف الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - وقفة بليغة عند قوله تعالى في شأن انتصار المسلمين في بدر -: (ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان)[١].

يقول الاستاذ سيد قطب(. . وكانت فرقانا بين تصورين لعوامل النصر والهزيمة . فَجَرَت كل عوامل النصر الظاهرية في صف المشركين ، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف العصبة المؤمنة ، حتى لقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: (غر هؤلاء دينهم) . . وقد اراد الله ان تجرى المعركة على هذا النحو - وهي المعركة الاولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة - لتكون فرقانا بين تصورين وتقديرين لاسباب النصر واسباب الهزيمة ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية ، وعلى الزاد والعتاد ، فتبين للناس ان النصر للعقيدة الصالحة القوية لا لمجرد السلاح والعتاد ، وان اصحاب العقيدة الحقة ، عليهم ان يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوة المادية الظاهرية لانهم يملكون قوة اخرى ترجح الكفة ، وان هذا ليس كلاما يقال ، انما هو واقع متحقق للعيان)[٢].

معركة أحد :

بلغ عدد المشركين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف رجل منهم سبعمائة دارع، ومعهم مائتا فرس . وكان عدد المسلمين سبعمائة فيهم مائة دارع، قيل كان معهم فرسان وقيل خمسون فرسا[٣] . وبذلك فان قوة المشركين المادية كانت اربعة اضعاف قوة المسلمين المادية او اكثر . رغم هذا فان المسلمين تمكنوا من هزيمة المشركين في اول المعركة شر هزيمة[٤] ، ولم يكن انهزام المسلمين في نهاية المعركة بسبب كثرة المشركين ، وانما كان بسبب مخالفة الرماة لامر النبي صلى الله عليه وسلم وتنازعهم فيما بينهم كما هو معلوم.

---

(١) الانفال (٤١) .
(٢) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب (٣/ ١٥٢٣) .
(٣) انظر الاعداد السابقة في تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٤ ، ٥٠٥) . والسيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤/ ٦٥) . والدرر لابن عبد البر (١٥٨) .
(٤) انظر موضوع الانضباط صفحة (٢٨٣) .

– رغم انهم كانوا وسط امواج من البشر يعدّ نصرا عظيما لا مثيل له ، اذ انهم افلتوا من موت محقق ... .

معركة اليرموك :

في هذه المعركة (تكامل جيش الروم اربعين ومائتى الف ، ثمانون الفا مسلسل بالحديد والحبال ، وثمانون الفا فارس ، وثمانون الفا راجل . . ، وتكامل جيش الصحابة ستة وثلاثين الفا الى الاربعين الفا)(١) .

وعندما اقبل خالد بن الوليد من العراق بامر الصديق لمساندة جيش المسلمين في اليرموك (قال رجل من نصارى العرب لخالد : ما أكثر الروم واقل المسلمين . قال خالد : ويلك ، اتخوفني بالروم؟ انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال)(٢) .

وصدق خالد رضى الله عنه ، فقد نصرهم الله وهم قلة على عدوهم رغم كثرتهم الفاحشة ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، مما حيّر زعيمهم هرقل .

ذكر ابن كثير عن ابى اسحاق قوله (كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء(٣) ، فقال هرقل وهو على انطاقية لما قدمت منهزمة الروم : ويلكم ، اخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، اليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا بلى . قال فانتم اكثر ام هم؟ قالوا بل نحن اكثر منهم اضعافا فى كل موطن . قال فما بالكم تنهزمون ؟ قال شيخ من عظمائهم : من اجل انهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم . ومن اجل انا نشرب الخمر ، ونزنى ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ، ونظلم ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٨) .
(٢) انظر المصدر السابق (٧ / ١١) . وتاريخ الطبرى (٣ / ٣٩٧ ، ٣٩٨) .
(٣) فواق ناقة : اى قدر فواق ناقة ، وهو ما بين الحلبتين من الراحة .
انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ٤٧٩) .

ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الارض . فقال : أنت صدقتنى)[١] .

ان العبرة ليست بكثرة الرجال وانما العبرة بما هو فى نفوس اولئك الرجال من الايمان ، والاخلاق ، والمعنويات العالية ، لذا فان جيش هرقل لم يثبت فى وجه الصحابة رضوان الله عليهم ، وايقن هرقل حقيقة ذلك بنفسه . وما احوجنا نحن اليوم الى معرفة هذه الحقيقة لنعرف بالتالى عظمة ما نملك من القوة واسباب النصر .

معركة القادسية : كان عدد الفرس فى هذه المعركة ثلاثون الفا ، وقيل ستون الفا . وكان عدد المسلمين بين السبعة آلاف والثمانية[٢] . ولما رأى الفرس قلة عدد المسلمين وعتادهم قالوا : (لا يد لكم ولا قوة ولا سلاح ، ما جاء بكم ؟ ارجعوا . قال ، قلنا : ما نحن براجعين ، فكانوا يضحكون من نبلنا ويقولون : دوك ، دوك . وشبهونا بالمغازل)[٣] .

ولكن لم تنفع اولئك كثرتهم ، قال ابن كثير (وانهزمت الفرس عن بكرة ابيهم ، ولحقهم المسلمون فى اقفائهم فقتل يومئذ المسلسلون بكمالهم وكانوا ثلاثين الفا ، وقتل فى المعركة عشرة آلاف ، وقتلوا قبل ذلك قريبا منهم . وقتل من المسلمين فى هذا اليوم وما قبله من الايام الفان وخمسمائة رحمهم الله)[٤] .

معركة جلولاء : كانت هذه المعركة بين المسلمين والفرس كذلك ، وكان عدد المسلمين فيها اثنى عشر الفا ، انتصر فيها المسلمون على الفرس ، وقتلوا منهم (مائة الف حتى جللوا وجه الارض بالقتلى ، فلذلك سميت جلولاء)[٥] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٦ / ١٧) .
(٢ ، ٣) انظر مصنف ابن ابى شيبة (١٢ / ٥٦٢ - ٥٦٣) . والبداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٤٨) .
(٤ ، ٥) البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٤٩ ، ٧٧) .

فى الاندلـــس: ولا يدور بخلد احد ان انتصار القلة المؤمنة خاص بجيل دون جيل . كلا ، انما هو خاص بجيل الايمان فى كل زمان ومكان ، فاذا وقع ذلك فى وقت سابق ولجيل كان فيه الصحابة ، فلقد وقع مثله فى وقت قريـــب وفى جيل لم يكن فيهم من الصحابة ، وانما كانت فيهم اخلاق الصحابة فنصرهم الله كما نصر الصحابة الكرام. قال القرطبى (ووقع فى تاريخ فتح الاندلس أن طارقا مولى موسى بن نصير سار فى الف وسبعمائة رجل الى الاندلس ، وذلك فى رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة. فالتقى وملك الاندلس لذريق وكان فى سبعين الف عنان ، فزحف اليه طارق ، وصبر له فهزم الله الطاغية لذريـــق وكان الفتح)[1].

واورد الامام ابوحيان الاندلسى هذه القصة فى تفسيره واضـــاف قائلا (ومازالت جزيرة الاندلس تلتقى الشرذمة القليلة منهم بالعدد الكثيـــر من النصارى فيغلبونهم ، واخبرنا من حضر الوقعة التى كانت فى الديموس الصغير على اثنى عشر ميلا من مدينة غرناطة سنة تسع عشرة وسبعمائة ، وكـــان المسلمون الفا وسبعمائة فارس من الاندلسيين والبربر ، وكان النصارى مائـــة الف راجل ، وستين الف رام ، وخمسة عشر الف فارس بين رام ومدرع ، فصبـــروا لهم واسروا اكابرهم وقتلوا ملك قشتاله" دون جوان" ونجا اخوه" دون بطـــر" مجروحا وكان ملوك النصارى: ملك قشتاله المذكور ، وملك افرنسه وملك يوطقـــال وملك غلسية ، وملك قلعة رباح قد خرجوا عازمين على استئصال المسلمين مـــن الجزيرة فهزمهم الله)[2].

---

(١) احكام القرآن للقرطبى (٧ / ٣٨١) .
(٢) تفسير البحر المحيط لابى حيان الاندلسى (٤ / ٥١٧) .

انتصارات القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة كثيرة كما اخبر القرآن في قوله تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله)[١] وهذه نماذج منها ، وسيبقى ذلك امرا عاما في كل فئة مؤمنة كما اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في خبر عام.

اخرج الامام احمد والترمذي وابوداود والدارمي- واللفظ له - والحاكم عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] (خير الاصحاب اربعة وخير الجيوش اربعة آلاف ، وخير السرايا اربعمائة ، ومابلغ اثناعشر الفا فصبروا وصدقوا ، فغلبوا من قلة) . من هذا يتأكد ان الهزيمة لا تقع من قلة كما أن النصر لا يحصل بالكثرة ، كيف لا وقد انتصر المسلمون في معارك كثيرة كما رأيت وهم قلة. وانما المعتبر في حصول النصر او الهزيمة هو حال اولئك المقاتلين بالنسبة لدين الله . لذا فانه لا ينبغي الاغترار بالكثرة كما لا ينبغي اليأس من القلة .

---

(١) البقرة (٢٤٩) .

(٢) اخرجه الامام احمد في المسند (١ / ٢٩٤) . وابوداود في الجهاد باب فيما يستحب من الجيوش. (٣ / ٣٦) . والترمذي في السير ، باب ماجاء في السرايا (٤ / ١٢٥) . والدارمي في السير ، باب في خير الاصحاب (٢ / ١٣٤ ، ١٣٥) ، والحاكم في المناسك (١ / ٤٤٣) وفي الجهاد (٢ / ١٠١) وصححه الاستاذ /احمد شاكر في تحقيقه على المسند (٤ / ٢٣٧) . وصححه الشيخ الالباني كذلك في سلسلة الاحاديث الصحيحة (٢ / ٧١٩- ٧٢٠ رقم ٩٨٦) . قلت: الحديث صحيح ورجاله ثقات.

السبب السابع
==========

الاتحاد في المعركة

ان تماسك الامة وتآلفها وتلاحمها بعضها ببعض هو من مقومات بقائها ، فضلا عن كونه من ابرز اسباب تفوقها في الصراع مع الامم الاخرى . واذا قدّر لامة أن يدب في اوصالها الخلاف والفرقة فانها بهذا تكون مهددة بالزوال ، فضلا عن الهزيمة ، ذلك لان الاتحاد قوة ، والقوة تفضي الى النصر ، والتفرق ضعف ، والضعف يفضي الى الهزيمة .

الاتحاد فريضة شرعية : أمر الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز المؤمنين بالتآلف والتعاضد فقال : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)[1] . بعد أن أمر سبحانه المؤمنين بالاعتصام بحبل الله ، وهو القرآن الكريم كما ذكر المفسرون[2] ، فانه أمرهم بالجماعة ونهاهم عن الفرقة (ولا تفرقوا) ، وذكّرهم بما امتن به على الأوس والخزرج حيث جعلهم اخوة بهذا الدين بعد أن كانوا اعداء تشتعل بينهم المعارك والحروب لاتفه الاسباب ، ووصف سبحانه رابطة الاخوة التي تجمعهم بانها نعمة ، وفي هذا تقدير عظيم لاهمية الاتحاد والتآلف بين المؤمنين ، وتذكير لهم بأن يحافظوا على هذه النعمة فلا يفرطوا فيها بالتنازع والاختلاف .

وترغيبا في الاتحاد اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم انه سبب في الحصول على رضى الله ، وذلك فيما اخرجه الامام مسلم بسنده عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] : (ان الله يرضى لكم ثلاثا ويكره - وفي رواية يسخط - لكم ثلاثا ، فيرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال) .

---

(١) آل عمران (١٠٣) .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٨) وابي السعود (٢/ ٦٦) .
(٣) اخرجه مسلم في كتاب الاقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٣/ ١٣٤٠) .

قرن الرسول الاتحاد بالعبادة والتوحيد اشعارا بان الاتحاد ركن من اركان هذا الدين . قال النووى فى شرحه : (وأما قوله صلى الله عليه وسلم (ولاتفرقوا) فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين وتآلف بعضهم ببعض ، وهذه احدى قواعد الاسلام)[١] .

وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على لزوم الجماعة ، ونهى عن الفرقة وذلك فيما اخرجه الترمذى - واللفظ له - والحاكم عن ابن عمر قال[٢] : (خطبنا عمر بالجابية فقال : ياايها الناس انى قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا فقال : اوصيكم باصحابى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ثم يفشوالكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ، ويشهد الشاهد ولا يستشهد الا لايخلوّن رجل بامرأة الا كان ثالثهما الشيطان ، عليكم بالجماعة واياكم والفرقة ، فان الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين ابعد ، من اراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن) .

وحفاظا على وحدة الامة اهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دم من اراد تفريق شملها .

أخرج الامام مسلم بسنده عن عرفجة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[٣] : (من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم[٤] او يفرق جماعتكم فاقتلوه) .

ولبيان مدى تآلف المؤمنين وتلاحمهم شبههم الرسول عليه الصلاة والسلام بالبنيان يشد بعضه بعضا . أخرج الامام مسلم بسنده عن ابى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] : (المؤمن للمؤمن كالبينان يشد بعضه بعضا) .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١١) .

(٢) اخرجه الترمذى فى الفتن ، باب ماجاء فى لزوم الجماعة (٤ / ٤٦٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح . واخرجه الحاكم فى المستدرك ، كتاب العلم (١ / ١١٤) وصححه . قلت : اسناد الترمذى حسن لاجل النضر بن اسماعيل فهو صدوق . انظر التهذيب لابن حجر (١٠ / ٤٣٤ - ٤٣٥) وبقية رجاله ثقات .

(٣) اخرجه مسلم فى الامارة . باب حكم من فرق امر المسلمين وهو مجتمع (٣ / ١٤٨٠) .

(٤) يشق عصاكم اى يفرق جماعتكم كما تفرق العصا المشقوقة ، وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٢٤٢) .

(٥) اخرجه مسلم فى كتاب البر والآداب والصلة . باب تراحم المؤمنين (٤ / ١٩٩٩) .

شبّه الرسول عليه الصلاة والسلام علاقة التآزر والتعاضد بين المؤمنين بالبنيان لوضوح دلالته فى قوة العلاقة بين اجزائه لدرجة لا يستغنى فيها جزء عن الآخر، ولا يقوم جزء دون الآخر، فيعضد بعضه بعضا ليقوم بذلك البناء كله، ويصبح بفضل علاقة التعاضد والتآزر بين اجزائه بناء قويا متماسكا، فاذا فقد البناء جزءاً منه فقد بذلك قوته وتماسكه وتعرض للانهيار باقل سبب يتعرض له.

ان العلاقة التى تربط بين المؤمنين فى المجتمع الاسلامى ايا كانت الوانهم واجناسهم واوطانهم لعلامة عظيمة لا يصل اليها اتحاد بين البشر، انها علاقة اخوة كما وصفها الله سبحانه بقوله: (انما المؤمنون اخوة)(١)، ومن هذه الآية وغيرها يتضح ان الآصرة التى يجتمع عليها المؤمنون هى آصرة العقيدة فقط، وهى تتقدم على غيرها من الروابط والعلاقات الارضية حتى آصرة النسب، بل وتفرض على المؤمن ان يقف فى وجه اخيه من والديه وقت المعركة ان خالف عقيدة الايمان والتوحيد، وتوجب عليه ان يقف بجوار اخيه المؤمن، وفى صف واحد ليدفع عنه اعداء هذه العقيدة.

وعلاقة الاخوة كما تربط بين الافراد المؤمنين فانها تربط كذلك وبنفس المستوى بين الشعوب المؤمنة ايا كانت اجناسها والوانها، ولغاتها وايا كانت ديارها ومضاربها.

واجب الاتحاد فى المعركة:-

واذا كان اتحاد المسلمين جماعات وافرادا فى صف واحد واجباً فى العموم فان اتحادهم اوجب على وجه الخصوص زمن المعارك والحروب، لانها تؤثر فى مصير الامم والشعوب. وهى اوجب عندما تصاب الامة بالشلل الذى يفقدها القدرة على مواجهة الشعوب الاخرى التى تستغل ضعفها لتجهز عليها.

لذا فقد امر الله تبارك وتعالى المجاهدين وقت المعركة ان يجتمعوا فى صف واحد ضد عدوهم فقال (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)(٢).

بيّن سبحانه محبته للمقاتلين فى سبيله الذين يقاتلون اعداءهم (صفا) أى صافين انفسهم او مصفوفين(٣)، وشبههم فى تراصهم من غير فرجة وخلل بقوله

---

(١) الحجرات (١٠).
(٢) الصف (٤).
(٣) تفسير ابي السعود (٨/ ٢٤٣).

(كأنهم بنيان مرصوص) قال ابن عباس في معناها : (اى مثبتلا يزول ، ملصق بعضه ببعض) (١) .

وقال جل جلاله (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين) (٢) .

قال الامام الطبرى فى تفسيرها (فانه يقول جل ثناؤه : وقاتلوا المشركين بالله ايها المؤمنون جميعا غير مختلفين ، مؤتلفين غير مفترقين ، كما يقاتلكم المشركون جميعا ، مجتمعين غير متفرقين .) ونقل هذا المعنى عن ابن عباس وقتادة والسدى (٣) .

اثر الاتحاد فى احراز النصر :- لقد اشرت سابقا الى ان الاتحاد قوة ، والقوة تفضى الى النصر ، كما ان الاختلاف ضعف ، والضعف يفضى الى الهزيمة .

وندرك هذا المعنى من قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين) (٤) نبه الله سبحانه فى هاتين الآيتين الى جملة من اسباب النصر والهزيمة ، منها اتحاد المجاهدين ، ونبه الى هذا من خلال التحذير من الاختلاف والفرقة مع بيان انه سبب للهزيمة (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ، ذكر سبحانه مايترتب على التنازع ، وهما : اولا : الفشل : وهو الجبن فى الحرب ، (٥) وهو سبب من اسباب الهزيمة كما سأبينه قريبا في موضوع الشجاعة .

ثانيا : ذهاب الريح : والريح هى القوة والنصر ، وقيل الريح بمعنى الدولة ، شبهت فى نفوذ امرها بالريح فى هبوبها ، وقيل المراد بها ريح الصبا ، اذ كان ينصر بها النبى صلى الله عليه وسلم . (٦) من هذا يتبين ان التنازع يؤدى الى الضعف والهزيمة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٥٩) .
(٢) التوبة (٣٦) .
(٣) تفسير الطبرى (٦ / ١٢٨) .
(٤) الانفال (٤٥ ، ٤٦) .
(٥ ، ٦) انظر فتح القدير للشوكانى (٢ / ٣١٥) ، وابي السعود (٤ / ٢٥) ، وابن كثير (٢ / ٣١٦) ، والطبرى (٦ / ٢ / ١٦) .

وذكر القرآن درسا من دروس معركة (أحد) ، فبيّن أن اختلاف بعض الصحابة يومها كان سببا فى انهزامهم يقول سبحانه وتعالى (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسّونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين)(١) .

قال الشوكانى : (نزلت الآية لما قال بعض المسلمين من اين اصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر، وذلك انه كان الظفر لهم فى الابتداء ، حتى قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده ، فلما اشتغلوا بالغنيمة وترك الرماة مركزهم طلبا للغنيمة كان ذلك سبب انهزامهم)(٢) .

فالنصر وقع للمسلمين اولا ، يؤيد هذا قوله (ولقد صدقكم الله وعده) والوعد هنا : هو الوعد بالنصر(٣) ، اذ وفّى الله لهم هذا الوعد فنصرهم ، ودلّ على هذا بقوله (اذ تحسونهم باذنه) والحسّ هو الاستئصال بالقتل(٤) . ولكن ماوقع من المسلمين من اخطاء بعد ذلك كان سببا فى منع النصر عنهم ، واشار سبحانه الى هذا بقوله (حتى اذا فشلتم) والفشل هو الجبن (وتنازعتم فى الامر) قال الشوكانى (والتنازع المذكور هو ماوقع من الرماة حين قال بعضهم نلحق الغنائم ، وقال بعضهم نثبت فى مكاننا كما امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم)(٥) ، (وعصيتم) وهو عصيان كثير من الرماة بالنزول عن الجبل بعد ان امرهم بالثبات عليه وعدم مفارقته بحال . وبين سبحانه سبب عصيان اولئك النفر من الرماة الذين نزلوا واختلفوا مع اميرهم فقال (منكم من يريد الدنيا) اى الغنيمة حيث نزلوا لجمع الغنائم . ومدح سبحانه من تبقى من الرماة فوق الجبل ولم ينزلوا طلباً للغنيمة ، حيث اخبر سبحانه بانهم من اهل الآخرة ، رغبوا فيما عند الله بالثبات والاستشهاد عما كان يمكنهم ان يأخذوه من الغنائم فى ذلك اليوم (ومنكم من يريد الآخرة) .

---

(١) آل عمران (١٥٢) .
(٢) فتح القدير للشوكانى (١ / ٣٨٩)
(٣) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٤١١) وابي السعود (٢ / ٩٨) .
(٤) انظر فتح القدير (١ / ٣٨٩) . والنسفى (١ / ١٨٧) .
(٥) انظر هذه المعانى فى تفسير النسفى (١ / ١٨٧) . وفتح القدير (١ / ٣٨٩) .

واخبر سبحانه عن حرمانه لهم العون والنصر بشؤم معصيتهم (ثم صرفكم عنهم) اى كفّ معونته عنكم فغلبوكم (ليبتليكم) اى ليمتحن صبرهم على المصائب وشباتهم ، (ولقد عفا عنكم) لما ندموا على ماوقع منهم (والله ذو فضل على المؤمنين) بالعفو عنهم خاصة ، وفى جميع احوالهم عامة.(١)

مما مر تبين بوضوح كيف بدأت المعركة ولصالح من ، ثم كيف انقلبت حيث تراجع المسلمون ، وتبين ايضا الاسباب التى ادت الى انقلاب النتيجة من النصر الى الانهزام ، وتبين ان الاختلاف والفرقة والتنازع هو من هذه الاسباب التى ادت الى التحول السلبى . . .

وهو درس رائع فى النصر والهزيمة ، قصه القرآن على المؤمنين ليعلمهم متى يتم الله سبحانه وعده لهم بالنصر ومتى يمنعه عنهم ، وبأى اسباب يتم النصر اوتكون الهزيمة .

الاختلاف والتنازع سلاح يستخدمه العدو لاضعاف العالم الاسلامى :-

اما وقد تبين بالكتاب والسنة ووقائع السيرة اثر التنازع فى حصول الهزيمة ، واهمية الاتحاد فى احراز النصر ، فانى راغب فى ان أوكد ماتقرر باقوال لاعدائنا فى العصر الحديث ، وذلك لابراز خطورة الموقف ، مع ان مامر سابقا فيه من الحجة والعبرة مايكفى .

لقد تأكد ان الاستراتيجية التى يعتمدها العدو ضدنا هى تمزيق جسد الامة الاسلامية الى كيانات مختلفة . . لتفتيت قوة المسلمين . وخلاصة هذه السياسة فى العبارة المشهورة (فرّق تسد) .

ويشهد على ذلك تقرير الكولونيل لورنس المرفوع الى المخابرات البريطانية فى كانون الثانى ١٩١٦م والذى جاء فيه : (بأن اهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الاسلاميقبد حر الامبراطورية العثمانيةوتد ميرها ، واذا عرفنا كيف نعامل العرب

---

(١) انظر هذه المعانى فى تفسير النسفى (١ / ١٨٨) .

فسيبقون فى دوامة الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة متنافرة غير قابلة للتماسك)[١] .

ويشهد لذلك حديثا ماقاله اليهودى (اهارون ياريف) مدير المعهد العالى للدراسات الاستراتيجية فى تل ابيب ، والرئيس السابق للمخابرات العسكرية الاسرائيلية ، قال (ان جيشنا الاسرائيلى لايزال اقوى جيش فى الشرق الاوسط ، ولكننى اعتقد جازما ان العدد الحالى لهذا الجيش لايكفى لمواجهة اى خطر ، الا اذا تحقق شرطان ، اولهما : استمرار التزاعات واسباب الخلاف بين العرب انفسهم ، وثانيهما : الا يتحقق اى ائتلاف ، والا يقوم اى تحالف بين عدة دول عربية ضد اسرائيل)[٢] .

ولااحب ان اعلق على ماذكره هؤلاء الاعداء ، ولااحب ان استرسل فى ذكر الشواهد من بر وتوكلات حكماء صهيون او غيرها ، فواقع المسلمين خير شاهد على ماقول . . ، ولكن اذكّر بخطورة هذا الاسلوب العدائى فى اضعاف قدرات الامة الاسلامية ، كما اذكّر بخطورة الفرق الباطنية والمذاهب الهدامة ، والعصبيات الاقليمية والعرقية لانها هى النواة الطبيعية لاى اختلاف او تمزق فى كيان الامة الاسلامية ، كما ان مصالحها الذاتية تلتقى مع مصلحة العدو الخارجى لذا فقد كانت ومازالت عونا للاستعمار .[٣]

كما ويطيب لى ان اذكّر ايضا بان من ابرز اسباب انتصار القائد المظفّر صلاح الدين الايوبى على الصليبيين ، وظفره باسترداد بيت المقدس ، هو توحيده للدويلات الاسلامية المتناحرة فيمابينها .[٤]

---

(١) اجنحة المكر الثلاثة /عبدالرحمن حبنكة) الميدانى (١٩٩) نقلا عن كتاب الحياة السياسية للورنس العرب .

(٢) انظر مجلة الامة (القطرية) عدد ٦٢ ، السنة السادسة ، صفر ١٤٠٦هـ .

(٣) انظر اجنحة المكر الثلاثة عبدالرحمن حبنكة الميدانى (٢٠٩ - ٢٠٧ ، ٢٦٩ - ٢٨٨) ، وكتاب الله او الدمار لمؤلفه سعد جمعه ص ٧٤ ومابعدها ، وكتاب عوامل النصر والهزيمة لشوقى ابوخليل (٨٦ - ٨٨) دار الفكر ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

(٤) انظر كتاب صلاح الدين الايوبى ، عبدالله ناصح علوان ١٠٦ - ١٠٧) دار السلام للطباعة . الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

السبب الثامن :

الشجاعة وارادة القتـــال

معنى الشجاعة :

عرّف الجرجانى الشجاعة بقوله : (هيئة حاصلة للقوة الغضبية بين التهور والجبن ، بها يقدم على امور ينبغى ان يقدم عليها ، كالقتال مع الكفار مالم يزيدوا على ضعف المسلمين)(١) .

بهذا فان الشجاعة تتمثل فى : (١) الرغبة الاكيدة والتصميم الجاد على قتال العـــــــدو .

(٢) اقدام المجاهد وبلائه فى المعركة .

ويتضح ايضا ان الشجاعة تتوسط امرين كلاهما متطرف احدهما فيه افراط والثانى فيه تفريط ، اما الذى فيه افراط فهو التهور اذ يكـــون الاقدام فى غير محله ، واما الذى فيه تفريط فهو الجبن اذ يفقـــــد الجبان او تضعف عنده الرغبة فى الاقدام .

الشجاعة من المبادىء الاساسية للحرب :

توفر الارادة القتالية والشجاعة لدى المقاتلين مبدأ اساسي فى الحرب ، اذ لا يمكن ان يخوض مقاتل او جيش حربا دون ان تتوفر لديـــــــه الارادة والشجاعة والاستبسال فى القتال من اجل تحقيق الهدف العام . واذا حدث ان دخل جيش القتال دون ارادة ورغبة اكيدة فى القتـــال

---

(١) التعريفات للجرجانى (١٢٥) .
دار الكتب العلمية / بيروت . الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ .

ودون استبسال وصمود فى المعركة فان مصير هذا الجيش هو الهزيمة والاندحار.

والمعركة كلها اخطار حيث يتعرض المقاتل للقتل او الاصابة سواء بجروح طفيفة او بالغة، كما ويلزمه ان يتخطى مزارع الالغام، ويواجه عدوا مزودا بكافة انواع الاسلحة من الطائرات او المدفعية او الدبابات.

وكل هذه الاخطار وغيرها مما لا حاجة للتوسع فى ذكره، يوجب على المقاتل ان تتوفر لديه رغبة فى دخول المعركة ومواجهة الاعداء، ويوجب عليه ان يكون شجاعا ومقداما فى تحدى كل هذه الاخطار.

فاذا حصلت الرغبة فى دخول القتال، والاقدام على مافيه من الاهوال فان ذلك يقوى موقف هذا الطرف، ويضعف موقف الطرف الآخر، مما يعنى أن الاول قد وضع اقدامه على بداية طريق النصر، واما الثانى فاقدامه وضعت على بداية طريق الهزيمة. لانه اذا لم يكن الجيش شجاعا فانه سيكون جبانا، واذا كان كذلك فليس من نتيجة سوى الفرار وهو مايعنى الهزيمة، بل واشنع.

وستبقى للشجاعة اهميتها الاساسية فى المعارك مهما تطورت تكنولوجيا الحرب، لان الشجاعة هى بمثابة قوة معنوية تنبع من القلب، وتدفع المجاهد للاقدام فى اداء مهامه القتالية، فهى بذلك لا يمكن ان تصنع فى المعامل لتوزع على المقاتلين.

دوافع الشجاعة فى الاسلام:

من الواضح ان الشجاعة فى الاصل خلق فطرى، ولكن تعاليم الكتاب والسنة تحمل فى ذاتها دوافع ايمانية تكسب المقاتل شجاعة نادرة ومتميزة.

ان دوافع الشجاعة عند المسلمين متميزة لانها تضرب بجذورها فى العمق الايمانى، اذ الباعث لها هو الايمان والعقيدة وليست المطامع المادية والدنيوية، ومن ثم فانها عميقة عمق تلك العقيدة، راسخة رسوخ تلك المبادىء الايمانية، وهى قوية قوة هذا الدين، فهى لا تهن ولا تجبن امام قوة من البشر.

هذا وسأستعرض نماذج من المبادىء الاسلامية التى تخلق روح الشجاعة لدى المسلمين .

اولا : الايمان والعقيدة :- ان الايمان يشحذ المقاتل المؤمن فى المعركة بروح معنوية عالية ، تجعله لا يخاف الا من الله سبحانه ، يقول سبحانه وتعالى (انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)(١) .

ختمت الآية بقوله (ان كنتم مؤمنين) لبيان ان الايمان يقتضى مخافة الله وحده ، وعدم الخوف ممن سواه . قال النسفى : (فالايمان يقتضى ان يؤثر العبد خوف الله على خوف غيره)(٢) .

والايمان يجعل المقاتل المؤمن لا يخاف الهزيمة لاعتقاده بأن الناصر هو الله . يقول سبحانه وتعالى (وما النصر الا من عند الله)(٣) ، كما ويعتقد بان لا قوة فى الكون تملك النصر والهزيمة من دون الله (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده)(٤) .

والايمان يجعل المقاتل لا يخاف الموت لاعتقاده بان الآجال بيد الله ، يقول سبحانه وتعالى (ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)(٥) .

---

(١) آل عمران (١٧٥) .
(٢) انظر تفسير النسفى (١ / ١٩٦) .
(٣) الانفال (١٠) .
(٤) آل عمران (١٦٠) .
(٥) الاعراف (٣٤) .

والايمان يجعل المقاتل لا يخشى مما قد يصيبه من العدو في المعركة لايمانه بان شيئا لن يصيبه الا بتقدير الله (قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(١) .

كما ان الايمان يجعل المقاتل يشعر بالعزة والاستعلاء على غير المؤمنين ، ولذا فان الله سبحانه عزّى المؤمنين عقب ماأصابهم في (أحد) بتذكيرهم بما منحهم اياه من العزة واستعلاء الايمان ، يقول سبحانه (ولاتهنوا ولاتحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين)(٢) . وختمت الآية بقوله (ان كنتم مؤمنين) لبيان ان الايمان يقتضي الاستعلاء على الكافرين ، ومن ثم فلا يهن المؤمن أويحزن في المعركة وغيرها .

هذه بعض مبادئ العقيدة الاسلامية التي تخلق في المجاهد روح الشجاعة والاقدام . وكنت قد ابرزت اثر العقيدة في المعركة في موضوع الايمان والعقيدة البناءة ، فيمكن الرجوع اليه للتوسع .*

ثانيا : الجهاد في سبيل الله ، وعدالة الحرب :-

ان الاسلام يعد المجاهد للقتال في سبيل الله ، وليس من اجل نزوة ذاتية او نزعة عرقية ، يقول سبحانه وتعالى (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا)(٣) .

ومن هنا فان الجهاد في سبيل الله يمثّل للمجاهد باعثا قويا يدفعه الى التفاني في المعركة بكل شجاعة وبسالة .

---

(١) التوبة (٥١) .
(٢) آل عمران (١٣٩) .
(٣) النساء (٧٦) .
* انظر صفحة (١٦٣) من هذه الرسالة .

وايمانه بان الحرب التى يخوضها حربا عادلة لحماية المستضعفين من المؤمنين يستحث همته ونخوته وشجاعته فى المعركة ، يقول سبحانه (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)(١) . وكذا مادامت المعركة التى يخوضها المقاتل فى سبيل الله لاى باعث من بواعث الجهاد فان ذلك يزوده بقوة نفسية عظيمة تخلق فيه شجاعة منقطعة النظير .

ثالثا : الثواب : ان المجاهد المؤمن يعلم ماأعد الله له من الثواب العظيم فى الدنيا والآخرة ، وهذا يدفعه الى الاستبسال فى المعركة ليفوز بثواب الجهاد . يقول سبحانه وتعالى (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما)(٢) .

معنى قوله (يشرون) اى يبيعون . قال ابوالسعود : (وتعقيب القتال بأحد الامرين (فيقتل او يغلب) للاشعار بان المجاهد حقه ان يوطن نفسه باحدى الحسنيين ، ولا يخطر بباله القسم الثالث اصلا (وهو الفرار) وتقديم القتل للايذان بتقدمه فى استتباع الاجر)(٣) .

وبين الله تبارك وتعالى ثواب الشهيد بقوله (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المؤمنين)(٤) .

---

(١) النساء (٧٥) .
(٢) النساء (٧٤) .
(٣) تفسير ابي السعود (١ / ٢٠١) .
(٤) آل عمران (١٦٩ - ١٧١) .

ولاشك ان ماأعده الله من ثواب للمجاهد والشهيد يعد من اقوى دوافع الشجاعة ،لان المجاهد لم يعد يخشى شيئا من عدوه ، ولم يعد هناك مايخشى عليه ،بل لعله يؤثر الشهادة فيرمى بنفسه فى مظان الموت. وهل من شجاعة اكثر من هذه الشجاعة.

واحب هنا ان استشهد على قيمة الثواب الذى اعد للشهيد فى خلق روح الشجاعة عند المقاتلين بقصة عمير بن الحمام فى بدر ،اذ سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحرضهم على القتال بقوله (١) (قوموا الى جنة عرضها السموات والارض . فقال عمير بن الحمام الانصارى : يارسول الله جنة عرضها السموات والارض؟ قال : نعم . قال بخ بخ (٢). فقال رسول الله : مايحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يارسول الله ،الا رجاءة ان اكون من اهلها قال : فانك من اهلها . فاخرج تمرات من قرنه ،فجعل ياكل منهن ثم قال لئن انا حييت حتى اكل تمراتى هذه ،انها لحياة طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل) .

لما سمع عمير رضى الله عنه من عظيم ثواب الشهيد لم يحتمل اكمال مابيده من التمرات للزمن الذى سيكمل فيه اكلها ،فقذف بنفسه فى حمام الموت يؤثر ماعند الله من الثواب العظيم على مافى ايدى الناس من المتاع الرخيص ، وبهذا فان الثواب الذى اعد للمجاهدين والشهداء هو من اقوى دوافع الشجاعة فى المعركة.

---

(١) بعض حديث. سيأتى تخريجه فى موضوع الطاعة والانضباط (٢٨٦) ، هامش (١) .

(٢) بخ بخ : فيها لغتان اسكان الخاء وكسرها منونا وهى كلمة تطلق لتفخيم الامر وتعظيمه فى الخير. انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٣ / ٤٥) ومنال الطالب لابن الاثير (٢٩٧) .

استئصال الاسلام للخوف والجبن من النفس:

الخوف ظاهرة سلبية فى الانسان تؤدى به الى الجبن فى وقت الشدائد والحروب. وعالج الاسلام هذه الظاهرة بانتزاع اسبابها واقتلاعها من النفوس. فالنفس البشرية تخاف من القتل اوالاصابة او الهزيمة فى المعركة ، والاسلام انتزع كل ذلك من نفس المقاتل بالايمان كما رأيت ، وباخباره ان الموت واقع على كل حى ، وانه ان يمت موتة كريمة هو خير له فى دنياه وفى أخراه ، وان اكرم الميتات الموت فى سبيل الله عزوجل دفاعا عن العقيدة وحماية للاعراض وصيانة للاوطان ، يقول جل شأنه (لئن قتلتم فى سبيل الله اومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون * ولئن متم اوقتلتم لالى الله تحشرون)(١). وهاتان الآيتان تعقيب على قول المنافقين لاخوانهم الذين سافروا للتجارة او اشتركوا فى الغزو فماتوا بسبب ذلك لو كانوا عندنا ماماتوا ،وقد بين الله سبحانه ان هذا القول حسرة فى قلوب المنافقين تتمزق بها قلوبهم ، وان حكم الله باحياء من يحييه واماتة من يميته ماض كما اراد ، لاتغيره الاسباب الظاهرة ، فقد يميت المقيم القاعد فى بيته ويحى المشترك فى اشد المعارك ضراوة . لذا نهى الله سبحانه المؤمنين ان يشبهوا الكافرين فى قولهم واعتقادهم ، وأن يجبنوا عن الجهاد خوفا من الموت او القتل وبين لهم ان مغفرة الله ورحمته خير مما يجمع هؤلاء المنافقون من الدنيا ، وانه يوم يحشرون الى ربهم باعمال صالحة منها الجهاد فى سبيله والاستشهاد لاجل دينه سيسعدون بذلك اتم السعادة ، بينما يتحسر المنافقون على فوات هذه الفرصة حسرة تزيد همهم ولاتجديهم نفعا ، قال تعالى (ياايها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض اوكانوا غزى لوكانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحى ويميت والله بما تعملون بصير)(٢).

---

(١) آل عمران (١٥٧ ، ١٥٨) .
(٢) آل عمران (١٥٦) .

قال الامام النسفي بعد تناوله لهذه الآيات (كذّب الكافرين اولا في زعمهم ان من سافر من اخوانهم اوغزا لوكان بالمدينة لمامات ، ونهى المسلمين عن ذلك لانه سبب التقاعد عن الجهاد ،ثم قال لهم ولئن تم عليكم ماتخافونه من الهلاك بالموت او القتل فيسبيل الله فان ماتنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ، فالدنيا زاد المعاد فاذا وصل العبد الى المراد لم يحتج الى الزاد)[١] .

ويحصل الخوف ايضا بسبب الحرص على الدنيا وزينتها ، لذا فقد عمد القرآن الى تحقير الدنيا في نظر المجاهد ، يقول سبحانه (ياايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل)[٢] .

بين سبحانه حقيقة هذه الدنيا ، وانها لاتذكر بجانب ماأعده سبحانه للمجاهدين من الثواب والنعيم المقيم ، ومن ثم فان المؤمن لايقعد عن الجهاد رغبة في متاع الحياة الدنيا ، بل يقدم على الجهاد بشجاعة وبسالة رغبة فيما وعده به سبحانه من الثواب.

واذا كان الاولاد والاهل والعشيرة والمال من خير متاع الدنيا فان القرآن خصهم بالتحذير ، اذا كانوا سببا لحصول الخوف والتثاقل عن الجهاد يقول سبحانه وتعالى (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احبّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتيَ الله بامره والله لايهدي القوم الفاسقين)[٣] .

- (١) تفسير النسفي (١ / ١٩١) .
(٢) التوبة (٣٨) .
(٣) التوبة (٢٤) .

معنى قوله (اقترفتموها) اى اصبتموها . حذر سبحانه من هذه الاصناف الثمانية مشيرا بها الى ماعداها ، وذكرها هنا لاهميتها فى تثبيط الناس عن القتال او الطغيان بحبها على محبة الله ورسوله . وقرن الجهاد بحب الله ورسوله (احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله) ليبرز حقيقة مكانته فى هذا الدين . فاذا تسببت هذه الامور فى التثبيط عن القتال ، فان المؤمنين مهددون بعقاب الله (فتربصوا حتى يأتى الله بامره) ، قال الشوكانى (وفى هذا وعيد شديد ، ويؤكده ابهام الامر وعدم التصريح به لتذهب انفسهم كل مذهب ، وتتردد بين انواع العقوبات)(١) .

بهذا فان الله سبحانه يجتث من قلوب المؤمنين جميع الاسباب المؤدية الى الخوف والجبن ، رغم شدة التصاق هذه الاسباب بمشاعر الانسان وقلبه . وليس لغير دين الله من سلطان على القلوب كهذا السلطان الذى ينزع منهم احب امور الدنيا اليهم فيخلعون انفسهم منها وقت المعركة عن رضى وطيب خاطر .

هذا وان النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الجبن فى اليوم خمس مرات لينفر الصحابة من هذه الخصلة الزميمة وليسمو بهم الى خلق الشجاعة .

اخرج البخارى - واللفظ له - والترمذى والنسائى عن سعد رضى الله عنه (٢) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ دبر كل صلاة بقوله : اللهم انى اعوذ بك من الجبن ، واعوذ بك ان ارد الى ارذل العمر ، واعوذ بك من فتنة الدنيا ، واعوذ بك من عذاب القبر) .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى (٢ / ٣٤٧) .

(٢) اخرجه البخارى فى الجهاد ، باب مايتعوذ من الجبن (٢ / ١٤١) .
والترمذى فى الدعوات ، باب فى دعاء النبى وتعوذه دبر كل صلاة (٥ / ٥٦٢) . والنسائى فى الاستعاذة ، باب الاستعاذه من فتنة الدنيا (٨ / ٢٦٦) .

واضافة الى تعوذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الجبن . . فى هذا الحديث، فقد جاء فى اسناده عن عمرو بن ميمون الاودى ان سعدا رضى الله عنه كان يعلّم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة. وذلك حرصا منه على ان يترفع ابناؤه عن الجبن ، وليتحلوا بخلق الشجاعة.

شجاعة الرسول القدوة : لقد تميز الرسول صلى الله عليه وسلم بشجاعته كما هو الحال فى كل شأن من شئونه .

والمسلمون يقتدون به فى شجاعته كما يقتدون به فى حسن ادارته وتخطيطه وتنظيمه للمعارك . . ،ونحن اذ نقتدى به افرادا وجنودا وقادة نتحلى بالاخلاق التى تؤهلنا للنصر ،لان النصر حليف من تخلق بأخلاق الرسول الامين واخلاق صحابته الفاضلين . ولا ننسى ان الرسول وصحابته الكرام حققوا ما نعلم من انتصارات بايمانهم وحسن اخلاقهم . ومن ذلك شجاعتهم واقدامهم فى المعارك والحروب ، لا يأبهون فى ذلك لموت او خوف ، ولا يعرفون الا نصرا او شهادة.

وقد كان الرسول القدوة عليه الصلاة والسلام شجاعا بطبعه وسجيته لا يدانيه احد فى شجاعته . اخرج الشيخان- واللفظ للبخارى- والترمذى وابوداود عن انس رضى الله عنه قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم احسن الناس واشجع الناس ، واجود الناس، ولقد فزع اهل المدينة فكان النبى عليه الصلاة والسلام سبقهم على فرس وقال : وجدناه بحرا)[٢] .

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب الشجاعة فى الحرب والجبن (٢ / ١٤١) وباب الحمائل وتعليق السيف بالعنق (٢ / ١٥٤) .
ومسلم فى الفضائل ، باب فى شجاعة النبى وتقدمه للحرب(٤ / ١٨٠٢ ، ١٨٠٣) .
والترمذى فى الجهاد ، باب ماجاء فى الخروج عند الفزع(٤ / ١٩٨) .
وابوداود فى الادب ، باب ماروى فى الترخيص فى ذلك (٤ / ٢٩٧).

(٢) بحرا : اى واسع الجرى . وسمى البحر بحرا لسعته . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ٩٩) .

وفى غزوة حنين - عند ما انكشف المسلمون اول المعركة - اسرع رسول الله على بغلته لتركض قِبَلَ الكفار، واخذ العباس بلجام البغلة يريد أن يكفها عن الاسراع خوفا عليه.(١) ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دابته خلال المعركة.(٢) وهذا وذاك يعتبر من الشجاعة النادرة التى تميز بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى احلك المواقف.

قال الامام النووى (قال العلماء :ركوبه صلى الله عليه وسلم البغلة فى مواطن الحرب ، وعند اشتداد الناس هو النهاية فى الشجاعة والثبات، ولانه ايضا يكون معتمدا يرجع المسلمون اليه وتطمئن قلوبهم به وبمكانه وانما فعل هذا عمداً والا فقد كانت له صلى الله عليه وسلم افراس معروفة . ومما ذكره فى هذا الحديث من شجاعته انه نزل الى الأرض حين غشوه ، وهذه مبالغة فى الثبات والشجاعة والصبر)(٣).

وجاء فى رواية البراء قوله فى شجاعة النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة (كنا والله اذا احمر البأس نتقى به ، وان الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى صلى الله عليه وسلم)(٤).

ومثل آخر على شجاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وذلك يوم بدر اذ كان اقرب المسلمين الى العدو، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحتمون به عند الشدة.

---

(١) ورد فى حديث طويل اخرجه مسلم عن العباس فى الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٣٩٨، ١٣٩٩) وانظر الحديث بتمامه فى موضوع القيادة الراشدة (٢٧٦).

(٢) حديث فى نفس الكتاب والباب من صحيح مسلم، ولكن من طريق البراء (٣/ ١٤٠١).

(٣) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٤، ١١، ١١٥).

(٤) انظر تخريجه فى هامش رقم (٢) من هذه الصفحة.

اخرج الامام احمد عن علي رضي الله عنه قوله (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو اقربنا الى العدو وكان من اشد الناس يومئذ بأسا)[1].

شجاعة الصحابة:

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم على درجة عالية من الشجاعة يحتاج استيعابها الى مجلدات كثيرة . ولكن احب ان اذكر هنا مثلا لشجاعتهم وهم الذين تحققت على ايديهم انتصارات عظيمة وفريدة. وقصدي من ذلك هو الاقتداء بهم في شجاعتهم حتى يتحقق نصر الله لنا كما تحقق لهم من خلال اخذنا بهذا السبب الذي اخذوا به ، فضلا عن غيره من الاسباب الأخرى .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخاري - والترمذي عن انس رضي الله عنه أن عمه غاب عن بدر فقال[2]: (غبت عن اول قتال النبي صلى الله عليه وسلم، لئن اشهدني الله مع النبي ليرين الله ما أجدّ . فلقي يوم (أحد) ، فهزم الناس فقال : اللهم اني اعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين ، وابرأ اليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال : اين ياسعد اني اجد ريح الجنة دون (أحد) فمضى ، فقتل فما عرف حتى عرفته اخته بشامة او ببنانه وبه بضع وثمانون من طعنه وضربه ورمية سهم) .

---

(١) اخرجه الامام احمد في المسند (١ / ٨٦) ورجاله ثقات ، ليس في اسناده الا ما ذكر من اختلاط ابي اسحاق السبيعي كما ذكر ابن حجر في التقريب (٢ / ٧٣) . ولكن انكره الذهبي وقال : (الا انه شاخ ونسي ولم يختلط) انظر الميزان للذهبي (٣ / ٢٧٠) . كما واخرج له الشيخان في الصحيحين من رواية حفيده اسرائيل بن يونس بن ابي اسحاق وآخرون انظر الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات ص ٥١٣ لابي البركات محمد بن احمد المعروف بابن الكيال . تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي ، دار المأمون للتراث - دمشق - طبعة مركز البحث العلمي بجامعة ام القرى - الاولى (١٤٠١هـ ١٩٨١م . واسرائيل روى هذا الحديث عن جده ابو اسحاق ، وقد اخرج له الشيخان من طريقه في الصحيحين كما اسلفت لذا فان الحديث صحيح .

(٢) اخرجه البخاري في المغازي ، غزوة احد (٣ / ٢١) . ومسلم في الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد (٣ / ١٥١٢) . والترمذي في التفسير سورة الاحزاب (٥ / ٣٤٨) .

يبين لنا هذا المثال مدى الرغبة الاكيدة والالحاح الشديد ، والعزم الصادق عندهم أنس رضى الله عنه فى قتال المشركين ، بل واسفه الشديد على مافاته من قتالهم اولا - فى بدر - ويفصح عن شجاعته فى قتال العدو فى اشد ساعات المعركة ، ويبين ثباته واقدامه رغم مااصابه من كل تلك الجراح ، كما ويبين الدافع لكل هذه الشجاعة حينما قال لسعد (اين ياسعد ؟ انى اجد ريح الجنة دون أحد) .

ولا شك ان صاحب هذه الشجاعة وامثاله هم القادرون على تحقيق النصر باذن الله ، وهم الحقيقون بنصر الله .

واذا كانت شجاعة الصحابة معروفة لاتحتاج الى مزيد استشهاد ، فانه يجدر بنا ان نذكر شجاعة فتيان الصحابة ايضا .

(١)

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن عبدالرحمن بن عوف قال : (انى لفى الصف يوم بدر اذا التفت فاذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، اذ قال لى احدهما سرا من صاحبه ياعم أرنى اباجهل - فقلت ياابن اخى : وماتصنع به ؟ قال : عاهدت الله ان رأيته ان اقتله او اموت دونه . فقال الآخر سرا من صاحبه مثله . قال فماسرنى انى بين رجلين مكانهما ، فا شرت لهما اليه ، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء) .

يتضح من هذا المثل الارادة القتالية العالية ، عند هذين الغلامين من ابناء الصحابة التى وصلت الى مستوى ان يعاهد كل منهما الله سبحانه على قتل زعيم الكفر ، ويؤكد رغبته الحقيقية هذه بعزمه على ان لا يعود عن رغبته

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى ، باب غزوة بدر (٣ / ٨) . ومسلم فى الجهاد باب استحقاق القاتل سلب القتيل (٣ / ١٣٧٢) .

الا اذا حال دون ذلك قتله . ومما يزيد الصورة بهاء وعظمة ذلك التنافس الشديد بينهما فى ارادة كل منهما تحقيق ذلك بنفسه ، وذلك من خلال معرفته لابى جهل سرا دون ان يعلم الآخر. ويتوج ذلك كله شجاعة كل منهما فى تنفيذ الامر فما ان اشار عبدالرحمن بن عوف الى ابى جهل حتى انطلق كل منهما لقتل ابى جهل . وقد كان لهما ماارادا حيث ضربه كل منهما بسيفه حتى قتلاه كما فى رواية مسلم. بهذا فانهم اسقطوا زعيم معسكر الكفر ، وساهموا فى احراز النصر.

وقد كان لشجاعة المسلمين فى اليرموك الاثر البالغ فى انتصارهم على الروم رغم كثرة هؤلاء . وذلك انه تجمع فى هذه المعركة مايزيد على مائتى الف من الروم مقابل ست وثلاثين الفا من المسلمين ، واحتدمت المعارك بينهم فلا ترى الا مخا ساقطا ، ومعصما نادرا ، وكفا طائرة من ذلك الموطن ، وتجلت الشجاعة فى ذلك اليوم باروع صورها ، اذ (حمل خالد ابن الوليد بمائة فارس معه نحو من مائة الف من الروم ، فما وصل اليهم حتى انفض جمعهم ، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فانكشفوا ، وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم)(١).

بهذه الشجاعة النادرة تمكن المسلمون من احراز النصر على الروم ، وهزيمتهم وتشريدهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٣) .

ويمثل هذه الشجاعة ايضا انتصر المسلمون على الفرس فى معاركهم ولم تحل بينهم وبين ذلك المياه التى تحجزهم عن المسلمين ، وقلة الامكانيات والخبرات فى ركوب البحر .

وذلك ان المسلمين لما ارادوا غزو المدائن وقفوا على نهر دجلة وقد هابوا خوضه لعدم وجود سفن معهم ، ولعدم اعتيادهم ركوب البحر ، وعندها تقدمت كتيبة الاهوال بقيادة عاصم بن عمرو ، وعددها ستون فارسا فخاضت النهر الى ضفته الاخرى بجرأة وشجاعة لم يصدقها الفرس .

قال ابن كثير (فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا : (ديوانا ديوانا . يقولون : مجانين ، مجانين . ثم قالوا : والله ماتقاتلون انسا بل تقاتلون جنا)[1] .

هذه امثلة للشجاعة ذكرتها من خلال تاريخ العصر الاول الذى يمثل عصر القوة والعزة والنصر ، ومن خلال الجيل الاول ، جيل الصحابة الذى تحققت على يديه العزة والقوة والنصر . ولاشك ان لنا فى تاريخنا المجيد عظة وعبرة وفى الصحابة رضوان الله عليهم قدوة واسوة ، فاذا اردنا ان نحقق ماحققه اسلافنا من النصر والتمكين ، فلابد ان نقتدى بهم فى شجاعتهم وصبرهم وثباتهم وفى كل ماكانوا عليه من اخلاق ومبادىء وقيم ، وبعد هذا فبشراكم النصر .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٧٢) .

السبب التاسع:

التوكل على الله

معنى التوكل :

التوكل فى اللغة اظهار العجز والاعتماد على الغير، ومعناه هنا الثقة بما عند الله ، واليأس عما فى ايدى الناس.(١) (٢)

والتوكل امر معنوى محله القلب يفضى بالمؤمن الى تفويض الله سبحانه فى شأنه كله . والنصر شأن من شئون المؤمنين ، فينبغى التيقن بنصر الله لهم والثقة بكفالته وعنايته بهم ، والاعتماد عليه فى النصر ، والتخلى عمن سواه .

التوكل لا ينفى العمل باسباب النصر :

لا تعارض بين التوكل على الله ، وبين العمل باسباب النصر ، اذ أن التوكل على الله هو عمل القلب ، والعمل بالاسباب هو عمل الجوارح (٣) ، وعمل القلب وعمل الجوارح كلاهما مأمور به .

واذا قصر المؤمن فى العمل بالاسباب فانه يكون قد خالف سنة الله الجارية فى اتخاذ الاسباب ، واذا لم يعتمد على الله ويركن اليه فانه يكون قد خالف امره سبحانه بالتوكل عليه ، بل ومفهوم التوكل يعنى الاعتماد على الله بعد بذل الجهد واستنفاذ مافى الوسع .

فالمؤمن مطالب بفعل الاسباب اولا ، ثم الاعتماد عليه سبحانه ثانيا ، والايمان بان الله هو الناصر وليست الاسباب ، فانها فى اعتقاد المؤمن لاتقدم اوتؤخر الا ان يشاء الله .

---

(١) انظر لسان العرب (١١ / ٧٣٦) .
(٢) التعريفات للجرجانى (٧٠) .
(٣) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٢ ٨) .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم ان المؤمن مطالب بفعل الاسباب ثم التوكل بعد ذلك ، وذلك فيما أخرجه ابن حبان عن عمر و بن امية الضمرى اذ قال : (قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : ارسل ناقتى واتوكل ؟ قال : اعقلها وتوكـــل)[١] .

وقد ذهب جمهور العلماء الى (أن حد التوكل : الثقة بالله تعالى ، والايقان بأن قضاءه نافذ ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيمـــا لابد منه من المطعم ، والمشرب ، والتحرز من العدو ، كما فعله الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين)[٢] .

اى أن فعل الاسباب داخل فى حد التوكل ، والا فلا يصح تسميته بالتوكل وانمـــا يكون تواكلا .

ولكن لا ينبغى للمؤمن أن يلتفت الى الاسباب .

نقل النووى عن القاضى عياض قوله (ولكن لا يصح عندهم (الجمهور) اسم التوكـــل مع الالتفات والطمأنينه الى الاسباب ، بل فعل الاسباب سنة الله وحكمته ، والثقـة بانه لا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا ، والكل من الله وحده)[٣] .

مما سبق تبين أن العمل بالاسباب هو جزء من حقيقة التوكل على الله ، فـلا يصح التوكل الا بعد بذل مافى الوسع ، ثم بعدها يفوض المؤمن امره الا اللـــه ويستسلم لقضائه وقدره ، ليقينه بانه لن يحدث الا ماهو مقدور .

الامر بالتوكل على الله :

حث الله سبحانه عباده المؤمنين على التوكـــل فقـــــال :

(الله لااله الاهو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[٤] .

---

(١) انظر / موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان . للحافظ / نور الدين على بن ابى بكر الهيثمى . كتاب الزهد / باب ماجاء فى التوكل (٦٣٣) . تحقيق / محمد عبد الرزاق حمزة ـ دار الكتب العلمية ـ بير وت . قلت : حسّن الامام العراقى اسناده . انظر تخريجاته على كتاب احياء علوم الدين للغزالـــى (٤ / ٢٧٩) مكتبة زهران .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (٣ / ٩١) .

(٣) شرح النووى على صحيح مسلم (٣ / ٩١) . وانظر مجموعة الفتاوى لابن تيمية (٨ / ٥٢٨) .

(٤) التغابن (١٣) .

فى البداية قرر الحق تفرده سبحانه بالعبودية ، ثم وجه المؤمنين الى الاعتماد عليه هو (خاصة دون غيره ،لااستقلالا ولااشتراكا)[١] ، وجاء هذا التوجيه فى ترتيب منطقى مع ماتقرر ابتداء من وحدانية الله وتفرده سبحانه بالعبودية ،اذانه سبحانه مادام هو وحده المعبود بحق فعليه وحده سبحانه الاعتماد ، وليس على احد سواه اومعه سبحانه .

وفى قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) اظهر لفظ الجلالة مع أن محله الاضمار (للاشعار بعلة التوكل والامربه ،فان الالوهية مقتضية اليه تعالى بالكلية وقطع التعلق عما سواه بالمرة)[٢] .

وبشرالله سبحانه عباده المتوكلين عليه انه سيكفيهم امورهم وحوائجهم فقال سبحانه وتعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شىء قدرا)[٣] .

معنى قوله (فهو حسبه) اى كافيه جميع اموره ، ومعنى قوله (ان الله بالغ امره) بالاضافة اى منفذ له امره . وهناك قراءة ثانية بتنوين بالغ ونصب امره ، ومعناها يبلغ مايريده فلايفوته مراد ولايعجزه مطلوب. والقراءة الثالثة برفع (امره) على انه مبتدأ وبالغ خبر مقدم والمعنى نافذ امره ، وهناك قراءة اخرى بنصب بالغ على انه حال[٤] . والذى يهمنا من هذه القراءات هما القراءتان الاوليان حيث تفيدان بأن الله سبحانه سيبلغ المتوكل مراده ويحقق له حاجته وغايته ، وهو تأكيد لما سبق من اخبار الله عن كفايته سبحانه للمتوكل عليه وكفالته له .

---

(١) تفسير ابى السعود (٨/ ٢٥٨) .
(٢) انظر المصدر السابق /نفس الجزء والصفحة .
(٣) الطلاق (٣) .
(٤) تفسير ابى السعود (٨/ ٢٦٢) ، وانظر فتح القدير للشوكانى (٥/ ٢٤٢) .

وقوله تعالى (قد جعل الله لكل شيء قدرا) (بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الامر اليه لأنه اذا علم ان كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون الا بتقديره وتوفيقه لم يبق الا التسليم للقدر والتوكل على الله)(١).

وحث الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين على التوكل على الله ، وبشرهم ان كانوا كذلك حقا بحصول مقصودهم ، وتحقيق مطلوبهم . اخرج الترمذى - واللفظ له - وابن ماجة واحمد والحاكم عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو انكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)(٢).(٣)

التوكل على الله فى طلب النصر :

اذا كان من الواجب على المؤمن ان يتوكل على الله فى كل حوائجه فلاشك بان ذلك يكون آكد وقت الحاجة الى النصر. واذا كان الله سبحانه قد كفى عباده المتوكلين عليه فى جميع حوائجهم ، وتكفل بتبليغهم مرادهم ، فانه سبحانه اشد كفاية للمتوكلين عليه عند الحاجة الى النصر ، وهو اشد تكفلا لهم بتبليغهم اياه .

---

(١) تفسير النسفى (٤ / ٢٦٦) . وانظر تفسير ابى السعود (٨ / ٢٦٢)

(٢) اخرجه الترمذى فى كتاب الزهد / باب فى التوكل ، وقال هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه الا من هذا الوجه (٤ / ٥٧٣) ، وابن ماجه فى الزهد باب فى التوكل واليقين (٢ / ١٣٩٤) واحمد فى المسند (١ / ٣٠ ، ٥٢) . والحاكم فى المستدرك كتاب الرقائق (٤ / ٣١٨) وصححه . والحديث حسن لانه ورد من طريق بكر بن عمرو المعافرى ، وهو صدوق انظر التقريب (١ / ١٠٦) والتهذيب (١ / ٤٨٥) وورد ايضا من طريق ابن لهيعة وهو صدوق خلط بعد احتراق كتبه ، لكن رواية ابن وهب عنه كما فى هذا الحديث مستقيمة انظر التقريب (١ / ٤٤٤).

(٣) قال ابن الاثير (اى تغدو بكرة وهى جياع وتروح عشاء وهى ممتلئة الاجواف) انظر غريب الحديث (٢ / ٨٠) . ملاحظة : لا يتوهم احد ان هذا الحديث يدل على ان اسقاط الاسباب من التوكل بل هو صريح فى الاخذ بالاسباب وهو بعيد ومن التشبيه بالطيور حيث جاء التصريح بان الطيور تتحرك فى الغدو والرواح وهو سعى من اجل الرزق ، ومن ثم فانها عملت بالاسباب . قال القرطبى عند تناوله الحديث فى تفسيره فى سياق انكاره على من يستدل به على اسقاط العمل بالاسباب من التوكل على الله فقال (فغدوها ورواحها سبب فالعجب العجب ممن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق ويقعد على ثنيات الطريق ويدع الطريق المستقيم والمنهج الواضح القويم) احكام القرآن للقرطبى (١٣ / ١٦) .

لذا فان الله سبحانه وتعالى امر الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو امر لمن بعده من المؤمنين - بالتوكل عليه في طلب النصر، فقال سبحانه وتعالى (فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين * ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(١) .

امر الله سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام بالتوكل عليه وحده فيما اطمأنت اليه نفسه بعد التشاور (فاذا عزمت فتوكل على الله) والحكمة من الامر بالتوكل هنا هى تعليق الرجاء على الله وحده ، دفعا لما قد يكون من تعلق بالشورى ، سواء فيما تمخضت عنه من نتائج وآراء يعتقد صوابها ، اوفى الثقة باصحاب الشورى لما عرفوا به من الحكمة وسداد الرأى ، فان كل ذلك مهما اعتقد صوابه ووثق فى حكمته وسداده فانه اعجز من ان يفعل المراد دون توفيق الله وعونه . والانسان يكون فقط سببا ، والله هو المسبب والفاعل الحقيقى فلزم الانقطاع عما سواه ، والتوجه اليه وحده سبحانه .

وللحث على التوكل كشف الله سبحانه عن محبته للمتوكلين عليه (ان الله يحب المتوكلين) وان حب الله لعباده لمنزلة عظيمة . واذا احب الله عبدا فلا شك انه سيفوز بمدده وتأييده ونصره .

وبين الله سبحانه لهم مايحملهم على تفويض الامر اليه . ودوام التوكل عليه ببيان انه وحده مالك النصر ، وانه اذا واتاهم به فلن يغلبهم غالب مهما كان من قوته واستعداده ، ومهما كان من ضعف وقلة عددهم وعددهم ، كما انه سبحانه اذا سلبه عنهم لاينفعهم مغالبة فى اعداء او استعداد ، يقول سبحانه وتعالى (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده) .

---

(١) آل عمران (١٥٩ ، ١٦٠) .

وقوله (فلاغالب لكم) نفى غلبة وظهور احد عليهم ، وهو نفى جنس يعم جميع افراد الغالب ذاتا وصفة بخلاف ماذا قيل : فلايغلبكم احد ، اذ تدل على نفى صفة الغلبة فقط (١) ، ولاشك بأن نفى الجنس اقوى لانه اعم حيث يشمل النفى للذات - كل ذات اطلاقا - وللصفة كذلك .

واذا كان الامركذلك فان هذا يستوجب التوكل على الله وحده ، لذا فقد ختمت الآية بقوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) اى ان المؤمن فى طلبه النصر والظفر يعتمد على الله ، اذ أن التوكل على الله من سمة المؤمنين ومن لوازم الايمان ومقتضياته ، (وقدم الجار والمجرور على الفعل لافادة قصره عليه تعالى) (٢) .

و ختم الآية كذلك بالحث على التوكل على الله بعد الاخبار بان لاناصر الا الله يدل فى المقابل على ان النصر والظفر لايكون الا للمؤمنين المتوكلين على الله .

وقد كان من اخلاق الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى الجهاد - كما هو فى شأنه كله - التوكل على الله والاعتماد عليه فى مغالبة الاعداء ، والاستعانة به وحده للفوز بنصره وتأييده سبحانه .

اخرج الترمذى - واللفظ له - وابوداود عن انس قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا غزا قال : (اللهم انت عضدى ، وانت نصيرى ، وبك اقاتل) (٣) . انها كلمات قليلة فى مبناها عظيمة فى معناها ، تحمل توجها كاملا منه الى الله سبحانه بخضوع واستسلام تام ، ليطلب منه سبحانه المدد والنصر .

---

(١) انظر تفسير ابي السعود (٢ / ١٠٥) .
(٢) تفسير ابي السعود (٢ / ١٠٦) .
(٣) اخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات / باب فى الدعاء اذا غزا (٥ / ٥٧٢) رقم (٣٥٨٤) وقال هذا حديث حسن غريب ، واخرجه ابوداود فى الجهاد / باب مايدعى فى اللقاء (٣ / ٤٢) . رقم (٢٦٣٢) . واسناد الحديث صحيح ، ورجاله اخرج لهم اصحاب الكتب الستة .

ولا شك ان التوجه الى الله هو توجه الى القوة المطلقة التى تملك العزة والقوة والنصر. ولذا فان الله سبحانه لم يترك نبيه فى موطن من مواطن القتال الا وقد نصره نصرا مؤزرا .

ومن الحق لامة او فئة مهما كانت قليلة قد توكل الله بها ان تنتصر، ومن الحق كذلك لمعركة توكل الله فيها بعباده المجاهدين ان يكتب لهم فيها النصر والظفر .

اخرج الامام احمد - واللفظ له - وعبد الرزاق عن سماك قال سمعت عياضا الاشعرى قال (شهدت اليرموك وعلينا خمسة امراء : ابو عبيدة بن الجراح ، ويزيد ابن ابى سفيان ، وابن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعياض ، وليس عياض هذا بالذى حدث سماكا ، قال ، وقال عمر (رضى الله عنه) : اذا كان قتال فعليكم ابو عبيدة ، قال : فكتبنا اليه انه قد جأش الينا الموت واستمددناه ، فكتب الينا انه قد جاءنى كتابكم تستمدوننى ، وانى ادلكم على من هو اعز نصرا واحضر جندا الله عزوجل ، فاستنصروه فان محمدا صلى الله عليه وسلم قد نصر فى يوم بدر فى اقل من عدتكم ، فاذا اتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى . قال : فقاتلناهم فهزمناهم وقتلناهم اربع فراسخ قال : واصبنا اموالا فتشاورنا ، فاشار علينا عياض أن نعطى عن كل رأس عشرة) .(١)

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (١/ ٤٩) وابوبكر بن ابى شيبة فى المصنف كتاب التاريخ /باب ماحفظت فى اليرموك (١٣/ ٣٤) رقم(١٥٦٨٠) مطبعة الدار السلفية بالهند . الطبعة اولا ولى (١٤٠٣هـ ١٩٨٣م . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٢١٣):رواه احمد ورجاله رجال الصحيح . قلت:وصححه ابن كثير فى التفسير (١/ ٤٠١) .

هذه هي السيرة العطرة لرسول الله وصحابته الكرام، يتوجهون الى الله ، ويلجأون اليه ويتحصنون به ، ويستنصرونه على اعدائهم وهو نعم النصير ، فنصرهم الله واعزهم حتى خضعت لهم رقاب الشرق والغرب.

وما احرانا اليوم - ونحن نعتمد على الشرق والغرب - ان نتخلص من عبوديتهم ونتوجه الى الله ، ونلجأ اليه ونعتمد عليه .

ونحن مدعوون لأن نستحضر قوة الله وعظمته ، وان نتوكل عليه ، ولا نخاف احدا سواه مهما بلغت قوته ، فانها تبقى معدومة امام قوة الله اذ لا حساب لقوة المخلوق مع قوة الخالق ، ولنتذكر التوجيه الرباني للمؤمنين في (أحد) بعد أن همت فرقتان من المؤمنين بالتراجع عن المعركة لانسحاب عبدالله بن ابى فى ثلث الجيش.

يقول جل وعلا : (اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) (١) .

انسحب المنافق عبدالله بن ابى فى ثلث الجيش يوم أحد ، فهمت فرقتان من المؤمنين بالخروج من المعركة وهما بنوسلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ولكن الله عصمهما من ذلك . (٢)

ونزل التوجيه الرباني للمؤمنين تعقيبا على هذا الموقف بلزوم التوجه الى الله والاعتماد عليه ، وعدم الالتفات الى ماسواه ، فانه متوكل بهم وكافيهم وناصرهم على من عاداهم (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وذكرهم الحق تبارك وتعالى بنصره لهم يوم بدر وهم قلة مستضعفة (ولقد نصركم ببدر وانتم اذلة) فينبغى كذلك الاعتماد على الله وحده ، فكما نصركم الله ببدر وانتم قلة فهو قادر على ان ينصركم باحد اذا قل عددكم بانسحاب احد منكم . وهكذا الحال بالنسبة لنا اليوم ، فان وصف الايمان يلزمنا بان نتوكل على الله ، وان كنا نشعر بقوة عدونا فانه يبقى لا حول له

---

(١) آل عمران (١٢٢ ، ١٢٣) .
(٢) انظر فتح القدير للشوكانى (١/ ٣٧٦) .

ولا قوة اذ القوة لله جميعا ، وكما نصر الله رسوله وصحابته وهم قلة مستضعفة فانه قادر على ان ينصرنا على ضعفنا فان النصر بيد الله ، مع يقيني بان السبب في تأخير النصر هو ليس ضعف قوتنا بل هو ضعف ايماننا واعتمادنا على غير الله وعدم احتكامنا الى منهج الله وشريعته . واذا كان كثير من المسلمين اليوم يعتذرون بصعوبة الحال ، وشدة الموقف ، وثقل الواقع، وكثرة الاعداء ، الى غير ذلك مما يحلو لكثير من سادتهم أن يتذرعوا به ليتهربوا من واجبهم المقدس، فان ذلك كله لن يعذرهم .

ان عيب هؤلاء وامثالهم يتمثل في اعتمادهم على انفسهم او غيرهم فقط دون الاعتماد على الله ، وينظرون الى موازين القوى بالحساب المادي فقط . ومن ثم فانهم يرون ان لا قوة لهم بعد وهم ، ولا شك ان هذا التصور مخالف للتصور الاسلامي للمعركة .

ان التصور الاسلامي يدعو لمعرفة حسابات القوة عند العدو ، والى الارتفاع بحسابات القوة لدى المسلمين الى اقصى درجات الاستطاعة ، ويدخل العنصر الاساسي الذي يتحقق به الفاعلية والتأثير لكل تلك القوى الا وهو قوة الله سبحانه وتعالى .

وقوة الله هي القوة المطلقة في الوجود ، ذلك انه هو الذي اوجد الوجود ومن ثم فلا قوة امام قوة الله ، واذا حدث شيء فهو بارادة الله .

ولذا فان المؤمن - بعد أن يعمل بالاسباب - يتوجه الى الله سبحانه صاحب القوة والعزة والنصر ، يتقوى ويستعين به ، ويستنصره على عدوه ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

واذكّر هنا القاعدين عن الجهاد من المتذرعين بثقل الموقف وكثرة الاعداء اذكّرهم بموقف المسلمين عقب احد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يناديهم الى

الجهاد ، وهم قد خرجوا الساعة من الجهاد فى أُحد ، مثقلين بالجراح، وقد اصابهم ماأصابهم . ويخص الرسول عليه الصلاة والسلام الذين اشتركوا فى أُحد فقط. انه موقف شدة ولكنه موقف شهادة وجنة ، ولقدكان ذلك امل الصحابة رضوان الله عليهم فلبوا النداء واستجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجل القرآن هول الموقف، وسجل كذلك سرعة الاستجابة فى قوله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا اجر عظيم* الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم)[١] .

القرح : هو ماأصاب المسلمين فى أُحد ، وهو جزء من الموقف اذ اثخنت الجراح المسلمين فى أُحد ، ولم يسلم من ذلك نبى الله صلى الله عليه وسلم فقد (جرح وجه رسول الله وكسرت رباعيته[٢] وهشمت البيضة[٣] على رأسه)[٤] وازداد الموقف سوءا بعد ان رأت قريش الرجوع الى المسلمين لتجعلها المعركة الاخيرة مع المسلمين ، فاصور الرسول صلى الله عليه وسلم امره لكل من شارك فى أُحد بالخروج الى القتال .

وماهو موقف الصحابة من كل ذلك ؟ لم يخافوا توعدات المشركين وتهديداتهم بل ازدادوا ايمانا بقوة الله ونصره ، وقالوا (حسبنا الله ونعم الوكيل) لجأوا الى الله واعتمدوا عليه سبحانه واطمأنوا الى كفايته لهم بالنصر ، وخرجوا جميعا حتى وصلوا حمراء الاسد رغم جراحهم .

---

(١) آل عمران (١٧٢ - ١٧٤) .
(٢) الرباعية : بتخفيف الياء ، هى السن التى تلى الثنية من كل جانب . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٤٨) .
(٣) البيضة : خوذة من الحديد توضع فى رأس المقاتل لتحميه . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ١٧٢) .
(٤) فقرة من حديث اخرجه البخارى فى المغازى / غزوة احد (٣ / ٢٦) . ومسلم فى الجهاد / والسير - غزوة احد (٣ / ١٤١٦) . كلاهما من طريق سهل بن سعد - ، واللفظ لمسلم .

وكان من ثمرة توكلهم على الله ، ان كفاهم الله المشركين ، فردهم ولم يتحقق مرادهم ، ورجع المسلمون الى مدينتهم سالمين ، بل ولم تستطع قريش ان تفي بوعدها بالعودة لقتال المسلمين ، ورجع المسلمون وقد اثبتوا قدرتهم على التحدى والمواجهة ، فرجعوا بنفسية المنتصر بعد ان خرجوا من اثر الهزيمة ، فى حين رجع المشركون بنفسية المهزوم رغم تغلبهم اولا .

ويطيب لى ان اذكر المستضعفين من المؤمنين اليوم بالفئة المؤمنة المستضعفة التى اتبعت موسى عليه السلام على خوف من بطش فرعون وتعذيبه لهم .

يقول الله عزوجل بعد ان ذكر قصة موسى والسحرة : (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم ان يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين) . (١)

وعلى نبينا الصلاة

واذكرهم بعد ذلك بتوجيه موسى عليه السلام للفئة المستضعفة عند ماكانت على خوف من بطش فرعون وجنوده ، وذلك بان يتوكلوا على الله - لمقتضى الايمان به - لينجيهم من علو فرعون وتسلطه .

يقول سبحانه وتعالى : (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) . (٢)

ثم اذكرهم باجابة الفئة المؤمنة الاولى لنبيها موسى عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ، اذ اعلنوا توكلهم على الله (فقالوا على الله توكلنا) ، وتضرعوا الى الله بان يحفظهم وينقذهم من بطش فرعون وتعذيبه (ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) . (٣) وكان من ثمرة توكلهم وتضرعهم ان انقذهم الله من كيد فرعون ، وأغرق فرعون وجنوده كما بينته الآيات فى سياق القصة نفسها فيمكن الرجوع اليها .

---

(١) يونس (٨٣) .
(٢) يونس (٨٤) .
(٣) يونس (٨٥ ، ٨٦) .

واود ان اضرب مثلا آخر للتوكل فى المعركة ، ومايفيء به المتوكلين من النصر والمعونة والتأييد . لمّا توجه المسلمون لفتح المدائن وهاب الصحابة عبور نهر دجلة - لقلة خبرتهم بركوب البحر ، وعدم توفر السفن - امرهم القائد سعد بن ابى وقاص أن يعبروا النهر ، ويقولوا : (نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه احد ، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الارض حتى ملأوا مابين الجانبين فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الارض ، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والامن ، والوثوق بامرالله ووعده ونصره وتأييده . . فلم يفقد من المسلمين رجل واحد غير ان رجلا واحدا يقال له غرقدة البارقى ، زلّ عن فرس له شقراء فاخذ القعقاع ابن عمرو بلجامها ، واخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه وكان من الشجعان فقال عجز النساء ان يلدن مثل القعقاع بن عمرو . ولم يعدم للمسلمين شيء من امتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له : مالك بن عامر كانت علاقته رثة فاخذه الموج فدعا صاحبه الله عزوجل ، وقال اللهم لاتجعلنى من بينهم يذهب متاعى ، فرده الموج الى الجانب الذى يقصدونه ، فاخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه وكان الفرس اذا اعيا وهو فى الماء ، يقيض الله له مثل النشز المرتفع (١) فيقف عليه فيستريح ، وحتى إن بعض الخيل ليسير ومايصل الماء الى حزامها ، وكان يوما عظيما وامرا هائلا ، وخطبا جليلا ، وخارقا باهرا . .) (٢) .

هذا هو سلاح التوكل الذى ينبغى ان يحسن المسلمون استعماله فى معاركهم ضد اعدائهم ، وانه والله لسلاح عظيم ، خاص بالمؤمنين ، لاتحوزه قوة من قوى الارض ، وانما يملكه المسلمون فقط بحسن توجههم الى الله ، فهلا تنبه المسلمون الى مايملكونه من اسلحة عظيمة تكفل لهم العزة والنصر والظفر باعدائهم .

---

(١) النشز : المرتفع من الارض . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٥ / ٥٥) .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٧٢ ، ٧٣) .

السبب العاشر

الطاعة والانضبـــاط فى المعركـة

من اسس الجندية الطاعة للقائد وشدة الانضباط فى تنفيذ الاوامـــر العسكرية لتحقيق الاهداف العسكرية التى يقاتل من اجلها المجاهدون. ولا يستقيم الجهاد دون طاعة المجاهدين لاوامر الامراء والقادة ، ولن يتـــــم تنفيذ الخطط المرسومة لتحقيق الاهداف المرجوة دون تنفيذ الاوامر بدقـــة وانضباط من قبل المجاهدين .

لذا فان الجيوش الحديثة تربى مقاتليها على الطاعة والانضباط التامين فى كل الاحوال التى يكون فيها المقاتل .

طاعة الامراء واجبة على المجاهدين فى كل حال من غير معصية :

أمر الله عزوجل المؤمنين بطاعة ولاة الامر فيهم فقال جل شأنه (ياايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم)(١) . ولاشك ان المراد باولى الامر ، المؤمنين منهم يدل عليه قوله (منكم) فالضمير عائد على المؤمنين المخاطبين اول الآية .

قال النووى (قال العلماء : المراد باولى الامر من اوجب الله طاعتـــه من الولاة والامراء ، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهـاء وغيرهـــم)(٢) .

ويدخل فى ذلك كل من ولى امرا من امور المؤمنين ، وولاية الشئـــون العسكرية للمسلمين من اخص تلك الامور ، لاهميتها فى حياة المسلمين ، فتدخل

---

(١) النساء (٥٩) .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٢٢٣) .

فى الخطاب دخولا اوليا سيما وان الآية (نزلت فى عبدالله بن حذافة السهمى ، بعثه النبى فى سرية)[١] اى فى مهمة عسكرية .

وعطف طاعة ولاة الامر على طاعة الله ورسوله دون استقلالها ، يدل على ان طاعة اولى الامر ليست مطلقة ، وانما هى مقيدة فيما فيه طاعة الله ورسوله . ولاطاعة لهم فى معصية الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدل على ذلك مااخرجه الشيخان ـ واللفظ للبخارى ـ عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال[٢] (السمع والطاعة حق مالم يؤمر بالمعصية فان امر بمعصية فلا سمع ولاطاعة) .

نقل العينى عن القاضى عياض قوله : (اجمع العلماء على وجوب طاعة الامام فى غير معصية وتحريمها فى المعصية)[٣] .

من هذا يتضح ان الاسلام يربى المسلمين ـ وفيهم المجاهدون ـ على الطاعة المبصرة المستنيرة بنور العقل وهداية الشرع .

وللحث على لزوم طاعة الامراء اخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بان طاعة اولى الامر من طاعة الله ورسوله ، وعصيانهم من عصيان الله ورسوله ، وذلك فيما اخرجه الشيخان ـ واللفظ لمسلم ـ عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[٤] : (من اطاعنى فقد اطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن اطاع اميرى فقد اطاعنى ومن عصى اميرى فقد عصانى) .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن سورة النساء (٣ / ١٢٠) ـ وصحيح مسلم كتاب الامارة ، باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية (٣ / ١٤٦٥) كلاهما يرويه عن ابن عباس .

(٢) اخرجه البخارى كتاب الجهاد والسير باب السمع والطاعة للامام (٢ / ١٦٣) ومسلم فى الامارة باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية (٣ / ١٤٦٩) .

(٣) انظر عمدة القارى (١٤ / ٢٢١)

(٤) اخرجه البخارى فى الاحكام ، باب قوله تعالى (اطيعوا الله واطيعوا الرسول ...) (٤ / ٢٣٣) . واخرجه مسلم فى كتاب الامارة ، باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية (٣ / ١٤٦٦) .

ومادامت طاعة الامراء من طاعة اللهورسوله ، فانها تكون بمثابة عبادة يتقرب بها المجاهدون الى الله سبحانه ، ويرغبون بها فى محبة الله ورسوله ، وهذا دافع لايمكن ان تجد له مثيلا قط فى ذاته اواثره ، انه يدفع المجاهدين الى الانضباط والطاعة لامرائهم باقصى مايتصور من درجات الطاعة والضبط .

واكد الرسول صلى الله عليه وسلم على وجوب الطاعة للامراء فى الرخاء والشدة ، وذلك فيما اخرجه الامام مسلم عن ابى هريرة ان النبى صلى اللهعليه وسلم قال (١) (عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك واثرة عليك) .

قال النووى : (قال العلماء : معناه تجب طاعة ولاة الامور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره ماليس بمعصية) (٢) .

حض المجاهدين على الطاعة والانضباط فى المعركة :

وحث القرآن المجاهدين على الطاعة فى المعركة فى قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ، ان الله مع الصابرين) (٣) .

---

(١) اخرجه مسلم فى كتاب الامارة/باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية (٣/١٤٦٧).

(٢) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/٢٢٤) .

(٣) الانفال (٤٥ ، ٤٦) .

امر الله سبحانه المجاهدين وقت المعركة بامورتعد كلها من اسباب النصروهى الصبر والثبات والذكر والطاعة والاتحاد . والامر فى الآية بالطاعة لله والرسول (واطيعوا الله ورسوله) ، يتضمن طاعة الامراء لان طاعتهم من طاعة الله ورسوله كما تبين سابقا .

وبين النبى صلى الله عليه وسلم ان طاعة المجاهد لاميره من شروط الجهاد الذى يؤجر عليه .

اخرج النسائى والدارمى وابوداود والحاكم - واللفظ له - عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (١) (الغزو غزوان : فاما من ابتغى وجه الله تعالى ، واطاع الامام ، وانفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فان نومه ونبهه اجر كله ، واما من غزا فخرا ورياء ، وسمعة ، وعصى الامام ، وافسد فى الارض ، فانه لم يرجع بالكفاف) .

وبشر النبى صلى الله عليه وسلم المجاهد المطيع لقائده الحريص على تنفيذ مهامه وواجباته القتاليه ، حسب ماكلفه اميره ، دون تغيير او تصرف منه يخل بما كلف به ، بشره بالجنة ، وذلك فيما اخرجه البخارى (٢) عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله اشعث رأسه ، مغبرة قدماه ان كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وان كان فى الساقة (٣) كان فى الساقة ، ان استأذن لم يؤذن له ، وان شفع لم يشفع) .

---

(١) اخرجه الحاكم فى الجهاد (٢ / ٨٥) وصححه واخرجه ابوداود فى الجهاد / باب فى من يغزو ويلتمس الاجر (٣ / ١٣ ، ١٤) . والنسائى فى البيعة / باب التشديد فى عصيان الامام (٧ / ١٥٥) . والدارمى فى الجهاد / باب الغزو غزوان (١ / ١٢٨) . والحديث رجاله ثقات الا بقية بن الوليد فقد اختلف فى توثيقه واتهم ايضا بالتدليس . وتهمة التدليس مرفوعة عنه لانه صرح بالتحديث فى رواية ابى داود وآخرين ، واما من جهة التوثيق فقد وثقه جماعة اذا حدث عن الثقة ووثقه آخرون اذا روى عن اهل الشام . انظر الجرح والتعديل للامام عبدالرحمن بن ابى حاتم الرازى (٥ / ٤٣٥) مطبعة دار المعارف بحيدر آباد / الطبعة الاولى - دار الكتب العلمية ، وانظر ميزان الاعتدال للذهبى (١ / ٣٣١ / ٣٣٩) وقال فيه ابن حجر : صدوق انظر التقريب (١ / ١٠٥) ولكن الأكثر وثقوه بالقيود السابقة . وهو يروى فى هذا الحديث عن بجير بن سعيد وهو شامى ثقة ثبتكما فى التقريب (١ / ٩٣) لذا فان حديث (بقية) صحيح هنا ومن ثم فان اسناد الحديث صحيح ، والله اعلم .

(٢) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله (٢ / ١٥٠ ، ١٥١) واول الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة . الحديث) .

(٣) الساقة جمع سائق وهم الذين يسوقون جيش الغزاة يكونون من ورائه يحفظونه . غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ٤٢٤) .

(طوبى) اسم الجنة وقيل هى شجرة فيها ، يشير بها النبى صلى الله عليه وسلم الى الثواب العظيم الذى اعده الله للمجاهد الذى ينفذ واجبه فى الجهاد اثناء المعركة حثا للمجاهدين على ذلك .(١)

ومعنى قوله (ان كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وان كان فى الساقة كان فى الساقة) ، اى (ائتماره لما أمر ، واقامته حيث اقيم ، لا يفقد من مكانه بحال)(٢) ، وهو يدل على كمال طاعته لاميره ودقة تنفيذه لمهامه وتكاليفه الجهادية بحيث لا يتحول عما كلف به ابدا .

اثر الطاعة والانضباط فى احراز النصر :

المطّلع على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام يرى ما للانضباط من آثار حاسمة فى معارك المسلمين مع الكفار ، ويرى ما للمخالفة القائد من نكبة تعم المخالفين وغير المخالفين . وابرز مثال على ذلك قصة الرماة فى غزوة أحد .

وسأذكر فى البداية ما اورده البخارى رحمه الله فى شأن الغزوة لبيان اثر مخالفة امر النبى صلى الله عليه وسلم فى فقدان المسلمين للنصر يومها .

اخرج البخارى - واللفظ له - وابوداود عن البراء بن عازب قال :(٣) (جعل النبى صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلا - عبد الله ابن جبير ، فقال : ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى ارسل اليكم ، وان رأيتمونا هزمنا القوم واوطأناهم فلا تبرحوا حتى ارسل اليكم ، فهزموهم قال فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن واسوقهن رافعات ثيابهن فقال اصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة اى قوم الغنيمة ظهر اصحابكم فما تنتظرون

---

(١) انظر عمدة القارى للعينى (١٤ / ١٧٢) .
(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .
(٣) اخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير باب مايكره من التنازع (٢ / ١٧٥) . وابوداود فى الجهاد / باب فى الكمناء (٣ / ٥١ ، ٥٢) .

فقال عبدالله بن جبير : انسيتم ماقال لكم رسول الله . قالوا : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة.فلما أتوهم صرفت وجوههم فاقبلوا منهزمين فذاك اذ يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى اخراهم ، فلم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم غير اثنى عشر رجلا ، فاصابوا منا سبعين وكان النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه اصاب من المشركين يوم بدر اربعين ومائة: سبعين اسيرا وسبعين قتيلا . . الحديث) .

باستعراض النص يتبين الآتى :-

اولا) ترتيب النبى صلى الله عليه وسلم لقوات المسلمين، وصدور الامر منه لفرقة الرماة بالثبات فى اماكنهم وعدم التحول عنها ليحموا بذلك ظهور المسلمين .ولمزيد التأكيد فقد جاء مشفوعا بعدم النزول سواء انتصر المسلمون ام هزموا الا باذنه ، وهو امر من الصرامة والوضوح بمكان ويدل على ذلك قوله (ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلاتبرحوا مكانكم حتى ارسل اليكم ، وان رأيتمونا هزمنا القوم واوطأناهم فلا تبرحوا حتى ارسل اليكم) .

ثانيا) تحقق النصر الموءزر للمسلمين اول المعركة ، ويدل عليه قول البراء بعد ذلك (فهزموهم) اى هزم المسلمون المشركين ووصف البراء ماشاهد من آثار هزيمتهم بقوله : (فانا والله رأيت النساء (اى نساء المشركين) يشتددن قد بدت خلاخلهن واسوقهن رافعات ثيابهن) ويشهد لهذا مااخرجه البخارى عن عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها حيث قالت : (هزم المشركون يوم احد هزيمة تعرف فيهم فصرخ ابليس اى عباد الله اخراكم فرجعت اولاهم فاجتلدت هى وأخراهم . . . الحديث) (١) ويوضحه ايضا حديث ابن عباس وسيأتى قريبا .

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى ، غزوة احد ، باب (اذ همت طائفتان . .) (٣/٢٣) ، وفى الايمان والنذور، باب اذا حنث ناسيا فى الايمان (٤/١٥٤) .

ثالثا) وقوع المخالفة من الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزولهم لجمع الغنائم بعد ان رأوا هزيمة المشركين ، فعصوا امر النبي صلى الله عليه وسلم وامر قائدهم عبد الله بن جبير ، وانكشف بذلك ظهر المسلمين ، مما افاد المشركين في الالتفاف وتوجيه الضربة للمسلمين من الخلف.

ويدل على ذلك قول البراء : (فقال اصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة اى قوم الغنيمة ظهر اصحابكم فما تنتظرون ، فقال عبد الله بن جبير انسيتم ما قال لكم رسول الله . قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما اتوهم صرفت وجوههم فاقبلوا منهزمين . .) لقد خالف الرماة امر النبي الصريح بان لا ينزلوا وان تخطفهم الطير ، انتصروا او انهزموا الا باذنه ، ونزلوا لجمع الغنيمة وهم يعصون بذلك امر نبيهم واميرهم ، فكان ان عاقبهم الله تبارك وتعالى بسلبهم النصر الذى اعطاهم اولا بسبب العصيان . وذكر القران الكريم ذلك في قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين * اذ تصعدون ولا تلوون على احد والرسول يدعوكم في اخراكم فاثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما اصابكم والله خبير بما تعملون) (١) .

---

(١) آل عمران (١٥٢ ، ١٥٣) .

اخرج الامام احمد والحاكم - واللفظ له - عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال : (١)
(مانصر النبى صلى الله عليه وسلم فى موطن كما نصر يوم احد ، قال فانكرنا ذلك ، فقال ابن عباس: بينى وبين من انكر ذلك كتاب الله عزوجل، ان الله عزوجل يقول فى يوم احد (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه) يقول ابن عباس : والحس: القتل ، (حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقدعفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) وانما عنى بهذا الرماة ، وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم اقامهم فى موضع ثم قال احموا ظهورنا فان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وان رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وباحوا عسكر المشركين ، انكشف الرماة جميعا فدخلوا فى العسكر ينتهبون ، وقد التقت صفوف اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فهم هكذا وشبك بين اصابع يديه والتبسوا ، فلما اخل الرماة تلك الخلة التى كانوا فيها دخل الخيل من ذلك الموضع على اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فضرب بعضهم بعضا والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير ، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، اول النهار ، حتى قتل من اصحاب لواء المشركين سبعة او تسعة . . الحديث) .

قال ابن كثير عند تفسيره للآية : (فلما واجهوهم - اى المسلمين للمشركين فى احد - كان الظفر والنصر اول النهار للاسلام ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة ، وفشل بعض المقاتلة ، تأخر الوعد الذى كان مشروطا بالثبات والطاعة) . (٢)

---

(١) اخرجه الحاكم فى التفسير ، وصححه (٢/ ٢٩٦ ، ٢٩٧) . واخرجه احمد فى المسند (١/ ٢٨٧) . قلت الحديث اسناده حسن لاجل عبدالرحمن ابن ابى الزناد ، فهو صدوق . انظر التقريب (١/ ٤٨٠) . وتهذيب التهذيب (٦/ ١٧٠ - ١٧٣) ، والميزان (٢/ ٥٧٥ ، ٥٧٦) . والحديث من مرسلات ابن عباس لانه لم يشهد احدا ولا ابوه . انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤١٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤١١ ، ٤١٢) .

وان دل هذا على شيء فانه يدل على ان طاعة القائد من اسباب النصر وعصيانه من اسباب الهزيمة ، كما ويدل على ان للنصر اسبابه ، وللهزيمة اسبابها ، وان المسلمين حقيقون بالنصر ماتحققوا باسباب النصر ، ويصابون بالهزيمة اذا ماارتكبوا اسباب الهزيمة .

لقد كان الدرس في احد درسا قاسيا ، وذلك ليتعلم الصحابة قيمة الطاعة واثرها في احراز النصر بصورة عملية يذوقون من خلالها مرارة التجربة وعاقبة المخالفة لامر القائد فتزداد طاعتهم ، ويقوى انضباطهم في المعركة ثم هو من بعد ذلك تعليم للمؤمنين في كل حين ليأخذوا باسباب النصر ويحذروا من اسباب الهزيمة .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على انضباط المجاهدين خلال المعركة كما رأينا في أحد من صراحة وصرامة اوامره وتعليماته . ويتبين حرصه على ذلك مماجاء في غزوة بدر فقد كان امره صريحا (لا يقد من احد منكم الى شيء حتى اكون انا دونه)[1] .

وهو يريد بذلك الانضباط العسكري . . . ، وذلك كله يعكس اهمية الطاعة والضبط في احراز النصر .

---

(١) بعض من حديث اخرجه مسلم عن انس بن مالك في كتاب الامارة . باب ثبوت الجنة للشهيد ، واوله (بعث رسول الله بسيسة عينا . .) ، (٣ / ١٥١٠) .

وفى غزوة الفتح بلغ الانضباط غايته ، وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم (عهد الى امرائه من المسلمين ، حين امرهم ان يدخلوا مكة ، ان لا يقاتلوا الا من قاتلهم ، الا انه قد عهد فى نفر سماهم امر بقتلهم وان وجدوا تحت استار الكعبة)[١] .

ودخل جيش المسلمين مكة دون حصول قتال من المسلمين الا ما كان من خالد دفاعا عن نفسه[٢] ولقد كان جيش المسلمين قادرا على القتال .

قال ابو هريرة (. . فانطلقنا فما شاء احد منا ان يقتل احدا الا قتله وما احد منهم - المشركين - يوجه الينا شيئا)[٣] .

انضبط المسلمون بامر رسول الله الذى يقضى بعدم قتال اهل مكة اذا لم يقاتلوهم ، (وانه لا عظم انضباط فى تاريخ الدنيا كلها ، مدينة تفتح وكانت محاربة ويدخلها جيش من اربع جهات ، ولم يحصل قتال الا عندما دافع خالد عن نفسه)[٤] .

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤٠٩ / ٤) .
(٢) انظر المصدر السابق (٣ ، ٤٠٧ / ٤) .
(٣) بعض من حديث اخرجه مسلم عن ابى هريرة فى كتاب الجهاد والسير ، فتح مكة واوله قول ابى هريرة (الا اعلمكم بحديث . . (٣ / ١٤٠٥) .
(٤) اقتباس النظام العسكرى (٢٥٠) .

السبب الحادى عشر :

الذكر والدعاء فى المعركة

الذكر والدعاء ومناجاة الله سبحانه هو نوع عبادة يتوجه بها المؤمنون الى الله عزوجل ،كما أنها تشكل ركنا مهما فى حياتهم ، حيث يتضرعون الى الله سبحانه يسألونه ان يكشف عنهم ماأصابهم من بلاء ، ويسألونه تيسير حوائجهم وتحقيق مطالبهم .

وماأعظم ماأصاب المسلمين اليوم من البلاء ، فما احوجهم الى الدعاء بعد أن يجاهدوا فى سبيل الله ويتخذوا للأمر عدته .

الحث على الذكر فى المعركة :

ان سلاح الذكر والدعاء يعمل عمله فى المعركة كبقية الاسلحة القتالية التى يتوصل بها الى هزيمة العدو ، بل وان هذا اشد واخطر على العدو من الاسلحة المادية المعروفة ،لان الذكر والدعاء فى حقيقته اتصال بالقوة الكبرى التى لايعجزها شىء فى الارض ولا فى السماء ، والله هو القادر على أن يمنح النصر لمن يشاء أو أن يمنعه عمن يشاء ، فاذا دعاه المؤمنون فانهم يلجأون الى من بيده النصر ، وهوسبحانه سميع مجيب الدعاء .

لذا فقد امر الله تبارك وتعالى المجاهدين بالذكر ساعة اللقاء وارشدهم الى أنه من اسباب نصرهم على عدوهم فقال سبحانه (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) (١) .

امر الله تعالى المجاهدين ساعة اللقاء - اى وقت القتال - مع فئة الكفار بالذكر للاستظهار به والاستنصار على عدوهم بالدعاء عليهم بالخذلان والهزيمة .

---

(١) الانفال (٤٥) .

قال الطبرى في معنى قوله (واذكروا الله كثيرا) : (وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم ، واشعروا قلوبكم والسنتكم ذكره)(١) وقال النسفى في معنى التذييل : (لعلكم تفلحون) :اى تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة.(٢)

وبهذا فان التذييل يتناسب مع السياق ،اذ الغاية من القتال هى احراز النصر على العدو، فدل الله سبحانه على السبب الذى تحصل به النتيجة وهو الذكر.

وفائدة الذكر فى المعركة هى استحضار قوة الله سبحانه وعزته وجلاله ،فاذا قال المجاهد (الله اكبر) فانه يحتقر ويستصغر كل ما دونه واولهم عدوه الذى يقف فى الصف امامه لقتاله ،فانه يستصغر قوته امام قوة الله سبحانه ،كما ويطمئن الى نصر الله لوثوقه فى قوة الله وقدرته المطلقة.

واذا سبّح المجاهد ربه فانه ينزهه عما لا يليق به من النقص او الضعف والخذلان مما هو من حال البشر. . ،ومن ثم فان المجاهد الذاكر لا يخشى قوة عدوه وعدده وعدده ،بل يكون مطمئنا الى قوة الله وقدرته ، واثقا فى تأييده ونصرته. كما وان المجاهد الذاكر يلجأ الى الله يستعين به ويستنصره على عدوه فيدعوه وهو مطمئن بالاجابة ،لان الله تبارك وتعالى تكفل باجابة الدعاء ساعة اللقاء فى المعركة.

---

(١) تفسير الطبرى (٦ / ٢ / ١٤).

(٢) تفسير النسفى (٢ / ١٠٦).

اخرج الامام ابوداود - واللفظ له - والدارمي والحاكم عن سهل ابن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثنتان لاتردان او قلما تردان : الدعاء عند النداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا) .

الاستنصار بالضعفـــاء :

وكما امر الله سبحانه المجاهدين بالذكر والدعاء عند لقاء الاعـــداء كذلك امر القاعدين من الضعفاء بالدعاء والتضرع الى الله سبحانه فى مصالح المسلمين عامة ، ونصرة المجاهدين بخاصة . وهذا جهادهم الذى اباحـــه الله لهم ، ونصحهم الذى اشار اليه سبحانه بقوله (ليس على الضعفـــاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج اذا نصحوا للـــه ورسوله ، ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) . فنصحهم يكـــون بالارشاد الى ماينفع ، وبالدعاء والتوجه الى الله فى حوائج المسلمين .

اخرج البخارى - واللفظ له - والنسائى عن مصعب بن سعد قال : (رأى سعد أن له فضلا على من دونه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلـــم : هل تنصرون الا بضعفائكم) .

وجاء الحديث فى رواية النسائى مفصلا لما أجملته رواية البخارى وشارحـــا لها ، ولفظ الحديث (انما ينصر الله هذه الامة بضعيفها ، بدعوتهم وصلاتهم

---

(١) اخرجه ابوداود فى الجهاد /باب الدعاء عند اللقاء (٣ / ٢١) . والدارمي فى الصلاة/باب الدعاء عند الاذان (١ / ٢١٧) . والحاكم فى المستدرك (١ / ١٩٨ ، ٢ / ١١٣) وصححه . قلت : وصححه الامام النووى فى الاذكار (١٧٩) طبعة دار الفكر . وقال ابن حجر : هذا حديث حسن صحيح . انظر نتائج الافكار فى تخريج احاديث الاذكار للحافظ ابن حجر العسقلانى (١ / ٣٧٩) . تحقيق /حمدى عبد المجيد السلفي . مطبعة الارشاد /بغداد . منشورات مكتبة المثنى ببغداد .

(٢) عند النداء : اى النداء للصلاة .

(٣) قال ابن الاثير : الحم الرجل واستلحم ، اذا نشب فى الحرب فلم يجد له مخلصا ، والملحمة هى الحرب وموضع القتال ، والجمع ملاحم ، مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها وقيل هو من اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها . انظر غريب الحديث (٤ / ٢٤٠) . باختصار . (٤) التوبة (٩١) .

(٥) اخرجه البخارى فى الجهاد /باب الاستنصار بالضعيف (٢ / ٥٢) . والنسائى فى الجهاد /باب الاستنصار بالضعيف (٦ / ٤٥) .

واخلاصهم) . اخبر الرسول عليه الصلاة والسلام فى خبر عام ان هذه الامة تنصر بدعاء الضعفاء وصلاتهم واخلاصهم لله ، وبهذا فان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع ايدينا على الدعاء كسبب من اسباب النصر ، خاصة اذا كان هذا الدعاء من ضعفاء الامة . وخص دعاء الضعفاء بالذكر لانهم اشد اخلاصا فى الدعاء ، واكثر خشوعا فى العبادة لخلاص قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا . (١)

الدعاء سلاح اهل الايمان من الامم السابقة :

ذكر القرآن الكريم من تاريخ الامم السابقة امثلة لعصبة الايمان وهى تذكر الله فى اشد ساعات الضيق عند لقاء العدو . وتدعوه سبحانه بالصبر والثبات والنصر على الاعداء ، وذكر القرآن اجابة الله لدعائهم بالنصر . من ذلك ماحكاه القرآن من دعاء الفئة المؤمنة القليلة من بنى اسرائيل التى قاتلت جالوت وجنوده . يقول سبحانه : (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (٢) معنى قوله (برزوا) اى ظهروا للقتال ، وهم الفئة المؤمنة بقيادة طالوت . وواو الجماعة فى (قالوا) تعود عليهم ، اى انهم عندما ظهروا لقتال اعدائهم دعوا الله سبحانه أن ينزل عليهم الصبر والثبات والنصر على اعدائهم الكافرين ، وهم جالوت وجنوده .

---

(١) انظر عمدة القارى (٤ / ١٧٩) × وفتح البارى (٦ / ٨٩) .
(٢) البقرة (٢٥٠) .

واسرع القرآن فى ذكر اجابة الله لدعائهم ، وتحقيقه لمقصودهم بالنصر على اعدائهم ، فقال تعالى (فهزموهم باذن الله ، وقتل داود جالوت واتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء)(١) اى هزم طالوت واتباعه جالوت وجنوده وكسر شكوتهم (باذن الله) اى بنصره وتأييده ، اجابة لدعائهم ثم ذكر القرآن مافعل بزعيم الكفر يومها (جالوت) حيث قتله داود عليه السلام .

وذكر الآلوسي - رحمه الله - كلاما لطيفا فى دعاء طالوت وجنوده ، انقله بنصه ، قال : (وفى هذا الدعاء من اللطافة وحسن الاسلوب والنكات ما لا يخفى اما اولا : فلأن فيه التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال واما ثانيا : فلأن فيه الافراغ ، وهو يؤذن بالكثرة ، وفيه جعل الصبر بمنزلة الماء المنصب عليهم لثلج صدورهم واغنائهم عن الماء الذى منعوا عنه ، واما ثالثا : فلأن فيه التعبير - بعلى - المشعر بجعل ذلك كالظرف ، وجعلهم كالمظروفين ، واما رابعا : فلأن فيه تنكير صبرا المفصح عن التفخيم ، واما خامسا : فلأن فى الطلب الثاني وهو تثبيت الاقدام مايرشح جعل الصبر بمنزلة الماء فى الطلب الاول ، اذ مصاب الماء مزالق فيحتاج فيها الى التثبيت ، واما سادسا : فلأن فيه حسن الترتيب حيث طلبوا اولا افراغ الصبر على قلوبهم عند اللقاء وثانيا ثبات القدم والقوة على مقاومة العدو ، حيث إن الصبر قد يحصل لمن لا مقاومة له ، وثالثا ، العمدة والمقصود من المحاربة وهو النصرة على الخصم حيث إن الشجاعة بدون النصرة طريق عتبته عن النفع خارجه .)(٢) .

---

(١) تكملة الاية (٢٥٠) من سورة البقرة .
(٢) روح المعانى للآلوسي (١ / ٢ / ١٧٢) .

وذكر القرآن نماذج اخرى من الفئات المؤمنة فى الموكب التاريخي لاهل الايمان ، وهم يدعون الله ساعة المعركة بالمغفرة والثبات والنصر على الاعداء . يقول تبارك وتعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم فى سبيل الله ، وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وماكان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفرلنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)(١) .

جاءت هذه الآيات فى سياق التعليق على غزوة (أحد) لتسلية المؤمنين فى ماأصابهم يومها ، ولارشادهم الى ماكان من حال اتباع الانبياء وحواريهم من الصبر والثبات على ماأصابهم من اعدائهم ، والى دعائهم وتضرعهم الى الله . وفى هذا توجيه للمؤمنين إثْرَ (أحد) لكي يحذوا حذوهم فى الصبر على ماأصابهم ، والتضرع الى اللهطالبين منه النصر.

ومعنى (الربيون) كما ذكر المفسرون : العلماء الاتقياء الصابرون ، وقيل هم الجموع الكثيرة ، وقيل : هم الاتباع والرعية.(٢)

ذكر الله سبحانه المحاسن الفعلية لهؤلاء الربيين ، والتى تتمثل فى قتالهم مع انبيائهم دون أن يفتروا او يضعفوا أو يخضعوا لعدوهم ، وامتدح الله صبرهم وثباتهم مع انبيائهم . ثم ذكر الحق تبارك وتعالى محاسنهم القولية والتى تتمثل فى دعائهم الله عزوجل أن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يثبت اقدامهم ، وأن ينصرهم على اعدائهم.

-(١) آل عمران (١٤٦ - ١٤٨) .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٤١٠) ، وفتح القدير للشوكاني (١ / ٣٨٦) . وتفسير ابي السعود (٢ / ٩٥) ، وتفسير الآلوسي (٢ / ١ / ١٠٢) .

فالدعاء والذكر فى المعركة هو من اخلاق المجاهدين المؤمنين فى كل عصر وامة ، وذلك ليستمدوا من الله العزة والقوة والنصر. واذا كانت الآيات جاءت للتعليق على موقف الصحابة فى (أحد) ، فما بالنا اليوم ونحن من نحن ، وأين نحن من صحابة رسول الله ، فحاجتنا الى الدعاء اولى . . . . ، ولنطمئن الى ثمرة الدعاء . فهاهم اولئك الربيون قد اصابوا بدعائهم (فاثابهم الله) بسبب دعائهم ، (ثواب الدنيا) من النصر والغنيمة ، (وحسن ثواب الاخرة) بالتمتع باطايب مافى الجنة من النعيم المقيم. . .

سلاح الدعاء فى معارك المسلمين :

ان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم - وهو القدوة والاسوة - كان يتسلح فى المعركة بسلاح الدعاء والذكر ، وكان يشتد فى دعائه ربه بالنصر الى درجة بالغة تشعر بالاهمية البالغة لسلاح الدعاء فى المعركة ، وكان الله يستجيب دعاء نبيه فينصره على عدوه رغم ضعفه وقلة اتباعه فى عددهم وعددهم كما فى غزوة بدر .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى وابوداود عن عمر بن الخطاب قال : (١) (لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف واصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم انجز لى ماوعدتنى ، اللهم آت ماوعدتنى ، اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لاتعبد فى الارض . فمازال يهتف بربه ، مادا يديه ، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فاتاه ابو بكر فاخذ رداءه ، فالقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يانبى الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ماوعدك ، فانزل الله عزوجل (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فامده الله بالملائكة ، قال

---

(١) سبق تخريجه فى موضوع وجوه النصر صفحة (١٢٨) .هامش (١) .

(١)
ابو زميل (هو سماك الحنفي) ، فحدثني ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يؤمئذ يشتد في اثر رجل من المشركين امامه ، اذ سمع ضربة السوط فوقه ، وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم ، فنظر الى المشرك امامه فخر مستلقيا ، فنظر اليه فاذا هو قد خطم انفه ، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك اجمع، فجاء الانصارى فحدث بذلك رسول الله فقال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ، فقتلوا سبعين واسروا سبعين) .

لقد اشتد الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعاء - الى درجة أن سقط عنه رداؤه ، ورق عليه ابوبكر - يسأل المولى عزوجل أن ينصره على عدوه ، وذلك لعلمه أن النصر بيد الله ، ولعلمه أن الدعاء هو سبب يستوجب نزول نصر الله . واجاب الله دعاء نبيه ، فأيّده بنصره وامده بملائكته .

نقل ابن حجر عن السهيلي في سبب شدة اجتهاد النبى صلى الله عليه وسلم في الدعاء ، قوله : (لانه عليه الصلاة والسلام رأى الملائكة تنصب في القتال (اى تجتهد) ، والانصار يخوضون غمار الموت ، والجهاد تارة يكون بالسلاح ، وتارة بالدعاء ، ومن السنة أن يكون الامام وراء الجيش لانه لا يقاتل معهم فلم يكن ليريح نفسه ، فتشاغل باحد الامرين وهو الدعاء .) (٢) .

والسبب في قوله عليه الصلاة والسلام (اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد في الارض) . (هو كونه خاتم النبيين ، فلو هلك هو ومن معه حينئذ لم يبعث احد ممن يدعو الى الايمان ، ولاستمر المشركون يعبدون غير الله

---

(١) تابعي ، احد رجال الاسناد عند مسلم .
(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٧ / ٢٨٩) .

فالمعنى لا يعبد في الارض بهذه الشريعة)[1] . وهل كان ابوبكر بقوله للنبى صلى الله عليه وسلم : (يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك) أكثر ثقة بالله ونصره ؟ اجاب الخطابي على ذلك بقوله : (لايجوز أن يتوهم احد أن ابابكر كان اوثق بربه من النبى صلى الله عليه وسلم في تلك الحال ، بل الحامل للنبى صلى الله عليه وسلم على ذلك شفقته على اصحابه وتقوية قلوبهم ، لانه كان أول مشهد شهده ، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك ، لانهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة ، فلما قال له ابوبكر ماقال ، كف عن ذلك ، وعلم أنه استجيب له لما وجد ابوبكر في نفسه من القوة والطمأنينة ، فلهذا عقب بقوله (سيهزم الجمع) . وقال غيره : وكان النبى صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة في مقام الخوف ، وهو اكمل حالات الصلاة ، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ لان وعده بالنصر لم يكن معينا لتلك الواقعة ، وانما كان مجملا .) وهذا مارجحه ابن حجر[2] . ونقل النووى عن طائفة من العلماء بان الحامل على شدة الدعاء هو تقوية قلوب الصحابة من رؤيتهم له وهو يشتد في الدعاء والضراعة ، وكذلك سؤال تعجيل وعده بالنصر ، وانجازه من غير اذى يلحق بالمسلمين ، حيث إن الله وعده العير او الجيش ، وافلتت العير فكان على ثقة من الاخرى[3] .

وفي غزوة الخندق اجتمعت قريش ، ومن مالأها من قبائل العرب من بنى فزارة وبنى مرة وغطفان ، فضلا عن اليهود الذين حرضوهم على قتال المسلمين[4] . اجتمع هؤلاء الاحزاب جميعا لقتال المسلمين ، وواجه الرسول صلى الله عليه وسلم الموقف بكل متطلباته العسكرية كحفر الخندق ، وتأمين الحراسات . . ، وتوجه ايضا الى الله بالدعاء وطلب النصر على الاعداء .

(١ ، ٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٧ / ٢٨٩) .
(٣) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٨٥) .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٢١٥) .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - والترمذى عن عبدالله بن ابي اوفى قال : (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب على المشركين فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب، اللهم اهزم الاحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم) ، واجاب الله سبحانه دعاء نبيه فنصره ، وهزم الاحزاب وسخر عليهم الريح وجنودا اخرى جعلتهم يلوذون بالفرار من ارض المعركة مذعورين .(١)

يقول سبحانه وتعالى (ياايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعلمون بصيرا) .(٢)

واضافة الى رجوع المشركين دون ان ينالوا شيئا مما ارادوا ، فقد فتح الله للمسلمين ديار يهود بنى قريظة الذين تآمروا مع المشركين ، ومنحهم ديارهم واموالهم واولادهم . يقول سبحانه وتعالى : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا) .(٣)

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعوا الله دائما وفى عامة احواله بالنصر والعون .

اخرج الترمذى - واللفظ له - وابوداود وابن ماجة والحاكم عن ابن عباس قال : (كان البنى صلى الله عليه وسلم يقول : رب اعنى ولا تعن علي ، وانصرني

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد /باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢ / ١٥٨) ، ومسلم فى الجهاد /باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو (٣ / ١٣٦٣) ، والترمذى فى فضائل الجهاد /باب ماجاء فى الدعاء عند القتال (٤ / ١٩٥) رقم (١٦٧٨) .

(٢) الاحزاب (٩) .

(٣) الاحزاب (٢٥ - ٢٧) .

ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر على ، واهدني ويسر الهدى لي ، وانصرني على من بغى علي . . الحديث [1]) .

واقتدى الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) برسول الله فكانوا يتضرعون الى الله فى معاركهم يطلبون منه العون والنصر والمدد ، وكان دعاؤهم وتضرعهم سببا من اسباب نصرهم على عدوهم ، بل وكان اهم من كثير من اسباب النصر الاخرى .

روى ابن عبد الحكم عن زيد بن اسلم انه قال : ([2] لما ابطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب الى عمرو بن العاص: اما بعد ، فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنين ، وماذاك الا لما احدثتم وماحببتم من الدنيا ماحب عدوكم ، وان الله تعالى لاينصر قوما الا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر ، واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ماعرف (وهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الاسود ، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد) الا أن يكون غيّرهم ماغير غيرهم ، فاذا اتاك كتابي هذا فاخطب فى الناس وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم فى الصبر والنية

---

(١) اخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات/باب فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم (٥ / ٥٥٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح . قلت : اسناده صحيح ورجاله ثقات . واخرجه ابوداود فى الصلاة باب مايقول الرجل اذا اسلم (٢ / ٨٣) واخرجه ابن ماجة فى الدعاء باب دعاء رسول الله (٢ / ١٢٥٩) والحاكم فى المستدرك كتاب الدعاء (١ / ٥١٧ - ٥١٨) وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٢) اورده الامام علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى فى كنز العمال ، وعزاه لابن عبد الحكم . انظر كنز العمال (٥ / ٧٠٥ ، ٧٠٦) مطبعة البلاغة - الطبعة الاولى (١٣٩٠هـ / ١٩٧١م) نشر وتوزيع مكتبة التراث الاسلامى - حلب .

وقدّم اولئك الاربعة فى صدور الناس وامر الناس ان يكونوا لهم صدمة[1] رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فانها ساعة تنزل فيها الرحمة ، ووقت الاجابة[2] ، وليعج الناس الى الله ، وليسألوه النصر على عدوهم . فلما أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم ، ثم دعا اولئك النفر فقدّمهم امام الناس وامر الناس ان يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبون الى الله ويسألونه النصر ، ففتح الله عليهم) .

لقد ادرك الفاروق رضى الله عنه اسباب تأخير النصر فحذر منها ، وارشد الى اسباب النصر ومنها الدعاء والضراعة الى الله . وقد كان لهذا السبب بالغ الاثر فى احراز النصر على الاعداء بعد أن تأخر عنهم سنين ، ولم ينتصروا الا بعد ان تضرعوا الى الله بالنصر ، واخلصوا قلوبهم لله .

والمسلمون اليوم ينبغي ان يقفوا امام هذه القصة وقفة تأمل ، فاذا كان النصر قد تأخر عنهم فى هذا الزمان ، بل واصابهم ما اصابهم من شر الهزيمة فان من واجبهم ان يدققوا النظر ويعملوا الفكر ليبحثوا عن الاسباب التى اوقعتهم فى الهزيمة واخرت عنهم النصر ، ومن اهم هذه الاسباب بعدهم عن الله سبحانه وعدم الاعتماد عليه ، وعدم اللجوء اليه بالدعاء والضراعة فى معاركهم بعد أن يأخذوا ما بوسعهم من الاسباب المادية .

وسلاح الدعاء والذكر ليس خاصا بالرسول (عليه الصلاة والسلام) وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم) ، وانما هو سلاح لكل المسلمين ، وهو سبب من اسباب نصر الامة الاسلامية فى كل زمان ومكان وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) صدمة رجل واحد : اى قوة رجل واحد . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ١٩) .

(٢) العج : رفع الصوت ، والمعنى : يرفعوا اصواتهم بالدعاء . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ١٨٤) .

يذكر فئة من المسلمين - في آخر الزمان - تنتصر على عدوها بمجرد التكبير ودون سلاح وعتاد . اخرج الامام مسلم بسنده عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (سمعتم بمدينة جانب منها فى البر وجانب منها (١) فى البحر، قالوا : نعم يارسول الله ، قال : لاتقوم الساعة حتى يغزوها سبعون الفا من بنى اسحاق ، فاذا جاءوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ، ولم يرموا (٢) بسهم، قالوا لااله الا الله والله اكبر، فيسقط احد جانبيها ، قال ثور : لااعلمه الا قال الذى فى البحر، ثم يقولوا الثانية : لااله الا الله والله اكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة : لااله الا الله والله اكبر فَيُفرّجُ لهم فيدخلوها فيغنموا ، فبينما هم يقتسمون المغانم اذ جاءهم الصريخ فقال : ان الدجال قد خرج فيتركون كل شىء ويرجعون) .

من هذا يعلم ان القلوب المؤمنة اذا استقامت على منهج الله واخلصت التوجه الى الله ، وشغلت السنتها بذكر الله ، وتضرعت الى الله ، واستبسلت فى سبيل الله فانها ستفوز بنصر الله مهما كان ضعفها وقوة عدوها . وان الذكر فى المعركة يكون اشد على العدو من اشد سبب مادى بشرى ، لان الذكر يستوجب نزول المدد الرباني ، بينما السبب المادى سبب بشرى ، وأنّى لبشرٍ مهما أُوتي من قوة ومنعة ان يقف فى وجه جنود الله التى يتنزل بها فى المعركة .

---

(١) اخرجه مسلم فى الفتن / باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى ان يكون مكان الميت من البلاء (٤ / ٢٢٣٨) .

(٢) قال النووى فى شرحه : قال القاضي كذا هو في جميع اصول صحيح مسلم من بنى اسحاق ، قال : بعضهم المعروف المحفوظ من بنى اسماعيل ، وهو الذى يدل عليه الحديث وسياقه لانه انما اراد العرب، وهذه المدينة هى القسطنطينية . انتهى. انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٨ / ٤٥) .

السبب الثانى عشر

الصبر والثبات فى المعركة

معنى الصبر والثبات : الصبر هو حبس النفس عن الجزع،[١] لتحمل المشاق والشدائد. واذا اضيف الى المعركة فالمقصود بالمشاق والشدائد اى الناتجة عن القتال، والمعنى حبس النفس على القتال.

والثبات هو عدم المفارقة، فاذا اضيف الى المعركة فالمقصود به عدم مفارقة ساحة المعركة. والثبت والثبيت : الفارس الشجاع[٢]

النصر مع الصبر : اذا ثبت المقاتلون فى المعركة فان العاقبة ستكون للأثبت ، واذا جزعوا ولم يثبتوا فان هذا سيؤدى بهم الى الفرار او الاستسلام ، وهذا وذاك هزيمة لهم. فالصبر يترتب عليه النصر او الهزيمة وجودا وعدما. وقد اشار القران الكريم الى الصبر كسبب من اسباب النصر فقال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم و اصبروا ان الله مع الصابرين)[٣].

الخطاب فى الآيتين للمؤمنين ، صدّر بحرفى النداء والتنبيه لاظهار كمال الاعتناء بمضمون مابعده.

والمراد بالفئة هنا : الجماعة من الكفار، ولم يوصفوا بالكفر لظهور ان المؤمنين لا يحاربون الا الكفرة. والمراد باللقاء : الحرب.[٤] وتشتمل الآيتان على جملة من اسباب النصر منها الصبر والثبات ، يدل على هذا ختام الآية الأولى بقوله (لعلكم تفلحون)

---

(١) انظر لسان العرب(٤ / ٤٣٨) .
(٢) انظر لسان العرب(٢ / ١٩) .
(٣) الانفال (٤٥ ، ٤٦) .
(٤) انظر تفسير ابى السعود (٤ / ٢٥) .

بعد الامر بالثبات والذكر. والفلاح : هو الفوز بالمرام ، ولاشك ان المرام مماسبق هو احراز النصر على العدو. قال ابو السعـــــــــــــود : (لعلكم تفلحون) : اى (تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة) ، وقال الطـــــــبـــــــــــــرى : (كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم ، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم .(٢)

وختام الآية الثانية بقوله (ان الله مع الصابرين) بعد الحث علـــى الصبر فى المعركة ، يدل ايضا على ان الصبرسبب للنصر ، فالله سبحانه كشـــف عن معيته للمجاهدين الصابرين ، وهى معية نصر وعون وتأييد كما فسرها ابـــو السعود وغيره ، واضاف ابو السعود قائلا (ومايفهم من كلمة (مع) من اصالتهم انماهى من حيث إنهم المباشرون للصبر ، فهم متبعون من تلك الحيثية ، ومعيته تعالى انما هى من حيث الإمداد والاعانة) .(٣)

وجعل سبحانه النصر قرين الصبر ، فقال جل شأنه : (ياأيها النبـــى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف اللـــه عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكـــم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) .(٤)

قيد سبحانه فى هاتين الآيتين تحقيق النصر للمؤمنين بتحققهـــــم بالصبر ، سواء فى حالة القوة ام الضعف . قال النسفى : (هذه عدة من اللـــه

---

(١) المصدر السابق (٤ / ٢٥) .
(٢) تفسير الطبرى (٦ / ٢ / ١٤) .
(٣) تفسير ابى السعود (٤ / ٢٥) .
(٤) الانفال (٦٥ ، ٦٦) .

وبشارة بان الجماعة من المؤمنين ان صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده)[١] . وختمت الآية بقوله (والله مع الصابرين) وهو ختام لتقرير المضمون السابق ، اذ المراد بالمعية هنا معية النصر والتأييد .

وحكى القرآن الكريم عن نصر الله وتمكينه لبنى اسرائيل ، فكشف عن ان صبرهم هو سبب نصر الله لهم ، يقول تبارك وتعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون)[٢] .

المراد بالقوم المستضعفين هنا : بنو اسرائيل . ومشارق الارض ومغاربها الشام ، قاله الحسن البصرى وقتادة[٣] ، وقال عبد الله بن شوذب : هى فلسطين[٤] . والمراد بكلمة الله الحسنى الواردة فى قوله (وتمت كلمة ربك الحسنى) هى وعده لهم بالنصر والتمكين ، الوارد فى قوله تعالى (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون)[٥] ، قاله مجاهد وابن جرير[٦] .

ومعنى قوله (بماصبروا) أى بسبب صبرهم ، ويؤيد هذا قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لماصبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)[٧] . من هذا يتبين ان الصبر سبب من اسباب النصر الربانى للمؤمنين .

وذكر القرآن الكريم - خلال قصة طالوت مع جالوت - ان النصر بيد الله ، وذكر معية الله بالنصر للصابرين ، يقول تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)[٨] .

---

(١) تفسير النسفى (٢ / ١١٠) .
(٢) الاعراف (١٣٧) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٢٤٢) .
(٤) انظر تفسير فتح القدير (٢ / ٢٤١) .
(٥) القصص (٥ ، ٦) .
(٦) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٢٤٢) .
(٧) السجدة (٢٤) .
(٨) البقرة (٢٤٩) .

قال ابوالسعود فى المراد بمعية الله هنا : معية نصره وتوفيقه حتما.(١)

ثم حكى القرآن دعاء طالوت ومن معه بالصبر والثبات والنصر ، يقول تبارك وتعالى : (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)(٢).

معنى قوله (لما برزوا) اى لما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لجالوت وجنوده فى ساحة الحرب. هنا دعا طالوت ومن معه من المؤمنين بالصبر على مقاساة شدائد الحرب ، والثبات برسوخ أقدامهم فى وجه عدوهم والنصر عليهم بقهرهم ،(ومن روعة التعبير هنا انهم لم يسألوا الله اى قدر من الصبر ، بل سألوه أن يفرغ عليهم افراغا ، اى يصبه عليهم صبا كأنه ماء يفرغ عليهم ليتطهروا به ويغتسلوا)(٣).

وذكر سبحانه وتعالى نتيجة هذه المعركة ـ التى كان مدارها على الصبر والثبات كما صورها القرآن ـ فقال جل شأنه (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء)(٤) لقد كانت النتيجة هى انتصار طالوت واتباعه على جالوت وجنوده.

وفى هذه المعركة التى تعد حلقة من جلقات الصراع بين الايمان والكفر أخذ موضوع الصبر حيزا كبيرا خلال عرض القرآن لهذه المعركة ، وذلك لتعليم المؤمنين أهمية الصبر فى المعركة ، ولإرشادهم بأنه من الاسباب المهمة للنصر. والقرآن الكريم عندما يتعرض لهذه المعركة وأمثالها انما يتعرض له ليستفيد المسلمون منه فى صراعهم مع أعدائهم ، وليأخذوا من ذلك دروسا فى النصر والهزيمة.

---

(١) تفسير ابى السعود (١ / ٢٤٣).
(٢) البقرة (٢٥٠).
(٣) الصبر فى القرآن الكريم د / يوسف القرضاوى ص٥٥ مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ.
(٤) البقرة (٢٥١).

ولأهمية الصبر والثبات فى المعركة فقد أوجبها الشارع على المقاتلين وحرم عليهم الفرار - كما سيأتى- والغاية من هذا كله هى أن يتحلى المسلمون بالصبر كى يفوزوا بالنصر والظفر.

الأمر بالصبر فى المعركة: إذا كان الصبر مطلوبا فى جميع الأحوال وعلى وجه العموم ، فإنه يتأكد طلبه على وجه الخصوص فى المعارك والحروب ، وتزداد أهميته ساعة اللقاء ، لان المقاتلين يتعرضون حينذاك إلى أقسى الظروف والمواقف يواجهون الأهوال والخاطر ، ويرون الجرحى والقتلى والدماء والأشلاء بل ويرون الموت الزؤام امام اعينهم . . فهم أحوج الناس إلى الصبر.

لذا فقد حث القرآن المؤمنين على الصبر والمصابرة عند قتال الاعداء وذلك فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)(١).

قال المفسرون فى المراد بالصبر هنا : أى على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكاره والشدائد . وقالوا : اما المصابرة : فهى مغالبة أعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب.(٢)

ومدح الله تبارك وتعالى الصابرين وقت الشدة وفى مواطن القتال مدحا خاصا فى قوله : (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(٣).

---

(١) آل عمران (٢٠٠) .

(٢) انظر تفسير ابي السعود (٢ / ١٣٦) .وفتح القدير (١ / ٤١٤) . وروح المعانى (٢ / ٢ / ١٧٥) .

(٣) البقرة (١٧٧) .

معنى قوله (فى البأساء) اى الفقر والشدة ، (والضراء) أى المرض والزمانة ، (وحين البأس) اى وقت القتال ،[1] ووصف سبحانه من صبر فى هذه المواطن على وجه الخصوص بالصدق والتقوى ، وذلك بسبب ما قدموا من الصبر.

وحث النبى صلى الله عليه وسلم المجاهدين على الصبر فى المعركة وذلك فيما أخرجه الشيخان - واللفظ لمسلم - عن عبدالله بن ابى اوفى[2] (ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى بعض ايامه التى لقى فيها العدو ينتظر حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال : (يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)

البيعة على الصبر والثبات فى المعركة :

ولأهمية الصبر فى المعركة فإنه يستحب للإمام أو القائد أن يطلب البيعة من المجاهدين على الصبر كما طلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية من الصحابة ، لأن فى ذلك مزيد توطين لنفوسهم على مشاق الجهاد واعبائه.

أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :[3] (رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها ، كانت رحمة من الله . فسألت نافعا : على اى شىء بايعهم ؟ على الموت ؟ قال : لا ، بايعهم على الصبر) .

---

(١) انظر تفسير الطبرى (٢ / ١٠١) .

(٢) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب الصبر عند القتال (٢ / ١٤٣) ، ومسلم فى الجهاد / باب الصبر عند اللقاء (٣ / ١٣٦٢ ، ١٣٦٣) .

(٣) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب البيعة فى الحرب على ان لا يفروا (٢ / ١٦٣) .

واخرج الامام مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله قال : (كنا يوم الحديبية الفا واربعمائة بايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة ، وقال : بايعناه على ان لا نفر ، ولم نبايعه على الموت) . وجاء في حديث آخر لمسلم والبخاري عن سلمة انهم بايعوه يومئذ على الموت .

واجاب العلماء عما قد يبدو من تعارض بين هذه الرواية المثبتة للبيعة على الموت والروايات السابقة النافية له ، فقالوا المراد بالبيعة على الموت : الصبر وان آل بهم ذلك الى الموت ، لان الموت مقصود في نفسه . وقال السيوطي : (لان الموت ليس في اختيار احد فالبيعة عليه لا تتصور) ، وحمل ما جاء في الروايتين على المعنى المذكور سابقا ، واضاف قائلا (وعلى هذا فمؤدى البيعة على الموت والبيعة على عدم الفرار واحد ، فوجه الجمع بين الروايتين ان بعضهم بايعوا بلفظ الموت ، وبعضهم بلفظ عدم الفرار ، ومراد جابر بما ذكره تعيين اللفظ الذي بايع به هو واصحابه) .

والحكمة من اخذ البيعة من المجاهدين على الصبر وعدم الفرار حتى الموت هي لكون النفوس تجزع عند اللقاء لشدة ما تجد من مشاق وشدائد تتطلب من المجاهد مزيدا من الصبر والثبات . وتغليظ العقد بالبيعة يوطن النفوس ويشحذ الايمان والعزيمة بما يزيد في صبر المجاهدين وثباتهم .

---

(١) مسلم في الامارة / باب استحباب مبايعة الامام الجيش عند ارادة القتال (٣ / ١٤٨٣) .
(٢) سمرة : هي شجرة من ضرب شجر الطلح . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ٣٩٩) .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد / باب البيعة في الحرب على ان لا يفروا (٢ / ١٦٣) وصحيح مسلم كتاب الامارة . باب استحباب مبايعة الامام الجيش عند ارادة القتال (٣ / ١٤٨٣) .
(٤) انظر فتح الباري لابن حجر (٦ / ١١٨) ، وشرح النووي على مسلم (١٣ / ٣) .
(٥) انظر سنن النسائي بشرح السيوطي (٧ / ١٤١) بتصرف يسير جدا .

تحريم الفرار من المعركة :

سبق وان ذكرت فى موضوع (حكم الجهاد) أن الجهاد يصبح فرض عين على من حضر من المقاتلين ساعة اللقاء بالعدو فلا يجوز لهم الخروج من ارض المعركة ، وذلك لقوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا)(١) . الخطاب فى الآية للمؤمنين ، والمراد باللقاء الحرب، والمراد بالفئة : اى الجماعة من الكفار ، الفاء فى قوله (فاثبتوا) للترتيب ، اى لترتيب حكم على المقدمات السابقة ، وقوله (اثبتوا) امر بالثبات ، والضمير عائد على المخاطبين فى الآية وهم المؤمنون الذين التقوا مع الكفار فى المعركة ، وهذا يدل على وجوب الثبات على من حضر القتال ساعة اللقاء مع العدو .

ويدل على تحريم الفرار من المعركة قوله جل شأنه (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار * ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)(٢) .

الخطاب فى الآيتين للمؤمنين ، يفيد حكم الفرار من العدو ساعة اللقاء بهم فى المعركة . والزحف : هو الدنو قليلا قليلا ، واصله الاندفاع على الالية وسمى به الجيش الداهم المتوجه الى العدو لانه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف ، وذلك لان الكل يرى كجسم واحد متصل ، فيحس حركته بالقياس اليه فى غاية البطء ، وان كانت فى نفس الامر على غاية السرعة .(٣)

---

(١) الانفال (٤٥) .

(٢) الانفال (١٥ ، ١٦) .

(٣) انظر تفسير ابي السعود (٤ / ١٢) . واحكام القرآن للقرطبى (٧ / ٣٨٠) .

وافصح سبحانه عن المراد بالخطاب بقوله (فلا تولوهم الادبار) وهو نهى ظاهر صريح يدل على تحريم الفرار من العدو. والتقى النهى عن الفرار فى هذه الآية بالامر بالثبات فى الآية السابقة بما يقطع بوجوب الثبات وحرمة الفرار من المعركة.

وعبر القران بلفظ (الادبار) و (دبره) وهو مؤخرة الرجل ، زيادة فى الذم للفار من المعركة والتشنيع به. وتوعده سبحانه بالغضب ، ودخول النار. وهذا وذاك يدل على تغليظ جرم الفرار من المعركة.

واستثنى الله جل ثناؤه من ذلك حالتين ، هما :

الاولى : (الا متحرفا لقتال) ، ويكون ذلك اما بالتوجه لقتال فرقة اخرى من العدو غير الفرقة المنشغل بها لكون تلك اهم من هذه ، او بايهام عدوه بالفرار منه لخداعه بالكر عليه هو أو أعوانه ، أو للا نتقال من جهة مكشوفة الى موضع آخر يستره ، وهكذا.

الثانية : (او متحيزا الى فئة) اى بأن ينضم الى جماعة اخرى من المسلمين.

واختلف العلماء[1] فى الآية ، هل هى خاصة باهل بدر ام عامة فى كل المؤمنين الى يوم القيامة ؟

الرأى الاول : ان الآية خاصة بتحريم الفرار يوم الزحف لاهل بدر ، ذهب اليه جماعة من الأئمة منهم نافع والحسن وقتادة ، ووافقهم ابو حنيفة رحمهم الله.

ادلتهم : اولا : قالوا إن الفرار يوم الزحف خاص باهل بدر فلم يكن لهم ان ينحازوا ولو انحازوا لانحازوا للمشركين ، ولم يكن فى الارض يومئذ مسلمون غيرهم ولا للمسلمين فئة الا النبى صلى الله عليه وسلم.

ثانيا : واحتجوا بأن الآية منسوخة بآية الضعف (الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا .. الآية)[2].

ثالثا : واحتجوا بقوله تعالى (يومئذ) فقالوا هو اشارة الى يوم بدر.

---

(١) انظر احكام القرآن للقرطبى (٧/ ٣٨١ ، ٣٨٢). واحكام القرآن لابن العربى (٢/ ٨٤٣ ، ٨٤٤). وفتح القدير للشوكانى (٢/ ٢٩٤).

(٢) الانفال (٦٦).

رضى الله عنهما .

الرأى الثانى : ان الآية عامة فى جميع المؤمنين الى يوم القيامة ، وهو مروى عن ابن عباس ======= وجمهور العلماء ، وهو رأى مالك والشافعى رحمهم الله .

واجابوا عن ادلة الفريق الآخر بما يأتى :

اولا : قولكم انه لم يكن لاهل بدر فئة ينحازون اليها صلى الله عليه وسلم غير النبى فيه نظر ، لانه كان بالمدينة خلق كثير من الانصار لم يأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون انه قتال وانما ظنوا انها العير فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خف معه .

ثانيا : ردوا على قولهم ان الآية منسوخة بآية الضعف بانه لامنافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط مابينه الله فى آية الضعف .

ثالثا : اجابوا عن اعادتهم للضمير فى قوله (يومئذ) الى يوم بدر ، فقالوا بل هو عائد الى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى (اذا لقيتم) .

ويرجح رأى الجمهور بأن الآية عامة فى حرمة الفرار من الزحف ، ما اخرجه الشيخان - واللفظ لمسلم - عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال (١) اجتنبوا السبع الموبقات قيل يارسول الله : وماهن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، واكل مال اليتيم ، واكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) ، يفيد هذا الحديث حكم التولى يوم الزحف عموما بانه من الكبائر ، مما يؤيد رأى الجمهور .

---

(١) اخرجه البخارى فى الوصايا ، باب قول الله تعالى (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ..) ، (٢ / ١٣١) .

ومسلم فى الايمان ، باب اكبر الكبائر (١ / ٩٢) .

الفرار من المثلين :

تقدم انه يحرم الفرار في اثناء الزحف ، وأن هذا من الكبائر ، وانه لا يجوز التولى الا فى احدى حالتين : التحرف لقتال ، او التحيز الى فئة .

وبقيت مسألة جواز الفرار اثناء الحرب اذا كان العدو يزيد عن ضعف المسلمين، اخذا من قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين)[١] .

اختلف العلماء فى المعتبر عند مراعاة المثلين هل مجرد العدد ، من غير مراعاة القوة والضعف ، ام يراعى مع العدد القوة والضعف ؟

الرأى الاول : الجمهور يرى مراعاة مجرد العدد دون النظر الى القوة والضعف، اى انه اذا كان عدد العدو ضعف عدد المسلمين فلا يجوز لاحد منهم الفرار.

قال القرطبى : (واما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة الا مما زاد على المائتين ، فهما كان فى مقابلة مسلم اكثر من اثنين فيجوز الانهزام ، والصبر أحسن)[٢] .

واستدل الجمهور بما اخرجه البخارى - واللفظ له - وابوداود عن ابن عباس رضى الله عنهما حيث قال[٣] : (لما نزلت " ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين" شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ان لا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف فقال " الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا

---

(١) الانفال (٦٦) .
(٢) احكام القرآن للقرطبى (٧ / ٣٨٠ ، ٣٨١) . وانظر المجموع شرح المهذب بتكملته (١٩ / ٢٩٠) ، وشرح النووى على مسلم (١٣ / ٣ ، ٤) .
(٣) اخرجه البخارى فى التفسير / سورة الانفال (٣ / ١٣٣) . وابوداود فى الجهاد / باب فى التولى يوم الزحف (٣ / ٤٦) .

مائتين " قال فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم) .

واستثنى الأحناف من ذلك اذا كان عدد جيش المسلمين اثني عشر الفا فزيادة ، وحرموا عليهم الفرار مهما بلغ عدد عدوهم الا تحرفا لقتالهم او تحيزا الى فئة اخرى منهم. قال الامام ابوبكر الجصاص: (.. وهذا الحكم عندنا ثابت مالم يبلغ عدد جيش المسلمين اثنى عشر الفا لا يجوز لهم ان ينهزموا عن مثليهم الا متحرفين لقتال .. أو متحيزين الى فئة من المسلمين يقاتلونهم معهم ، فاذا بلغوا اثنى عشر الفا فان محمد بن الحسن ذكر ان الجيش اذا بلغوا كذلك فليس لهم ان يفروا من عدوهم وان كثر عدوهم ، ولم يذكر خلافا بين اصحابنا فيه)[1] .

واحتجوا بما اخرجه الدارمي وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] : (خير الاصحاب اربعة ، وخير الجيوش اربعة آلاف ، وخير السرايا اربعمائة ، ومابلغ اثنا عشر الفا فصبروا وصدقوا ، فغلبوا من قلة) .

الرأى الثاني : ومقابل رأى الجمهور ، ذهب جماعة من العلماء الى أن المراعى الضعف والقوة وليس مجرد العدد . قال القرطبى رحمه الله (وقالت فرقة منهم ابن الماجشون فى الواضحة انه يراعى الضعف والقوة والعدة ، فيجوز على قولهم ان يفر مائة فارس من مائة فارس اذا علموا أن ماعند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ماعندهم)[3] .

مما سبق عرضه يتبين تأكيد الاسلام على عنصر الصبر والثبات وذلك لما له من الاهمية البالغة فى المعركة .

نماذج من صبر جيش النصر :

ان جيل الصحابة (رضوان الله عليهم) هم الجيل الامثل للمسلمين اليوم

(١) احكام القرآن للامام احمد بن على الرازى الجصاص (٣ / ٤٨) ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت .
(٢) انظر تخريجه فى موضوع الاغترار بالكثرة او اليأس للقلة . صفحة (٢٤٣) هامش (٢) .
(٣) احكام القرآن للقرطبى (٧ / ٣٨٠) .

وفى كل يوم ، وذلك لما حواه تاريخهم من جهاد طويل ومعارك كثيرة حققوا فيها انتصارات عظيمة . وهذه الانتصارات ينبغى ان نقف عندها كثيرا لنستقيَ منها دروسا فى جهادنا الحاضر والمستقبل ، ومن هذه الدروس درس الصبر على تكاليف الجهاد واعبائه .

لقد بلغ الجهد بفرقة من جيش المسلمين على رأسها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة " ذات الرقاع" غايته ، حيث كانوا يقطعون الارض بجبالها وصحاريها وسهولها ، ووديانها على الاقدام ، لعدم توفر وسيلة الحمل التى تبلغهم الى مقصدهم ، إلا دابة واحدة كانوا يتعاقبون عليها . وليس من وصف ابلغ من وصف ابى موسى (رضى الله عنه) ، وذلك لانه رأى بأم عينيه ما اصابه واخوانه ، وذاق بنفسه مشقة الخروج فى سبيل الله ، واكتوى برمضاء الصحراء .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن ابى موسى رضى الله عنه قال :(١)
(خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ونحن ستة نفر ، بيننا بعير نعتقبه ، قال فنقبت(٢) اقدامنا وسقطت اظفارى ، فكنا نلف على ارجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب ارجلنا من الخرق . قال ابو بردة (راو فى الاسناد) فحدث ابو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك ، كأنه كره ان يكون شيئا من عمله افشاه) . رقت اقدام الصحابة من شدة رمضاء الصحراء ، وقرحت من الحفاء ، وسقطت اظافرهم ، كل ذلك وهم صابرون فى سبيل الله ، فكافأهم الله بالنصر والتأييد والتمكين . ولا شك ان هذا المثل

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى / غزوة ذات الرقاع (٣ / ٣٥) . ومسلم فى الجهاد والسير / غزوة ذات الرقاع (٣ / ١٤٤٩) .
(٢) نقبت : اى رقت جلودها ، وتنفطت من المشى . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٥ / ١٠٢) .

فى الصبر على اعباء المعركة يفصح لنا عن واحد من جملة اسباب انتصار الصحابة فى جهادهم ضد اعدائهم .

وفى غزوة الاحزاب بقى المسلمون ثلاثة ايام لا يذوقون الطعام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وتهم فى الصبر على ذلك حتى انه ربط على بطنه حجرا من شدة مابه من الجوع ، ويزاد الامر شدة لما كان يرافقه من عمل مضن فى حفر الخندق لتأمين المدينة من المشركين .

اخرج البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : (١) (انا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية (٢) شديدة ، فجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق . فقال : انا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة ايام لا نذوق ذواقا ، فاخذ النبى صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيبا اهيل (٣) اهيم . . . الحديث) .

وفى غزوة سيف البحر كان زاد المسلمين جرابا من تمر ، لم يجد لهم رسول الله غيره .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن جابر رضى الله عنه قال : (٤) (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وامر علينا اباعبيدة ، نتلقى عيرا لقريش ، وزودنا جرابا من تمر ، لم يجد لنا غيره ، فكان ابو عبيدة يعطينا تمرة تمرة . قال فقلت : كيف تصنعون بها ؟ قال : نمصها كما يمص الصبى ، ثم نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا الى الليل ، وكنا نضرب بعصانا الخبط (٥) ، ثم نبله فنأكله . . . . الحديث) .

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى ، / باب غزوة الخندق (٣ / ٣١) .
(٢) الكدية : قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها الفأس . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ١٥٦) .
(٣) كثيبا اهيل : اى رملا سائلا . واهيم : اى الرمل الذى لا يرتوى . انظر المصدر السابق (٥ / ٢٨٩) .
(٤) اخرجه البخارى فى المغازى ، غزوة سيف البحر (٣ / ٧٦) ، ومسلم فى كتاب الصيد والذبائح / باب اباحة ميتة البحر (٣ / ١٥٣٥) .
(٥) الخبط : ورق الشجر . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ٧) .

يبين لنا هذا الحديث صورة واقعية للصبر والتحمل عند الصحابة (رضوان الله عليهم) ، فقد كان زادهم في هذه الغزوة جرابا من تمر فقط - وهم ثلاثمائة مجاهد كما في رواية البخاري - ثم فني هذا الجراب ، وجمع ابو عبيدة ازوادهم الخاصة ، فكان يعطي المجاهد تمرة واحدة ، اذا جاع شرب عليها قليلا من الماء ، يمصها مصا حتى تكفيه بقية يومه ، واكل المجاهدون اوراق الشجر الجافة - بعد ان فنيت ازوادهم - بعد ان يبلوها بالماء وذلك من شدة الجوع ، فما اعظمه من صبر هذا .

وفي غزوة العسرة خرج المسلمون صيفا فصبروا على طول الطريق ، وشدة الحر ، وهجير الصحراء ، وقلة الماء ، ولم يفتّ ذلك في عضدهم او يثن من عزمهم . اخرج البزار بسنده عن ابن عباس قال[1] ، (قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن العسرة ، فقال عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا اصابنا فيه عطش شديد ، حتى ظننا ان رقابنا ستنقطع ، حتى ان كان احدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن ان رقبته تنقطع ، وحتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويضعه على بطنه ، فقال ابوبكر الصديق : يارسول الله ، ان الله قد عودك في الدنيا خيرا فادع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اتحب ذلك يا ابابكر ؟ قال نعم ، قال : فرفع رسول الله يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء[2] ، فأظلت ، ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت عن العسكر) .

هذه بعض نماذج صبر الصحابة رضوان الله عليهم وهي نماذج اصيلة تدل على قوتهم وشدتهم في الحق ، وتفانيهم في سبيل الله . وان هذا الصبر لا يكاد يبلغه الا من عرف دين الله ، واخلص الجهاد في سبيل الله .

---

(١) كشف الاستار عن زوائد البزار للامام ابوبكر الهيثمي ، كتاب الهجرة والمغازي باب غزوة تبوك (٢ / ٣٥٤) . قال الهيثمي : (رواه البزار والطبراني في الاوسط ، ورجال البزار ثقات) مجمع الزوائد (٦ / ١٩٥) . قلت : هو كما قال ، الا ان عمر بن الخطاب (شيخ البزار) ذكر ابن حجر انه صدوق ، ونقل في التهذيب توثيق ابن حبان له فقط . لذا فالحديث حسن الاسناد . انظر التقريب (٢ / ٥٤) . وتهذيب التهذيب (٧ / ٤٤١ - ٤٤٢) .

(٢) اي تقلبت السماء . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ١٢٤) .

وقد يعجب البعض من شدة تحمل الصحابة وصبرهم.ولكن الاعجب من ذلك هو كيف أمكنهم تحقيق الانتصارات المذهلة رغم كل تلك المصاعب والمتاعب التى واجهوها مع قلة امكاناتهم المادية.

لقد تذللت كل تلك المصاعب والمتاعب امام ايمان الصحابة ،الذى كان يزودهم بالعزيمة والنصر والثبات فى المعركة ممايسر لهم النصر.

البَابُ الثَّالِث

الأسبَاب المادّيّة للنصر والهزيمة في الكتاب والسّنة

ويشتمل على تمهيد وسبعة أسباب :

١- القيادة الراشدة .

٢- الإعداد والتعبئة العامة .

٣- التخطيط والتنظيم العسكرى .

٤- الأمن العسكرى .

٥- نبذ المنافقين والمخذلين والحذر منهم .

٦- الخداع فى المعركة .

٧- المباغتة .

تمهيـــــــــد

النوع الثاني من أسباب النصر والهزيمة هو الأسباب المادية . وهذه الأسباب كثيرة جدا ،تدخل جميعا ضمن دائرة القوة المأمور بها في قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم .) (١) .

وسأكتفي بتفصيل اهم الأسباب المادية ،لتعذر جمع كل الأسباب المادية على سبيل الحصر والتفصيل . ولكن الأسباب التي سأفصلها في هذا الباب هي أسباب رئيسة ،تغطي جميع احتياجات المعركة سواء من حيث القيادة أو من حيث الجنود،أو من حيث الضرورات المادية كالمال و السلاح ،أو من حيث الضرورات الادارية كالتنظيم والتخطيط ،أو من حيث الفن القتالي كالخداع والمباغتة .

والأسباب المادية - والمعنوية أيضا - هي من أسباب النصر باعتبار وجودها ، وهي من أسباب الهزيمة باعتبار فقدانها ،لذا فانها أسباب للنصر والهزيمة بهذين الاعتبارين .

ومن واجب المسلمين أن يعدوا كل ما في وسعهم من الاسباب المادية - فضلا عن المعنوية - ولكن لا يصح في حقهم ان يعتمدوا عليها ،فان النصر لا يقع بمجرد وقوع هذه الاسباب ،بل هو متوقف على تقدير الله عز وجل . ولا ينبغي للمسلمين أن ييأسوا من النصر بسبب ما يفوتهم من أسباب مادية ليست في استطاعتهم ،وذلك لأن الله سبحانه وعدهم بالنصر على أعدائهم اذا أعدوا ما في استطاعتهم .

والأسباب المادية هي في اعتقاد المؤمنين - أسباب لحصول قدر الله . فاذا قدر الله سبحانه نصر عباده المؤمنين - وهذا وعده القاطع وسنته الثابتة - فانه سبحانه ييسر لهم من الأسباب ما يكفي لحصول قدره ،أو يملي لعدوهم كي يفعلوا أسبابا تفضي الى نزول قدره فيهم بالهزيمة،وانتصار المؤمنين عليهم ، أو يمد عباده بأسباب من عنده - وما يعلم جنود ربك الا هو - تكفيهم مؤونة النصر. ولكن لا يتحقق ذلك الا للمؤمنين الذين تحلوا بأخلاق الصحابة (رضوان الله عليهم) ،

احببت ان اشير الى ما ذكرت هنا - من عدم الاعتماد على الاسباب المادية في احراز النصر - قبل ان يبدأ القارئ الكريم في قراءة هذه الاسباب حتى لا يقيس قرب النصر وبعده عن المسلمين من خلال هذه الاسباب فقط، وأردت ان يقف على حقيقة هذه الاسباب،وانها لا تؤتي ثمارها الا بتقدير الله سبحانه ،وان قدر الله بنصر عباده منوط بنصرهم اياه اولا .

---

(١) الانفال (٦٠) .

السبب الاول :

القيادة الراشـــدة

اهمية القيادة واثرها فى احراز النصر :

قيادة الجيش بمثابة الرأس للجسد في الانسان ، فاذا ذهب الرأس ذهب كل شيء تقريبا .

وهكذا اذا تم السيطرة على القيادة بتوجيه ضربة قاضية لها ، فانه يتم للعدو السيطرة على المعركة ، لان القيادة فيها غرفة العمليات التى من خلالها تتلقى المعلومات عن القوات والتحركات ، وعن قوات العدو وتجمعاته وتحركاته ، ومن خلالها يتم رسم الخطط وتوزيع المهمات القتالية على قطاعات الجيش ، ومن خلالها يتم التنسيق بين القطاعات العسكرية ، لذلك فان العدو يحرص على الوصول الى القيادة لاختصار طريق النصر .

والقيادة المؤهلة لادارة المعركة ، والقادرة على استغلال طاقات المقاتلين وكسب ثقتهم لها اثرها فى احراز النصر . بخلاف القيادة العاجزة والفاقدة لثقة جنودها فانها تسبب الهزيمة .

والنصر بالنسبة للقائد يكون منوطا بكفايته ، واهليته ، ومدى الثقة به . لذلك فقد اهتمت الدراسات العسكرية - قديما وحديثا - بابراز الصفات التى ينبغى ان يتحلى بها القادة .

قال صاحب مستند الاجناد (ينبغى ان يكون الامير المقدم على طائفة من الجند شجاع النفس ، ثابت الجأش ، صارم القلب ، ثبت الجنان ، ذا بسالة ونخوة واقدام ، وجرأة ، قد توسط الحروب ، ومارس الرجال وقارع الابطال ، ونازل الاقران ، عارفا بترتيب المصاف ومظان الكمناء ، ومواطن الحذر ، فان انتخاب الامير من اهم الامور .)[1] .

---

(١) مستند الاجناد فى آلات الجهاد ، ومختصر فى فضل الجهاد / لابن جماعة الحموى / تحقيق اسامة النقشبندى ص ١١٣ / دار الحرية للطباعة ، بغداد ، من منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٨٣م .

واهتمت الدراسات العسكرية الحديثة الشرقية والغربية بتحديد صفات القائد (١) .

يقول القائد الانجليزى مونتجمرى : (فالقادة من جميع الرتب يجب ان يكونوا اهلا للقيادة . يجب ان تكون لديهم روح المبادرة ، ويتحلوا بالصلابة وبالاخلاق والطاقات التى توحى الى مرؤوسيهم بالثقة . ولكن يجب ان تكون لديهم قبل كل شىء الشجاعة المعنوية اى ذلك العزم وذلك التصميم اللذان يجعلانهم قادرين على الاستمرار فى رباطة جأشهم حين تكون نتيجة القتال غير اكيدة) (٢) .

---

(١) للاطلاع، انظر: اصول الادارة/د . محمود عساف (٢٦٤ - ٢٦٦) طبع بمصر ٨٢م

(٢) مذكرات مونتجمرى /ترجمة /البعلبكي ص ٨٦ دار القلم، بيروت . الطبعة الثانية .

واعتمدت الدراسات العسكرية الحديثة فى تحديد صفات القائد المثالى على دراسة تاريخ عدد من القادة العسكريين الذين حققوا انتصارات باهرة لشعوبهم .

وقد استخلص اللواء الركن / محمود شيت خطاب من تلك الدراسات مجمل صفات القائد المثالى حيث يقول : (ان الصفات المثالية للقائد اذن هى : (١) القابلية على اعطاء القرار السريع الصحيح (٢) الارادة القوية الثابتة (٣) تحمل المسئولية بلاتردد (٤) معرفة مبادىء الحرب (٥) نفسية لاتتبدل فى حالتى النصر والاندحار (٦) سبق النظر (٧) معرفة نفسيات مرؤوسيه وقابليتهم (٨) ثقة قطعاته به وثقته بقطعاته (٩) المحبة المتبادلة بينه وبين قواته (١٠) شخصية قوية نافذه (١١) قابلية بدنية (١٢) ماضى ناصع مجيد)(١) .

والجدير بالذكر ان مجموع هذه الصفات لم يتحقق فى قائد واحد بل هى مأخوذه من مجموعة قادة كل واحد منهم برز فى بعضها، وليس كلها .

ولاشك فى ان النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهو مثال القيادة الراشدة لدى المسلمين ـ قد اتصف بكل هذه الصفات واكثر منها الى درجة لايصل اليها قائد من البشر العاديين .

---

(١) انظر الرسول القائد (٢٣٤) . وانظر تطبيق هذه الصفات على قيادة النبى (٤٣٥ - ٤٦٠) من نفس المرجع . وانظر ايضا اقتباس النظام العسكرى (١٢٦ - ١٣٣) .

ففى القيادة النبوية نموذج القيادة الراشدة التى ينبغى ان يهتدى بها القائد المسلم . والرسول صلى الله عليه وسلم قاد ثمانيا وعشرين غزوة بنفسه فى سبع سنوات فقط ، لان اول غزوة قادها بنفسه هى غزوة (ودان) (١)

---

(١) وقع عند البخارى فى اول غزوة العشيرة فى كتاب المغازى / (٣ / ٢) ، وفى صحيح مسلم /كتاب الجهاد باب عدد غزوات النبى صلى الله عليه وسلم (٣ / ١٤٤٧) باسنادهما عن ابى اسحاق قال :(كنت الى جنب زيد ابن ارقم ، فقيل له : كم غزا النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة ؟ قال تسع عشرة . قال : كم غزوت انت معه ؟ قال سبع عشرة . قلت فايهم كانت اول ؟ قال : العشير . او العشيرة . فذكرت لقتادة فقال : العشيرة) اللفظ للبخارى . ووقع عند مسلم فى نفس الباب (٣ / ١٤٤٨) من حديث جابر انها احدى وعشرون غزوة . قال ابن حجر : (فعلى هذا ففات زيد بن ارقم ذكر اثنتين منهما ولعلهما الابواء وبواط ، وكأن ذلك خفى عليه لصغره . . او عد الغزوتين غزوة). فتح البارى (٧ / ٢٨١). وحمل النووى حديث زيد بن ارقم على معنى ان منها تسع عشرة غزوة ، مستدلا بحديث جابر ، مؤيدا ذلك بما ورد فى السيرة عند ابن سعد وابن اسحاق من انها سبع وعشرون غزوة . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٩٥ ، ١٩٦) . ويؤيد ذلك مانقله ابن حجر عن عبد الرزاق باسناده عن سعيد بن المسيب قال : (غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم اربعا وعشرين) وصحح ابن حجر اسناده انظر فتح البارى (٧ / ٢٨١) . ولعل سبب اختلاف العدد هو تداخل بعض الغزوات ببعض كعد قريظة والخندق غزوة واحدة اوحنين والطائف او ان كل عدد هو باعتبار ماغزاه كل واحد منهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس عدد غزوات النبى كلها.واغفل ابن اسحاق غزوة بنى قينقاع من اليهود حيث نقضوا العهد فسار اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه بأن يجلوا عن المدينة . وبهذا يصبح عدد الغزوات التى قادها النبى ثمانيا وعشرين غزوة . انظر الدرر فى اختصار المغازى (١٥٠ ، ١٥١) والرسول القائد (٤٣١) .

فى صفر من السنة الثانية للهجرة (١) ، وآخر غزوة قادها هى غزوة تبوك وهى فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة (٢).

وقاتل المسلمون بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم المشركين او اليهود فى تسع غزوات منها ، وهى : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ، (٣) وفر المشركون فى تسع عشرة غزوة

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١، ٢/ ١٧٠-١٧١) قال البخارى فى صحيحه: قال ابن اسحاق : (اول ماغزا النبى صلى الله عليه وسلم الابواء ، ثم بواط ثم العشيرة) . كتاب المغازى / غزوة العشيرة (٣/ ٢) وظاهر هذا الخلاف مع ماذكره ابن هشام عن ابن اسحاق فى سيرته من ان اول غزوة غزاها هى (ودان). واجاب ابن حجر بما يدفع توهم الاختلاف فقال : (وليس بين ماوقع فى السيرة وبين مانقله البخارى عن ابن اسحاق اختلاف لان " الابواء " و" ودان " مكانان متقاربان بينهما ستة اميال اوثمانية ولهذا وقع فى حديث الصعب بن جثامة " وهو بالابواء او بودان " كما تقدم فى كتاب الحج) واحتج ابن حجر لذلك بادلة كثيرة . انظر فتح البارى (٧/ ٢٧٩) .
ويبدو من حديث البخارى المتقدم فى هامش رقم (١) خلاف آخر فى اول غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم ، فظاهر حديث البخارى ان اول غزوة هى العشيرة كما اجاب زيد بن ارقم وهو خلاف مانقل اصحاب السير والمغازى من انها " ودان " . واجاب ابن التين عن ذلك بقوله : (يحمل قول زيد بن ارقم على ان العشيرة اول ماغزا هو ، اى زيد بن ارقم والتقدير : فقلت ما اول غزوة غزاها اى وانت معه . قال : العشيرة) . انظر فتح البارى (٧/ ٢٨١) .

(٢) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٨/ ١١١) .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣، ٤/ ٦٠٩) .

منهـا بدون قتال . ومع ذلك لم يخفق الرسول صلى الله عليه وسلـم في اية معركـة خاضهـا المسلمون بقيادتـه ، حتـى غزوة (أحـد) لم تكـن اندحارا للمسلميـن من الناحية العسكريـة (١) .

ولم يكـن انتـصار النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته بالـخوارق والمعجزات فحسب ، وا نما تجلت فيه مهارة القائد وحكمته وحنكتـه العسكرية ، وشجاعتـه وصبره واحتماله ، وتطبيقـه لمبادىء الحـرب.

والصفات التى يجب ان يتحلى بها القائد تنقسم الى قسمين :

القسم الا ول : ويخص صفات القا ئد من جهة اهليته وكفايته فى التخطيط والتنظيم ، وادارة المعركة ، ومايلزم ذلك من اخلاق الشجاعـة ، وقـوة الشخصية والصبر ، وسبق النظر ، والحكمة والتدبر ، والتوازن النفسى مـع تطبيق مبادى الحرب المعروفـة .

القسم الثانى : صفات القائد من جهـة علاقته مع جنوده وضباطـه كمشاورتهم ورعايتهم والاهتمام بهم ، وتواضعه لهم ومشاركتهم اعباء الجهاد دون ترفع عنها ، ومايـنشأ عن ذلك من ثقتهم بقيادتهم ، ودفاعهم عنها .

---

(١) الرسول القائد /اللـواء الركن محمود شيت خطاب (٤٣١) .

وهذه الصفات وتلك لها اثرها الواضح كما سترى فى احراز النصر فى المعركة (١).

ولان الاحاطة بالصفات القيادية وتطبيقاتها فى شخصية الرسول القائد يحتاج الى دراسة خاصة لسعته ، فسأمثل لبعض الصفات من القسمين من خلال شخصية الرسول القائد مع بيان اثرها فى المعركة .

وقصدى هنا التأكيد على اهمية القائد ، وعلى ان احرازه للنصر ينشأ من خلال كفايته واهليته ، ولذلك فان التمثيل لبعض الصفات يكفى فى التدليل لتقرير المقصود وتكون الاحاطة حينئذ مقصوداً آخر ليس من اهداف البحث. ولا يفوتنى التنويه الى ان كثيرا من معالم شخصية الرسول القيادية التى تمثل القيادة الراشدة تجدها فى كثير من مباحث هذه الرسالة .

---

(١) ليس المراد من ذكر هذه الصفات هو الحصر ، بل هناك صفات اساسية ينبغى ان يتحلى بها كل مسلم ، والقائد المسلم على وجه الخصوص وذلك كالتقوى ومراقبة الله ، والمعرفة بدينه واحكام شريعته وخاصة احكام الجهاد ، وان يكون جهاده فى سبيل الله ، وان يلتزم ويلزم جنوده بآداب الجهاد فى الاسلام من عدم الغلول والنهب والغدر والتمثيل الى غير ذلك من الآداب والصفات .
اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى وابن ماجه وابوداود عن بريدة انه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمر اميرا على جيش او سرية اوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : (اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال . . الحديث) سبق تخريجه فى بواعث الجهاد ص (٧٢) ، هامش رقم (١) .
وان لهذه الصفات الاهمية القصوى فى احراز النصر . ولم اتعرض لها هنا لانها هى مدار البحث فى الباب الثانى حيث ان من جملة اسباب النصر المعنوية : الايمان والعقيدة البناءة ، والتقوى ، والتوكل . . ، وهذه الاسباب ينبغى ان يلتزم بها القادة قبل الافراد ، بل ويكونوا قدوة لهم فى ذلك .
وما احوج قادتنا اليوم الذين يقودون جيوشنا لان يلتزموا بهذه الاخلاق لان فيها نصرهم وفلاحهم وخلاصهم مما اصابهم من هزائم ونكبات . . .

أ مثله للقسم الأول من صفات القائد :-

(١) الشجاعة :

اذا كانت الشجاعة ضرورية للمقاتلين فانها أشد ضرورة للقائد ،اذ هو قد وتهم ومحط أنظارهم ، وتبعته اضعاف تبعاتهم ، لذا ينبغى أن يتميز بالجرأة والشجاعة الفائقة ليواجه المواقف الصعبة والحاسمة فى المعركة ببسالة .

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مثالا فى الشجاعة ، يحتمى به الصحابة ساعة الشدة لجرأته وشجاعته فى القتال . أخرج الامام مسلم بسنده عن البراء قال : (كنا والله اذا احمّر البأس نتقى به ، وان الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) (١) .

وبرزت شجاعة النبى صلى الله عليه وسلم فى كل موطن من مواطن القتال ، ونذكر موقفه فى حنين مثالا على ذلك .

أخرج الامام مسلم عن كثير بن عباس بن عبد المطلب قال ، قال عباس (٢) :

(شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت انا وابو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ، ورسول الله على بغلة له بيضاء اهداها له فروة بن نفاثة الجذامى فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله يركض بغلته قِبَلَ الكفار . قال عباس : وانا آخذ بلجام بغلة رسول الله اكفها ارادة ان لاتسرع ، وابوسفيان آخذ بركاب رسول الله ، فقال رسول الله : اى عباس ، ناد اصحاب السمرة ، (٣)

---

(١) اخرجه مسلم فى الجهاد والسير / غزوة حنين (٣ / ١٤٠١) .
(٢) المصدر السابق نفس الكتاب والباب (٣ / ١٣٩٨ ، ١٣٩٩) .
(٣) السمرة : هى الشجرة التى بايعوا تحتها بيعة الرضوان . ومعناه ناد اهل بيعة الرضوان يوم الحديبية . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١١٥) .

قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على اولادها ، فقالوا: يالبيك ، يالبيك ، قال : فاقتتلوا والكفار ، والدعوة فى الانصار يقولون يامعشر الانصار يامعشر الانصار ، قال ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج ، فقالوا : يابنى الحارث بن الخزرج ، يابنى الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله وهو على بغلته كالمتطاول عليها الى قتالهم فقال رسول الله هذا حين حمى الوطيس ، قال ثم اخذ رسول الله حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد . قال فذهبت انظر فاذا القتال على هيئته فيما ارى ، قال فوالله ماهو الا أن رماهم بحصياته فما زلت ارى حدهم كليلا (١) وامرهم مدبرا) .

قال النووى: قال العلماء : (ركوبه عليه الصلاة والسلام البغلة فى موطن الحرب وعند اشتداد الناس هو النهاية فى الشجاعة والثبات ، ولانه ايضا يكون معتمدا (قدوة) يرجع المسلمون اليه وتطمئن قلوبهم به وبمكانه ، وانما فعل هذا عمدا والا فقد كانت لهصلى الله عليه وسلم افراس معروفة ، ومما ذكره فى هذا الحديث من شجاعته عليه الصلاة والسلام تقدمه يركض بغلته الى جمع المشركين وقد فر الناس عنه ، وفى الرواية الاخرى (عند مسلم كذلك) انه نزل الى الارض حين غشوه وهذه مبالغة فى الثبات والشجاعة والصبر) (٢) .

---

(١) حدهم كليلا : هو بفتح الحاء المهملة ، اى مازلت ارى قوتهم ضعيفة. المصدر السابق (١٢ / ١١٧) .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١١٤ ، ١١٥) .

ولولا ما كان من شجاعة النبى صلى الله عليه وسلم يومها وثباته فى المعركة لما تمكن المسلمون من النصر، بل وان شجاعته وثباته قفزت بالمسلمين من الهزيمة الى النصر ، فقد عاد المسلمون الى قائدهم بعدما رأوا من شجاعته وثباته واقتدوا به حتى نصرهم الله .

وبرزت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم القيادية فى حنين ، فهاهو يقف فى مقدمة قواته يقاتل معهم ، وهاهو يدير المعركة ويأمر العباس بعد أن تراجع المسلمون لينادىهم ويستنفر ايمانهم وعزيمتهم ، لتجميعهم ثم الانطلاق بهم لخوض المعركة مرة اخرى . وكان له ذلك حتى حقق النصر بفضل شجاعته وثباته ، وحكمته وحسن تصرفه فى المعركة ، وتوكله على الله . ولولا ذلك لما انتصر . والامثلة على شجاعة النبى صلى الله عليه وسلم وماكان لها من عظيم الاثر كثيرة فى سيرته ، كما فى غزوتى الاحزاب وأحد ، وغيرهما .

(٢) التوازن النفسى :

ينبغى ان تكون نفسية القائد هادئة ومتزنة ، تستطيع ان تتخذ القرارات المناسبة دون ان يمليها عليه العدو من خلال التأثير على نفسيته بأحداث تخل من اتزانه . وينبغى على القائد ان يسيطر على اعصابه سواء فى حالة النصر او الهزيمة ، ولا يغتر بسبب النصر ، او ييأس للهزيمة . وللاتزان اثره فى سلامة سير المعركة مما يعنى تأثيره فى نتيجة المعركة .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيادته العسكرية فى قمة التوازن النفسى كما رأيت فى غزوة حنين ، اذ لما انهزم عنه المسلمون يومها تملك اعصابه فى موقف يكاد يطير بالعقل ، واتخذ قراره السليم حينها باعادة تجميع القوات ثم الانطلاق ثانية نحو الهدف ، ولم يتأثر بما طرأ على قواته فى البداية ، ولم يؤثر ذلك فى سلوكه وقراراته العسكرية ، بل كانت فى غاية

الحكمة والسداد والتوفيق بما يدل على التوازن النفسى . وواضح اثر ذلك فى نتيجة المعركة من انتصار المسلمين بعد ان كادوا يفقدونه .

ويوم احد كان يوما عصيبا بالمسلمين عامة ورسول الله خاصة ، اذ انهزم المسلمون بعد ان نزل الرماة عن الجبل وتمكن منه المشركون بقيادة خالد ابن الوليد ، وانكشف المسلمون حتى خلص العدو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى نفر قليل من صحابته ، (وكسرت رباعيته وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه)(١) رغم هذا فانه لم يستكن بل كان يقاتل حتى رمى أُبيَّ بن خلف بالحربة فاصابه (وتقلب عدو الله عن فرسه فجعل يتدحرج)(٢) . وكان يحرض من لزمه من الصحابة على القتال فيقول لسعد : (ارم فداك ابى وامى)(٣) . واستطاع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ان يتخطى المرحلة الحرجة فى المعركة دون ان تتأثر نفسيته وسلوكه العسكرى ، ولم يؤثر ذلك فى قراره العسكرى ، بل كان - على سبيل المثال - قراره بملاحقة المشركين الى حمراء الاسد فى غاية الحكمة والسداد ، وذلك انه لما بلغه ارادة المشركين العودة لقتال المسلمين أمر بخروج من قاتل من المسلمين فى احد فى طلب العدو فخرجوا حتى وصلوا الى حمراء الاسد(٥) ، ولما علم المشركون بقدوم المسلمين رجعوا عن رأيهم واسرعوا فى مسيرهم الى مكة خوفا من لقاء المسلمين(٦) .

---

(١) بعض حديث اخرجه البخارى فى المغازى /غزوة احد واللفظ له (٣ / ٢٦) . واخرجه مسلم فى الجهاد /باب غزوة احد (٣ / ١٤١٦) كلاهما عن سهل ابن سعد

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٨٤) .

(٣) اخرجه البخارى - واللفظ له - فى المغازى /غزوة احد / باب اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا (٣ / ٢٢ ، ٢٣) واخرجه مسلم فى فضائل الصحابة باب فى فضل سعد بن ابى وقاص (٤ / ١٨٧٦) كلاهما عن على بن ابى طالب .

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ١٠٣) .

(٥) انظر المصدر السابق (٣ ، ٤ / ١٠١) وانظر صحيح البخارى كتاب المغازى باب الذين استجابوا لله والرسول (٣ / ٢٦) حديث السيدة عائشة .

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ١٠٥) .

ولقد كان لهذا القرار آثاره الرائعة سواء على نفسية المسلمين او الكفار، اذ رفع من معنويات المسلمين ، واعاد للمقاتلين منهم الثقة فى انفسهم ، واعاد لباقى المسلمين الثقة فى مقاتليهم وازال عنهم ماقد يسمى بآثار الهزيمة . فى حين افقد المشركين نشوة النصر الذى ظنوا انهم حققوه وافقدهم الثقة فى قدرتهم على مواجهة المسلمين ، والا لما رجعوا عن رأيهم،واخرس المنافقين واليهود . وهذا يدل على حكمة وسداد موقف النبى صلى الله عليه وسلم من ملاحقة المشركين الى حمراء الاسد ، ممايدل على كمال التوازن النفسى لدى الرسول القائد ،اذ لم يتأثر قراره ولم يتبدل موقفه العسكرى عما ينبغى ان يكون عليه بسبب ماحدث للمسلمين فى أحد .

يقول اللواء الركن / محمود شيت خطاب: (واشهد اننى لم اقرأ فى تاريخ الحرب لكل الامم موقفا صعبا يائسا كالذى كان فيه المسلمون يوم أحد ، فاستطاع الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام بقيادته الفذة ان يتخلص من هذا الموقف العصيب ، وينقذ قواته من فناء اكيد ،ثم يعيد اليها ثقتها بنفسها ويعيد اليها قوتها المادية والمعنوية بشكل لم يسبق له نظير ، وخلال فترة زمنية محدودة جدا)[١].

وفى غزوة الاحزاب تبين بجلاء التوازن النفسى والهدوء والاستقرار فى شخصية الرسول القائد رغم صعوبة الموقف ، فقد كان التحدى عنيفا يومها ،اذ اجتمعت الاحزاب جميعها : قريش ، وغطفان ،وبنوا فزارة ، وبنوا مرة ، وناس من اشجع ، ونقض يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله ، وانحازوا مع الاحزاب ، وانخذل المنافقون عن المسلمين معتذرين بأن بيوتهم عورة ، وماهى بعورة وانما رغبوا فى الفرار ، وبقى الحصار قريبا من شهر[٢].

---

(١) الرسول القائد / محمود شيت خطاب (١٩١) .

(٢) انظر السيرة لابن هشام/ (٣ ، ٤ / ٢١٥ ، ٢١٦) . والدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبدالبر (١٩٠ - ١٩٥) .

وصوّر القرآن الموقف يومها فى قوله تعالى : (ياايها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا)(١). ولا شك بانها صورة مذهلة ،تكاد تذهب بالعقول لهولها، حتى ان الله سبحانه وصفها بالزلزال الشديد ،لشدة ماواجهه المسلمون يومها .

كل هذا لم يفت فى عضد الرسول القائد ، ولم يخرجه عن طور الهدوء والحكمة تصبراً ولم يدفعه الى اليأس ، ولم يثن عزمه ، وانما زاده على قتالهم فى عقر دارهم فقال عليه الصلاة والسلام (الآن نغزوهم ولا يغزوننا ،نحن نسير اليهم)(٢).

(٣) معرفة القائد بجنوده :

ان القائد الناجح هو الذى يكون عارفا بجنوده ومقاتليه وقواده ، يختار منهم الرجل المناسب ليضعه فى المعركة المناسبة،فيقاتل نوع قتال يناسب رغبته ومهارته . يقول القائد الانجليزى مونتجمرى : (ومن المهم ان يدرك القائد أن جميع الرجال مختلفون . . بعض الجنود يفضلون القتال نهارا ، وبعضهم يؤثرون القتال ليلا . بعضهم افضل فى معركة متحركة سريعة ، وبعضهم ذو مزاج انسب للقتال فى ميدان محدود . . ،الامر عينه ينطبق على القادة . فجميعهم مختلفون . بعضهم مهيأ للقتال المتحرك ، وبعضهم مهيأ للقتال الثابت . والقادة هم ايضا يجب ان يتم اختيارهم حسب المهمة التى يكلفون بتأديتها)(٣)، وهذا يلزم منه معرفة القائد لجنوده وقواده وقدرات كل منهم ومواهبه العسكرية .

---

(١) سورة الاحزاب(٩ -١٢) .

(٢) اخرجه البخارى فى المغازى/ غزوة الخندق (٣/ ٣٣) من حديث سليمان ابن صرد .

(٣) مذكرات منتجمرى (٨٤ ، ٨٥) ترجمة ن . البعلبكى /دار القلم-بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١م.

والرسول صلى الله عليه وسلم كان عارفا بجنوده ومقاتليه ، حريصا على تكليف كل منهم بالمهمة التى فى استطاعته .

ففى غزوة (ذى قرد) لما اغار خيل من غطفان على ابل لرسول الله قرب المدينة صرخ سلمة بن الاكوع فى المسلمين ينبههم الى الخطر ، فتداعت الخيول ، وجاء ابو عياش على فرس له ، فقال له رسول الله : (ياابا عياش لو اعطيت هذا الفرس رجلا هو افرس منك فلحق بالقوم ؟ قال ابوعياش: فقلت يارسول الله انا افرس الناس ثم ضربت الفرس فوالله ماجرى بى خمسين ذراعا حتى طرحنى ، فعجبت ان رسول الله يقول : لو اعطيت افرس منك . وانا اقول : انا افرس الناس)[١] .

وفى غزوة احد اعطى الرسول صلى الله عليه وسلم السيف لابى دجانة ومنعه عن آخرين لان الرسول كان يعلم شدة ابى دجانة وقوته وبلاءه فى المعركة بما يميزه عمن منع عنهم السيف، وهو من تمام معرفة القائد برجاله .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - واحمد عن انس: (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذ سيفا يوم احد فقال : من يأخذ منى هذا السيف؟ فبسطوا ايديهم كل انسان منهم يقول : انا ، انا ، قال فمن ياخذه بحقه ؟ قال فاحجم القوم ، فقال سماك ابن خرشة انا اخذه بحقه . قال فاخذه ففلق به هام المشركين)[٢] .

وكان ممن امسك عنهم الرسول سيفه الزبير مع ماعرف عنه من الشجاعة ، فوجد فى نفسه اولا ثم عرف ان ابادجانة اخذها بحقها حقا .

قال ابن هشام : حدثنى غير واحد من اهل العلم ، ان الزبير بن العوام قال : (وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله السيف فمنعنيه واعطاه ابادجانة وقلت انا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت اليه فسألته اياه قبله ، فاعطاه اياه وتركنى ، والله لانظرن مايصنع ، فاتبعته ، فاخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه فقالت الانصار : اخرج ابودجانة عصابة الموت[٣] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٢٨٢) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ١٠٤) : رواه الطبرانى وفيه موسى بن محمد بن ابراهيم التميمى وهوضعيف.

(٢) اخرجه مسلم فى فضائل ابى دجانة (٤ / ٧ ١٩١) واحمد فى المسند (٣ / ١٢٣) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٦٨ ، ٦٩) . وردت القصة مختصرة عند الحاكم والبزار. انظر المستدرك (٣ / ٢٣٠ ، ٢٣١) قال الحاكم : صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وانظر كشف الاستار عن زوائد البزار (٢ / ٣٢٢ ، ٣٢٣) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ١٠٩) رواه البزار ورجاله ثقات.

وهكذا كانت تقول له اذا تعصب بها فخرج وهو يقول :

انا الذى عاهدنى خليلى * ونحن بالسفح لدى النخيل

الا اقوم الدهر فى الكيّول (١) * اضرب بسيف الله والرسول

قال ابن اسحاق : فجعل لا يلقى احدا الا قتله . وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحا الا ذفف عليه فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه . فدعوت الله ان يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك ابا دجانة فاتقاه بدرقته ، فعضت بسيفه ، وضربه ابو دجانة فقتله . ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها (اكراما لسيف رسول الله من ان تضرب به امرأة) قال الزبير ، فقلت : الله ورسوله اعلم) .

قال الزبير رضى الله عنه (الله ورسوله اعلم) لما رأى من شدة بلاء ابى دجانة فى المعركة فأيقن حقا ان الرسول صلى الله عليه وسلم ما قدمه عليه الا لزيادة فضله وشدة بلائه فى القتال . وهذا يبين دقة معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بجنوده وقواده ، حتى انه ليكون اعرف لنفوسهم منهم انفسهم .

والرسول القائد عليه الصلاة والسلام قال فى ابى طلحة : ((٢) لصوت ابى طلحة اشد على المشركين من فئة) وذلك لما عرف من شدة بلاء ابى طلحة وشجاعته فى المعركة) .

ويظهر هذا فى غزوة " احد " حيث ثبت ابو طلحة مع رسول الله ، ودافع عنه

---

(١) الكيّول : آخر الصفوف فى الحرب . وقيل الجبان . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ٢١٩) .

(٢) اخرجه الامام احمد فى المسند من طريق حماد بن سلمة (٣ / ٢٠٣) واسناده صحيح ، ورجاله ثقات . واخرجه الامام احمد ايضا ، ولكن من طريق على ابن زيد بن جدعان (٣ / ١١١ ، ١١٢ ، ٢٤٩ ، ٢٦١) . والحاكم فى المستدرك من هذا الطريق (٣ / ٣٥٣) . قلت : وهذا الاسناد ضعيف لضعف " على " انظر التقريب لابن حجر (٢ / ٣٧) ، والتهذيب (٧ / ٣٢٢) ، والميزان للذهبى (٣ / ١٢٧) .

دفاعا مستميتا حتى حماه من خطر المشركين ، ولم يكن مع رسول الله فى ذلك الوقت الا النفر القليل منهم ابو طلحة . فكان ابو طلحة ومن بقى معه يقومون مقام الجيش فى مواجهة المشركين وحماية رسول الله ، وتميز ابو طلحة يومها فى شدة دفاعه واستبساله فى القتال لدفع المشركين وحماية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى انه جعل من نفسه ترسا له ليقيه سلاح الكفار .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن انس بن مالك (١) قال : (لما كان يوم احد انهزم ناس من الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم . وابو طلحة بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم مجوب عليه بحجفة (٢) . قال : وكان ابو طلحة رجلا راميا شديد النزع (٣) . وكسر يومئذ قوسين او ثلاثا . قال فكان الرجل يمر معه الجعبة (٤) من النبل . فيقول . انثرها لابى طلحة . قال : ويشرف نبى الله ينظر الى القوم . فيقول ابو طلحة : يانبى الله ، بأبى انت وامى لاتشرف ، لا يصبك سهم من سهام القوم . نحرى دون نحرك . . الحديث) .

وكان اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لحذيفة يوم الاحزاب من اجل استطلاع اخبار المشركين دليلا على كمال معرفة القائد بجنوده ومميزات كل منهم ، ذلك لان حذيفة كانت فيه مميزات رجل الاستخبار حيث كان يتمتع بالكتمان الشديد ، وسرعة البديهة ، مع الدقة والانضباط الشديدين اللذين تقتضيهما المهمة الاستخبارية (٥) .

---

(٢) مجوب عليه بحجفة : اى مترس عليه يقيه بها . والحجفة الترس ، ويقال لها ايضا جوبة . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ٣١١ ، ٣٤٥) .

(٣) شديد النزع : اى شديد الرمى بالسهام . والنزع فى الاصل : الجذب والقلع . يقال : نزع القوس اذا جذبها . انظر المصدر السابق (٤١/٥) .

(٤) الجعبة : الكنانة التى تجعل فيها السهام . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ٢٧٤) .

(٥) انظر تفصيل ذلك كما ورد فى الحديث الذى يبين تنفيذ حذيفة للمهمة فى مبحث الاستخبار من موضوع الامن العسكرى ص ٤٢٦ .

(١) سبق تخريجه صفحة (٣٥) ، هامش (١) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف مالدى حسان من موهبة الشعر، لذا فقد استفاد منه فى شن حرب نفسية على المشركين فأمره بهجائهم.(١)

ومن جملة معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم لجنوده ، معرفته لما يتمتع به بعضهم من صفات ومواهب قيادية. والمتتبع للقيادات التى كان يرسلها الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزواته وسراياه يجد ان هذه القيادات كانت تتمتع بالكفاءة التامة لقيادة السرايا والبعوث، ولخوض المعارك والحروب. وحسبهم الانتصارات التى شهد بها التاريخ لتشهد لهم بالكفاءة والتفوق فى مجال القيادة العسكرية . ويكفى ان اذكر باسماء بارزة من قادة الرسول مثل خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وابى عبيدة بن الجراح وعلى بن ابى طالب واسامة بن زيد وغيرهم كثير ، وبعض هؤلاء لا زالت خططهم وتحركاتهم واساليبهم العسكرية موضع دراسة وبحث وتدريس حتى عند الغرب.

والشاهد فى ذلك ان هؤلاء القادة هم الذين اختارهم رسول الله ليقودوا سراياه وبعوثه - وهم من هم فى الكفاءة القيادية - مما يبين معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء القادة ولما يتمتعون به من صفات قيادية.

---

(١) انظر تفصيل دور حسان فى هجاء المشركين والرد عليهم فى موضوع الحرب النفسية ص (٢١٧ ، ٢١٨) .

فاختيار الرسول لهم يدل على كمال معرفته بهم.

واود ان اقف على نماذج من القيادات التى اختارها رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستئناس بها فى بيان الكفاءة التى امتاز بها هؤلاء القادة مما يساعد على تأكيد وتفصيل معرفة الرسول لهؤلاء القادة ولما يتمتعون به من صفات قيادية ، مع العلم ايضا ان الرسول صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحى فى شئون المسلمين العامة والخاصة . . بما يمكنه من المعرفة بالناس التى لا يصل اليها الا من اوحى اليه من الانبياء والرسل .

فى غزوة مؤتة اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من القادة العسكريين المغاوير لقيادة جيش المسلمين ومحاربة الروم وهم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابى طالب ، وعبد الله بن رواحة .

اخرج البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : (امر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال : ان قتل زيد فجعفر وان قتل جعفر فعبد الله بن رواحة . قال عبد الله : كنت فيهم فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن ابى طالب فوجدناه فى القتلى ووجدنا مافى جسده بضعا وتسعين من طعنه ورمية) (١) .

ان هؤلاء القادة الذين اختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا اسودا فى المعركة ، فها هو جعفر رضى الله عنه وجد مستشهدا وبه بضع وتسعون من طعنة او رمية ، (ليس منها شئ فى دبره) كما هو عند البخارى فى رواية اخرى (٢) ، وهذا يدل على انه انغمس فى القوم والتحم معهم فى القتال واستشهد وهو مقبل على قتالهم .

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى / باب غزوة مؤتة من ارض الشام (٣ / ٥٨)
(٢) انظر المصدر السابق . نفس المواضع .

وقد نقل ابن هشام صورة للمعركة تلخص ادوار البطولة والشجاعة التي قام بها هؤلاء القادة جاء فيها : تقدم زيد بن حارثة لم ترهبه جموع الروم فقاتل حتى استشهد ، واخذ الراية بعده جعفر فقاتل بها ، حتى اذا احمه القتال اقتحم عن فرسه وعقرها ، وقاتل قتال الابطال . . وقطعت يمينه التي تحمل اللواء فاخذه بشماله ، فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، وكان ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابها　　طيّبةً وباردا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها　　كافرة بعيدة انسابها

على اذ لاقيتها ضرابها

فلما قتل جعفر اخذ عبدالله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها ، وهو على فرسه فقاتل حتى استشهد وكان ينشد :

يا نفس الا تقتلي تموتي　　هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد اعطيت　　ان تفعلي فعلهما هديت

يريد صاحبيه : زيدا وجعفراً.

وتناول الراية من بعده ثابت بن أقرم ، فاصطلح المسلمون على أن يقودهم خالد بن الوليد ، فاستلم خالد الراية ، وأوهم العدو بمجيء المدد للمسلمين ثم انسحب بالمسلمين انسحابا منظما .(١)

ان هؤلاء القادة قاتلوا قتال الابطال فكانوا حقا خير قادة ، وان أحدا من القادة اليوم - من غير المسلمين - لا اظنهم يقاتلون قتالهم طوعا ورغبة وهم في مثل حالهم ، لان عدد جيشهم كان ثلاثة آلاف مجاهد ، في حين كان عدد الروم مائتي ألف مقاتل .(٢)(٣)

والقائد زيد بن حارثة كان من ولده اسامه ، وهو قائد كأبيه ، طعن البعض في كفايته كما طعنوا في كفاية أبيه ، فرد الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو العارف بجنوده وقواده - بما يشهد بكفايتهما للامارة والقيادة ، وكشف عن محبته لهما .

أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسامة على قوم فطعنوا في امارته ، فقال : ان تطعنوا في امارته فقد طعنتم في امارة أبيه من قبله ، وايم الله ، لقد كان خليقا للامارة ، وان كان من احب الناس الى ، وان هذا لمن احب الناس الى بعده) .(٤)

وبلغت البعوث والسرايا التي قادها زيد بن حارثة سبع غزوات . قال ابن حجر (وقد تتبعت ماذكره اهل المغازي من سرايا زيد بن حارثة فبلغت سبعا)(٥) وذكر ابن حجر زمنها وجهتها .

---

(١) انظر السيرة لابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٧٨ - ٣٨٠) باختصار وتصرف .
(٢) المصدر السابق (٣ ، ٤ / ٣٧٣) .
(٣) المصدر السابق (٣ ، ٤ / ٣٧٥) .
(٤) اخرجه البخاري في المغازي / باب غزوة زيد بن حارثة (٣ / ٥٦) . باب بعث النبي أسامة بن زيد في مرضه الذي توفي فيه (٣ / ٩٦) .
(٥) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٧ / ٤٩٨) .

وأما أسامة فقد قاد عددا من السرايا والبعوث فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخرج البخارى بسنده عن يزيد بن ابى عبيد قال : (سمعت سلمة ابن الاكوع يقول : غزوت مع النبى سبع غزوات ، وخرجت فيما بعث من البعوث تسع غزوات : مرة علينا ابوبكر ، ومرة علينا أسامة) (١) .

وهذا وذاك شهادة من الواقع للقائدين بكفايتهما واهليتهما للقيادة تضاف الى شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى ، وهو ما يؤكد معرفة الرسول القائد بجنوده وقواده وكفاية كل منهم .

(٤) المعرفة بمبادئ الحرب :

على القائد ان يكون ملما بمبادئ الحرب المعروفة ، ليطبقها فى قتاله مع عدوه ، وينبغى ان يكون له رصيد وافر من التجربة القتالية لتمنحه الخبرة والمعرفة . ولذلك أثره الاكيد فى نتيجة المعركة نصرا وهزيمة .

والرسول عليه الصلاة والسلام طبق المبادئ الحربية المعروفة فى زمنه واضاف عليها مبادئ اخرى ما عرفت الا فى زمن قريب .

لقد كان دأب الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى غزواته ارسال الطلائع والعيون ليجمع الاخبار عن عدد العدو وعدده وتحركاته ، والاخذ بمبادئ الحراسة والامن العسكرى والكتمان ، والتورية فى اتجاه الغزوة حتى انه لم يخرج فى غزوة الا ورّى فيها - الا غزوة تبوك لشدة المشقة فيها بسبب طول السفر ، وقلة الزاد ، وشدة الحرارة - وتنظيم القوات ، وتوزيع الألوية والرايات ، واتخاذ الشعار للمقاتلين يعرفون به اذا تكلموا . . الى غير ذلك من مبادئ الحرب ، مما كان له الاثر البالغ فى احراز الانتصارات فى تلك الغزوات .

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى / باب بعث اسامة بن زيد الى الحرقات من جهينة (٣ / ٥٩) .

وحسبى هنا أن اشير الى هذه المبادئ ، وانوه الى أن تفصيلها هذا مع ايراد الامثلة التطبيقية سيرد فى الباب.

أمثلة للقسم الثانى من الصفات:

(١) مشاورة القائد لاتباعه: مشاورة القائد لاتباعه تفيد القائد بالاطلاع على اكبر عدد من الآراء والتجارب، وبذلك تساهم فى اثراء تجربة القائد ، وتساعده فى اتخاذ القرارات السليمة لاحراز النصر.

وتنعكس مشاورة القائد على الاتباع بالثقة فى قيادتهم فيحبونها رغبا وينفذون اوامرها بدقة مما يساهم فى احراز النصر.

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يشاور اصحابه ، ويقبل المشورة منهم ، ويلزم نفسه بما تمخضت به الشورى . والامثلة كثيرة فى بدر وأحد والاحزاب وغيرها، وحسبى هنا أن اشير الى ذلك فقط ، مكتفيا بما ذكرته فى موضوع الشورى (١) ، تجنبا للتكرار.

(٢) اهتمام القائد بالجنود: ان من واجب القائد ان يرعى جنوده ، وأن يسهر على سلامتهم. ولذلك اثره فى تنمية علاقة المحبة والمودة بين القاعدة والقيادة ، مما ينعكس بالتالى على سلوك الجنود ، و درجة ضبطهم وسمعهم وطاعتهم لقيادتهم.

---

(١) انظر ص ١٩٦-٢٠١ من هذه الرسالة.

والرسول القائد عليه الصلاة والسلام كان يرعى جنوده تماما ، فهاهو في بدر يسهر واصحابه نائمون - ليحرسهم ويؤمن سلامتهم ، ويعطيهم فرصة كافية للراحة والاستجمام استعدادا للمعركة التى يقبلون عليها في صباحهم الباكر .

اخرج الامام احمد - واللفظ له - والبزار عن على بن ابى طالب قال : (لقد (١) رأيتنا يوم بدر ومامعنا الا نائم الا رسول الله فانه كان يصلى الى شجرة ويدعو حتى اصبح . . ثم انه اصابنا من الليل طش من مطر ، فانطلقنا تحت الشجرة والحجف (٢) نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله يدعو ربه ويقول : (اللهم انك ان تهلك هذه الفئة لاتعبد) . فلما طلع الفجر نادى : (الصلاة عباد الله) فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله وحرض على القتال) .

المطر والليل يخيم على الرسول القائد عليه الصلاة والسلام وعينه ساهرة حارسة للصحابة . يصلى ويدعو ربه ان يحفظ دينه وجنوده من شر الاعداء . انه مثل رائع لمن يريد ان يتعلم هذا الخلق القويم من الرسول القائد عليه الصلاة والسلام .

(٣) مشاركة القائد جنوده فى مهماتهم : عندما يجد المقاتلون قائدهم بينهم ، يشاركهم مهامهم العسكرية ، ويقف معهم ان اقتضى الامر فى الخطوط

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (١ / ١١٧) . والبزار . انظر كشف الاستار (٢ / ٣١١) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ٧٦) : رواه احمد والبزار ، ورجال احمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة .
قلت : اسناد الامام احمد صحيح ، وهو كما قال الهيثمى .

(٢) الحجف : مفردها حجفة ، وهى الترس الذى يتقى به فى الحرب .
انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ٣٤٥) .

الا مامية من الجبهة يندفع المقاتلون حينها لاداء واجباتهم بحماس ودقة وفعالية وبروح معنوية مرتفعة . وهذا له قيمته فى المعركة.(١)

والرسول القائد عليه الصلاة والسلام كان يشارك الصحابة فى الجهاد ، فها هو يوم الاحزاب يحفر الخندق مع الصحابة ، وينقل التراب مثلهم حتى وارى التراب بطنه (عليه السلام) .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن البراء قال : (٢) (لما كان يوم الاحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

اللهم لولا أنت ماهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا	وثبت الاقدام ان لاقينا
ان الاولى قد بغوا علينا	وان ارادوا فتنة ابينا

قال : ثم يمد صوته بآخرها) .

لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يحمل التراب فقط ، بل كان ينشد مع جنوده ليخفف عنهم من وعثاء العمل والتعب. وكان يشاركهم الجوع كما يشاركهم العمل . وكان ملجأ لهم يرجعون اليه ليذلل الصعاب فى العمل .

أخرج البخارى بسنده عن جابر قال : (٣) (انا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا النبى ، فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق . فقال انا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة ايام لا نذوق ذواقا . فاخذ النبى المعول فضرب فعاد كثيبا اهيل اهيم (٤) فقلت يارسول الله : ائذن لى

---

(١) انظر مذكرات مونتجمرى (٨٤) .
(٢) اخرجه البخارى فى المغازى / باب غزوة الخندق (٣ / ٣٢) .
ومسلم فى الجهاد / باب غزوة الخندق (٣ / ١٤٣٠) .
(٣) اخرجه البخارى فى المغازى / غزوة الخندق (٣ / ٣١) .
(٤) كثيبا اهيل اهيم : اى رملا سائلا . والرمال الهيم : هى التى لاتروى . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٥ / ٢٨٩) .

الى البيت فقلت لامرأتى : رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم شيئا ماكان فى ذلك ضير فعندك شيء . قالت: عندى شعير وعناق . فذبحتُ العناق ، وطحنتُ الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ،ثم جئت النبى صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الاثافى قد كادت ان تنضج ، فقلت : طعيّم لى، فقم انت يارسول الله ورجل او رجلان . قال كم هو ؟ فذكرت له قال : كثير طيب . قال : قل لها لاتنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى اتى . فقال : قوموا فقام المهاجرون والانصار، فلما دخل على امرأته قال : ويحك ، جاء النبى صلى الله علية وسلم بالمهاجرين والانصار ومن معهم . قالت: هل سألك ؟ قلت نعم. فقال : ادخلوا ولاتضاغطوا . فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور اذا اخذ منه ، ويقرب الى اصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا ،وبقى بقية . قال :كلى هذا واهدى ، فان الناس اصابتهم مجاعة) .

وكان الرسول القائد عليه الصلاة والسلام يأبى ان يتميز عن اصحابه . ففى بدر كان مع المسلمين سبعون بعيرا يتعاقبون على ركوبها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وابولبابة وعلى بن ابى طالب يتعاقبون على بعير واحد (١) ، فأرادا ان يؤثراه بالركوب فقال : (ماأنتما باقوى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما) (٢) .

رفض ان يتميز عنهم رغم أنه قائدهم بل ورسولهم عليه الصلاة والسلام ، فما أعظمه من قائد ورسول .

هذه بعض صفات القيادة الراشدة نقتبسها من شخصية الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ،الذى كان له الفضل فى إحراز إنتصارات مذهلة أخضع بها

---

(١) انظر جوامع السيرة لابن حزم (٨٥) . وزاد المعاد لابن القيم (٢ / ٢١٧) .

(٢) اخرجه الامام احمد فى المسند (١ / ٤١١ ، ٤١٨) واللفظ له . والحاكم فى المستدرك (٢ / ٩١ ، ٣ / ٢٠) وصححه . والبزار . انظر كشف الاستار (٢ / ٣١٠) . كلهم يرويه من طريق عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ٦٩) : فيه عاصم بن بهدلة ، وحديثه حسن ، وبقية رجال احمد رجال الصحيح . قلت : الحديث حسن لاجل عاصم فهو صدوق . انظر التقريب (١ / ٣٨٣) وبقية رجال الامام احمد من رجال مسلم. وعاصم اخرج له الشيخان مقرونا .

جزيرة العرب للاسلام . وهكذا فان للقائد دوره الرئيسى فى احراز الانتصارات وتجنب الهزائم والنكبات من خلال مايتمتع به من الصفات.

ان القائد يؤثر على المعركة ،تأثيرا مباشرا وفعالا ،بل هو الذى يحرك المعركة ويقودها ،فاذا اتصف القائد بالكفاية والاهلية فان هذا ينعكس اثره المباشر على المعركة بشكل ايجابى يساهم فى احراز النصر، واذا لم يكن اهلا للقيادة فان هذا سيؤثر على المعركة بشكل سلبى يؤدى الى الهزيمة.

السبب الثاني

الاعداد والتعبئة العامة

تمهيد

شرع الله سبحانه وتعالى اعداد القوة و سيلة لارهاب العد و وترويعه للظفر به فى المعركة .

يقول سبحانه وتعالى : (واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء فى سبيل الله يُوفَّ اليكم وانتم لاتظلمون) (١) .

الخطاب فى الآية لعموم المؤمنين لما أن المأموربه من وظائف الكل ، وهو بصيغة الامر (اعدوا) ليفيد وجوب الاعداد وانه فريضة ملازمة للجهاد . والمراد بقوله (لهم) اى الكفار ، ومعنى قوله (مااستطعتم) اى استفراغ الجهد وبذل مافى الوسع من اعداد القوة .

قال المفسرون فى معنى القوة هنا : كل مايتقوى به فى الحرب كائنا ماكان .

وقال ابن عباس : القوة هاهنا السلاح والقسّى .

والرباط فى قوله (ومن رباط الخيل) اسم للخيل التى ترتبط فى سبيل الله . وعطفها على القوة مع كونها من جملتها هو من باب عطف الخاص على العام ايذانا بفضلها على بقية افرادها . وكانت الخيل فى زمن نزول القرآن ، اى سلاح الفرسان بمثابة السلاح الضارب فى المعركة ، فامر الله باعداده ، وخصه بالذكر ليرشد المؤمنين الى اعداد اعتى واشد وا قوى سلاح كل بحسب زمنه ، فاذا كان الصاروخ والقنبلة الذرية اقوى سلاح فالواجب على المسلمين اعداد ذلك وتحضيره اليوم .

---

(١) الانفال (٦٠) .

ومعنى قوله (ترهبون به عدو الله وعدوكم) اى تخيفون اعداءكم وهم قريش ، (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) هم اليهود والمنافقون بالمدينة والروم واهل فارس وسائر ملل الكفار مما لا يعلمون الى يوم القيامة . فقد جعل الله سبحانه اعداد القوة سبيلا لمنع عدوان العدو على المسلم وللظفر بهم فى المعركة . فالغاية من الاعداد اذاً هى ارهاب العدو للظفر به واحراز النصر عليه ساعة المعركة .

وهذا يدلنا على وجوب الاعداد فى السلم والحرب، وان ذلك سبب للنصر والظفر .

وقوله سبحانه (وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله . .) حث على الانفاق لاعداد العتاد (١) والسلاح ومايلزم للانفاق العسكرى .

هذه الآية الكريمة اجملت امورا كثيرة ، فى الفاظ قليلة ويسيرة ، واذا دققت النظر تدرك سعة وشمول ماتقتضيه تلك الالفاظ اليسيرة .

فلفظة (واعدوا) تعنى الاعداد المادى بكل وسائله وانواعه والاسباب المفضية اليه من زراعة وتجارة وصناعة وانشطة بشرية اخرى . ولفظة (مااستطعتم) تفيد بذل غاية ما فى الوسع كما اشرت سابقا . ولفظ (قوة) نكرة ، والنكرة تعم ، مما يدل على ان المراد اعداد غاية مافى الوسع من جميع انواع واسباب القوة .

يقول د / محمد محمود حجازى فى تفسيره : (والآية الكريمة على اختصارها جمعت انواع الاعداد للجيوش التى تتلاءم مع كل عصر وزمن (مااستطعتم من قوة) . فالاعداد الادبى والادارى ، والفنى ، والمالى ، مع الحث على ذلك كله بالثواب الجزيل والعطاء الكثير كل ذلك فى الآية الشريفة) (٢) .

---

(١) انظر المعانى السابقة فى التفاسير الآتية : القرطبى (٨ / ٣٥ - ٤٧) . ابى السعود (٤ / ٣٢) . فتح القدير للشوكانى (٢ / ٣٢٠ - ٣٢١) النسفى (٢ / ١١٠) .

(٢) المجلد الاول الجزء العاشر ص ١٣ دار الجيل . الطبعة السادسة (١٣٨٩ - ١٩٦٩) مطبعة الاستقلال الكبرى / القاهرة .

من هنا فان المسلمين مأمورون باعداد كل مافى وسعهم من وسائل القوة وتعبئة كل طاقات الامة وحشدها وتهيئتها لحرب اجماعية ضد العدو. وهذا المبدأ فى الحرب هو من المبادىء التى ادركها اعداؤنا اخيرا لان الحروب الحديثة فرضت على اهلها تعبئة كل مافى وسعهم من اسباب القوة المعنوية والمادية . يقول لودندروف-وهو قائد عسكرى : (ان الحرب الحديثة لم تبق حرب جيوش وقوى عسكرية فقط ، وانما هى حرب جماعية تقوم على حرب الأمم ضد الامم ، ولهذا يجب ان تضع الامة كل قواها العقلية والادبية والمادية فى خدمة الحرب، وان تكون هذه القوة مخصصة للحرب التالية)(١) .

من هنا ندرك سر الأمر باعداد مافى الوسع لكل انواع القوة .

ولااريد ان افصل فى مبدأ الحرب الاجماعية ، واجمع لها من الشواهد ، وانما جاء ذلك فى سياق ماافادته الآية التى بين يدى ، والذى اود بيانه هو ان الله سبحانه امر باعداد كل مافى الوسع ممايتقى به فى الحرب، ولذا فساتناول بعض انواع القوى الواجب اعدادها للمعركة مع بيان اثرها فى احراز النصر وهى :-

اولا : اعداد المقاتلين الأكفاء .

ثانيا : اعداد السلاح والعتاد .

ثالثا : اعداد المال للانفاق العسكرى .

---

(١) انظر الرسول القائد / اللواء الركن محمود شيت خطاب(٤٠٧) .

اولا اعداد المقاتلين الأكفـــاء

المعركة عبارة عن مواجهة عسكرية بين جيشين من المقاتلين ، على رأس كل منهما قيادة ، ومن وراء كل منهما أمة، لتحقيق اهداف خاصة لكل منهما .

والمقاتلون هم الذين يخوضون غمار المعركة ، وينفذون الخطط والتعليمات العسكرية ، ويصمدون فى وجه زحف العدو ، ويواجهونه بزحف مضاد لإبادته وهزيمته فى المعركة .

ولا يمكن لمعركة عسكرية ان تكون بدون مقاتلين ، ولا يمكن ان تقاتل امـــة بدون جيش.

من هذه المقدمة البسيطة التى هى من بديهيات الحرب - نعلم أن الجنود هم ركن المعركة ، وهم اداة القتال ، وعدة النصر . وللجنود قيمتهم فى احـــراز النصر بقدر قيمتهم فى المعركة ، فاذا كانوا ركنا للمعركة فهم بلا شك من اركـــان النصر واسبابه المهمـــة .

ويتوقف مدى احراز النصر بهم على مدى كفايتهم - فضلا عن مدى استفـادة القيادة من طاقاتهم وجهادهم - وذلك لان العبرة ليست بمجرد العدد ، وانما العبرة بما فى نفوسهم من ايمان ، وما لديهم من كفاية وتدريب على القتال .

وعلى ضوء ماتقدم أُبيّن المراد باعداد المقاتلين الاكفاء كما يأتى :

اولا : الاعداد الكمى : اى استنفار وجمع وتعبئة المجاهدين من اجل المعركة . وهو ماهتم به القرآن الكريم ، ودعت اليه السنة المطهرة . وقد مر معنا فـــى موضوع (فضل الجهاد) جملة من توجيهات الكتاب والسنة التى تحث المسلميـــن على الجهاد وترغبهم فيه ، من خلال بيان ماأعده الله للمجاهدين والشهداء مـن عظيم الاجر والثواب . وهذا يساهم فى استنفار اكبر عدد من المؤمنين للمعركـــة عن ايمان واقتناع.

ويحسن فى هذا المقام التذكير بقوله سبحانه وتعالى : (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)[1] امر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالنفير لقتال اعدائهم على أي حال كانوا (خفافا وثقالا)، وذكر المفسرون فى معناهما عشرة اقوال متقاربة[2]، اذكر منها قولهم : ١) شبانا وشيبا ، ٢) فى اليسر والعسر ، ٣) فى الفراغ والشغل ٤) مع الكسل والنشاط ، ٥) رجالا وركبانا .

والامر بالخروج للقتال على كل حال هو بمثابة الاستنفار العام للجهاد . من هذا التوجيه الربانى ندرك ضرورة الاعداد البشرى للمعركة باستنفار جميع المؤمنين القادرين على القتال لكى يكونوا جنودا فى المعركة .

ويختلف مستوى النفير باعتبار فرضية الجهاد[3] كما اسلفت فى موضوع حكم الجهاد :

اولا : النفير العام : وذلك فى حال ما اذا غُزى بلد من بلاد المسلمين فان الجهاد يكون فرض عين على كل مسلم ومسلمة فى هذا البلد وفرض كفاية على سائر المسلمين ، فان لم يكف أهل تلك البلد فانه يكون فرض عين على من يليهم من بلاد المسلمين ، فان لم يكفوا فهو فرض عين على المسلمين فى جميع الاقطار والبلدان .

ثانيا : النفير الخاص : وذلك فى حال ما اذا كان الجهاد لحماية نشر الدعوة ، خارج بلاد المسلمين ، حيث يكون الجهاد فرض كفاية يسقط عن عامة المسلمين اذا قام به من يكفى منهم .

من هذا يتبين ان كل مسلم جندى فى الجيش الاسلامى ، وان المجتمع الاسلامى يكون بأسره فى الجيش الاسلامى - اذا دعت الضرورة - ، كما ان كل مسلم

---

(١) التوبة (٤١) .
(٢) انظر احكام القرآن لابن العربى (٢ / ٩٥٤) . وفتح القدير للشوكانى (٢ / ٣٦٢ ، ٣٦٣) .
(٣) انظر صفحة (٢٢) من هذا البحث .

يكون مهيأ للجندية ، جاهزا للقتال، مستعدا له اذا امره الامام، او اذا لم تحصل الكفاية من المقاتلين .

بهذا فانك لاتجد مبدءا فى الارض يستنفر معتنقيه للقتال كاستنفار الاسلام للمؤمنين ، مع التأكيد هنا على ان صفة استنفار الاسلام للمؤمنين لاتضاهيها صفة اخرى للاستنفار، وذلك لان الامر بالنفير والخروج للجهاد فى اصله امر ربانى وليس بشريا ، لان الله سبحانه هو الذى شرعه بالكتاب والسنة، كما انه يحمل صفة الحكم الشرعى الذى لايمكن التهرب منه باعذار غير مبيحة لانه ان لم يحاسب قضاء فسيحاسب ديانة، ومن ثم فان الوازع للفعل والمانع من الترك ليس له مثيل ، حيث ان الحكم الوضعى حكم دنيوى من سلطة دنيوية يمكن التحايل عليها . كماأن الثواب والجزاء المترتب على الامر هو امر خاص بشريعة الله ودينه .

لذلك فان المسلم يلبى داعى النفير برضى وعن طيب خاطر رغبة فيما عند الله .

وسيأتى* أن المهاجرين والانصار خرجوا جميعا فى غزوة الفتح ولم يتخلف منهم احد ، (١) وفى غزوة تبوك استنفر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين فنفر معه ثلاثون الفا ، (٢) ولما لم يجد بعض المسلمين وسيلة تحملهم الى المعركة حزنوا حزنا شديدا على عدم تمكنهم من الخروج مع المسلمين ،ونزل فيهم قوله سبحانه وتعالى : (ليس على الضعفاء ولاعلى المرضي ولاعلى الذين لايجدون ماينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم* ولاعلى الذين اذاماأتوك لتحملهم قلت لا اجد ماأحملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ماينفقون) . (٣)

---

(١) انظر صفحة (٣٩٩) من هذه الرسالة.
(٢) انظر المغازى (٣/ ٩٩٦) تاليف محمد بن عمر بن واقد (الواقدى) عالم الكتب بيروت
(٣) التوبة (٩١ ، ٩٢) .
* انظر موضوع التخطيط والتنظيم / صفحة ٣٩٨ من هذه الرسالة .

فقد نقل لنا القرآن حزنهم الذى بلغ بهم حد البكاء ، بل وفيضان الدموع تحرقا ولهفة للجهاد فى سبيل الله وحزنا على عدم توفر مايركبون عليه .

ولم يتخلف من المسلمين الصادقين فى هذه الغزوة سوى ثلاثة نفر هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن امية الواقفيّ . واعترف هؤلاء الثلاثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم تخلفوا بغير عذر ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامهم ، وامتثل المسلمون لامر رسول الله فقاطعوهم خمسين ليلة واعتزلتهم نساؤهم (١) حتى تاب الله عليهم من فوق سبع سماوات حيث نزل فيهم قوله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم) (٢) .

ومقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين للثلاثة الذين خُلّفوا وفضح الله سبحانه وتعالى المنافقين فى سورة التوبة - الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وتعذروا باعذار واهية كل ذلك مما لا يسعنى تفصيله فى هذا المقام يرشد الى مدى تشديد الاسلام على استنفار المقاتلين ، ويؤكد على جدية وصرامة امر الاسلام بالنفير ، وذلك من اجل حشد اكبر قدر من الطاقات والقدرات القتالية للمعركة .

وتأكيدا على وجوب النفير اذا اعلن الاستنفار للمعركة فقد حذر الله سبحانه المؤمنين من التثاقل والقعود عن الجهاد ، وبين ان مايتثاقلون بسببه من متاع الحياة الدنيا وزينتها لا يذكر بجانب ماأعده لهم من المتاع فى الحياة الآخرة ، وبين لهم أن التخلف عن الجهاد يورث المذلة والهوان من الاعداء ، ويستوجب

---

(١) انظر الحديث الذى يفصل القصة فى صحيح البخارى / كتاب المغازى غزوة تبوك / باب حديث كعب بن مالك (٣ / ٨٦) .

(٢) التوبة (١١٨) .

حلول العذاب من الله ، حيث اخبر عن ذلك بقوله : (يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل * الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير)(١) .

ولا شك ان استنفار كافة القوى البشرية - العسكرية والمدنية - وحشدها يعتبر من ضرورات المعركة ومن الاسباب الاولية للنصر ، لان الرجال - جنودا وقادة ، ومن ورائهم فئات الامة كافة - هم الذين يخوضون غمار المعركة بارواحهم واجسادهم وعقولهم لكى يحققوا النصر .

ولا شك ان كثرة الاعداء وتعددهم وتألبهم جميعا على الامة الاسلامية يستوجب من الامة ان تستنفر كل طاقاتها - كما امر الله سبحانه - ، وان تستنفد كل مذخورها لحشده فى وجه اعدائها ، سيما ونحن نرى اليوم ان الاعداء المختلفين ينسون او يتناسون عداواتهم الخاصة ليجتمعوا جميعا فى وجه المسلمين . وفى اعتقادى ان اهم مايشغل العالم الشيوعى والعالم الرأسمالى اليوم هو كيفية تكبيل العالم الاسلامى بالقيود وتفتيته وتأصيل الانقسام بين شعوبه ليسهل بذلك ابتلاعه . ولا شك ان كلتا الكتلتين تخاف من ان يستيقظ العالم الاسلامى فيحطم تلك القيود والاغلال ، ويتسلم زمام البشرية من جديد . وانى لواثق فى ان الاسلام هو المرشح لان ينقذ البشرية ويقودها الى دروب الهداية والسعادة . ولهذه الثقة مايؤكدها من الادلة النقلية والعقلية والواقعية ، والتى ليس هنا مجال بسطها .

ثانيا : الاعداد الكيفى (النوعى) : كما ان المعركة تقتضى حشد اكبر عدد من المقاتلين فانها تقتضى كذلك التركيز على نوعية المقاتلين ، لان العدد وحده لا يكسب الجيش التأثير والفاعلية اذا لم يكن معدا اعدادا سليما للمعركة ، بل وقد يشكل عبئا عسكريا فى المعركة ، وقد تأتى الهزيمة بسببهم لخصال او اخلاق ذميمة فيهم

---

(١) التوبة (٣٨ ، ٣٩) .

او لعدم كفايتهم وقدرتهم على القتال .

والاعداد النوعى ينبغى ان يشمل جميع جوانب شخصية المقاتل :العقلية والروحية والجسمية والعسكرية . واهتم الاسلام بذلك أيّما اهتمام ، ولا يسعنى فى هذا البحث تفصيل كل ذلك وانما سأكتفى بالايجاز فى بعضها او الاحالة الى مواضع اخرى فى هذا البحث حيث سبق لى وأن تعرضت فيها لبعض جوانب شخصية المجاهد ، وسأفصل جانب الاعداد والتدريب العسكرى للمقاتل فقط .

(١) الاعداد الايمانى : الاعداد الايمانى للمقاتل أهم جوانب الاعداد على الاطلاق ، وذلك لان الايمان والعقيدة الاسلامية تجعل المقاتل يبذل روحه وماله ونفسه رخيصة ابتغاء مرضات الله ، ورغبة فيما عنده من ثواب ، واملا فى الفوز بالشهادة . وتجعله يؤمن بأن النصر من عندالله ، وان الآجال بيدالله ، وأن مايصيبه فهو بقدر الله .

وسلاح الايمان والعقيدة الذى يتسلح به المقاتل المؤمن سلاح خطير لاتقوى على مواجهته اسلحة البشر ، ولاتقف امامه قوة من الناس ، ويجعل من المقاتلين جيشا لايقهر .

ولقد استعرضت أثر الايمان فى اعداد المقاتلين الاكفاء ، واحراز النصر على الاعداء فى فصل (الايمان والعقيدة البناءة) فيستحسن الرجوع اليه للاطلاع على تفصيل ماأجملته هنا .

(٢) الاعداد الخلقى للمقاتلين : وثانى جوانب الاعداد النوعى للمقاتل الاهتمام بالجانب الخلقى فى شخصيته ، وذلك بتحليته بالاخلاق الحميدة وتخليته من الاخلاق الذميمة .

ومعلوم ان المسلم يتحلى بالاخلاق الاساسية من كرم وايثار وصدق واخلاص ووفاء . . ، فينبغى على الجندى المسلم - من باب اولى - ان يأخذ بالحظ الاوفر من هذه الصفات .

كما وينبغى له ان يتحلى باخلاق الجهاد الخاصة التى تقتضيها المعركة. لذا فقد حث القرآن المجاهدين على التحلى بالصبر والثبات والذكر وطاعة القائد وعدم الاختلاف فى المعركة فقال سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين)(١).

وحثهم على التحلى بالتقوى فقال سبحانه : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون)(٢)، وحذرهم من العجب والغرور فقال سبحانه (ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين)(٣).

من هذه الصفات التى ذكرها القران وامثالها ممالم اذكرها خوف الاطالة يتبين ان القرآن الكريم يأمر باعداد المجاهدين اعدادا خلقيا يمكنهم من خوض المعركة واحراز النصر.

(٣) الإعداد المعنوى : وذلك بالعمل على رفع معنويات المقاتل لكى يقدم على أداء مهامه القتالية بشجاعة وتحفز، وكذلك بحمايته من اسباب الحرب النفسية التى يثيرها العدو والتى تستهدف تحطيم معنوياته القتالية.

والاعداد المعنوى هو ثمرة للاعداد الايمانى والخلقى ،لان الاعداد الايمانى يسمو بالمقاتل الى اعلى درجات التحفز للقتال كما مر سابقا ، والايمان مستقره القلب ومن ثم فان كل الاحاسيس والمشاعر والعواطف القلبية تكون مشبعة بالايمان ، فالايمان يكون بذلك الغذاء الرئيس الذى تتغذى عليه روح المقاتل وتستمد منه معانى العزة والقوة والثبات.

---

(١) الأنفال (٤٥، ٤٦).
(٢) آل عمران (١٢٣).
(٣) التوبة ٢٥).

والاعداد الخلقى يساهم . كذلك فى اعداد معنويات المقاتل ، من خلال غرس مبادئ الشجاعة والتضحية فى نفسه ، وتعليمه الاعتماد على الله وحده وعدم الخوف مماسواه . . ، وكذلك تدريبه على مواجهة الشائعات والحرب النفسية التى يبثها العدو.

واكتفى هنا بهذا الايجاز مخافة التكرار. ولمزيد الاطلاع يمكن مراجعة مباحث الايمان والعقيدة البناءة ، والشجاعة ، والحرب النفسية .

(٤) الاعداد العلمى : ينبغى ان يعدّ المقاتل المؤمن اعدادا فكريا متميزا ينهل فيه من علوم الكتاب والسنة ليكون المقاتل المؤمن عالما بدينه واحكام شريعته ، خاصة احكام الجهاد .

وينبغى لهم دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وسراياه وبعوثه ، وتاريخ جهاد الصحابة والتابعين للاطلاع على دروس فى العسكرية الاسلامية والاستفادة من دروس النصر والهزيمة فى التاريخ الاسلامى .

وينبغى لهم اخذ قدر مناسب من الثقافة المعاصرة كى يستفيدوا من معطيات هذا العصر ونتاجه ومعارفه وعلومه فى جهادهم لاعدائهم .

وينبغى الاهتمام بالدراسات العسكرية كلها القديم منها والجديد للاطلاع على تجارب الامم واساليب القتال وعلوم وفنون الحرب . كما وينبغى للمقاتل ان يأخذ بنصيب اوفر فى الجانب العسكرى الذى يتخصص فيه ليكتسب بذلك مهارة خاصة تمكنه من اداء مهامه القتاليه ، والتفوق فى ذلك ما امكن .

(٥) الاعداد العسكرى : واقصد به تدريب الجندى على القتال وفنونه واساليبه ومايلزم ذلك من تدريب بدنى .

وقد اهتم الاسلام بذلك ايما اهتمام . ولما يلابس هذا الموضوع من غموض لدى كثير من الناس .. لذا سأحرص على تفصيل ذلك ، مع ضرب الامثلة العملية من جيل الصحابة رضوان الله عليهم لنطلع على مدى الكفاءة العسكرية لديهم لتتضح الصورة ، وتحصل بهم القدوة .

لقد امتدح الرسول صلى الله عليه وسلم الرجال الاقوياء ، وفضلهم على الضعفاء ليرشد المؤمنين الى تحصيل القوة بالتدريب والممارسة والتمرين .

اخرج الامام مسلم بسنده عن ابى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير . . . الحديث)[1] .

وانما فضل الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن القوي لما يحصل من الانتفاع بالقوة فى شئون الفرد خاصة والجماعة عامة . والقوة مفضلة بكل انواعها سواء العقلية او القلبية او البدنية .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشجع المقاتلين على التنافس فيما يزيد من قوتهم ولياقتهم البدنية من خلال السباق فى العدو .

اخرج الامام مسلم بسنده عن اياس بن سلمة قال حدثنى ابى قال : (قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال فبينما نحن نسير قال وكان رجل من الانصار لايسبق شدّا[3] ، قال فجعل يقول : الا مسابق الى المدينة هل من مسابق ؟ فجعل يعيد ذلك قال : فلما سمعت كلامه قلت : اما تكرم كريما ولا تهاب شريفا قال : لا ، الا ان يكون رسول الله . قال قلت : يا رسول الله بابى وامى ذرنى فلأسابق الرجل ، قال : ان شئت ، قال قلت : اذهب اليك

---

(١) اخرجه مسلم فى كتاب القدر / باب فى الامر بالقوة وترك العجز (٤ / ٢٠٥٢) .
(٢) انظر الحديث بتمامه فى صحيح مسلم / كتاب الجهاد والسير / باب غزوة ذى قرد (٣ / ١٤٣٣ - ١٤٤١) .
(٣) لايسبق شدا : يعنى عَدْوًا على الرجلين . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٨٣) .

وثنيت رجلى فطفرت[1] فعدوت، قال : فربطت عليه شرفا او شرفين استبقى نفسى[2]، ثم عدوت فى اثره فربطت عليه شرفا اوشرفين ،ثم انى رفعت حتى الحقه قال فاصكه بين كتفيه ، قال قلت: قد سبقت والله، قال : انا اظن . قال فسبقته الى المدينة. . الحديث) .

واباح الرسول صلى الله عليه وسلم السباق بعوض فيما يكون عدة للجهاد من الخيل والابل والرمى بالسهام. والترمذى

اخرج الامام ابوداود-واللفظ له- والنسائى واحمد وغيرهم عن ابى هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] : (لا سبق الا فى خف او حافر أو نصل) . والمعنى لا يحل اخذ المال بالمسابقة الا فى حال السباق بذى خف كالبعير اوبذى حافر كالخيل ،او بالرمى بالسهام.

وخص الرسول صلى الله عليه وسلم هذه بالذكر لانها عدة لقتال العدو، ويدخل فى معناها كل ماتحصل به المنفعة فى القتال من وسائل القوة الحديثة، كل عصر بحسبه .

نقل السيوطى عن الخطابى فى معنى قوله (لا سبق) قوله(الصحيح رواية الفتح ،اى لا يحل اخذ المال بالمسابقة ا لا فى هذه الثلاث وهى السهام والخيل والابل ، وقد الحق بها مابمعناها من آلة الحرب لان فى الجُعل عليها ترغيبا فى الجهاد وتحريضا عليه)[4] .

---

(١) فطفرت : اى وثبت وقفزت . انظر المصدر السابق نفس المواضع.

(٢) فربطت عليه شرفا او شرفين استبقى نفسى : ربطت ، حبست نفسى عن الجرى الشديد . والشرف : ماارتفع من الارض. وقوله : استبقى نفسى : بفتح الفاء اى احفظ نفسى من الانقطاع بسبب التعب. انظر المصدر السابق، نفس المواضع . وانظر غريب الحديث لابن االاثير (٢ / ٤٦٢) .

(٣) اخرجه ابوداود فى الجهاد / باب فى السبق (٣ / ٢٩) . والنسائى فى الخيل باب السبق (٦ / ٢٢٦) . والترمذى فى الجهاد / باب ماجاء فى الرهان والسبق (٤ / ٢٠٥) وحسنه . واخرجه الامام احمد فى المسند (٢ / ٤٧٤) . قال ابن حجر فى التلخيص(٤ / ١٦١) . رواه احمد واصحاب السنن والشافعى والحاكم من طرق ، وصححه ابن القطان وابن دقيق العيد ، واعلّ الدارقطنى بعضها بالوقف. قلت: الحديث صحيح ، ورجاله ثقات.

(٤) شرح السيوطى على سنن النسائى (٦ / ٢٢٦ ، ٢٢٧) . طبعة دار الفكر بيروت /الطبعة الاولى (١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠م) .

وبالتسابق فى هذه الامور يتمكن المقاتل من التدرب على الوسائل القتالية ، بل ويتمكن من التجويد والتفوق فى استخدامها للمعركة . وبالمسابقة تحصل المنافسة بين المتسابقين لكى يتفوق كل منهم فى قيادته او استخدامه وسيلة القتال .

واباحة الرسول صلى الله عليه وسلم اخذ المال فى هذه الامور هو تشجيع للمسلمين على ارتيادها والتنافس والتفوق فيها . وهذا كله يشير الى اهتمام الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بتدريب المقاتلين على وسائل القتال .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فريقا من بنى اسلم يرمون بالسهام فشجعهم على الرماية وشاركهم بنفسه ليشعرهم باهمية تعلم الرمى والتدرب عليه .

اخرج البخارى بسنده عن سلمة بن الاكوع قال : (مر النبى صلى الله عليه (١) وسلم على نفر من اسلم ينتضلون ، (٢) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ارموا بنى اسماعيل ، فان اباكم كان راميا ارموا وانا مع بنى فلان . قال فامسك احد الفريقين بايديهم فقال رسول الله : مالكم لا ترمون ؟ قالوا كيف نرمى وانت معهم ؟ فقال النبى : ارموا فانا معكم كلكم) .

ولشدة اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بتدريب المقاتلين على استعمال السلاح فقد سمح للحبشة باللعب بالحراب ، وحشهم عليه .

وكان الحبشة وقتها يلعبون فى المسجد ، فسمح الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بذلك فى مسجده ليعلم المسلمون ان هذا من صميم الدين ، وان التدرب على القتال واستعمال السلاح هو من صميم رسالة المسجد .

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب التحريض على الرمى (٢ / ١٥٣) .
(٢) ينتضلون : اى يترامون . والتناضل الترامى للسبق . انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٩١) .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن عائشة قالت: (١) (والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي . والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . يسترني بردائه ، لكي انظر الى لعبهم ثم يقوم من اجلي حتى اكون انا التي انصرف ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو) .

قال النووي : (فيه جواز اللعب بالسلاح ونحوه من آلات الحرب في المسجد ويلتحق به مافي معناه من الاسباب المعينة على الجهاد وانواع البر) (٢) .

ولعب الحبشة بالحراب كان في يوم العيد كما جاء في لفظ البخاري ، ولفظ آخر لمسلم من طريق عائشة ام المؤمنين كذلك (٣) . فاباح الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ذلك لكي يتميز المسلمون في اعيادهم ومناسباتهم عموما بالروح الجهادية ، وليستفيدوا منها في التدريب العسكري وتنمية القدرات القتالية للمسلمين .

ولما اراد عمر بن الخطاب منع الحبشة من فعل ذلك - ظنا منه بانه من اللهو غير المباح ، او انه لا يليق بالمسجد - نهاه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن ابي هريرة قال (٤) : (بينما الحبشة يلعبون عند رسول الله بحرابهم اذ دخل عمر بن الخطاب فاهوى الى الحصباء يحصبهم بها فقال له رسول الله : دعهم ياعمر) .

---

(١) اخرجه البخاري في الجهاد / باب الدرق (٢ / ١٥٤) .
ومسلم في كتاب صلاة العيدين / باب الرخصة في اللعب يوم العيد (٢ / ٦٠٩) .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ١٨٤) .
(٣) سبق في هامش (١) . نفس المواضع .
(٤) اخرجه البخاري في الجهاد / باب اللهو بالحراب ونحوها (٢ / ١٥٣ ، ١٥٤) .
ومسلم في كتاب صلاة العيدين / باب الرخصة في اللعب يوم العيد (٢ / ٦١٠) .

ونبه الرسول صلى الله عليه وسلم الى ضرورة التدريب المتواصل على استخدام السلاح وعدم ترك ذلك حتى فى اوقات السلم .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى عن عقبة بن عامر قال ، سمعت رسول الله يقول :(١) (ستفتح عليكم ارضون ويكفيكم الله ، فلا يعجز احدكم أن يلهو بأسهمه) .

واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى ممارسة الرمى بالسهام -وهو فن قتالى- فى وقت يكفى الله المسلمين فيه القتال ، فان دعوته الى ذلك وقت الحرب اشد من باب اولى .

وقد كان الصحابى الجليل عقبة بن عامر راوى الحديث السابق يحرص على الرمى بالسهام حتى بعد أن اصبح شيخا - رغم أن ذلك يشق عليه لكبر سنه - امتثالا لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخوفا من عصيانه بترك الرمى .

اخرج الامام مسلم بسنده عن عبد الرحمن بن شماسة ان فُقَيْماً اللخمىّ قال لعقبة بن عامر :(٢) (تختلف بين هذين الغرضين ، وانت كبير يشق عليك . قال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله لم اعانه . قال الحارث : فقلت لابن شماسة : وماذاك قال : انه قال : من علم الرمى ثم تركه فليس منا أوقد عصى) .

قال النووى : (هذا تشديد عظيم فى نسيان الرمى بعد علمه ، وهو مكروه كراهة شديدة لمن تركه بلا عذر)(٣) .

وتشديد الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك يدل على ضرورة تعلم المسلم الرمى وعدم نسيان المتعلم له لكى يكون المسلم معدا اعدادا عسكريا يجعله جاهزا للقتال فى كل وقت .

---

(١) اخرجه مسلم فى كتاب الامارة/ باب فضل الرمى والحث عليه ، وذم من علمه ثم نسيه (٣/ ١٥٢٢) .
والترمذى فى التفسير/ باب " ومن سورة الانفال" (٥/ ٢٧٠) .

(٢) اخرجه مسلم فى الامارة/باب فضل الرمى والحث عليه ، وذم من علمه ثم نسيه (٣/ ١٥٢٢ ، ١٥٢٣) .

(٣) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٣/ ٦٥) .

مما سبق تبين حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلم المسلمين لفن القتال . ومعلوم أن ذلك كله مسوق فى شأن المسلمين عامة لكى يكونوا على استعداد للقتال ، وهو مايعنى ضرورة اعدادهم عامة وجنود الجيش الاسلامى خاصة ، اعدادا عسكريا كافيا بالتعليم والتدريب على فنون واساليب القتال .

من ذلك كله يتضح اعداد الاسلام للمقاتل المسلم اعدادا يشمل كل جوانب شخصيته ، ليخرج بذلك مقاتلا قوى العقيدة والايمان ، شجاع القلب ثابت الجنان ، ناصع العقل والفكر ، قوى الجسم والبنيان .

وبهذا الاعداد الشامل للمقاتل يمكن تعبئة وتفجير كل طاقاته العقلية والروحية والجسمانية ليقاتل بعد ذلك بقلبه وعقله وفكره وروحه وجسمه .

ان اهم ماينبغى ان يراعى فى اعداد المقاتل الاعداد الايمانى ليصبح مقاتلا مؤمنا ، ينطلق من عقيدة راسخة تحفزه على القتال والاستشهاد فى سبيل الله . والعقيدة كفيلة بأن تجعل من المجاهد انسانا فريدا فى خلقه وروحه ومعنوياته وشجاعته .

بهذا النوع من الاعداد الخلقى تتحقق الكفاءة فى المقاتلين . وبأمثال هؤلاء المقاتلين تتحقق الانتصارات .

ومن يريد نصرا بأيدى مقاتلين مجردين من الايمان والعقيدة ، او مهزومين فى العقل والفكر ، او متجردين من الخلق والدين فلن يجد الا الذل والهزيمة .

ثانيا : اعداد السلاح والعتـــــــاد

لقد مر بنا قوله سبحانه وتعالى : (واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومـن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ـ الآية) .

ومعلوم ان السلاح والعتاد من اسباب القوة المأمور بها فى الآية ، اذ ان ذلك مما يتقوى به فى الحرب ، بل ممالا يستغنى عنه .

وخصت الآية الخيل بالذكر لما لها من الاهمية القصوى فى المعركة باعتبارها السلاح الضارب وقت نزول الآية . وقياسا عليه فان كل مايمكن اعداده وارتباطـه فى سبيل الله من اسباب القوة المادية من سلاح وعتـاد وطائرات وبوارج ومدرعات هو واجب فى حق المسلمين ، وهو من اسباب النصر على الاعداء ، ومن اسباب فرض هيبة المسلمين عليهم .

والذى يبدو لى من الآية الكريمة أن المأمور به اكثر من جمع السلاح وشرائه وتخزينه للمعركة . لان التعبير بقوله (واعدوا) يرشد الى مابعد ذلك ، حيث تصنيع السلاح وانتاجه بايدى المسلمين ، وذلك لان الاعداد يحتاج الى تفكير وتأمـــل ودقة وحسن تدبير ، وينبىء كذلك عن ضرورة انشاء المسلمين لما يحتاجونه بانفسهـم . هذا مايوحى به قوله (واعدوا) .

ولعل قوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) يؤيد المعنى السـابـق اذ جعل الله الغاية من الاعداد ارهاب العدو . وشراء السلاح وتخزينه ـ سيمـا فى أيامنا هذه ـ لاتحصل منه الرهبة للعدو بقدر مايحصل ذلك من انتاج السـلاح الوطنى . وذلك لان شراء السلاح من غيرنا ـ وهو فى الحقيقة عدو لنا ، لاننـا لانشترى غالبا الا من الكفار ـ يعنى اننا عالة على غيرنا ، ولم نعتمد على ذاتنـا مما يعرض امننا للخطر ، اذ قد تمتنع الدولة البائعة للسلاح من بيعه او بيع قطـع غياره ، ويمكن للعدو كذلك من خلال عملية البيع والشراء اكتشاف مالدى المسلميـن

من اسلحة . وسرية الاسلحة من الامور المهمة فى المعركة ،اذ بمفاجأة العدو بسلاح لا يعرفه يمكن القضاء عليه . وهذا لا يتحقق بكما له الا اذا انتج بايدى المسلمين وبقى فى طى الكتمان . وبهذا تتحقق الرهبة فى نفوس الاعداء ، وهو مايؤيد ان معنى الاعداد تصنيع السلاح وليس مجرد شرائه.(١)

وارشد القرآن الكريم المؤمنين إلى الحديد باعتباره المادة الاساسية الاولى لصناعة الاسلحة والادوات والآليات الحربية المختلفة على مر العصور ونبه الى انه من عناصر القوة والشدة . فقال سبحانه وتعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز)(٢) .

قال ابو السعود فى معنى قوله (فيه بأس شديد) : لان آلات الحرب انما تتخذ منه ومعنى قوله (و منافع للناس) اذ مامن صنعة الا والحديد او مايعمل بالحديد آلتها.(٣)

ارشدت الآية الى الامور المستفادة من الحديد وهى :-

اولا : الاستفادة من مادة الحديد فى اعداد آلات واسلحة الحرب ، والتنويه الى انها من مصادر القوة والشدة على الاعداء.يدل عليه قوله تعالى فى الحديد (فيه بأس شديد) .

ثانيا : الانتفاع به فى كثير من الامور التى يحتاجها الناس فى حياتهم المدنية . يدل عليه قوله تعالى (ومنافع للناس) .

ثالثا : والحديد بما يتخذ منه من اسلحة وادوات حربية يعد من اسباب النصر . يدل عليه قوله سبحانه :(وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) حيث جعل تبارك وتعالى الحديد - بتلك الحالة - وسيلة لكى ينصر بها المؤمنون الله ورسوله .

---

(١)انظر آيات الجهاد فى القرآن / د / كامل الدقس(١١١) .
(٢) الحديد (٢٥) .
(٣) انظر تفسير ابي السعود (٨/ ٢١٢) .

قال الآلوسى فى معناها : (وليعلم الله تعالى علما يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد فى مجاهدة اعدائه)[١].

وذكر القرآن صناعة داود للدروع فى سياق امتنان الله عليه بتليين الحديد له عند قوله تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال اوبى معه والطير والنا له الحديد * ان اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير)[٢].

قال الحسن البصرى وقتادة والاعمش وغيرهم فى قوله (والنا له الحديد) قالوا : كان لا يحتاج ان يدخله نارا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط[٣]. ومعنى قوله (اعمل سابغات) اى الدروع . قاله قتادة[٤]. وقوله (قدر فى السرد) هو تعليم لداود صناعة الدروع، وقال ابن عباس فى المعنى اى اجعل حلقها على مقادير متناسبة ، وقال ابن زيد : لا تعملها صغيرة فتضعف فلا يقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرة فينال صاحبها من خلالها . وقال مجاهد : اى قدر مسامیرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا[٥].

وتسجيل القرآن لصناعة داود الدروع من الحديد مع تعليم الله له هو اعلام للمؤمنين المخاطبين بهذا القرآن ، وتنبيه لهم بالاستفادة من الحديد فى صناعة الاسلحة وآلات القتال كما استفاد منه داود عليه السلام فى صناعة الدروع التى تستعمل للقتال .

---

(١) روح المعانى للآلوسى (٩ / ٣ / ١٨٩) .
(٢) سبأ (١٠ ، ١١) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ٥٢٧) .
(٤) انظر المصدر السابق ، نفس المواضع.
(٥) انظر روح المعانى للآلوسى (٨ / ١ / ١١٥) .

ولفت القرآن انظار المؤمنين الى فائدة السلاح في التحصن ضد الاعداء. وذلك من خلال ماذكره من صناعة داود للدروع ليحتمي بها من بأس الاعداء. يقول تبارك وتعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون)[١].

معنى قوله (علمناه صنعة لبوس) اى عمل الدروع[٢]. ومعنى قوله (لتحصنكم) اى لتحرزكم. ومعنى قوله (من بأسكم) اى من حربكم ، قاله الضحاك ، وقال ابن عباس : من سلاحكم ، والمعنى واحد[٣]. والكلام وان كان متصلا بداود عليه السلام الا أننا نحن المقصودون به ، ولذا أمرنا الله سبحانه بشكره على هذه النعمة ابلغ الامر فقال (فهل انتم شاكرون) فهو استفهام بمعنى الامر لأنا عرفنا أن صنع السلاح والاستعداد للاعداء من اخلاق الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولنا بهم القدوة وفيهم الاسوة.

قال القرطبي : (هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والاسباب وهو قول اهل العقول والالباب لا قول الجهلة الاغبياء القائلين بان ذلك انما شرع للضعفاء[٤]).

من هنا نطلع على التوجيهات القرآنية التي تحض المؤمنين من اجل اعداد السلاح وتصنيعه ، للاستفادة منه في قتال الاعداء والتحرز به من عدوانهم. وبهذا نطلع على قيمة السلاح والعتاد في المعركة باعتباره واحدا من اسباب النصر والهزيمة.

فاذا اعدّ المسلمون للمعركة السلاح والعتاد فانهم يكونون قد اخذوا بواحد من اسباب النصر. واذا فرّطوا بذلك فانهم يكونون قد وقعوا في واحد من اسباب

---

(١) الانبياء (٧٩ ، ٨٠) .
(٢) انظر تفسير ابن السعود (٦ / ٨٠) .
(٣ ، ٤) انظر احكام القرآن للقرطبي (١١ / ٣٢٠ ، ٣٢١) .

الهزيمة . والا فكيف ينتصرون على عدوهم وهم غيرمتحصنين منهم ، وغير مسلحين لقتالهم . ان هذا مايخالف سنة الله فى النصر والهزيمة القائمة على اتخاذ الاسباب ، ومنها اتخاذ الاسلحة والعتاد .

واذا نظرنا فى السنة المطهرة والسيرة المباركة لسيد المرسلين عليه افضل الصلاة واتم التسليم وجدنا اهتماما بالغا باعداد السلاح والعتاد من اجل الجهاد . والنصوص فى ذلك كثيرة تحتاج الى بحث خاص حتى يستوعبها ، ولكن يكفى هنا الاقتصار على بعضها ليحصل بذلك بيان ضرورة اتخاذ السلاح والعتاد للمعركة ، مع بيان قيمته فى النصر والهزيمة .

مرّ قريبا تخصيص الله سبحانه للخيل بالذكر من اجل اعدادها للحرب ، وبينت وجه هذا التخصيص والحكمة منه باعتبارها من اعظم انواع القوة والبأس فى الحرب آنذاك . وقد اهتمت السنة بالحث على ارتباط الخيل فى سبيل الله ، ورغّبت فى ذلك بالاخبار عن عظيم أجر المجاهد الذى يربط فرسا فى سبيل الله وجعلت له ثوابا فى اطعامه واسقائه ، وفيما يخرجه من بول او روث ، وذلك كله حرصا على ارتباط الخيل من اجل الجهاد .

اخرج البخارى - واللفظ له - والنسائى عن ابى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامه) (١) .

ووعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالاجر والمثوبة لمن اتخذ الخيل فى سبيل الله ، واخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عما تجلبه الخيل من الخير للحض على اقتنائها .

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب من احتبس فرسا فى سبيل الله (٢ / ١٤٦) .
والنسائى فى الخيل / باب علف الخيل (٦ / ٢٢٥) .

اخرج الامام مسلم عن جرير بن عبدالله قال:(١) (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوى ناصية فرس باصبعه وهو يقول : الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم) .

ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ان خير الخيل هو الاجر والمغنم وذلك لان الفارس يؤجر على اقتنائه للخيل وعلى ركوبه وقت الجهاد كمانه ياخذ الغنيمة على ذلك ، وهى سهمان لفرسه وسهم ثالث له على جهاده .

اخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:(٢) (ان رسول الله جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما) .

قال ابن حجر (وفى الحديث حض على اكتساب الخيل واتخاذها للغزو ولما فيها من البركة واعلاء الكلمة واعظام الشوكة)(٣) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسابق بين الخيل لترويضها واعدادها للحرب .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - وابن ماجة عن ابن عمر(٤) : (ان رسول الله سابق بالخيل التى قد اضمرت(٥) من الحفياء وكان امدها ثنية الوداع ، وسابق بين الخيل التى لم تضمر من الثنية الى مسجد بنى زريق وكان ابن عمر فيمن سابق بها) .

---

(١) اخرجه الامام مسلم فى الامارة / باب الخيل فى نواصيها الخير الى يوم القيامة (٣ / ١٤٩٣) .

(٢) اخرجه الامام البخارى فى الجهاد / باب سهام الفرس (٢ / ١٤٧) .

(٣) فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٦٩) .

(٤) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب السبق بين الخيل (٢ / ١٤٨) .
ومسلم فى الامارة / باب المسابقة بين الخيل وتضميرها (٣ / ١٤٩١) .
وابن ماجة فى الجهاد / باب السبق والرهان (٢ / ٩٦٠) .

(٥) اضمرت : بضم اوله ، والمراد به ان تعلف الخيل حتى تسمن وتقوى ، ثم يقلل علفها بقدر القوت وتدخل بيتا وتغشى بالجلال حتى تحمى فتعرق فاذا جف عرقها خفّ لحمها وقويت على الجرى . انظر فتح البارى (٦ / ٧٢) .

نقل ابن حجر عن القرطبى قوله : (لا خلاف فى جواز المسابقة على الخيل وغيرها من الدواب وعلى الاقدام ، وكذا الترامى بالسهام واستعمال الاسلحة لما فى ذلك من التدريب على الحرب ، وفيه جواز اضمار الخيل ولا يخفى اختصاص استحبابها بالخيل المعدة للغزو)[١] .

ونبه الرسول صلى الله عليه وسلم الى اهمية سلاح الرماة فى المعركة وارشد اليه لما فيه من عظيم الشدة والقوة على الاعداء .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - وابو داود والترمذى وابن ماجة عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله وهو على المنبر يقول : (*واعدوا لهم مااستطعتم من قوة " الا ان القوة الرمى ، الا ان القوة الرمى ، الا ان القوة الرمى)[٢] .

فارشد الرسول صلى الله عليه وسلم الى الاهتمام باعداد الرماة ووسائل الرمى ، وكشف عما فيه من شدة وبأس . وكرر ذلك ثلاثا للتأكيد على ضرورة الاعتناء به .

نقل ابن حجر عن القرطبى : (انما فسر - الرسول صلى الله عليه وسلم - القوة بالرمى وان كانت القوة تظهر باعداد غيره من آلات الحرب لكون الرمى أشد نكاية فى العدو واسهل مؤنة . لانه قد يرمى رأس الكتيبة فيصاب فينهزم من خلفه)[٣] ويدخل فى معنى الرمى ، الرمى بالسهام او بكل مااستحدث من وسائل الرمى العسكرية فى زمننا هذا .

---

(١) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٧٢) .
(٢) اخرجه الامام مسلم فى الامارة / باب فضل الرمى والحث عليه . (٣ / ١٥٢٢) .
والترمذى فى التفسير / باب " ومن سورة الانفال " (٥ / ٢٧٠) .
وابو داود فى الجهاد / باب فى الرمى (٣ / ١٣) وابن ماجة فى الجهاد باب الرمى فى سبيل الله (٢ / ٩٤٠) .
(٣) فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٩١) .

قال الساعاتي رحمه الله : (وان كان المراد بالرمي في زمنه عليه السلام الرمي بالسهام لكن يدخل في معناه مااستحدث الآن : من الرمي بالبنادق والمدافع والقنابل ونحوها وكل مايحدث من آلات القتال في كل زمان و مكان لان الآية تدل على وجوب صنع الآلات الحربية مطلقا في كل زمان ، ففي زماننا هذا يكون الاستعداد بصنع المدافع والدبابات والطائرات والسفن الحربية المدرعة والغواصات ، وتدل ايضا على وجوب تعلم العلوم والفنون والصناعات التي يتوقف عليها ذلك . .)[1] .

وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ثواب من يصنع السهم ويمده ويرمي به . اخرج الامام احمد وابن الجارود والدارمي والحاكم والاربعة - واللفظ لابي داود - عن عقبة بن عامر قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ([2] ان الله عزوجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومنبله . .) .

وبيان الرسول صلى الله عليه وسلم ثواب من يصنع السهام هو من قبيل حث المسلمين آنذاك ودعوتهم من اجل صناعتها ، وفيه حث للمسلمين اليوم من اجل تصنيع السلاح كله والموء ثر منه على وجه الخصوص. وبهذا يتبين اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم باعداد السلاح الوطني وتصنيعه وليس مجرد جمعه وشرائه .

وفي زمنه عليه الصلاة والسلام ارسل عروة بن مسعود وغيدن بن سلمة الى جرش ليتعلما صناعة الدبابات والمجانيق

---

(١) الفتح الرباني ترتيب مسند الامام احمد /للامام احمد بن عبدالرحمن البنا (١٤ / ١٣٠ ، ١٣١) دار الشهاب/ القاهرة .

(٢) اخرجه الامام احمد في المسند (٤ / ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤) . والحاكم في المستدرك (٥ / ٩٥) . وصححه .
وابن الجارود في المنتقى (٣٥٥) . والترمذي في فضائل الجهاد / باب ماجاء في فضل الرمي في سبيل الله (٤ / ١٧٤) . وحسنه . والنسائي في الجهاد / باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله تعالى (٦ / ٢٨) . وابوداود في الجهاد / باب في الرمي (٣ / ١٣) . والدارمي في الجهاد باب في فضل الرمي والامربه (٢ / ١٢٤) . وابن ماجة في الجهاد /باب الرمي في سبيل الله (٢ / ٩٤٠) . قلت : رجال الحديث ثقات سوى خالد بن زيد فهو مقبول . انظرالتقريب (١ / ٢١٣) . ولكن تابعه عبدالله ابن الازرق . لذا فالحديث حسن .

والضبور (١).

واستعمل الرسول صلى الله عليه وسلم الدبابات والمجانيق عند حصاره للطائف.

اخرج ابوداود فى مراسيله عن عكرمة : (ان النبى صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على اهل الطائف) (٢).

وقال ابن هشام فى السيرة، عند حصار الرسول للطائف : (ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق . حدثنى من اثق به ان رسول الله اول من رمى فى الاسلام بالمنجنيق رمى اهل الطائف) (٣).

واما بالنسبة لاستعمال الرسول صلى الله عليه وسلم للدبابة فقد نقل ابن هشام عن ابن اسحاق قوله : (حتى اذا كان يوم الشَّدْخَة عند جدار الطائف ، دخل نفر من اصحاب رسول الله تحت دبابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه ، فارسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها غرمتهم بالنبل ، فقتلوا منهم رجالا ، فامر رسول الله بقطع اعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون) (٤).

من خلال مامر من توجيهات الكتاب والسنة ندرك الاهمية القصوى لاعداد السلاح والعتاد للمعركة، وضرورة انتاجه وتصنيعه داخل بلاد المسلمين وبأيدٍ اسلامية لضمان الأمن والسرية.

ويتأكد لنا بان ذلك كله من ضرورات المعركة، ومن الفروض الواجبة على المسلمين التى لاتسقط عنهم الا ببذل مافى الوسع لتحصل للمسلمين الكفاية منها.

وبهذا ندرك القيمة الاساسية للسلاح والعتاد فى المعركة ، ونطلع على اثره وفعاليته فى احراز النصر.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤٠ / ٤٧٨) والضبور هى الدبابات جمع ضبر، وهى عبارة عن جلود يغشى بها الخشب، يستخدم للوقاية فى الحرب عند ارادة نقب الحصون. المصدر السابق. نفس المراجع.

(٢) المراسيل لابى داود . ص (٣٧) مطبعة محمد صبيح - مصر.
قال ابن حجر: اخرجه ابوداود فى المراسيل ، ورجاله ثقات . ووصله العقيلى باسناد ضعيف عن على رضى الله عنه. انظر بلوغ المرام من جمع ادلة الاحكام لابن حجر العسقلانى (٣٢٣) دار الجيل للطباعة/ مصر.

(٣ ، ٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٤٨٣) . وانظر تاريخ الطبرى (٣/ ٨٣ ، ٨٤) .

ثالثا : اعداد المال للانفاق العسكرى

المجهود الحربى يعتمد بدرجة اساسية على المال . وكل شئون الاعداد المادى للمعركة من سلاح وعتاد يحتاج الى المال لاعداده وصيانته .

وبد هى القول بان المال هو من الضرورات الاولية للمعركة ، ومن ثم فهو من الاسباب الرئيسة للانتصار فى المعركة . وان لم يتوفر المال فلا يمكن توفير الامور الضرورية للقتال والمواجهة من سلاح وعتاد . . ، مما يؤدى الى مردود عكسى على المعركة .

لذا فقد امر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالانفاق فقال سبحانه : (وانفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين)(١) .

وقال تبارك وتعالى : (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)(٢) .

قال ابو السعود فى معنى قوله (وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله) (ايجاب للجهاد بهما ان امكن ، وباحدهما عند امكانه واعواز الآخر حتى ان من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ، ومن ساعده المال دون النفس يغزى مكانه من حاله على عكس حاله . الى هذا ذهب كثير من العلماء)(٣) .

ورغب الحق تبارك وتعالى فى انفاق المال فى سبيله ، وذلك من خلال وعده بان يوفى المؤمنين على انفاقهم المال فى سبيله اجزل الأجر .

فقال سبحانه : (وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ اليكم وانتم لاتظلمون)(٤) .

وقال سبحانه : (وماتنفقوا من خير يوفّ اليكم وانتم لاتظلمون)(٥) .

---

(١) البقرة (١٩٥) .
(٢) التوبة (٤١) .
(٣) انظر تفسير ابى السعود (٤ / ٦٧) .
(٤) الانفال (٦٠) .
(٥) البقرة (٢٧٢) .

ومزيدا فى الترغيب بيّن القرآن تفصيل هذا الوعد ، وكشف عن مضاعفة الله ثواب النفقة فى سبيله اضعافا كثيرة . فقال سبحانه (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)(١) .

قال القرطبى : (ورد القرآن بان الحسنة فى جميع اعمال البر بعشر امثالها واقتضت هذه الآية ان نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف)(٢) .

وقرن الحق تبارك وتعالى بين الانفاق على المعركة وبين الجهاد بالنفس واطلق لفظ الجهاد على الامرين معا ، مما يدل على ان الانفاق فى المعركة هو صنو القتال بالنفس، بل وقدم ذكر الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : (ياايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)(٣) .

وقوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون)(٤) .

وقوله تعالى : (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض)(٥) .

وقوله تعالى : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون)(٦) .

والحكمة فى تقديم ذكر الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس هى الاشعار باهميته المستمدة من كون الجهاد بالنفس مترتبا عليه(٧) فى الواقع ولا يقوم بدونه .

---

(١) البقرة (٢٦١) .
(٢) احكام القرآن للقرطبى (٣/٣٠٥) .
(٣) الصف (١٠، ١١) .
(٤) الحجرات (١٥) . (٥) الانفال (٧٢) . (٦) التوبة (٢٠) .
(٧) انظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبى (٨/١٥٣) .

وامر الرسول عليه الصلاة والسلام بالانفاق على المعركة ، وسمى ذلك جهادا وجعله قرين الجهاد بالنفس ، واضاف اليهما الجهاد باللسان .

اخرج الدارمى - واللفظ له - وابو داود والنسائى واحمد والحاكم عن انس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال (جاهدوا المشركين باموالكم وانفسكم والسنتكم)[١] .

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ثواب الصدقة المضاعف ، للحث عليها من اجل توفير ماتقتضيه المعركة .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والنسائى عن ابى مسعود الانصارى قال : (جاء رجل بناقة مخطومة الى رسول الله فقال هذه فى سبيل الله . فقال رسول الله لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة)[٢][٣] .

قال النووى فى معنى قوله : (لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة . .) : (قيل يحتمل ان المراد له اجر سبعمائة ناقة ، ويحتمل ان يكون على ظاهره ويكون له فى الجنة بها سبعمائة كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه كما جاء فى خيل الجنة ونجبها وهذا الاحتمال اظهر والله اعلم)[٤] .

وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على الانفاق فى سبيل الله بتجهيز المجاهد بجهاز القتال من السلاح والركوبة وغيرهما .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن زيد بن خالد ان رسول الله قال : (من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى سبيل الله بخير فقد غزا)[٥] .

---

(١) سبق تخريجه فى موضوع الحرب النفسية ص (٢١٤) .
(٢) اخرجه الامام مسلم /باب فضل الصدقة فى سبيل الله ، وتضعيفها (٣/ ١٥٠٥) . والنسائى فى الجهاد / باب فضل الصدقة فى سبيل الله عزوجل (٦ / ٤٩) .
(٣) مخطومة : اى بها خطام ، وهو حبل يجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقاد به الناقة او البعير . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ٥٠) .
(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٣ / ٣٨) .
(٥) اخرجه البخارى /فى الجهاد ، باب فضل من جهز غازيا او خلفه بخير (٢/ ١٤٥) . ومسلم فى الامارة / باب فضل اعانة الغازى فى سبيل الله بمركوب وغيره (٣/ ١٥٠٧) .

وَعَدَا لرسول عليه الصلاة والسلام المنفق على الغازى سواء فى تجهيزه له بالسلاح والركوبة ومايلزم للغزو، او فى عيالة أهله والانفاق عليهم ومساعدتهم من خلفه (١)، وعدهما باجر يماثل اجر الغازى فى سبيل الله .

نقل ابن حجر عن ابن حبان فى معنى قوله عليه السلام (فقد غـــزا) أنه قال : (معناه انه مثله فى الاجر وان لم يغز حقيقة (٢)) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة للمسلمين فى الانفاق فـــى سبيل الله ، وبخاصة ماينفقه على مستلزمات الجهاد من السلاح والعتاد . ففى غزوة بنى النضير افاء الله سبحانه على رسوله اموال بنى النضير له خاصة ، فانفقها جميعها فى سبيل الله من اجل توفير السلاح والعتاد للجهاد ، واستبقى منها نفقة سنة فقط لاهله .

اخرج الامام مسلم بسنده عن عمر رضى الله عنه قال : (٣) (كانت اموال بنـــى النضير مما افاء الله على رسوله ممالم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانـــت لرسول الله خاصة ، وكان ينفق على اهله نفقة سنة (٤) ، ثم يجعل مابقى فى السلاح والكراع عدة (٥) فى سبيل الله) .

وفى غزوة تبوك حث الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين على الانفاق فـــى سبيل الله لاعداد وتوفير مايحتاج اليه فى هذه الغزوة ، فانفق عثمان بن عفان وحده رضى الله عنه ثلاثمائة بعير .

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٣ / ٤٠) .
(٢) فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٥٠) .
(٣) اخرجه الامام مسلم فى الجهاد / باب حكم الفئ (٣ / ١٣٧٦ ، ١٣٧٧) .
(٤) فائدة : قال النووى فى شرحه : (وقوله " ينفق على اهله نفقة سنة" اى يعزل لهم نفقة سنة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان ينفقه قبل انقضاء السنة فى وجوه الخير فلا تتم عليه السنة ، ولهذا توفى صلى الله عليه وسلم ودرعـــه مرهونة على شعير استدانه لاهله ، ولم يشبع ثلاثة ايام تباعا . وقد تظاهرت الاحاديث الصحيحة بكثرة جوعه صلى الله عليه وسلم وجوع عياله) . انظر شرح صحيح مسلم للنووى (١٢ / ٧٠) .
(٥) الكراع : اسم لجميع الخيل . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ١٦٥) .

اخرج الامام احمد - واللفظ له - والترمذى عن عبد الرحمن بن خباب السلمى قال : (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان ابن عفان . علىّ مائة بعير باحلاسها[٢] واقتابها[٣] ثم حث فقال عثمان : علىّ مائة اخرى باحلاسها واقتابها ثم قال : ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث فقال عثمان ابن عفان . على مائة اخرى باحلاسها واقتابها ، قال فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقول بيده هكذا يحركها ، واخرج عبد الصمد يده كالمعجب : ماعلى عثمان ماعمل بعد هذا) .

واخرج الامام احمد - واللفظ له - والترمذى والحاكم عن عبد الرحمن بن سمرة قال : (جاء عثمان بن عفان الى النبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بألف دينار فى ثوبه حين جهز النبى صلى الله عليه وسلم جيش العسرة ، قال : فصبها فى حجر النبى فجعل النبى يقلبها بيده ، ويقول ماضر ابن عفان ماعمل بعد اليوم يرددها مرارا)[٤] .

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (٤ / ٧٥) . والترمذى فى المناقب / باب فى مناقب عثمان بن عفان رضى الله عنه . (٥ / ٦٢٥ ، ٦٢٦) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه الا من حديث السكن بن المغيرة . قلت : اسناد الحديث ضعيف لاجل " فرقد ابوطلحة " فهو مجهول ، انظر التهذيب لابن حجر (٨ / ٢٦٤) ، وميزان الاعتدال للذهبى (٣ / ٣٤٧) ولكن الحديث الذى بعده يشهد له .

(٢) الأحلاس : جمع حِلْس ، وهو الكساء الذى يلى ظهر البعير تحت القتب . انظر غريبا لحديث لابن الاثير (١ / ٤٢٣ ، ٤٢٤) .

(٣) الاقتاب : واحدها حلس . انظر جامع الاصول لابن الاثير ، تحقيق / عبد القادر الارناؤوط (٨ / ٦٣٧) .

(٤) اخرجه الامام احمد (٥ / ٦٣) . والترمذى فى المناقب / باب فى مناقب عثمان بن عفان (٥ / ٦٢٦) وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه واخرجه الحاكم فى المستدرك (٣ / ١٠٢) وصححه . قلت : اسناد الحديث فيه " كثير بن ابى كثير " مولى عبد الرحمن بن سمرة ، قال فيه ابن حجر فى التقريب (٢ / ١٣٣) : مقبول . وعدّه ابن عدى فى الضعفاء . انظر الضعفاء الكبير (٤ / ٣) . ونقل الذهبى فى الميزان (٣ / ٤١٠) توثيق العجلى وابن حبان له . وهما متساهلان . قال الدكتور / اكرم ضياء العمرى فى الحكم على الحديث : (ويبدو أن الحديث صالح للاعتبار ويقوى بغيره الى الحسن) . انظر / المجتمع المدنى فى عهد النبوة (٢٣٠) . قلت : الحديث كما قال الدكتور اكرم العمرى . وان لم يتقوّ بمتابع او شاهد فهو ضعيف .

من هذا يتبين شدة اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسلمين كذلك بالانفاق فى سبيل الله ،لاعداد مايلزم من السلاح والعتاد وتغطيـــــة نفقات المجهود الحربى .

وهذا الحرص هو من قبيل اتخاذ الاسباب الواجبة للمعركة لاجل احـراز النصر على العـــــدو .

السبب الثالث :

التخطيط والتنظيم العسكرى

اهمية التخطيط والتنظيم العسكرى فى احراز النصر :-

الإدارة السليمة هى من مقتضيات النجاح لأى عمل من الأعمال المدنية أو العسكرية .

والحاجة اليها تزداد شدة والحاحاً فى الاعمال العسكرية لاتساعها وأهميتها وخطورتها على الأمة .

وإحراز النصر على العدو فى المعركة ، يحتاج الى إدارة سليمة تحسن التخطيط للمعركة وتحسن تنظيم شئون الجهاد والمجاهدين .

فالإدارة عنصر هام له دوره الرئيس الذى ينعكس على المعركة سلباً وايجاباً .

وتزداد أهميتها وشدة الحاجة إليها فى عصرنا بعد أن اتسعت الجيوش وتعددت قطاعاتها ونشاطاتها العسكرية ، وبعد أن تطورت الاسلحة القتالية . لذا فإن الإدارة تعد ركنا اساسياً من أركان هذه الجيوش ، وضرورة لازمة من أجل التخطيط للمعركة وحسن تنظيم القوات .

ولا حاجة للتفصيل فى ذلك لانه أمر بد هى لا يخفى على أحد ، وتأخذ به الجيوش كافة فى زمننا هذا ،وهو من أبرز أسباب انتصاراتها .

يقول الأستاذ /أحمد نار : (إدارة الجيش أمر خطير ، ويتوقف نصره فى مواقفه الى حد بعيد على حسن نظامه وتجهيزه وادارته وكفاءة قادته)[1] .

---

(١) القتال فى الاسلام /احمد نار (١٠٩) الطبعة الثانية (١٣٨٨ - ١٩٦٨) نشر وتوزيع المكتبة الاسلامية - حمص .

وتفوق فريق على الآخر فى الادارة وحسن التخطيط للمعركة يكسب هذا الفريق النصر على عدوه ، لأن العبرة ليست بكثرة القوات والسلاح والذخائر ، وإنما العبرة بمدى استغلال هذه القوات والأسلحة فى أداء مهامها وأهدافها على أكمل وجه . والإدارة السليمة هى التى تقوم بواجب استغلال الطاقات وتنظيم القوات .

ويضرب روبرت مكنمارا مثلاً على ذلك بروسيا وأمريكيا اليوم فيقول :

(إن الولايات المتحدة تمتلك تكنولوجيا عالية جداً ، وكذلك الاتحاد السوفيتى ، ولكن الذى سوف يحسم المعركة هو الادارة السليمة) . (١)

وقول "روبرت " هذا ، مبنى على ان الذى يحسم الصراع بين قوتين متكافئتين هو الادارة السليمة ، وهو صحيح من جهة بيان أهمية الادارة فى المعركة ، وهو مانقصده ، ولكنه غير صحيح من جهة أخرى ، وهى قصره أسباب النصر والغلبة على التكنولوجيا والقوة العسكرية وحسن الادارة فقط ، وإهماله الجانب الإيمانى ، وهو من أبرز أسباب النصر على الاطلاق كما يعتقد المسلمون وكما بينا فى أول هذه الرسالة .

ومن أبرز مقومات الادارة السليمة التخطيط والتنظيم فى المعركة ، وهو ماسأتولى بيانه فى الصفحات القليلة القادمة من خلال استقراء التخطيط والتنظيم فى جهاد الرسول القائد والصحابة الكرام .

إنّ مايقابل التخطيط هو العفوية ، ولا يمكن لعمل عفوى أن ينجح فى وجه عمل مخطط له ، كذلك لا يمكن لعمل فوضوى غير منظم أن ينجح على عمل منظم . وهذا مايصدق قوله فى كل الأعمال ، وفى الحروب والمعارك خاصة ، إذ يكون النصر بإذن الله حليفاً لمن أخذ بأسباب التخطيط والتنظيم الدقيق .

---

(١) انظر مجلة الامة القطرية - العدد السابع والخمسون - السنة الخامسة من مقال اللواء الركن / محمد جمال الدين محفوظ .

ولا يعنى هذا أن عدونا إذا تفوق علينا فى الادارة وحسن التخطيط والتنظيم سيتفوق علينا فى المعركة ، حاشا لله ، فإن وعدالله عباده المؤمنين بالنصر على عدوهم هو الحق المبين ، وهو الذى سيتحقق . ولكن بشرط عدم الإهمال أو التفريط فى الأخذ بأسباب النصر التى منها التخطيط وحسن الادارة . وحسبنا فى ذلك أن نعد ماأمكننا ونستفرغ مابوسعنا ، ثم نكل الأمور إلى ربنا ، وهو ناصرنا .

وهل كان مستوى المسلمين فى العهد الأول بمستوى الفرس والروم فى هذا الجانب حتى ينتصروا عليهم ؟ لقد نصرهم الله عزوجل رغم تدنى مستواهم عنهم لإيمانهم وحسن توكلهم ، ولبذلهم كل مافى وسعهم من حسن التخطيط للمعركة وحسن تنظيم المجاهدين فيها كما سترى .

وإذا فرط المسلمون فى هذا السبب فإنهم مفرطون فى واحد من أسباب النصر ويخالفون بهذا سنة الله فى النصر ، ممايجعل فقدانهم النصر وشيكا .

التخطيط فى جهاد الرسول القائد :

كل خطة لها هدف عام يمكن تقسيمه إلى أهداف مجزأة حسب كل مرحلة من مراحل الخطة . ولها كذلك وسائل مقررة تؤدى الى تحقيق الاهداف المنشودة .

والخطط أيضا تنقسم إلى قسمين باعتبار تقسيم الاهداف : الخطة العامة وهى المرتبطة بالهدف العام ، ويطلق عليها (الاستراتيجية) ، والخطة الخاصة : وتكون متعلقة بأهداف خاصة تندرج كلها تحت الهدف العام .

وتطبيق ذلك فى جهاد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام كما يلى :-

أولا : الهدف العام : إعلاء كلمة الله فى الارض .

ثانيا / الأهداف الخاصة : مثل :-

(١) الجهاد لإقامة دولة إسلامية تكون نقطة إنطلاق لإعلاء كلمة الله فى الأرض . وانتهت بقيام الدولة بالمدينة المنورة .

(٢) الجهاد لتأمين استقرار المدينة (الدولة الجديدة) من خلال طردالليهود .

(٣) تأديب القبائل العربية ، وفرض هيبة المسلمين عليها .

(٤) فرض الحصار الاقتصادى على قريش.

(٥) فتح مكة واسترداد بيتالله الحرام فى حمى دين الاسلام والدولة الاسلامية. الى غير ذلك من الاهداف.

ثالثا / الوسائل : استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم لتحقيق هذه الأغراض وسائل كثيرة منها :-

(١) الدعوة والتبليغ بين الناس.

(٢) إرسال الرسائل والوفود الى القبائل والملوك .

(٣) القتال ، وتوجيه السرايا والبعوث.

(٤) الضغط الاقتصادى .

(٥) الضغط المعنوى والنفسى .(١)

رابعا / الخطة العامة : ارتبطت الخطة العامة عند الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدف العام وهو إعلاء كلمة الله .

وسارت بتدرج طبيعى حسب القدرة القتالية للمسلمين وحسب الظروف المحيطة بهم.

---

(١) انظر هذه الوسائل . ووسائل اخرى كذلك مفصله فى كتاب / استراتيجية الفتوحات الاسلامية . تأليف الرائد/ وليد جرادات (٢٧ - ٣٥) .

ويمكن القول ان الخطة العامة عند الرسول صلى الله عليه وسلم مرت بثلاث مراحل (١) .

المرحلة الاولى : دور الحشد :

وهو يبدأ من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم الى هجرته الى المدينة . وهذه المرحلة تتميز بأنها مرحلة جهاد دعوة (لا قتال فيه) . وتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه المرحلة من اعداد خميرة الجيش الاسلامى ليكونوا بذلك نواة الجهاد وطلائع الفتح . وانتهت هذه المرحلة بتكوين الدولة التى تمثل نقطة التجمع والانطلاق لهذه الطلائع.

المرحلة الثانية : دور الدفاع عن العقيدة :-

ويبدأ من السنة الاولى للهجرة بعد أن نزل الاذن بالقتال . يقول سبحانه وتعالى : (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير (٢)) .

وانتهت هذه المرحلة بانتهاء غزوة الاحزاب حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم عقبها : (الآن نغزوهم ولا يغزوننا (٣)) اى نغزو المشركين فى عقر دارهم . وهو مايدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسير وفق خطة واضحة المعالم ، فاراد أن ينتقل من مرحلة الدفاع ، او اراد أن يطور خطة الدفاع الى خطة هجوم .

---

(١) استعرت هذه المراحل من حيث الترتيب من اللواء الركن / محمود شيت خطاب، وقد اوردها فى كتاب اقتباس النظام العسكرى (٢٩-٣١) باعتبارها الادوار التى مربها الجيش الاسلامى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ورأيت انها تنطبق على مراحل الخطة العامة للرسول صلى الله عليه وسلم فنقلتها ، وتصرفت فيها كثيرا .

(٢) الحج (٣٩) .

(٣) سبق تخريجه فى موضوع القيادة الراشدة ص(٣٣١) ، هامش(٢) .

المرحلة الثالثة : دور التعرض والهجوم :

من بعد غزوة الخندق الى غزوة تبوك فى رجب من السنة التاسعة للهجرة (١) . وتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه المرحلة من اخضاع الجزيرة العربية للاسلام ، ومناوشة الروم فى الشام كما فى غزوة تبوك .

هذه هى مراحل الخطة العامة فى جهاد الرسول القائد وقد سار بها سيرا تدريجيا يتوازن مع قدرات المسلمين .

ملامح التخطيط العسكرى فى جهاد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم :

لقد كان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يحسب للمعركة الحسابات العسكرية اللازمة ويعد لها ماتقتضيه من امور ، ويتخذ من التدابير العسكرية مايدل على تخطيطه للمعركة . وهذه بعض ملامح خطة المعركة لدى الرسول صلى الله عليه وسلم . :-

(١) تحديد الهدف من العملية العسكرية : فمثلا غزوة بنى المصطلق كان الهدف منها القضاء على تجمعات وحشود بنى المصطلق التى كانت تنوى التحرش بالمسلمين فى المدينة (٢) .

(٢) استنفار المسلمين للقتال : وهذه الخطوة تعنى اعلان النفير العام للمسلمين للخروج الى القتال - كما حدث فى فتح مكة حيث خرج معه عشرة آلاف مجاهد (٣) ، وفى حنين

---

(١) انظر الدرر فى اختصار المغازى والسير / لابن عبدالبر (٢٨٦) .
(٢) انظر سيرة ابن هشام (٣ ، ٤ / ٢٩٠) .
(٣) انظر المصدر السابق (٣ ، ٤ / ٤٠٠) .

اثناعشر الفا (١) ، وفى تبوك ثلاثون الفا (٢) ـ او النفير الخاص بخروج بعض المقاتلين كما كان فى غزوة بدر.

وثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر باحصاء المقاتلين وكتابة أسمائهم ، وذلك فى مرحلة مبكرة من مراحل نمو عدد الجيش الاسلامى .

وهذا يدل على اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالتخطيط البشرى للاستفادة من هذه الاعداد والطاقات البشرية فى معاركه مع العدو.

اخرج الشيخان ـ واللفظ للبخارى ـ عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : (اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام من الناس (٣) . فكتبنا له الفا وخمسمائة رجل ، فقلنا نخاف ونحن الف وخمسمائة ؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى ان الرجل ليصلى وحده وهو خائف) .

نقل ابن حجر عن ابن التين ان ذلك كان فى غزوة الخندق ، ونقل ايضا عن الداودى احتمال ان ذلك فى الحديبية (٤).

وثبت بالنص الصريح الصحيح ان الصحابة كانوا يكتبون للغزوات اى يسجلون اسماءهم من اجل الغزو والجهاد .

اخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول (٥) : (لا يخلون رجل بامرأة ، ولا تسافرن امرأة الا ومعها محرم . فقام رجل فقال : يارسول الله اكتتبت فى غزوة كذا وكذا ، وخرجت امرأتى حاجة . قال : اذهب فحج مع امرأتك) .

---

(١) انظر المصدر السابق (٣ ، ٤٠ / ٤٤٠) .
(٢) انظر المغازى للواقدى (٣ / ٩٩٦) .
(٣) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب كتابة الامام الناس (٢ / ١٨٠) .
ومسلم فى الايمان / باب الاستسرار بالايمان للخائف / (١ / ١٣١ ، ١٣٢) .
(٤) انظر فتح البارى (٦ / ١٧٨) .
(٥) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب من اكتتب فى جيش. (٢ / ١٧٠) .
وباب كتابة الامام الناس (٢ / ١٨٠) .

(٣) تقدير قوات العدو وجمع مايمكن الحصول عليه من المعلومات من خلال عيونه .

والامثلة على هذا كثيرة ، سيرد بعضها فى موضوع الاستخبار .

(٤) استطلاع ارض المعركة للاطلاع على الموارد الطبيعية ، والطبيعة التضاريسية للاستفادة منها فى المعركة . ومثال ذلك غزوة " أحد " اذ استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من جبل صغير فى ارض المعركة فوضع عليه فرقة الرماة لحماية المسلمين من حركة التفاف قد يقوم بها العدو ، واستفاد كذلك من جبل أحد فجعل ظهور المسلمين الى الجبل ليحميهم من (١) تلك الجهة اذ لايستطيع العدو مقاتلة المسلمين من جهة الجبل لانه مانع طبيعى يمنع العدو من القدوم من تلك الجهة .

(٥) تقدير الجانب المعنوى فى المعركة وممارسة الحرب النفسية على العدو جنبا الى جنب مع المواجهة العسكرية . والامثلة كثيرة كما سبق فى موضوع الحرب النفسية .

(٦) تنظيم القوات وتعبئتها للمعركة ، وسيأتى تفصيله قريبا .

(٧) وضع الخطوط العامة او التفصيلية للعمليات القتالية قبل أن تبدأ المعركة ، وسأذكر امثلة على ذلك عند بيان نماذج التخطيط للمعركة .

هذه بعض ملامح التخطيط العسكرى لدى الرسول القائد عليه الصلاة والسلام . وقد تختلف هذه الملامح من معركة الى أخرى ، وذلك حسب هدف العملية العسكرية وحسب الظروف المحيطة بها .

وقد يتم التعديل على الخطة او تطويرها وذلك على ضوء ما يجدّ من معطيات كما حدث فى معركة بدر ، وسيأتى بيان ذلك عند ذكر النماذج العملية .

---

(١) انظر سيرة ابن هسام (٣ ، ٤ / ٦٥) . وتاريخ الطبرى (٢ / ٥٧٠) .

ملامح التنظيم العسكرى لدى الرسول القائد :

كما كان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يهتم بالتخطيط العسكرى فقد كان يهتم ايضا بالتنظيم العسكرى . وهذه بعض ملامح التنظيم العسكرى لدى الرسول صلى الله عليه وسلم.

الاول : اتخاذ الامراء على السرايا والبعوث وعلى مجموعات المجاهدين :

ان من لوازم تدبير شئون الجماعة من الناس أن يكون من بينهم امير عليهم يصرف امورهم، وتجتمع عليه كلمتهم. لذا فقد امر الرسول صلى الله عليه وسلم الجماعة من الناس فى السفر اتخاذ امير لهم من بينهم فقال عليه الصلاة والسلام: (اذا كان ثلاثة فى سفر فليؤمروا احدهم)(١)، واتخاذ الامير على الفئة من المقاتلين هو من باب اولى ..،لذا فقد كانت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم تأمير الامراء على السرايا والبعوث.

اخرج البخارى باسناده عن سلمة قوله : (غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات مرة علينا ابوبكر ومرة علينا اسامة)(٢).

وربما كان يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الغزوة الواحدة اكثر من امير ليكون بدلا من الآخر اذا استشهد فى المعركة ، وهو تفوق من الرسول صلى الله عليه وسلم فى تنظيم المعركة ، اذ بتعيين القيادات البديلة يحفظ الجيش نظامه وتماسكه اذا استشهد احد القادة .

---

(١) اخرجه ابوداود فى الجهاد / باب فى القوم يسافرون يؤمرون احدهم (٣/٣٦) . رواه باسناد واحد مرة عن ابى سعيد الخدرى ومرة عن ابى هريرة.
قلت : اسناده حسن ، لاجل حاتم بن اسماعيل : صدوق ، انظر التقريب (١/١٣٧) . والتهذيب (١/١٢٨) . والميزان (١/٤٢٨) ، ولاجل محمد بن عجلان : صدوق . انظر التقريب (٢/١٩٠) . والميزان (٣/٦٤٤) . وبقية رجاله ثقات.

(٢) سبق تخريجه فى موضوع القيادة الراشدة (٣٢٩) .

ومثال ذلك فى تعيينه ثلاثة امراء على المسلمين فى غزوة مؤته . وسمى الجيش يومها جيش الامراء .

اخرج الشيخان- واللفظ للبخارى - عن عبدالله بن عمر قال : (امر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة مؤته زيد بن حارثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان قتل زيد فجعفر ، وان قتل جعفر فعبدالله بن رواحة ، قال عبدالله: كنت فيهم فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن ابى طالب فوجدناه فى القتلى مافى جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية ليس منها شىء فى دبره يعنى فى ظهره)(١) .

واستشهد فى هذه الغزوة الامراء الثلاثة ، الواحد تلو الآخر بعد أن استلم كل منهم الراية ممن سبقه وقاد المسلمين فترة من المعركة ، واستلم الراية بعدهم خالد بن الوليد حيث أمّره المسلمون عليهم .

وكما ان للجيش او السرية اميراً عاماً فان للوحدات الصغيرة التى يتكون منها الجيش او السرية امراء يمثلون صلة الوصل بين وحداتهم والامير العام للجيش.

والامثلة على ذلك كثيرة ، وسأكتفى بذكر واحد منها ، مع انه سترد نماذج اخرى فى سياق عرض الملامح الاخرى للتنظيم فى المعركة .

لما غنم المسلمون فى حنين من هوازن ، جاءوه مسلمين يطلبون السبي والمال فخيرهم الرسول صلى الله عليه وسلم احدهما ، واختاروا السبي (فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين فاثنى على الله بماهو اهله ثم قال : اما بعد فان اخوانكم قد جاءونا تائبين ، وانى قد رأيت ان ارد اليهم سبيهم ، فمن احب منكم ان يطيب ذلك فليفعل ، ومن احب منكم ان يكون على حظه حتى نعطيه اياه من اول مايفيء الله علينا فليفعل ، فقال الناس : قد طيبنا ذلك يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:انا لاندرى من اذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم امركم.فرجع الناس ، فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه انهم طيبوا واذنوا)(٢) .

---

(١) سبق تخريجه فى موضوع القيادة الراشدة (٢٨٦) .

(٢) اخرجه البخارى فى المغازى ، باب قوله تعالى : (ويوم حنين اذ اعجبتكم) (٣/٦٦) عن مروان والمسور بن مخرمة .

اذاً فجيش المسلمين كان مقسما الى وحدات كل وحدة عليها عريف ينقل اوامر القيادة لوحدته ، وينقل رأى وحدته الى القيادة كذلك .

وتنظيم العلاقة بين القائد والجنود من جهة الحقوق والواجبات لكل منهما امر نظمه الاسلام ، ولن اتعرض الى تفصيل ذلك هنا ، واكتفى بما ذكرته في موضوعي الطاعة ، والقيادة الراشدة .

الثانى : التعبئة وتوزيع القوات :

ومن اشكال التنظيم العسكرى الذى عمل به الرسول صلى الله عليه وسلم توزيعه الجيش الى فرق ووحدات وكتائب كل واحدة منها بامرة مسئول . ولا يخفى على احد اهمية هذا التوزيع فى المعركة ، وسيأتى التمثيل لذلك عند ذكر نموذج التنظيم فى غزوة الفتح .

ويعتمد توزيع الكتائب احيانا على نوع اسلحة المقاتلين فيجعل سلاح الرماة مثلا فرقة واحدة بامرة مسئول كما كان ذلك فى أُحد اذ كان فريق الرماة بامرة عبدالله بن جبير (١) ، وحدد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم نوع المهمة القتالية المكلفين بها ، وهى حماية المسلمين من حركة التفاف المشركين .

وكذا الحال بالنسبة لسلاح الفرسان ، ومثال ذلك ان خالد بن الوليد رضى الله عنه كان قائد فرقة الخيالة فى غزوة حنين (٢) . وكذلك ايضا سلاح المشاة اذ كان ابو عبيدة رضى الله عنه امير فرقة الرجالة فى غزوة الفتح (٣) .

---

(١) ورد فى حديث سبق تخريجه فى موضوع الطاعة (٣٨٢) هامش (٣) .

(٢) ورد فى حديث اخرجه الامام مسلم عن انس بن مالك فى كتاب الزكاة باب اعطاء المؤلفة قلوبهم على الاسلام . (٢ / ٧٣٦ ، ٧٣٧) .

(٣) سيأتى بيانه قريبا عند ذكر نماذج التخطيط والتنظيم فى المعارك ، غزوة الفتح .

واما تعبئة الجيش فالمراد بها ترتيب مواضعهم وهيئاتهم للحرب .(١)

استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم فى المعارك نظامين للتعبئة هما :

الاول : تنظيم الصفوف:

و يكون بترتيب المقاتلين كل مجموعة فى صف ، وكل صف يتلو الآخر، وتكون الصفوف الامامية من المسلحين بالرماح لصد وكسر هجمات العدو ، وتكون الصفوف المتعاقبة الاخرى من المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الاعداء .(٢)

واستخدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النظام من التعبئة عند غزوه لنجد .

اخرج البخارى بسنده عن ابن عمر قوله : (غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فوازينا العدو فصاففنا لهم) .(٣)

واستخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم ايضا فى غزوة بدر ، وسيأتى ذكرها قريبا .

الثانى : والتنظيم الآخر:

يقوم على توزيع القوات الى مقدمة تكون فى مقدمة الجيش والامير ، والساقة تكون خلف الامير ، وعن يمينه الميمنة ، وعن يساره الميسرة ، ويقف الامير وقسم من الجيش فى القلب .(٤) ومثال ذلك تعبئة المسلمين فى غزوة الفتح وسيأتى بيانها قريبا .

---

(١) انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ١٦٨) .
(٢) انظر الرسول القائد . تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب(١١٦) .
(٣) اخرجه البخارى فى المغازى / باب غزوة ذات الرقاع(٣ / ٣٦) .
(٤) انظر مقدمة ابن خلدون (٢٧٢) .

الثالث/ اتخاذ الرايات والالوية للجيش والكتائب:

ومن ملامح تنظيم الجيش تميزه باتخاذ لواء خاص به ، وتميز كل فرقة منه براية خاصة بها .

اخرج الترمذى - واللفظ له - وابوداود عن يونس بن عبيد مولى محمد ابن القاسم قال: (بعثنى محمد بن القاسم الى البراء بن عازب اسأله عن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كانت سوداء مربعة من نمرة)[١] .

اخرج الترمذى - واللفظ له - وابن ماجة والحاكم عن ابن عباس قوله[٢] (كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء ولواؤه ابيض)[٣] .

---

(١) اخرجه الترمذى فى الجهاد / باب ماجاء فى الرايات (٤ / ١٩٦) . قال الترمذى : وهذا حديث حسن غريب . واخرجه ابوداود فى الجهاد باب فى الرايات والالوية (٣ / ٣٢) . قلت : حسّن الذهبى هذا الحديث . انظر الميزان (٤ / ٤٨٢) .

(٢) نمرة : بفتح فكسر هى بردة من صوف يلبسها الاعراب، فيها خطوط من بياض وسواد . انظر تحفة الاحوذى (٥ / ٣٢٨) .

(٣) اخرجه الترمذى فى الجهاد / باب ماجاء فى الرايات (٤ / ١٩٦) . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن عباس . واخرجه ابن ماجة فى الجهاد / باب الرايات والالوية (٢ / ٩٤١) . واخرجه الحاكم فى المستدرك (٢ / ١٠٥) .
قلت: اسناده ضعيف لاجل "يزيد بن حبان" ضعفه الذهبى فى تذييله على المستدرك (٢ / ١٠٥) . وقال ابن حجر : صدوق يخطىء . انظر التقريب (٢ / ٣٦٤) ، وانظر التهذيب (١١ / ٣٢٢) .

(٤) قال صاحب تحفة الاحوذى : (الالوية جمع لواء بكسر اللام والمد . قال فى المغرب اللواء علم الجيش وهو دون الراية ، لانه شقة ثوب يلوى ، ويشد الى عود الرمح ، والراية علم الجيش ويكنى ام الحرب وهو فوق اللواء . وقال ابوبكر ابن العربى : اللواء غير الراية . فاللواء مايعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه . والراية مايعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح . وقال التوربشتى: الراية هى التى يتولاها صاحب الحرب ويقاتل عليها وتميل المقاتلة اليها . واللواء علامة كبكبة الامير تدور معه حيث دار . وفى شرح مسلم الراية العلم الصغير واللواء العلم الكبير) انظر تحفة الاحوذى (٥ / ٣٢٦) .

وفى غزوة مؤتة كانت للمسلمين راية حملها قائدهم زيد حتى استشهد ،ثم حملها قائدهم الثانى جعفر حتى استشهد فحملها قائدهم الثالث عبدالله بن رواحة حتى استشهد ثم حملها خالد بن الوليد بعد أن اختاروه اميرا عليهم (١) .

وفى غزوة خيبر كان على بن ابى طالب قائد الجيش يحمل الراية العامة لجيش المسلمين .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن سهل بن سعد رضى الله عنه انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول يوم خيبر : (لاعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه . قال فقاموا يرجون لذلك ايهم يعطى فغدوا كلهم يرجو ان يعطى فقال : اين على ؟ الحديث) (٢) .

ولاشك ان اتخاذ اللواء والراية فى المعركة يفيد فى تمييز الجيش الاسلامى عن جيش الكفار فيكون بذلك وسيلة للتعرف عليه ،كما انه يبعث فى نفوس المجاهدين روح العزة والاستعلاء على اعداء الله ويزيد فى حماستهم من اجل الدفاع عن دين الله،كى تبقى راية الاسلام عالية خفاقة .

الرابع/ اتخاذ الشعار فى المعركة :

ومن الوسائل التنظيمية التى اتبعها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم فى المعركة اتخاذ الشعار او كلمة السر ،وهى كلمة يومية متجددة عند القتال وفي اثناء الليل ،الهدف منها :

(١) ان تكون كلمة تعارف بين المجاهدين حتى لا يختلط بعضهم ببعض فيقتل احدهم الآخر ، وحتى لا يتمكن احد من الاعداء من اختراق صفوفهم والانغماس فيهم .

---

(١) انظر ذلك فى صحيح البخارى ،كتاب المغازى ،غزوة مؤتة (٣ / ٥٨) يرويه انس رضى الله عنه .

(٢) اخرجه البخارى فى الجهاد/ باب دعاء النبى الى الاسلام والنبوة . (٢ / ١٦١) . ومسلم فى فضائل الصحابة/ باب فضائل على بن ابى طالب (٤ / ٧٢ ١٨) .

(٢) اذكاء روح الجهاد والتضحية والفداء من خلال شعار يلهب حماسة المجاهدين .

(٣) ارعاب العدو من خلال اطلاق شعار يدق لهم اجراس الموت وينذرهم بالويل والهزيمة مما يحطم معنوياتهم فى المعركة .

وقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ التنظيمى فى جهاده لعدوه .

اخرج الامام احمد - واللفظ له - وابن الجارود وابوداود والترمذى والحاكم عن البراء بن عازب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انكم ستلقون العدو غدا وان شعاركم حم لا ينصرون)[1] .

قال الخطابى فى معنى شعار الجيش (حم لا ينصرون) قال : (معناه الخبر ، ولوكان بمعنى الدعاء لكان مجزوما اى لا ينصروا ، وانما هو اخبار كانه قال : والله انهم لا ينصرون ، واضاف : وقد روى عن ابن عباس انه قال حم اسم من اسماء الله فكأنه حلف بالله انهم لا ينصرون)[2] .

واذا كان هذا الشعار خبرا فانه يحمل بشارة النصر ، وهو مايزيد فى حماسة المجاهدين ويرفع من معنوياتهم الجهادية . وعند غزو ابى بكر رضى الله عنه هوازن كان شعار المسلمين : أمت ، أمت .

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (٤/٦٥ ، ٥/ ٣٧٧) . وابن الجارود فى المنتقى / كتاب الجهاد / باب ماجاء فى الشعار فى الحرب (٣٥٥)
والترمذى فى الجهاد / باب ماجاء فى الشعار (٤/ ١٩٧) .
وابوداود فى الجهاد / باب فى الرجل ينادى بالشعار (٣/ ٣٣) .
والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٠٧) وصححه . قلت : صحح ابن كثير الحديث فى التفسير / تفسير سورة غافر (٤/ ٦٩) .

(٢) انظر عون المعبود شرح سنن ابى داود (٧/ ٢٥٨) .
وتحفة الاحوذى (٥/ ٣٣٠) .

اخرج الامام احمد وابوداود -واللفظ له- وابن ماجة والدارمي والحاكم عن اياس ابن سلمة عن ابيه قال : (امر رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ابابكر رضى الله عنه فغزونا ناسا من المشركين فبيتناهم نقتلهم ، وكان شعارنا تلك الليلة : أمت . أمت ، قال سلمة : فقتلت بيدى تلك الليلة سبعة اهل ابيات من المشركين) (١) .

قال ابن الاثير فى معنى الشعار (أمت أمت) : (هو أمر بالموت ، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الامر بالاماتة مع حصول الغرض للشعار ، فانهم جعلوا هذه الكلمة علامة بينهم يتعارفون بها لاجل ظلمة الليل) (٢) .

هذه بعض ملامح التنظيم القتالى للجيش وقت المعركة كما طبقها الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى جهاده ، يرى فيها الدارس الابتكار والدقة العسكرية . وهذا درس للمسلمين اليوم كى يطلعوا على اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالاساليب العسكرية المختلفة ، واخذه بها كى ينتصر على عدوه ، فهو درس للمسلمين فى اسباب النصر والهزيمة .

نماذج من تخطيط المسلمين وتنظيمهم للمعارك :

بعد ان ابرزت اهم ملامح التخطيط والتنظيم العسكرى لدى الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، سأتناول غزوتين من غزواته عليه الصلاة والسلام للاطلاع على نموذج التخطيط والتنظيم فى الغزوة الواحدة ، ثم سأذكر نماذج اخرى من تاريخ جهاد الصحابة رضوان الله عليهم .

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (٤/ ٤٦) . وابوداود فى الجهاد باب فى الرجل ينادى بالشعار (٣/ ٣٣) ، وباب فى البيات (٣/ ٤٣ ، ٤٤) . وابن ماجة فى الجهاد /باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان (٢/ ٩٤٧) . والدارمى فى الجهاد /باب الشعار (٢/ ١٣٨) . والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٠٧) وصححه . قلت : اسناد الدارمى صحيح ورجاله ثقات . واسناد الاخرين حسن لاجل عكرمة بن عمار فهو صدوق يخطئ كما فى التقريب (٢/ ٣٠) ، وقال الامام احمد : وكان حديثه عن اياس بن سلمة صالحا . انظر الميزان للذهبى (٣/ ٩١) . وحسّن الالبانى اسناد ابى داود فى مشكاة المصابيح (٢/ ١١٥٥) .

(٢) انظر جامع الاصول لابن الاثير (٢/ ٥٧٣) بتصرف .

التنظيم والتخطيط فى معركة بدر :

اولا : ارسل الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بسيسة عينا ينظر ماصنعت عير ابى سفيان (١) فجاءته الاخبار بذلك . وعلى ضوء المعلومات المتوفرة تحرك الرسول بمن حضر معه من المسلمين ، وكانت القافلة هى الهدف.

ثانيا : ولما علم المسلمون بانحراف القافلة عن مسارها للافلات من قبضة المسلمين ، تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال التحقيق مع بعض اسرى قريش من معرفة النوايا الجديدة لقريش وعزمها على قتال المسلمين ، وتمكن من معرفة عدد العدو وقادته (٢) .

ثالثا : بعد ان تغير الهدف الذى قدم من اجله المسلمون وبرزت معطيات جديدة فى الصراع مع المشركين ، بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم فى تغيير خطته لتكون قائمة على قتال قريش وهزيمتها ، وبناء عليه فقد اتخذت التدابير الآتية :

(١) مشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين فى قتال المشركين وموافقة المسلمين على ذلك (٣) .

(٢) التحرك السريع لقوات المسلمين لكى يستولوا على عيون الماء ببدر وتغوير العيون الاخرى لمنع العدو من الاستفادة منها .

(٣) تعبئة الرسول صلى الله عليه وسلم للمقاتلين :

لقد عبأ الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين فى بدر ليلا لكى يكونوا على اهبة الاستعداد لقتال المشركين .

---

(١) ورد فى حديث سيأتى بيانه وتخريجه فى موضوع الامن العسكرى / الاستطلاع ص ٤٣١ ، فيمكن الاطلاع عليه .

(٢) انظر ذلك ايضا فى موضوع الاستطلاع فى غزوة بدر من موضوع الامن العسكرى ص (٤٣٢، ٤٣٣) .

(٣) انظر موضوع الشورى - غزوة بدر ص (١٩٦، ١٩٧) .

اخرج الامام الترمذى عن عبدالرحمن بن عوف قال : (عبأنا رسول الله ببدر ليلا)[1] .

وكان من تعبئة المسلمين آنذاك اتباع نظام الصفوف ، وهو تنظيم جديد على قريش التى كانت تعتمد اسلوب الكر والفر .

اخرج الامام احمد عن ابى ايوب رضى الله عنه قال : (صففنا يوم بدر فبدرت منا بادرة امام الصف فنظر اليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال : معي معي)[2] .

واتباع المسلمين لاسلوب الصف اكسبهم المزايا الآتية :

(أ) تأمين ترتيب القوات بالعمق مما يبقى للقائد احتياطاً من القوة لمعالجة المواقف الطارئة كأن يصد هجوماً مضاداً للعدو ، اويضرب كمينا أو أن يستخدم هذا الاحتياط فى حماية أجنحة الجيش من هجمات العدو أو أن يستثمره فى الانقضاض على الخصم فى هجوم من منطقة ضعف لدى العدو أو من خلال حركة التفاف حوله .

(ب) تأمين سيطرة القائد على القوات باكملها فى حين ان اسلوب الكر والفر الذى اتبعه المشركون لايتحقق فيه ذلك لانه يعتمد على الحركة الفردية للمقاتلين .

---

(١) اخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد / باب ماجاء فى الصف والتعبئة عند القتال (٤ / ١٩٤) . قال الترمذى : وهذا حديث غريب لانعرفه الا من هذا الوجه ، وسألت محمد بن اسماعيل (البخارى) عن هذا الحديث فلم يعرفه وقال : محمد بن اسحاق سمع من عكرمة ، وحين رأيته كان حسن الرأى فى محمد بن حميد الرازى ثم ضعفه بعد . قلت : الحديث ضعيف ، لاجل محمد ابن حميد الرازى ضعفه البخارى كما نقل الترمذى ، وابن حجر فى التقريب (٢ / ١٥٦) . والذهبى فى الميزان (٣ / ٥٣٠) ، ولاجل تدليس ابن اسحاق اذ لم يصرح بالسماع من عكرمة فى هذا الحديث.

(٢) اخرجه الامام احمد فى المسند (٥ / ٤٢٠) .

قلت : قال ابن كثير فى تاريخه (٣ / ٢٧١) : تفرد به احمد ، وهذا اسناد حسن .

(جـ) كما أن اسلوب الصفوف يصح للدفاع وللهجوم فى وقت واحد .

(د) استخدام اسلوب الصف فيه مباغتة للعدو لان المشركين لم يعرفوا هذا الاسلوب من القتال.يقول اللواء / محمود شيت خطاب:

(ان تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم لاسلوب الصفوف فى معركة بدر عامل مهم من عوامل انتصاره على المشركين ، والتاريخ العسكرى يحدثنا بان سر انتصار القادة العظام . . هو انهم طبقوا اسلوبا جديدا فى القتال غير معروف اوقاتلوا باسلحة جديدة غير معروفة)[١] .

(٤) ووزع الرسول صلى الله عليه وسلم الرايات فاعطى اللواء - وكان ابيض - الى مصعب بن عمير ، واعطى رايتين سوداوين لعلى بن ابى طالب وسعد[٢] ابن معاذ[٣] ، وجعل على الساقة قيس بن ابى صعصعة .

(٥) وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم للمهاجرين شعارا وللأنصار شعارا يتعارفون به .

اخرج ابوداود بسنده عن سمرة بن جندب قال : (كان شعار المهاجرين[٤] عبدالله وشعار الانصار عبدالرحمن) .

(٦) حراسة المسلمين وقتالليل ، وقد قام الرسول بنفسه على حراستهم.[٥]

---

(١) الرسول القائد / اللواء الركن محمود شيت خطاب (١١٧) .

(٢) الساقة : جمع سائق ، وهم الذين يسوقون جيش الغزاة ، ويكونون من ورائه يحفظونه . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ٤٢٤) .

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٦٠) . وزاد المعاد لابن القيم (٢ / ٢١٧) .

(٤) اخرجه ابوداود فى الجهاد / باب الرجل ينادى فى الشعار (٣ / ٣٢ ، ٣٣) . قلت : اسناده ضعيف لاجل الحجاج بن ارطأة فهو صدوق كثير الخطأ ومدلس من الطبقة الرابعة ، الذين لا يحتج بحديثهم الا اذا صرحوا بالسماع.والحديث رواه بالعنعنة انظر التقريب لابن حجر (١ / ١٥٢) . والميزان للذهبى (١ / ٤٥٨ - ٤٦٠) . وضعفه الالبانى فى مشكاة المصابيح (٢ / ١١٥٥) .

(٥) ورد ذلك فى حديث سبق ذكره وتخريجه فى موضوع القيادة الراشدة فيمكن الرجوع اليه ص (٣٤١) .

(٧) تنظيم عملية استخدام الاسلحة ضد العدو .

لقد اعطى الرسول القائد عليه الصلاة والسلام تعليماته للمجاهدين بما يحقق تنظيم عملية استخدام الاسلحة وحسن الاستفادة منها في المعركة .

اخرج البخاري - واللفظ له - وابوداود عن ابى اسيد قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : ([1] اذا اكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم) .

ومعنى قوله (اذا اكثبوكم) اى اذا قربوا منكم . وقوله (فارموهم واستبقوا نبلكم) امر بالاستبقاء اى طلب الابقاء . ومعنى قوله (واستبقوا نبلكم) لا يتعلق بقوله (ارموهم) وانما هو كالبيان للمراد بالامر بتأخير الرمى حتى يقربوا منهم ، اى انهم اذا كانوا بعيدا لا تصيبهم السهام غالبا ، فالمعنى استبقوا نبلكم في الحالة التى اذا رميتم بها لا تصيب غالبا ، واذا صاروا الى الحالة التى يمكن فيها الاصابة غالبا فارموا [2] .

وتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم - المذكور - للمقاتلين يستهدف تأخير اطلاق النبل حتى مظنة اصابته للهدف ، وذلك حرصا على الاستفادة من النبل لتصيب اهدافها مباشرة ولا تضيع سدى .

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى - غزوة بدر / باب فضل من شهد بدرا (٣ / ٧ ، ٨) .
وابوداود فى الجهاد / باب فى الصفوف (٣ / ٥٢) وباب فى سل السيوف (٣ / ٥٢) .

(٢) انظر فتح البارى لابن حجر (٧ / ٣٠٦ ، ٣٠٧) ، (٦ / ٩٢) .

يقول اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ : (والمدهش أن هذا الامر (واستبقوا نبلكم) هو بعينه قاعدة يتعلمها العسكريون اليوم في الدفاع ويطلقون عليها (كبت او حبس النيران) فرصاص البنادق اليوم يصل مداه الى عدة مئات من الامتار، لكن اصول الرمي في الدفاع تقضي بأن " يحبس" المدافعون نيران بنادقهم حتى يصل العدو المهاجم الى مدى (١٠٠) متر أو أقل حتى يضمنوا دقة الاصابة مع الاقتصاد في استهلاك الذخيرة في الوقت نفسه) .(١)

وبالاطلاع على رواية ابي داود ندرك زيادة جديدة تضيف توجيها آخر في عملية تنظيم استعمال الاسلحة .

فقد جاء فيها : (اذا اكتبوكم فارموهم بالنبل ولاتسلوا السيوف حتى يغشوكم) .

والزيادة هي قوله (لاتسلوا السيوف حتى يغشوكم) اي يكونوا مواجهين لكم مباشرة قريبين من ايديكم .

• في البداية امر باستخدام سلاح النبل عندما يكون العدو على مسافة الاصابة المباشرة ثم امر باستخدام سلاح السيف عندما يقرب منهم العدو ويكونون في متناول الايدي والسيوف .

---

(١) انظر مجلة الامة /عدد ٧ ٥/ السنة الخامسة .

استخدام سلاح النبل فى/ مهم لماله من الاثر فى ارباك العـــدو وتحطيم هجومه ، وبالمقابل يحفظ اتزان الجيش وقدراته وطاقاته،كما يحفظـــه على نفس التعبئة التى كان عليها،ويسهل على القيادة تحريكه لمتطلبات جديدة تقتضيها المعركة . ويأتى بعد ذلك استخدام السيوف بعد أن يكون هجوم العدو قد انكسر ، في حين يكون المسلمون بكامل قوتهم اذ لم يبذلوا جهـدا كبيرا فيتمكنون بهذا من تصفية العدو.

هذه مجموعة من التدابير العسكرية التى اتخذها الرسول القائـد صلى الله عليه وسلم فى بدر، والتى تعبر عن حسن تخطيطه وتنظيمه للمعركـة ، وهى من الاسباب التى مكنت المسلمين من الانتصار على المشركين فى بـــدر بفضل الله وتوفيقـــه .

التخطيط والتنظيم فى غزوة الفتح :

تُعدُّ غزوة الفتح من اهم الغزوات فى تاريخ الدعوة الاسلامية لاسباب كثيـــرة اهمها أن مكة فيها اهم مقدسات المسلمين حيث البيت الحرام والمناطـــق التى تؤدى فيها مشاعر الحج والعمرة،كما أن فى مكة أعتى قوة فى شبـــه الجزيرة العربية فباستسلامها يسهل السيطرة على باقى انحاء شبه الجزيـــرة وكافة قبائل العـــرب.

ولذا فان فتح مكة كان من الاهداف الاساسية التى استهدفها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بجهاده . ودارت جولات جهادية مع قريش لكنهـــا لم تكن لتحسم الامر معهم . ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين طويلة يَعدُّ لفتح مكة فكوّن لذلك جيشا ضاربا من الانصار والمهاجرين والمسلمين الاعراب،

واستعمال كثيرا من القبائل العربية ، وتدرب جيش المسلمين مرات للقتال ضد ذلك العدو في بدر واحد والاحزاب، واذهب بذلك هيبة قريش وكبريائها وافقدها الثقة في قدرتها على مواجهة ذلك الجيش.

واتاح صلح الحديبية الفرصة للمسلمين لتطوير قوتهم وتشديد قبضتهم على باقي المشركين من القبائل العربية . . ولما نقضت قريش الصلح ، تحققت للمسلمين فرصة توجيه الضربة القاضية لقريش في عقر دارها ليتحقق بذلك الهدف الرئيسي الذي طالما جاهد المسلمون من اجله .

وقد اعد الرسول القائد لهذه الضربة اعدادا مسبقا طويل المدى كما ذكرت سابقا ، ثم لما حانت الفرصة اتخذ قراره بتوجيه الضربة ، واعد خطة الهجوم ونظم الجيش ، وتمثل ذلك في اتخاذه مجموعة التدابير الآتية :

اولا : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نقض قريش الصلح تجهز للقتال (واوجب مع رسول الله المهاجرون والانصار فلم يتخلف عنه منهم أحد)[1] ، واستنفر القبائل التي حول المدينة فخرجت قبيلة اسلم وغفار ومزينة وجهينة واشجع وسليم .[2]

و بلغ عدد جيش المسلمين في هذه الغزوة عشرة آلاف مقاتل .[3]

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : (ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف وذلك على رأس ثماني سنين ونصف من مقدمه المدينة . . .) .

---

(١) فقرة من حديث طويل سبق تخريجه في موضوع الحرب النفسية صفحة (٢١٩) ، هامش (١) .

(٢) ورد ذلك في حديث سبق تخريجه في موضوع الحرب النفسية صفحة(٢١٩) هامش(٢) فليراجع هناك .

(٣) اخرجه البخاري في المغازي/ باب غزوة الفتح في رمضان (٣ / ٦٠) .

ثانيا : حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على كتمان خبر تحرك المسلمين الى مكة ، ليباغت القوم فى ديارهم.(١)

ثالثا : تعبئة الجيش : عبأ الرسول صلى الله عليه وسلم الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب و مؤخرة وهم الرجالة.

رابعا : اختيار القادة الاكفاء : جعل رسول الله على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة الزبير وعلى الرجالة اباعبيدة ، وكان رسول الله قائدا لكتيبة اخرى.

أخرج الامام مسلم بسنده عن ابى هريرة قال : (كنا مع رسول الله(٢) صلى الله عليه و سلم يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على المجنبة(٣) اليمنى ، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى ، وجعل اباعبيدة على البياذقة(٤) و بطن الوادى . . الحديث) .

وفى رواية اخرى لمسلم(٥) : (ورسول الله فى كتيبة) .

خامسا : توزيع الجيش الى كتائب: كان جيش المسلمين ينقسم الى كتائب ، كل قبيلة تعد كتيبة على حدة.

أخرج البخارى بسنده عن هشام عن ابيه قال : قال عليه الصلاة والسلام للعباس: (احبس ابا سفيان عند حطم الخيل حتى ينظر الى المسلمين(٦) .

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٩٠) .
(٢) اخرجه الامام مسلم فى الجهاد والسير/باب فتح مكة (٣ / ١٤٠٧) .
(٣) المجنّبة : قال ابن الاثير : مجنبة الجيش هى التى تكون فى الميمنة والميسرة وهما مجنّبتان ، والنون مكسورة . وقيل هى الكتيبة التى تأخذ احدى ناحيتي الطريق ، والاول اصح . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ٣٠٣) .
(٤) البياذقة : قال ابن الاثير : هم الرجالة . واللفظه فارسية معربة . و قيل سموا بذلك لخفة حركتهم وانهم ليس معهم مايثقلهم . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ١٧١) .
(٥) سبق تخريجه فى هامش(٢) من هذه الصفحة وهو عند مسلم (٣ / ١٤٠٥) .
(٦) سبق تخريجه فى موضوع الحرب النفسية صفحة (٢١٩) هامش(٢) .

فحبسه العباس ، فجعلت القبائل تمر مع النبى صلى الله عليه وسلم كتيبة كتيبة على ابى سفيان ، فمرت كتيبة قال ياعباس : ماهذه ؟ قال : هذه غفار ، قال : مالى ولغفار ، ثم مرت جهينة قال مثل ذلك ، ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك ، حتى اقبلت كتيبة لم ير مثلها قال : من هذه ؟ قال هؤلاء الانصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية . . ، ثم جاءت كتيبة وهى اقل الكتائب فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وراية النبى صلى الله عليه وسلم مع الزبير بن العوام . . الحديث) .

سادسا : اتخاذ الرايات والألوية فى الجيش : مر فى حديث البخارى السابق ان سعد بن عبادة كان يحمل راية الانصار ، والزبير بن العوام كان يحمل راية النبى صلى الله عليه وسلم .

سابعا : الاخذ بمبدأ الحراسة : ويظهر ذلك من تمكن حراس المعسكر الاسلامى الذى كان نازلا بمرّ الظهران من القبض على ابى سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء حيث كانوا يتلمسون الخبر كما جاء فى صحيح البخارى عن هشام عن ابيه (خرج ابو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله . . فرآهم ناس من حرس رسول الله فادركوهم فاخذوهم فأتوا بهم رسول الله . .) (١) .

ثامنا : ممارسة الحرب النفسية على ابى سفيان زعيم قريش آنذاك لدفع قريش الى الاستسلام (٢) .

---

(١) فقرة من حديث سبق تخريجه فى موضوع الحرب النفسية صفحة (٢١٩) هامش (٢) .

(٢) راجع الحرب النفسية صفحة (٢١٩ ، ٢٢٠) .

تاسعا : تحديد خطة اقتحام الجيش لمكة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من اعلى مكة من جهة كداء (١) ، وامر الزبير ان يدخل بخيل المهاجرين من هذه الجهة وامره ان يركز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه وجعل الانصار من امامه ، وامر خالدا أن يدخل من اسفل مكة (٢) ، وامر ابا عبيدة وهو على الرجالة ان يدخل من بطن الوادى كما سيأتى فى حديث مسلم قريبا من طريق ابى هريرة .

عاشرا : تحديد موعد المعركة ونقطة الالتقاء فى مكة :

امر الرسول صلى الله عليه وسلم كتائب المسلمين بدخول مكة فى اليوم التالى وامر الزبير بان يغرز الراية بالحجون وينتظر حتى يلتقى به رسول الله ، وضرب للانصار موعدا للقاء بهم على الصفا ، وهو مايدل على التخطيط المسبق وحسن التنظيم فى المعركة .

اخرج الامام مسلم عن ابى هريرة قال (٣) : (كنا مع رسول الله يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى ، وجعل اباعبيدة على البياذقة وبطن الوادى ، فقال ياابا هريرة ادع لى الانصار . فدعوتهم ، فجاءوا يهرولون فقال : يامعشر الانصار هل ترون اوباش قريش ؟ قالوا : نعم . قال : انظروا اذا لقيتموهم غدا أن تحصدوهم حصدا ، واخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال موعدكم الصفا . قال : فما اشرف يومئذ لهم احد الا اناموه .

---

(١) انظر ذلك فى صحيح البخارى /كتاب المغازى / غزوة الفتح - باب دخول النبى من اعلى مكة (٣ / ٦٢) روته السيدة عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها .
(٢) انظر فتح البارى لابن حجر (٨ / ١٠) .
(٣) سبق تخريجه فى الصفحة (٤٠٠) ، هامش (٢) .

قال : وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا ، وجاءت الانصار فاطافوا بالصفا فجاء ابو سفيان فقال : يارسول الله ابيدت خضراء قريش. لا قريش بعد اليوم . قال ابو سفيان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار ابى سفيان فهو آمن ومن القى السلاح فهو آمن ، ومن اغلق بابه فهو آمن . . الحديث) .

حادى عشر : الهيمنة على مكة بعد دخولها ، ونزع كل الظواهر الحربية منها بعد تأمين من لم يحمل السلاح منهم ، واستمالة زعيم قريش آنذاك ابي سفيان بتأمين من دخل بيته .

مجموعة التدابير العسكرية هذه تفصح عن براعة الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى حسن التخطيط ودقة التنظيم للمعركة ، وهو مايفصح عن واحد من اسباب انتصارات الرسول القائد عليه الصلاة والسلام على عدوه .

واستفاد الصحابة رضوان الله عليهم من براعة الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى التخطيط والتنظيم ، وطبقوا ماتعلموه من المبادئ خلال قيادتهم لبعض الغزوات والمعارك ابّان حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، وتفوق الصحابة فى ذلك ايما تفوق ، ويطيب لى ان استشهد على ذلك بمعركة اليرموك التى هى من اهم معارك المسلمين ضد الروم لنستمد منها درسا فى النصر.

التخطيط والتنظيم فى معركة اليرموك :

لقد كانت معركة اليرموك من المعارك الفاصلة فى تاريخ الامة الاسلامية ، اذ اجتمع فيها مايقرب من مائتى واربعين الفا من الروم ، وقابلهم ستة وثلاثون الى الاربعين الفا من المسلمين[1] ، وانتصر عليهم المسلمون نصرا عزيزا .

---

(١) انظر موضوع عدم الاعجاب بالكثرة او اليأس للقلة صفحة (٢٤٠) هامش (١) .

وقد اخذ المسلمون فى هذه المعركة باسباب النصر ومن ذلك مانحن بصدده الآن وهو حسن التخطيط ودقة التنظيم فى المعركة ، وسألخّص مجمل اجراءات التخطيط والتنظيم عند المسلمين دون استرسال او تطويل ، وهى كالآتى : (١)

اولا : توحيد فصائل الجيش المتفرقة فى انحاء الشام فى جيش واحد وذلك لما وصل خالد بن الوليد من العراق الى الشام لنجدة المسلمين هناك بامر الخليفة الصديق رضى الله عنه (وجد خالد الجيوش متفرقة فجيش ابى عبيدة وعمرو بن العاص ناحية ، وجيش يزيد وشرحبيل ناحية . فقام خالد فى الناس خطيبا فامرهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف ، فاجتمع الناس وتصافوا مع عدوهم فى اول جمادى الآخرة) .

ثانيا : توحيد القيادة العسكرية : طلب خالد بن الوليد الى قادة فصائل الجيش: ابى عبيدة وعمرو بن العاص ويزيد وشرحبيل ان ينضووا جميعا تحت قيادة واحدة بالتناوب يوميا .

وقال فى ذلك : (فلنتعاور الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى اليوم ، أليكم فأمّروه عليهم وهم يظنون ان الامر يطول جدا) .

ثالثا : عبأ خالد الجيش تعبئة حديثة (لم تعبئها العرب قبل ذلك فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا الى الاربعين ، كل كردوس الف رجل عليهم امير ، وجعل اباعبيدة فى القلب ، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة وعلى الميسرة يزيد بن ابى سفيان) .

---

(١) مصدر المعلومات التى سترد هنا هو البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٨ ، ٩) .
وتاريخ الطبرى (٣ / ٣٩٤ - ٣٩٧) .
ومابين الاقواس هو من لفظ ابن كثير مع تصرف يسير منى .

وجعل خالد (عكرمة بن ابى جهل والقعقاع بن عمرو على مجنبتى القلب) .

رابعا : فرقة الطليعة فى الجيش: كون خالد بن الوليد فرقة الطلائع وامر عليها قباث بن اشيم.

خامسا : فرقة الرجالة : واميرها هاشم بن عتبة بن ابى وقاص.

سادسا : فرقة الخيالة : بقيادة خالد بن الوليد وهو القائد العام للجيش.

سابعا : فرقة لجمع الغنائم : واميرها عبدالله بن مسعود .

ثامنا : اختيار امراء الفرق العسكرية ، وعدّ هم الطبرى باسمائهم فبلغوا عنده اثنين واربعين اميرا .

تاسعا : توزيع الرايات على الفرق المختلفة ، وخروج كل فرقة براية.

عاشرا : وجعل خالد للجيش قاضيا و هو ابو الدرداء ، وقارئا يقرأ على الجند سورة الانفال وآيات الجهاد وهو المقداد بن الاسود ، وقاصا يعظهم ويحثهم على القتال وهو ابوسفيان رضى الله عنهم.

حادى عشر : تطوير خطة المواجهة باستحكامات جديدة : لما اقبلت الروم فى خيلائها وفخرها قد سدّت اقطار تلك البقعة سهلها ووعرها ، كأنها غمامة سوداء . . رأى خالد تعزيز خطة المواجهة واستشار اباعبيدة وقال له (انى مشير بامر فقال : قل ماامرك الله ، اسمع لك واطيع . فقال له خالد : ان هؤلاء القوم لابد لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها وانى اخشى على الميمنة والميسرة وقد رأيت ان افرق الخيل فرقتين واجعلها وراء الميمنة والميسرة حتى اذا صدموهم كانوا لهم ردءا فنأتيهم من ورائهم . فقال له نعم ما رأيت. فكان خالد فى أحد الخيلين من وراء الميمنة . وجعل قيس بن هبيرة فى الخيل

الاخرى ، وامر ابا عبيدة ان يتأخر عن القلب الى وراء الجيش كله لكى اذا رآه المنهزم استحيى منه ورجع الى القتال ، فجعل ابو عبيدة مكانه فى القلب سعيد بن زيد احد العشرة) .

من خلال مامر من وسائل التخطيط والتنظيم فى معركة اليرموك ندرك اهتمام المسلمين الاوائل بالاعداد الادارى للمعركة ، ونطلع من هذا النموذج وماسبقه من نماذج اخرى على اهمية التخطيط والتنظيم فى احراز النصر ، ونؤكد على ان هذا السبب هو من اسباب انتصارات المسلمين الاوائل فى معاركهم مع اعدائهم .

السبب الرابع:

الأمـــن العسكـــــرى

تمهيد : تعـد الأسرار العسكرية من أخطر مايؤثر على الجيش فى المعركـة ، لأن هـذه الأسرار تحتوى على عدد الجيش وقدراته و مخططاته وتنظيماتـــه وتحركاته ، فإذا وقعت أو وقع جزء منها فى يد العدو فإنها تعتبر سلاحـاً مؤثراً يمكن من خلاله احباط مخططاته ، وضرب نقاط الضعف عنده ، او مباغتته بضربة قوية تشل قدراته العسكرية وتضطره الى الرضوخ والاستســلام.

لذا فان الدول الحديثة تعتنى باجهزة مخابراتها اشد العناية وتنفق عليها بغير حدود ، لتجمع لها المعلومات المهمة عن العدو ، ولتقاوم مخابرات العدو فى المقابل . واصبحت هذه الاجهزة من الاركان الاساسية للجيـــش والدولـــــة .

وحرب المعلومات لاتتوقف بين الخصوم والاعداء كل يحرص على جمع اكبر قدر من المعلومات عن خصمه ليتمكن بناء على هذه المعلومات من ترتيب خططـــه العسكرية للظفر به فى المعركـــــة .

يقول اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ: (ويقرر العلم العسكرى مبدأ يقول : يؤسس القائد خطته فى الميدان على مالديه من معلومات ، وكلما كانت المعلومات وافية ودقيقة كان الامل فى نجاح الخطة كبيرا ، لذلك فمـــــن الواجبات الضرورية لجميع القادة اتخاذ كل مامن شأنه ان يزودهم بالمعلومات عن العدو ونواياه وحركاته الى غير ذلك من المعلومات)(١) .

---

(١) النظرية الاسلامية فى الاستطلاع والامن ومقاومة الجاسوسية.تأليفا للـــواء الركن / محمد جمال الدين محفوظ (٢١ ، ٢٢) .

وبهذا فان الاسرار والمعلومات العسكرية هى سلاح قوى وفعال فى المعركة يسبب النصر لمن حفظ اسراره عن عدوه وعرف فى المقابل اسراره ، ويسبب الهزيمة للآخر لعدم توفر امن المعلومات والتحركات العسكرية لديه .

وعنى الاسلام بمبدأ الامن العسكرى اشد العناية ، وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم فى جهاده كما سترى ، فكان من ابرز اسباب انتصاراته على الاعداء .

يقول اللواء الركن / محمد جمال الدين محفوظ : (ولقد اثبت تاريخ صدر الاسلام ان من اسباب انتصار المسلمين على اعدائهم الكثيرين ان اسرار النبى صلى الله عليه وسلم واسرار المسلمين كانت مصونة وبعيدة عن متناول الاعداء ، فى الوقت الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يطلع على نيات اعدائه العدوانية عن طريق عيونه وارصاده قبل وقت مبكر فيعمل من جانبه على احباط مايبيتونه للاسلام من غدر وخيانة ودسائس) (١) .

ويقوم الامن العسكرى على اربعة قواعد هى : الكتمان ، والاستخبار والاستطلاع ، والحراسة . وسأفصل الثلاثة الاول منها هنا مع تطبيقاتها من السيرة لابراز اثرها فى احراز النصر ، وسأتعرض للمبدأ الرابع = الحراسة جزءاً فى موضوع المباغته لانه منه لا يمكن فصله عنه .

هذا وليس مقصودى ذكر كل قواعد واصول ومبادئ واساليب الامن فى العسكرية الاسلامية وانما التمثيل لتلك الاصول والقواعد لابراز اهميتها فى المعركة واثرها فى احراز النصر .

---

(١) اقتباس النظام العسكرى (١٧٤) .

اولا : الكتمـــــــــــــــان

ان من اول اركان الامن العسكرى كتمان الاسرار والمعلومات عن العدو. والمحافظة على سرية التحركات العسكرية، وتضليل العدو بالمعلومات الخاطئة ، ليحصـــــل بذلك المباغتة له فى كل شىء حسب الخطط المرسومة ، وهو مايساهم فى احـــراز النصر على العدو.

وخلاف ذلك افشاء الاسرار وتسريبها للعدو فانه يؤدى الى احباط الخطط المرسومة ويمكن العدو من الاستفادة من نقاط الضعف. . ، ويمكنه من معاجلتـــه بضربة قاضية فيكون افشاء الاسرار سببا لكل مايصيبهم من هزيمة واندحار.

حض الاسلام على كتمان السر عامة، واسرار الجهاد خاصة :

لقد اشار القرآن الكريم الى ان حفظ الاسرار سبب للفوز وبلوغ المرام واجتناب اذى الخصم . فقد ذكر القرآن وصية اصحاب الكهف لمن ذهب منهم لشراء الطعام بان يكتم امرهم ولا يفشى سرهم حتى لا يصيبهم اذى الحاكم اذا علم بهم.

يقول سبحانه : (قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الـــى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احـــدا * انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا ابدا) (١) .

لقد كانت الوصية لمن ذهب لشراء الطعام بالتلطف وعدم اشعار احد بهم اى كتمان امرهم ، قال الآلوسى فى معنى قوله (وليتلطف) : اى وليتكلف اللطـــف فى المعاملة كى لا تقع خصومة تجر الى معرفته ، او ليتكلف اللطف فى الاستخفـــاء دخولا وخروجا ، وقال فى معنى قوله (ولا يشعرن بكم احدا) : اى لا يفعلن مايؤدى الى شعور احد من اهل المدينـــة بكم (٢) .

---

(١) سورة الكهف (١٩ ، ٢٠) .

(٢) انظر روح المعانى للآلوسى (٥ / ٣ / ٢٣١) . وتفسير النسفى (٣ / ٦) .

واردف القرآن فى بيان مايترتب على اكتشاف السر ومعرفة اهل القرية امرهم فقال سبحانه (انهم ان يظهروا عليكم) اى يطلعوا عليكم (يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم) فالذى يترتب هو حصول الاذى سواء بالقتل على اخبث قتله . اوبالاكراه للرجوع الى ملة الكفر التى يدين بها اهل القرية (١) .

وبهذا فان القرآن يوجه انظار المسلمين الى كتمان امورهم عن عدوهم . لا سيما الامور العسكرية حيث تكتسب اهمية خاصة لما يترتب عليها من عظيم المنفعة او المضـــرة .

لذا فان الكتمان على العدو يعد من اسباب النصر والظفر بهم ، اذ لا يتيح لهم فرصة التعرف على احوال المسلمين من جوانب القوة والضعف عندهم فلا يتمكن من الوصول اليهم .

نماذج من الكتمان فى جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم :

ان من جملة اسباب انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على اعدائه كتمانه اخباره عنهم . وقد اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم اساليب مختلفة من اجل كتمان هذه الاخبار ، وفى غزوات كثيرة سأعرض لبعضها الآن .

كتمان تحركات جيش المسلمين بالمسير الليلى :

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته يتحرك بالمسلمين ليلا حتى يحول دون انكشاف نيته واتجاه حركة قواته مما يمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من مباغتة عدوه واخذه على حين غرة .

---

(١) انظر روح المعانى للآلوسى (٥ / ٣ / ٢٣١) وتفسير النسفى (٣ / ٦) .

اخرج الامام احمد - واللفظ له - والحاكم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير له[١] : (انا مدلجون فلا يدلجن مصعب ولا مضعف[٢] . الحديث) .

قال ابن الاثير فى معنى الدلجة : هى سير الليل . يقال ادلج بالتخفيف اذا سار اول الليل ، وادّلج - بالتشديد - اذا سار من آخره . والاسم منهما الدُّلْجة والدَّلْجة ، بالضم والفتح[٣] .

ولما عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على قتال يهود خيبر امر المسلمين بالتحرك ليلا ليستفيد من ظلام الليل فى كتمان تحركاته العسكرية فتمكن بذلك من مباغتة اليهود .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن انس قال[٤] : (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا غزا قوما لم يُغِرْ حتى يصبح فان سمع أذانا أمسك وإن لم يسمع أذانا أغار بعد ما يصبح ، فنزلنا خيبر ليلا) . وتمكن الرسول حقا من مباغتة اليهود ، اذ لما خرجوا فى الصباح الباكر خرجوا وهم يحملون ادوات الزراعة والفلاحة فوجئوا بهجوم المسلمين عليهم ، فسقطوا فى ايدى المسلمين ، وكان لتحرك المسلمين ليلا اثره الكبير فى اخفاء اخبار الهجوم عن اعين اليهود .

---

(١) اخرجه الامام احمد فى المسند (٢ / ٢٧٥) . والحاكم فى المستدرك (٢ / ١٤٥) وصححه . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣ / ٤١) : رواه احمد والطبرانى فى الكبير ، واسناد احمد حسن . قلت : الحديث حسن لاجل اسماعيل ابن عياش فهو صدوق فى روايته عن اهل بلده مخلط فى غيرهم . انظر التقريب (١ / ٧٣) . وقد روى الحديث عن راشد بن داود الصنعانى وهو شامى من بلده . ولاجل راشد ايضا فانه صدوق له اوهام كما قال ابن حجر فى التقريب (١ / ٢٤٠) . ووثقه دحيم وابن معين . وقال البخارى : فيه نظر ، وضعفه الدارقطنى . انظر الميزان (٢ / ٣٥) .

(٢) مصعب : من كان بعيره صعبا غير منقاد ولا ذلول . والمضعف من كانت دابته ضعيفه . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ٢٩) .

(٣) انظر غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ١٢٩) .

(٤) اخرجه البخارى فى المغازى / باب غزوة خيبر (٣ / ٤٩) ، وفى الجهاد / باب التكبير بالحرب (٢ / ١٦٨) ، وباب دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسلام (٢ / ١٦١) . ومسلم فى الجهاد والسير / باب غزوة خيبر (٣ / ١٤٢٦ ، ١٤٢٧) .

والمسير الليلي من اروع اساليب كتمان التحركات العسكرية .

الرسائل السرية : ومن اساليب الكتمان التى ابتكرها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم اسلوب (الرسائل المكتومة) ، وكان ذلك فى السرية التى بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة عبدالله بن جحش حيث كتب له كتابا وامره ان لا يفتحه الا بعد ان يسير يومين، فلما مضى يومان فتح عبدالله بن جحش الكتاب وقرأه، فاذا فيه : (اذا نظرت فى كتابى هذا فسر حتى تنزل نخلة (١) بين مكة والطائف فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من اخبارهم) (٢) فلما قرأ الكتاب قال : سمعا وطاعة . . .

والحكمة من استخدام الرسائل السرية هى كتمان التحركات العسكرية والجهة المرادة من حركة السرية او الجيش لتأمين سلامته ، ولاصابة العدو على حين غرة .

ولم يعرف هذا الاسلوب الا اخيرا فى الحرب العالمية الثانية حين فطن اليه الالمان (٣) ، ولكن تبين مما سبق سبق المسلمين الى ذلك منذ اربعة عشر قرنا من الزمان .

---

(١) نخلة : موضع على ليلة من مكة . انظر معجم ما استعجم : الامام عبدالله ابن عبدالعزيز البكرى (٢ / ١٣٠٤) .

(٢) انظر تاريخ الامم والملوك للطبرى (٢ / ٤١١) والقصة من طريق ابن اسحاق عن الزهرى عن عروة . وهذا اسناد فيه ارسال لان عروة ولد فى اوائل خلافة عمر كما فى التقريب (٢ / ١٩) . ولكن روى الطبرى القصة من طريق ابى السوار عن جندب ابن عبدالله البجلي ، وايضا رواها الطبرانى من هذا الطريق كما نقل ابن حجر فى الاصابة (٢ / ٢٧٨) . وابو السوار ، ثقة من الثانية كما فى التقريب (٢ / ٤٣٢) ، وجندب له صحبة . انظر التقريب (١ / ١٣٤) . بهذا يتصل الاسناد . قال ابن كثير فى البداية (٣ / ٢٥١) . (وقد ذكرنا فى التفسير لما اورده ابن اسحاق شواهد مسندة فمن ذلك ما رواه الحافظ ابن ابى حاتم . . عن ابى السوار عن جندب ابن عبدالله . .) بهذا يتصل اسناد القصة ويرتقى ايضا الى مرتبة الحسن .

(٣) انظر الرسول القائد . للواء الركن : محمود شيت خطاب / صفحة ٩٤ .

التورية فى الغزوات :

ومن اساليب الكتمان التى يتبعها الرسول القائد عليه الصلاة والسلام التورية بأن يظهر للناس انه يريد غز و قبيلة كذا من خلال سؤاله عن طرقها ومياهها . ، وهو فى حقيقة الامر يريد غزو قبيلة اخرى ، وذلك من اجل تضليل العدو الذى يريد غزوه . وبهذا الاسلوب يتمكن الرسول القائد من كتمان نياته وتحركاته العسكرية فلا يعلم به العدو الا وهو واقف ببابه (١) .

الحذر من عيون العدو وجواسيسه :

وحرصا على الكتمان والسرية ينبغى الحذر من عيون العدو وجواسيسه الذين يترصدون لالتقاط الاخبار . وهو ما اهتم به الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى جهاده .

اخرج البخارى - واللفظ له - ومسلم وابوداود وابن ماجة واحمد والدارمى عن اياس ابن سلمة بن الاكوع عن ابيه قال : (اتى (٢) النبى صلى الله عليه وسلم عين من المشركين وهو فى سفر فجلس عند اصحابه يتحدث ثم انفتل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اطلبوه واقتلوه . فقتله فنفّله سلبه .) وكان ذلك فى غزوة هوازن كما بينته رواية مسلم .

قال ابن حجر : (وسمى الجاسوس عينا لان جل عمله بعينه ، اولشدة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها كأن جميع بدنه صار عينا) (٣) .

---

(١) انظر موضوع الخداع . صفحة (٤٦٠ - ٤٦٩) .

(٢) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب الحربى اذا دخل دارا لاسلام بغير امان (٢ / ١٧٨) . ومسلم فى الجهاد والسير ، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (٣ / ١٣٧٤ ، ١٣٧٥) . وابوداود فى الجهاد / باب فى الجاسوس المستأمن (٣ / ٤٨ ، ٤٩) . وابن ماجة فى الجهاد / باب المبارزة والسلب (٢ / ٩٤٦) . والدارمى فى السير / باب الشعار (٢ / ١٣٨ ، ١٣٩) واحمد فى المسند (٤ / ٤٥ ، ٥١) .

(٣) فتح البارى (٦ / ١٦٨) .

امر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين باللحاق بالجاسوس وقتلـــه حتى لا ينقل لقومه ما اطلع عليه من اسرار المسلمين .

كتمان مسير المسلمين لفتح مكة :

لما نقضت قريش صلح الحديبية بموءازرتها بنى بكر على خزاعة بامدادهم بالسلاح والقتال معهم سرا (١) ، تجهّز الرسول صلى الله عليه وسلم لقتال قريش وامر المسلمين بالاستعداد ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصـــا على ان لا تعلم قريش بمسيره اليهم حتى يأخذهم على غرة . يدل على ذلـك دعاؤه بقوله :

(اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها) (٢) .

ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم - بطريق الوحى - بكتاب حاطـب ابن ابى بلتعة الذى ارسله لقريش يعلمها فيه نية المسلمين قتالهم ، امـــر الرسول بادراك المرأة التى تحمل الكتاب واخذه منها للحفاظ على سريـــة تحركات المسلمين .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - وابوداود والترمذى عن ابى رافع قال : سمعت عليا رضى الله عنه يقول (٣) : (بعثنى رسول الله انا والزبير والمقداد

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٩٠) . وفتح البارى لابن حجر (٧ / ٥١٩ ، ٥٢٠) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٣ ، ٤ / ٣٩٧) .

(٣) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب الجاسوس (٢ / ١٧٠) وباب اذا اضطر الرجل الى النظر فى شعور اهل الذمة والمؤمنات اذا عصيـــن الله وتجريدهن (٢ / ١٨٣) وفى المغازى / باب غزوة الفتح (٣ / ٥٩) ، باب فضل من شهد بدرا (٣ / ٧) ، وفى التفسير باب سورة الممتحنة (٣ / ٢٠٠) . واخرجه مسلم فى فضائل الصحابة / باب من فضائل اهل بدر ، وقصة حاطب ابن ابى بلتعة (٤ / ١٩٤١) .
وابوداود فى الجهاد / باب فى حكم الجاسوس اذا كان مسلما (٣ / ٤٧) .
والترمذى فى التفسير / باب " ومن سورة الممتحنة " (٥ / ٤٠٩ ، ٤١٠) .

ابن الاسود قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا الى الروضة فاذ انحن بالظعينة ومعها كتاب فقلنا : اخرجى الكتاب فقالت : مامعى من كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب او لنلقين الثياب.فاخرجته من عقاصها ، فاتينا به رسول الله فاذا فيه : من حاطب بن ابى بلتعة الى اناس من المشركين من اهل مكة،يخبرهم ببعض امر رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياحاطب،ماهذا ؟ قال : يارسول الله لاتعجل علىّ ، انى كنت امرءا ملصقا (١) فى قريش ولم اكن من انفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها اهليهم واموالهم فاحببت اذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ان اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ومافعلت كفرا ولاارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لقد صدقكم. قال عمر: يارسول الله،دعنى اضرب عنق هذا المنافق . قال : انه قد شهد بدرا،ومايدريك لعل الله ان يكون قد اطّلع على اهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم) .

بهذا فان الرسول صلى الله عليه وسلم كتم تحركه الى مكة لئلا يعلم المشركون بمسيره اليهم فيتجهزوا للقتال ،اويستنفروا معهم قبائل العرب.

وتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من اخفاء الجهة التى يريدها حتى وصل الى مرّ الظهران ، ولم يعلم المشركون حتى تلك اللحظة بمسيره اليهم.

اخرج البخارى عن هشام عن ابيه قال : (خرج ابو سفيان بن حرب وحكيم (٢) ابن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ملصقا : اى حليفا . انظر فتح البارى (٧ / ٥٢٠) .

(٢) سبق تخريجه فى موضوع الحرب النفسية صفحة (٢١٩) ، هامش (٢) .

فاقبلوا يسيرون حتى اتوا مرّ الظهران،فاذا هم بنيران كأنها نيران عرفة،فقال ابو سفيان : ماهذه،لكأنها نيران عرفة.فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمر و فقال ابوسفيان : عمر و اقل من ذلك.فرآهم ناس من حرس رسول الله فادركوهم فاخذوهم فاتوا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم ابوسفيان ، فلما سار قال للعباس : احبس ابا سفيان عند حطم الخيل . . الحديث) .

وحوار ابى سفيان مع بديل بن ورقاء يفيد بانهم لم يكونوا على علم بمسير الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وصولهم الى مرّ الظهران ، ولما قربوا من المسلمين تمكن الحراس من القبض عليهم ، وهذا يدلل على شدة الكتمان والحذر لدى المسلمين .

بل وظنت هوازن انها هى المقصودة من تحرك المسلمين،وهويدلل على شدة كتمان المسلمين لجهة المسير كذلك.يقول د / اكرم ضياء العمرى :

(ولعل عدم نجدة هوازن وثقيف لقريش وهما على علاقة متينة يرجع الى نجاح المسلمين فى كتمان هدف تحركهم . كما كانت هوازن تخشى على ديارها منهم،لذلك لم تبادر للدفاع عن مكة . . . . . ويشير الواقدى الى انهم ارسلوا عينا لهم لمعرفة ان كان المسلمون سيتوجهون الى قريش ام هوازن، بل ان هوازن اتخذت موقف الاستعداد للمواجهة بجمع جموعها منذ ان تحرك المسلمون من المدينة ،[1] وقد تصورت انها المقصودة)[2] .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى (٣ / ٧٠) .

(٢) المجتمع المدنى فى عهد النبوة تأليف الدكتور/اكرم ضياء العمرى (١٩٢) . الطبعة الاولى (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) .

من هذا الدرس يتضح حرص رسول الله على مبدأ الكتمان ، واهميته باعتباره واحدا من الاسباب التى ساهمت فى انتصار المسلمين فى غزوة الفتح .

حكم الجاسوس: وصيانة لاسرار المسلمين الحربية فلا يجوز لمسلم او لرعية من رعايا الدولة الاسلامية من اهل الذمة ان يتجسس على المسلمين لصالح الاعداء ، فضلا عن الجاسوس الحربى ، وسأبين حكم كل منهم :-

اولا : حكم الجاسوس الحربى :

اذا تجسس الحربى على عورات المسلمين فانه يقتل. يدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابى سلمة الاكوع - المتقدم فى هذا المبحث - : (اطلبوه واقتلوه فقتله فنفله سلبه)(١) .

فامر الرسول بقتل الجاسوس الحربى الذى جاء ليطلع على عوارات المسلمين فى غزوة هوازن .

قال النووى فى استنباطه لاحكام هذا الحديث فى شرحه على صحيح مسلم: (وفيه قتل الجاسوس الكافر الحربى ، وهو كذلك باجماع المسلمين)(٢) .

ثانيا : حكم الجاسوس المعاهد والذمى : فيه قولان :

الاول = ينتقض عهده لتجسسه على المسلمين ، ويقتل . وجوز الامام مالك والاوزاعى ان يسترقه الامام ان رأى ذلك والا فيقتل ،(٣) ووافقه الامام احمد فى احد قوليه(٤) .

---

(١) سبق تخريجه فى صفحة (٤١٣) هامش (٢) .
(٢) شرح النووى لصحيح مسلم (١٢ / ٦٧) .
(٣) انظر المصدر السابق ، نفس المواضع . وأحكام القرآن للقرطبى (١٨ / ٥٣) . والفتاوى (٢٨ / ٦٤١) .
(٤) انظر المقنع لابن قدامة (١ / ٥٣٤) .

الثا نى : لا ينتقض عهده بالتجسس الا اذا شرط عليه انتقاض العهد بذلك ، ويعاقب بسبب تجسسه على المسلمين ، وهو ما ذهب اليه بعض الشافعيه (١) واحمد فى قوله الاخر (٢) .

والراجح هو جواز قتل الجاسوس الذمى ، وذلك لما اخرجه ابن الجارود واحمد وابوداود - واللفظ له - عن حارثه بن مضرب عن فرات بن حيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) امر بقتله وكان عينا لابى سفيان وكان حليفا لرجل من الانصار ، فمر بحلقه من الانصار فقال : انى مسلم ، فقال رجل من الانصار : يارسول الله انه يقول اننى مسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان منكم رجالا نكلهم الى ايمانهم منهم فرات بن حيان) .

امر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل فرات بن حيان لتجسسه على المسلمين ، وكان فرات ذميا ، فلما ادعى الاسلام اخذ بظاهر قوله ، وتوقف عن قتله مما يفيد ان الامر بقتله على تجسسه كان مخصوصا بكونه ذميا ، مما يفيد جواز قتل الذمى .

قال الامام الشوكانى رحمه الله : (وحديث فرات المذكور فى الباب يدل

---

(١) انظر المجموع شرح المهذب للنووى مع تكملته للمطيعى (١٩ / ٣٤٢) .
(٢) انظر المقنع لابن قدامة (١ / ٥٣٤) .
(٣) اخرجه ابن الجارود فى المنتقى (٣٥٣ - ٣٥٤) . والامام احمد فى المسند (٤ / ٦٢) . وابوداود فى الجهاد / باب فى الجاسوس الذمى (٣ / ٤٨) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩ / ٣٨١) : رواه احمد ورجاله رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة . قلت : هو كما قال الهيثمى . وقال الشوكانى فى الدرارى المضيئة (٢ / ٢٩٣) : (وفى اسناده (ابن الجارود وابو داود) ابو همام الدلال محمد بن محبب ، ولا يحتج بحديثه وهو يرويه عن سفيان ، ولكنه قد روى الحديث المذكور عن سفيان بشر بن السرى البصرى وهو ممن اتفق على الاحتجاج به البخارى ومسلم رحمهما الله ، ورواه عن الثورى ايضا عباد بن الازرق العبادانى وهو ثقة) . قلت : محمد بن محبب ابو همام الدلال وثقه ابو حاتم وابو داود والحاكم ومسلمة بن قاسم وغيرهم انظر التهذيب (٩ / ٤٢٨) ووثقه ابن حجر فى التقريب (٢ / ٢٠٤) والذهبى فى الميزان (٤ / ٢٥) ==========

يتبع

على جواز قتل الجاسوس الذمى) .

ثالثا : حكم الجاسوس المسلم :

اختلف العلماء فى حكم المسلم الذى يتجسس لصالح الكفار والمشركين على رأيين .

الرأى الاول : وهو قتل الجاسوس المسلم اذا تجسس للعدو على المسلمين.

ذهب الى هذا جماعة من العلماء والائمة منهم الامام مالك وبعض الحنابلة كابن عقيل (٢) ، ومال اليه ابن العربى بقوله : (وقد قال مالك : يقتل الجاسوس. وهو صحيح لاضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد فى الارض) (٣) . ووافقه القرطبى على قوله (٤) ، ووافقهم ابن حجر فى ذلك (٥) .

الرأى الثانى : تعزيره بما يرى الامام من الضرب والحبس ونحوهما ، ولا يجوز قتله .

قال الامام النووى رحمه الله : (واما الجاسوس المسلم فقال الشافعى والاوزاعى وابو حنيفة وبعض المالكية وجماهير العلماء رحمهم الله تعالى يعزره الامام بما يرى من ضرب وحبس ونحوهما ولا يجوز قتله) (٦) .

واحتج الفريقان بقصة حاطب بن ابى بلتعة السالفة الذكر (٧) . وموضع احتجاج الفريق الاول هو قول عمر رضى الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم : (دعنى اضرب عنق هذا المنافق) وجواب الرسول صلى الله عليه وسلم له بقوله : (انه قد شهد

تابع == ولكن اخشى ان يكون الامام الشوكانى رحمه الله جعل محمد بن مجيب بدل محمد بن محبب سهوا ، والاول متروك كما فى التقريب (٢ / ٢٠٤) وليس له رواية فى الكتب الستة ، كما انه لم يرو عن سفيان الثورى راوى الحديث . انظر التهذيب لابن حجر العسقلانى (٩ / ٤٢٨ - ٤٣٠) .
والحديث صحيح ، ورجاله ثقات .

(١) نيل الاوطار /للشوكانى (٨ / ١٥٥) .

(٢) انظر الفتاوى لابن تيمية (٢٨ / ٣٤٥) .

(٣) انظر احكام القرآن لابن العربى (٤ / ١٧٨٣) .

(٤) انظر احكام القرآن للقرطبى (١٨ / ٥٣) . (٥) انظر فتح البارى (٨ / ٦٣٥) .

(٦) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٦٧) . وانظر المجموع شرح المهذب مع تكملته للمطيعى (١٩ / ٣٤٠ - ٣٤٣) . والفتاوى لابن تيمية ٢٨ / ٣٤٥) .

(٧) سبق ذكرها وتخريجها فى صفحة (٤١٤، ٤١٥) ، هامش (٦) .

بدرا ومايدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم) .

فقد منع الرسول صلى الله عليه وسلم عُمر من قتله ، وبيّن علة المنع وهي كونه بدريا ، فدل ذلك على جواز قتل كل جاسوس ليس له مثل هذا المانع . ولا يمنع كونه مسلما من قتله لان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذكر اسلام حاطب علة لمنع قتله بل ذكر امرا خاصا ، وهو كونه من اهل بدر . قال ابن حجر : (ووجه الدلالة على مشروعية قتل الجاسوس المسلم انه صلى الله عليه وسلم اقر عمر على ارادة القتل لولا المانع ، وبين المانع هو كون حاطب شهد بدرا وهذا منتف في غير حاطب ، فلو كان الاسلام مانعا من قتله لما علل باخص منه)[1] .

واما الفريق الثاني فقد احتج بظاهر القصة ، اذ لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم حاطبا لافشائه سر المسلمين ، ومنع عمر من قتله ، ولوجاز القتل لما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى غيره .

ورجح ابن القيم الرأى القائل بقتل الجاسوس المسلم ، ولكن رجع امر قتله الى الامام حيث قال - بعد ذكره لآراء العلماء - : (والصحيح ان قتله راجع الى رأى الامام فان رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله وان كان بقاؤه اصلح استبقاه)[2] .

وسبقه الطبري الى ذلك اذ يقول : (اذا ظهر للامام رجل من اهل الستر انه قد كاتب عدوا من المشركين ينذره مما اسره المسلمون فيهم من عزم ولم يكن معروفا بالغش للاسلام واهله وكان ذلك من فعله هفوة وزلة من غير ان يكون لها اخوات يجوز العفو عنه كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحاطب من عفوه عن جرمه بعد ما اطلع عليه من فعله)[3] .

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٣٥) .
(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٠٤) .
(٣) عمدة القاري للعيني (١٤/ ٢٥٧) .

و الذى ارجحه هو جواز قتل الجاسوس المسلم لان استدلال النافي للقتل بعدم قتل حاطب هو فى حقيقة الامر استدلال بحالة حاطب المخصوصة-لكونه من اهل بدر كما صرح الرسول صلى الله عليه وسلم- على احوال انتفت فيها هذه الخصوصية ،اذ الحكم المتناول خارج عن اهل بدر لانتهاء الامر بزمن الصحابة. **بالاضافة الى حسن قصد حاطب وحسن نيته .**

ومن هنا فان تعدية الحكم المخصوص باهل بدر على بقية المسلمين يحتاج الى اثبات وتدليل على وجود الخصوصية المصرح بها فى الحديث والتى تفرق بينهما،ومن ثم فان هناك فارقا فى الحكم بينهما .

ولوكان (الاسلام) هو المانع من القتل لجازت التعدية لاتحاد العلة ومن‌ثم كان الحكم واحدا ، ولكن العلة خاصة وقد انتهت بوفاة اهل بدر .

ولكنى فى نفس الوقت أميل الى رأى الطبرى وابن القيم فى ارجاعهما امر القتل الى الحاكم لان دوافع التجسس قد تختلف ، والتجسس نفسه قد يختلف فى قلته وكثرته ، والخطورة المترتبة عليه ، واخلاق المتجسسين تختلف من واحد الى آخر . ومن هنا ارى اعادة الامر الى الحاكم لينظر فى كل ذلك ويرى مافيه مصلحة المسلمين . وسؤال النبى صلى الله عليه وسلم حاطبا ان كان فعل ذلك ام لا ؟ وعن الدافع من فعله له ؟ واطمئنان الرسول صلى‌الله عليه وسلم الى صدق حاطب وان‌لم يوافقه على فعله يفيد ارجاع الامر الى الامام ، والاخذ بتقدير الامام للموقف.

قال النووى فى‌استنباطه لاحكام حديث حاطب: (وفيه انه لا يحد العاصى ولا يعزر الا باذن الامام.(١)).

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم(١٦ / ٥٥) .

من خلال هذا العرض يتأكد مدى حرص الاسلام على صيانة اسرار المسلمين عامة والاسرار العسكرية منها خاصة ، لكى يتمكن المسلمون من تنفيذ خططهم ، وتحقيق اغراضهم للظفر باعدائهم . واحراز النصر عليهم . ويظهر من ذلك اهمية الكتمان فى المعركة وأثره فى النصر والهزيمة .

ثانيا : الاستخبـــــــــــــــــــــار

فى مقابل كتمان المعلومات عن العدو يلزم الاستخبار بجمع المعلومات عنه ، لان أمن القتال يقتضي معرفة اكبر قدر ممكن عن عدد قوات العدو وتشكيلاته واسلحته وخططه القتاليه . . ، ليتمكن القائد - على ضوء هذه المعلومات - من رسم الخطط المضادة وليوزع تشكيلاته العسكرية المناسبة ، وليجنب قواته اسباب الخطر ، حتى يحرز النصر باقل التكاليف .

فالمخابرات تساهم فى كشف نقاط الضعف والقوة عند العدو ، ليأتى دور القيادة والجيش بعد ذلك لتوجيه ضربات قوية وسريعة لمراكز الضعف عند العدو لحسم المعركة باسرع وقت ، ثم تجنيب القوات من خطر مراكز القوة ، والاكتفاء بمشاغلتها فقط لحرمان العدو من الاستفادة منها .

ولا تكتفى المخابرات بجمع المعلومات فقط ، بل تقوم بفحصها وتقييمها وتقدير مدى صحتها ، ثم تفسير هذه المعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها ، وامـــداد المسئولين بالمعلومات والنتائج المستخلصة للاستفادة منها فى التخطيط وادارة المعركة .

وباعتبار اهمية معرفة المعلومات عن العدو ، وكذلك صيانة الاسرار والمعلومات الهامة عنه فقد انقسمت المخابرات الى قسمين : كل قسم يتخصص فى واحد منهمـــا ، وسمى القسم المختص بجمع المعلومات بالمخابرات الايجابية ، وسمى القسم المختص بصيانة الاسرار والمعلومات بالمخابرات السلبية ، او الوقائية ، او المضادة . (١) وكـــلا القسمين له اهميته القصوى فى تحقيق الامن العسكرى .

---

(١) انظر النظرية الاسلامية فى الاستطلاع والامن ومقاومة الجاسوسية / اللواء الركن / محمد جمال الدين محفوظ (٤٤ - ٥٠) .

وغنى عن الذكر ان اجهزة المخابرات هى من اهم اجهزة الدولة والجيش سيما فى هذا الزمان، لان وسائل القوة العسكرية تطورت اليوم واصبحت قادرة على تحقيق اغراضها العسكرية فى لحظات محدودة مما يعنى ان الطرف الثانى ليس لديه وقت من التفكير واتخاذ القرار سوى تلك اللحظات ، فان لم تكن لديه المعلومات الجاهزة والمبرمجة والدقيقة عن العدو وقدراته . . فسيتحطم فى لحظات ، بينما توفر المعلومات لديه يساعده فى اخذ الاحتياطات المضادة ، ويمكنه من سرعة الرد المباشر والمؤثر فى خصمه ، او مباغتته قبل ان تقع به الكارثة **على يد خصمه** . وبناء على هذه الاهمية القصوى للمعلومات ، تبرز أهمية الاستخبارات فى احراز النصر .

والمطلع على الجهاد النبوى يدرك مدى اهتمام الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بجمع المعلومات عن عدوه من خلال عيونه المرسلين من قبله خصيصا لهذه المهمة ، وهذا يدلنا على تقدم المسلمين العسكرى حيث عملوا بمبدأ الاستخبار منذ اربعة عشر قرناً ، ويضع ايدينا على واحد من اسباب النصر التى عمل بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لينتصر على اعدائه .

(١) الاستخبارات فى غزوة الخندق : لقد كان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة - كما هو الحال فى غيرها من الغزوات - حريصا على جمع المعلومات عن العدو ومعرفة نياته وتحركاته ليتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم - على ضوء ذلك - التدابير العسكرية اللازمة .

لقد ارسل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم العيون لتأتيه باخبار الاحزاب المشركين وغطفان ، و يهود بنى قريظة .

اولا : متابعة اخبار تحركات يهود قريظة : كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمن غدر يهود قريظة وتحالفهم مع المشركين ضد المسلمين ، لذا فقد ارسل الزبير ليأتيه بخبرهم .

اخرج البخارى بسنده عن عبدالله بن الزبير قال : (كنت يوم الاحزاب (١) جُعلت انا وعمر بن ابى سلمة فى النساء ، فنظرت فاذا انا بالزبير على فرسه يختلف الى بنى قريظة مرتين اوثلاثا . فلما رجعت قلت : ياأبت رأيتك تختلف ، قال : أوهل رأيتنى يابنى ؟ قلت نعم. قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ فانطلقت ، فلما رجعت جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابويه فقال : فداك ابى وامى (١)) .

واخرجه البخارى من طريق جابر قال : ((٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : انا ثم قال : من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير انا . ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير أنا . ثم قال : ان لكل نبى حوارياً ،وان حوارى الزبير) .

لقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على متابعة اخبار قريظة من وقت لآخر ، لذا فانه لم يكتف بارسال الزبير مرة واحدة بل انتدبه بعد ذلك مرتين لانه كان يتوقع ان تنقض قريظة العهد وتغدر بالمسلمين . ولما بلغه غدرهم ارسل سعد بن عبادة (٣) وسعد بن معاذ و عبدالله بن رواحة وخوّات بن جبير ليتأكدوا من الخبر بصفة رسمية .

ثانيا : معرفة اخبار قريش في اثناء الحصار : ومثلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتابع اخبار يهود قريظة في اثناء الحصار ، فقد كان يعرف اخبار قريش ويطلع على نواياهم ومعنوياتهم وتحركاتهم من خلال احد عيونه الذين تسللوا الى قلب مضارب العدو .

---

(١) اخرجه البخارى فى فضائل الصحابة / باب مناقب الزبير بن العوام (٢ / ٣٠٢) .
(٢) اخرجه البخارى فى المغازى / باب غزوة الخندق (٣ / ٣٣) وكتاب الجهاد باب فضل الطليعة (٢ / ١٤٥) . وباب هل يبعث الطليعة وحده (٢ / ١٤٥) .
(٣) انظر موضوع الحرب النفسية (٢٢٨) .

اخرج الامام مسلم عن ابراهيم التيمى عن ابيه قال[١] : (كنا عند حذيفة فقال رجل : لو ادركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وابليت . فقال حذيفة : انت كنت تفعل ذلك ، لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الاحزاب واخذتنا ريح شديدة وقرّ[٢] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة . فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : الا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة . فسكتنا فلم يجبه منا أحد ثم قال : الا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة ، فسكتنا فلم يجبه منا أحد . فقال : قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم . فلم اجد بدا اذ دعانى باسمى ان اقوم . قال : اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تذعرهم علىّ . فلما وليت من عنده جعلت كانما امشى فى حمام[٣] حتى اتيتهم فرأيت اباسفيان يصلى[٤] ظهره بالنار ، فوضعت سهما فى كبد القوس[٥] ، فاردت ان ارميه فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا تذعرهم علىّ ، ولو رميته لاصبته ، فرجعت وانا امشى فى مثل الحمام ، فلما اتيته فاخبرته بخبر القوم وفرغت قررت فالبسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم ازل نائما حتى اصبحت ، فلما اصبحت قال قم يا نومان) .

---

(١) اخرجه الامام مسلم فى الجهاد والسير / باب غزوة الاحزاب (٣ / ١٤١٤ ، ١٤١٥) .

(٢) القر : بضم القاف وتشديد الراء هو البرد ، وقوله بعد ذلك " قررت " معناه بردت . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ٤٨) .

(٣) كانما امشى فى حمام : يعنى انه لم يجد البرد الذى يجده الناس ولا من تلك الريح الشديدة شيئا ، بل اعفاه الله منه . والحمام مذكر مشتق من الحميم وهو الماء الحار . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٤٥) .

(٤) يصلى ظهره : اى يدفئه . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ٥١) .

(٥) كبد القوس : هو مقبضها . وكبد كل شىء وسطه . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ١٣٩) . وشرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٤٥) .

قال الامام النووى-رحمه الله - فى شرحه لهذا الحديث : (وفى هذا الحديث انه ينبغى للامام وامير الجيش بعث الجواسيس والطلائع لكشف العدو)[١] .

وفى رواية للامام احمد قال حذيفة : (فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل ماتفعل لاتقر لهم قدر ولا نار ولا بناء ، فقام ابو سفيان بن حرب فقال : يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه ، فقال حذيفة : فاخذت بيد الرجل الذى الى جنبى فقلت:من أنت؟ قال :انا فلان بن فلان ،ثم قال ابو سفيان :يامعشر قريش،انكم والله ماأصبحتم بدار مقام: لقد هلك الكراع واخلفتنا بنو قريظة ،بلغنا منهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ماترون ، والله ماتطمئن لنا قدر ، ولاتقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فانى مرتحل ،ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فما اطلق عقله الا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتحدث شيئا حتى تأتينى،ثم شئت لقتلته بسهم . .) .

لقد اكد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لحذيفة بان مهمته استخبارية فقط وحذره من اى سلوك يتجاوز به اطار هذه المهمة .

وكان حذيفة رضى الله عنه مثالا رائعا لرجل الاستخبار لما عرف عنه من الكتمان الشديد ، والالتزام وشدة الانضباط باوامر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ، وعدم تجاوزه حدود المهمة المكلف بها ، مع انه كان بامكانه قتل ابي سفيان زعيم المشركين يوم الاحزاب.

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٤٦) .
(٢) مسند الامام احمد بن حنبل (٥ / ٣٩٢ ، ٣٩٣) .
(٣) الكراع: بالضم اسم لجميع الخيل . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ١٦٥)
(٤) اى ثم شئت قتله لقتلته .

كما ويلاحظ ذكاؤه وشدة انتباهه مع حكمته وسرعة تصرفه فى الامور. ويظهر ذلك من مبادرته لمن هو بجواره السؤال عن اسمه ، وتولى زمام الحديث حتى لا يدع الفرصة لخصمه فيكتشف امره ،وهذا ما ساهم فى نجاح حذيفة فى اداء مهمته الاستخبارية رغم صعوبتها ودقتها .

وكانت المعلومات التى حصل عليها حذيفة بالغة الاهمية للرسول القائد صلى اللهعليه وسلم وللمسلمين اذ دلت على نجاح خطة المسلمين فى التفريق بين الاحزاب . يدل علية قولابى سفيان (واخلفتنا بنوقريظة ،بلغنا منهم الذى نكره) ومكنت كذلك من الاطلاع على نوايا المشركين وتحركاتهم التى صرح بهاابو سفيان فى دعوته قومه للرحيل ، ومبادرته بركوب جمله ، ومتابعة قومه له فى ذلك ، وهو ما يعنى فك الحصار عن المسلمين وانتهاء هذه الجولة بين قريش والمسلمين دون أن تتمكن قريش من احراز اى شىء ، بل وعودتها واليأس يملأ قلوب رجالها مع كل خطوة يخطونها فى طريق عودتهم.

(٢) الاستخبار فى غزوة حنين : لما اتم الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم فتح مكة تجهز مالك بن عوف النصرى فى جمع كبير من ثقيف وبنى مالك وبنى هلال وبنى نصر وجشم لقتال المسلمين فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر (فبعث عبدالرحمن بن ابى حدرد الاسلمى فقال : اذهب فادخل بالقوم حتى تعلم لنا من علمهم ، فدخل فمكث فيهم يوما او يومين ثم اقبل فاخبره الخبر . .) .(١)

---

(١) اخرجه الحاكم فى المستدرك عن جابر بن عبدالله . وصححه (٣ / ٤٨ ، ٤٩) .
قلت: اسناده حسن لاجل يونس بن بكير : صدوق . انظر الميزان (٤ / ٤٧٧ ، ٤٧٨) ،
ولاجل محمد بن اسحاق : صدوق يدلس . انظر التقريب (٢ / ١٤٤) .
وروايته هنا بصيغة التحديث.

(٣) الاستخبار فى غزوة الحديبية :

اخرج البخارى - واللفظ له - وابوداود عن عروة بن الزبير عن المسورابن مخرمة ومروان بن الحكم يزيد احدهما على صاحبه قالا : (خرج النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من اصحابه ، فلما اتى ذا الحليفة قلد الهدى واشعره واحرم منها بعمرة ، وبعث عينا له من خزاعة ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى كان بغدير الاشطاط اتاه عينه قال : ان قريشا جمعوا لك جموعا وقد جمعوا لك الاحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك ، فقال : اشيروا ايها الناس على ، اترون ان اميل الى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت فان يأتونا كان الله عزوجل قد قطع عينا من المشركين والا تركناهم محرو بين قال ابوبكر : يارسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل احد ولا حرب احد فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله) (١) .

لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يتحرك الا ويرسل عيونه لتأتيه باخبار عدوه كما فعل هنا ، اذ تمكن من معرفة نية قريش فى منع المسلمين من دخول مكة وزيارة البيت وهو الغرض الذى جاءوا من اجله ، وبناء على المعلومات التى وصلته درس مع الصحابة رضوان الله عليهم الموقف الواجب اتخاذه ، فساعدت هذه المعلومات على تدبر الموقف والنظر فى الاجراءات اللازمة ، بخلاف مالو أهمل جانب المعلومات وسار المسلمون دون علم باخبار المشركين ، فمن المتوقع ان يفاجأوا بالقوم وهم يستعدون لقتالهم مما يعرض امن المسلمين للخطر .

بهذه الامثله ندرك اهمية الاستخبار فى المعركة باعتباره ركيزة من ركائز الجهاد النبوى ، وندرك اثره فى احراز النصر لمن اخذبه ، واثره فى الاضرار بالجيش وحصول الهزيمة لمن غفل عنه .

---

(١) انظر تخريجه فى موضوع الشورى صفحة (٢٠٠) ، هامش (١) .

ثالثا : الاستطـــــــلاع

الاستطلاع هو الركن الثالث للامن العسكرى ، ويتفق مع الاستخبار لكـــون الهدف الرئيسى منهماهو جمع المعلومات عن العدو ، الا أن الاستخبار فى الغالب يكـون من داخل صفوف وتجمعات العدو بينما الاستطلاع يكون من خلال وحدات متخصصه فى ذلك تتقدم الفرق والكـتائب لجمع المعلومات من ارض المعركة .

وتتركز مهـام وحدات(١) الاستطلاع فى امرين : الاول : جمع المعلومات عن العدو وكالآتى :

(١) الاستطلاع لمعرفة مواقع العدو وتجمعاته ، والطرق المؤدية اليها وخطوط مواصلاته .

(٢) استطلاع قوات العدو من حيث نوعيتها وحجمها واسلحتها ومعداتها .

(٣) التوغل ان امكن داخل خطوط العدو لتحديد اماكن القيادة والسيطرة ، ومواقع الدفاعات الجوية وكذلك مواقع المدفعية ومواقع قوة الاحتياط .

الثانى : القيام باعمال الامن التى تتطلبها المعركة وهى كمايلى :

(١) استطلاع طبيعة الارض واختيار افضل الاماكن لمواقع الرادارات واجهزة الكشف ، واختيار طرق المواصلات والانسحاب .

(٢) مراقبة وحدات استطلاع العدو ، وتقديم الانذار المبكر ، او تدميرها واعاقتها عن كشف المواقع والتحركات .

(٣) توجيه نيران القوات الصديقة - من الخطوط الامامية - لتدمير قوات العـــدو ومواقعه مع التبليغ عن ردود الفعل المعادية كالانسحاب او الهجوم المعاكـــس او التعزيز من قبل وحدات اخرى معادية .

---

(١) انظر مجلة الحرس الوطنى السنة السادسة/العدد السادس والثلاثون صفر ١٤٠٦هـ/موضوع : فصيل الاستطلاع فى المعركة.بقلم النقيب/محمد فيصل ابو ساق . صفحة (٨٦) .

(٤) استطلاع بعض المنا طق التى يحتمل ان يكون بها كمائن معادية .

ومن خلال هذه المهمات تتضح اهمية الاستطلاع فى تحقيق الامن للقوات ، وتتبين قيمته فى ادارة المعركة والتأثير فى نتائجها .

وليس من حاجة الى بيان مايترتب على ترك مبدأ الاستطلاع فى المعركة لانه اصبح اليوم امرا بدهيا ولا يخلو جيش فى تشكيله من وحدات استطلاعية بل وليس هناك من كتيبة الا ولها وحدة او وحدات استطلاعية خاصة .

ولكن مأريد بيانه هنا هو صور ونماذج الاستطلاع فى جهاد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة للتأكيد على موضعه فى العسكرية الاسلامية ، ولابرازه باعتباره سببا من اسباب انتصارات الرسول القائد صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده .

(١) الاستطلاع فى غزوة بدر : لقد ارسل الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى بدر طليعة ، وخرج على رأس طليعة ثانية ، واستجوب اسرى للمشركين حرصا منه على جمع المعلومات عن العدو .

(أ) الطليعة الاولى : وقوامها بسبس بن عمرو ، وعدى بن ابى الزغباء .

هدفها : استطلاع اخبار القافلة التى كان على رأسها ابى سفيان .

النتيجة : نجاح عملية الاستطلاع فى التعرف على اخبار القافلة .

اخرج الامام مسلم عن انس رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيسة عينا (١) ينظر ماصنعت عير ابى سفيان (٢) ، فجاء ومافى البيت احد غيرى وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لاادرى مااستثنى بعض نسائه قال : فحدثه الحديث

- (١) اخرجه الامام مسلم فى الامارة / باب ثبوت الجنة للشهيد (٣ / ١٥١٠) . وسبق الاستشهاد بفقرة منه فى موضوع الانضباط صفحة (٢٨٦) ، هامش (١) .
(٢) وقع فى كتب السير ان اسمه بسبس ، وعند مسلم بسيسه . قال النووى : (يجوز ان يكون احد اللفظين اسما له والاخر لقبا) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٣ / ٤٤) .

قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم فقال : ان لنا طلبة فمن كان ظهره (١) حاضرا فليركب معنا . فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانيهم فى علو المدينة فقال : لا الا من كان ظهره حاضرا . فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه حتى سبقوا المشركين الى بدر . . الحديث) .

امر الرسول عليه الصلاة والسلام بالتحرك بناء على مابلغه من اخبار القافلة ونجح الاستطلاع فى الحصول على اخبار دقيقة عن مكان القافلة وموعد وصولها ، ووضعت خطة التحرك بناء على هذه المعلومات .

اخرج ابن سعد فى الطبقات باسناده عن عكرمة : (ان النبى صلى الله عليه وسلم (٢) بعث عدى بن ابى الزغباء وبسبس بن عمرو طليعة يوم بدر ، فأتيا الماء فسألا عن ابى سفيان ، فاخبرا بمكانه فرجعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : يارسول الله نزل بماء كذا يوم كذا ، وننزل نحن ماء كذا يوم كذا ، وينزل هو ماء كذا يوم كذا ، وننزل نحن ماء كذا يوم كذا حتى نلتقى نحن وهو على الماء) .

(ب) الاستطلاع باستجواب الاسرى فى بدر : ولما وصل المسلمون الى عيون بدر ، حسب خطة التحرك لم يجدوا القافلة ، وذلك لان اباسفيان لما احس بتحركات المسلمين تحول بالقافلة عن الطريق المعتادة لينجو بها ، ولكن المسلمين تمكنوا من اسر غلام لقريش وهو على الماء فاستجوبوه لمعرفة اخبار القافلة . ومن خلال الاستجواب عرف المسلمون معلومات جديدة عن تحركات قريش من اجل حماية القافلة وقتال المسلمين .

---

(١) الظهر : الدابة التى تركب . وقال ابن الاثير : الابل التى تحمل عليها وتركب ، وظهرانيهم بضم الظاء واسكان الهاء اى مركوباتهم . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٣ / ٤٥) . وغريب الحديث لابن الاثير (٣ / ١٦٦) .

(٢) الطبقات الكبرى / للامام محمد بن سعد (٢ / ٢٤)
دار صادر - بيروت
قلت : اسناد ابن سعد صحيح ورجاله ثقات ، الا انه مرسل .

(١)

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - وابوداود عن انس: (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه اقبال ابى سفيان . . ، قال فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا ، ووردت عليهم روايا قريش وفيهم غلام اسود لبنى الحجاج فاخذوه ، فكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن ابى سفيان واصحابه فيقول : مالى علم بابى سفيان ، ولكن هذا ابوجهل وعتبة وشيبة وامية بن خلف . فاذا قال ذلك ضربوه فقال : نعم، انا اخبركم، هذا ابو سفيان، فاذا تركوه فسألوه فقال : مالى بابى سفيان علم، ولكن هذا ابوجهل وعتبة وشيبة وامية ابن خلف فى الناس، فاذا قال هذا ايضا ضربوه ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، فلما رأى ذلك انصرف، قال : والذى نفسى بيده لتضربونه اذا صدقكم وتتركونه اذا كذبكم) .

من هنا فقد تأكد للمسلمين امر جديد ينبغى ان يعدوا له عدته ، الا وهو افلات القافلة ، ووصول قريش لقتال المسلمين ، وتمكن المسلمون من خلال الاستجواب المذكور فى هذه الرواية معرفة قادة المشركين كذلك .

ويدلنا طريق آخر للحديث على ان المسلمين قد تمكنوا باستجواب الغلام من معرفة عدد المشركين بطريق الاستنتاج .

(٢)

اخرج الامام احمد - واللفظ له - والبزار عن على رضى الله عنه قال : (فلما بلغنا ان المشركين قد اقبلوا سار الرسول صلى الله عليه وسلم الى بدر وبدر بئر - فسبقنا المشركون اليها فوجدنا فيها رجلين منهم رجلا من قريش ، ومولى لعقبة ابن ابى معيط، فاما القرشى فانفلت ، واما مولى عقبة فاخذناه فجعلنا نقول له : كم القوم؟

---

(١) سبق تخريجه فى موضوع الشورى . صفحة (١٩٧) ، هامش (١) .
(٢) سبق تخريجه فى موضوع القيادة الراشدة . صفحة (٣٤١) ، هامش (١) .

فيقول هم والله كثير عددهم شديد باسهم ، فجعل المسلمون اذ قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له كم القوم ؟ فقال هم والله كثير عددهم شديد باسهم ، فجهد النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبره كم فابى ، ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم سأله كم ينحرون من الجزور ؟ فقال : عشرا كل يوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم الف كل جزور لمائة . . الحديث) .

ويظهر من استجواب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم للغلام براعته فى استنطاقه واخذ الجواب منه بطريق غير مباشر رغم شدة تكتمه اولعدم معرفته بعدد القوم .

(٢) سرية عاصم بن ثابت الاستطلاعية :

ارسل الرسول صلى الله عليه وسلم طليعة من عشرة رجال يرأسهم عاصم بن ثابت لاستطلاع اخبار قريش.(١)

ولكن خرج عليهم فى الطريق مايقرب من مائة رجل من بنى لحيان ، فاشتبكوا معهم ، وقتل من الطليعة ثمانية واسر اثنان .

اخرج البخارى - واللفظ له - وابوداود عن ابى هريرة قال : (٢) (بعث النبى صلى الله عليه وسلم سرية عينا وامر عليهم عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى اذا كان بين عسفان ومكة ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم . . الحديث) .

وفى لفظ آخر للبخارى ايضا (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا . . الحديث) .

---

(١) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٧ / ٣٨٠) .

(٢) اخرجه البخارى فى المغازى / باب غزوة الرجيع (٣ / ٢٧) ، وفى الجهاد / باب هل يستأسر الرجل (٢ / ١٧٧) . واخرجه ابوداود فى الجهاد / باب فى الرجل يستأسر (٣ / ٥١) .

(٣) سرية عبد الله بن جحش الاستطلاعية :

تقدم ذكر هذه السرية فى الكتمان تحت عنوان الرسائل السرية ، وكانت مهمة السرية استطلاع اخبار قريش يبينها كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله أمير السرية حيث جاء فيه : (اذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصّد بها قريشا ، وتعلّم لنا من اخبارهم) (١) .

وعلق الاستاذ عباس العقاد على هذه السرية بقوله : (اما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم بمزاياه معنيا به غاية العناية بحسب العدو المجهول كالعدو المستتر باسوار الحصون ، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه والحرب الروسية تذكرنا كيف اصيب نابليون فى هذا الميدان حين اصيب فى وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا امس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم فمن اسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد اسابيع . ومن اسباب تلك الهزيمة ان الروس كانوا يتراجعون امامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع او يلتقط من خلال اجوبته مايعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه .

---

(١) انظر ذلك فى موضوع الكتمان صفحة (٤١٢) .

اما هتلر فقد اتى من قبل هذين النقصين كما اتى من قبله من هو اعظم منه واولى بالتحرز والاناة. فقد اشتهر انه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ماليس له به علم . واشتهر انه اخطأ فى استطلاع اخبار القوم اذ خيل اليه ان الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقب الاغارة عليه لنصرة المغير كائنا من كان ، ولوجاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى وهو عنصر الجرمان . .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ماتعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطىء قط مثل هذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم - كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والامثال الباقية - أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين . . . . .) (١) .

من خلال ماسبق من نماذج الاستطلاع ندرك حرص الرسول القائد عليه افضل الصلاة واتم التسليم على مبدأ الاستطلاع فى المعركة لجمع المعلومات عن العدو ، وندرك اهمية ذلك فى رسم الخطط والتحركات واتخاذ القرارات العسكرية ومايترتب على ذلك من آثار حاسمة فى المعركة باحراز النصر . . .

---

(١) عبقرية محمد ص(٤٣ ، ٤٤) للاستاذ عباس محمود العقاد. طبعة دار الهلال .

السبب الخامس:

نبذ المنافقين والمخذلين، والحذر من مكائدهم

المنافقون من اخطر الناس على المجتمع الاسلامى . وقد يفوق خطرهم خطر العدو الخارجى ، لانهم يعيشون داخل المجتمع يعرفون طبيعته ويطلعون على اخباره ، ويتمكنون من معرفة مكامن القوة والضعف عند المسلمين ، فاذا جاءت الضربة منهم فانها تأتى فى موضع الخطر وبايدى ظاهرها الاسلام وحقيقتها الكفـــر .

ويعد المنافقون طابورا آخر يتبع طوابير جيش الكفار والمشركين ، اذ يتولونهم ويتآمرون معهم على المسلمين ، ويترصدون الاخبار والاسرار وينقلونها اليهم .

وخطر المنافقين على المسلمين لا يكون فى زمن الحرب كما هو الحال مع الاعداء غالبا ، وانما يكون فى زمن الحرب والسلم على السواء مستعينين فى ذلك بكل وسيلة وحيلة وباساليب ظاهرها الخير وباطنها الشر والسوء ، ومامر مسجد الضرار ببعيـــد .

وخطرهم على المسلمين عند الحرب خطر عظيم اكبر من ان تحويه صفحات كهذه ، وسجل المنافقين حتى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سجل حافل بالخزى والعار والتثبيط والتخذيل ، وليس من معركة من معارك المسلمين تقريبا الا وتجد فيها صفحة للمنافقين او صفحات سوداء كسواد قلوبهم .

لذا فقد تعقبهم القرآن الكريم فى آيات وسور كثيرة وبين طبيعتهم النفسية الملتوية ، وحقيقة كفرهم وحقدهم على المسلمين ، وكشف عن مواقفهم المتخاذلـــة تجاه المسلمين فى اوقات الشدة والحروب . وفصل القرآن خطرهم واساليب مكرهم وكيدهم للمسلمين التى منها تثبيط المسلمين ، واثارة الفتن بينهم لتفريقهم . ونشر الشائعات المغرضة للنيل منهم عامة و من رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وخذلان المسلميـــن فى اوقات الشدة ، وتولى الكفار والانحياز لهم ، وتشكيك المسلمين فى وعد اللـــه ورسوله لهم بالنصر والتمكين ، والنيل من المسلمين بالسخرية والاستهزاء ، والطعن فى اعراضهم حتى لم يسلم منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولشدة خطورة المنافقين جعل الله سبحانه فى كتابه سورة خاصة بهم لتكشف حقيقتهم وتهتك سريرتهم.

وتولت سورة التوبة كشف خباياهم ومكائدهم ودسائسهم حتى سميت بالفاضحة. اخرج البخارى بسنده عن سعيد بن جبير قال: (١) (قلت لابن عباس : سورة التوبة ؟ قال التوبة هى الفاضحة ، مازالت تنزل ومنهم ، ومنهم حتى ظنوا انها لم تبق احدا منهم الا ذكر فيها. الحديث .).

وتتبع ادوار المنافقين فى تثبيط حركة الجهاد الاسلامى . . امر يصعب استيعابه فى هذا البحث لان الموضوع من الاتساع والاهمية كذلك حتى يحتاج الى بحث خاص به. وحسبى فى هذا البحث ان اشير بنوع من الايجاز الى خطورة المنافقين على المسلمين فى المعركة خاصة ، انطلاقا من اعتقادى بان المنافقين سبب من اسباب الهزيمة ، لانهم يخططون وينفذون باقصى مايستطيعون من اجل قلب موازين المعركة لصالح الاعداء ، ويسعون جاهدين لكى يتسببوا فى هزيمة المسلمين.

لقد حذر القرآن من المنافقين اشد تحذير ، فقال سبحانه وتعالى : (هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله انى يؤفكون) (٢).

الخطاب لعموم المؤمنين فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبين فيه الحق تبارك وتعالى الحقيقة التى تنطوى عليها نفوس المنافقين من العداوة الكاملة للمؤمنين (٣).

وعبر بقوله (هم العدو) ليشعر بان عداوتهم تفوق كل عداوة من غيرهم وذلك لانهم يخالطون المسلمين ويعيشون بين ظهرانيهم ويطلعون على عوراتهم فيدلون الكفار عليها.

والآية تكشف لنا عن واحد من اهم مبادئ التعامل مع المنافقين فى السلم عامة ووقت الحرب خاصة ، الا وهو مبدأ الحذر والاحتراس من المنافقين بتتبعهم ومراقبتهم وتوقع الغدر والخيانة منهم . . ، واخذ الحيطة لردعهم.

---

(١) اخرجه البخارى فى التفسير / سورة الحشر (٣ / ١٩٨).
(٢) المنافقين (٤).
(٣) انظر تفسير النسفى (٤ / ٢٥٨).

ويشكل المنافقون - من خلال عداوتهم المذكورة - الخطورة على المعركة، اذ يسعون من اجل هزيمة المسلمين . ولذا فان الحذر والاحتراس منهم يفوت عليهم الفرصة، و يقطع عليهم السبيل ، ويحفظ المسلمين من شرهم ومكرهم الذى يدبر لاجل هزيمة المسلمين ونصرة الكافرين .

وهناك توجيه قرآنى آخر نزل اثر انخذال المنافقين فى تبوك مفاده منع المنافقين من الخروج فى جيش المسلمين .

يقول سبحانه وتعالى : (فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى ابدا ولن تقاتلوا معى عدوا انكم رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين)[1] .

قوله : (فان رجعك الله الى طائفة منهم) اشارة الى المنافقين . ومعنى قوله (فاستئذنوك للخروج) اى طلبوا الخروج فى غزوة اخرى ، وقوله (فقل لن تخرجوا معى ابدا) توجيه للرسول صلى الله عليه وسلم بأن لايسمح لهم بالخروج فى جيش المسلمين ، واكد ذلك بمخاطبة المنافقين بقوله (فاقعدوا مع الخالفين) اى مع المتخلفين ، قال ابن عباس : من تخلف من المنافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال[2] .

ولاشك ان هذا التوجيه القرآنى الحازم هو الخلاصة ، فى تحديد العلاقة بالمنافقين عند المعركة ، وهو تتويج للتوجيه الربانى السابق الذى انطوى على التحذير الشديد منهم . والذى يبدو لى - والله اعلم - ان منع المنافقين من الخروج فى جيش المسلمين هو منع عام فى جميع المنافقين المثبطين عن الجهاد ،

---

(١) التوبة (٨٣) .
(٢) انظر احكام القرآن للقرطبى (٨/ ٢١٧ ، ٢١٨) .

قال القرطبي عند هذه الآية (وهذا يدل على ان استصحاب المخذل في الغزوات لا يجوز)(١) ، ومعلوم ان صفة التخذيل هي من ابرز صفات المنافقين كما سيأتي بيانه قريبا .

ومنع المنافقين من الخروج يهدف الى درء الجيش الاسلامي اخطارهم ومكائدهم ودسائسهم ، ويهدف الى تنظيف وتأمين الصف الاسلامي منهم فيجتنب المسلمون بذلك العدو الداخلي كما يجتنبون العدو الخارجي ، ويدفعون عن انفسهم اسباب الهزيمة الداخلية كما يدفعون اسباب الهزيمة الخارجية .

وجمع الله سبحانه وتعالى بين العدوين الخارجي والداخلي - الكفار والمنافقين - في آية واحدة ، وأمر بجهادهما على السواء ، كل فريق منهم بما يناسبه من صنوف الجهاد .

يقول سبحانه وتعالى : (يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)(٢) .

قال الشوكاني في تفسيره لهذه الآية : (الامر للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجهاد امر لامته من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا وجهاد المنافقين يكون باقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله)(٣) .

وجمع المنافقين مع الكفار والامر بجهادهما هو في حقيقته اعلام بعداوة كل منهما للمؤمنين ، وارشاد بأن جبهة النفاق يلزمها جهاد ومجابهة لزوم جبهة الكفر وان اختلفت الوسيلة التي يحصل بها الجهاد في كل .

والآيات التي تتحدث عن دور المنافقين السلبي في حركة الجهاد الاسلامي كثيرة وأغلبها جاء في سياق التعليق على مواقفهم الانهزامية في المعارك الاسلامية ، لذا سيأتي ذكرها عند بيان موقف المنافقين في تلك الغزوات ، وسأتعرض لمواقفهم في مجموعة من الغزوات كل غزوة على حدة ، ليتجلى بوضوح موقفهم التثبيطي والتخذيلي

---

(١) احكام القران للقرطبي (٨ / ٢١٨) .
(٢) التوبة (٧٣) .
(٣) فتح القدير للشوكاني (٢ / ٣٨٢) .

فى كل منها ، ولتشهد وتؤكد كل غزوة لاختها بماكان منهم من مكر وكيد ودسيسة وليتبين حقيقة موقفهم الانهزامى على طول مرحلة الجهاد النبوى .

ومن ثم تحصل العبرة والعظة من خلال هذه الدروس ، فيدرك المسلمون ان المنافقين يمثلون خطرًا على المسلمين فى معاركهم مع اعدائهم ، وانهم من جملة اسباب الهزيمة .

نماذج من مواقف المنافقين الانهزامية فى المعارك الاسلامية :

موقف المنافقين فى أحد :

بعد ما قرر الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد الخروج لقتال المشركين خارج المدينة ، سار المسلمون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكان ممن خرج يومها عبدالله بن ابى بن سلول ، وفى الطريق انهزم رأس النفاق عبدالله بن ابى فى ثلث الجيش ممن تبعه من المنافقين وبعض المتشككين من قومه .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - والترمذى عن زيد بن ثابت قال : (لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم الى احد رجع ناس ممن خرج معه ، وكان اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فرقتين : فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول لا نقاتلهم فنزلت : (فمالكم فى المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا) وقال انها طيبة تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الفضة) .

والمراد بقوله (كان اصحاب النبى فرقتين) اى فى الحكم فيمن انصرف مع عبدالله بن ابى ، اذ انقسم الصحابة الى فرقتين . . ، وصرحت الآية بان ذلك كان فى المنافقين ، فدل هذا دلالة صريحة على أن الذين رجعوا هم المنافقون .

- (١) اخرجه البخارى فى المغازى / غزوة أحد (٣ / ٢١ ، ٢٢) . ومسلم فى كتاب صفات المنافقين واحكامهم / فى فاتحته (٤ / ٢١٤٢) . والترمذى فى التفسير باب ومن سورة النساء (٥ / ٢٣٩) .
(٢) النساء (٨٨) .
(٣) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٧ / ٣٥٦) .

واورد ابن هشام عن ابن اسحاق ذلك بصريح اللفظ حيث قال : (حتى اذا كان بالشوط بين المدينة وأحد ، انخذل عنه عبدالله بن ابي سلول بثلث الناس، وقال اطاعهم وعصاني ، ماندرى علام نقتل انفسنا هاهنا ايها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من اهل النفاق والريب، واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام، اخو بني سلمة ، يقول : ياقوم اذكركم الله الا تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر من عدوهم ، فقالوا : لونعلم انكم تقاتلون لما اسلمناكم ، ولكنا لانرى انه يكون قتال . قال : فلما استعصوا عليه وابوا الا الانصراف عنهم ، قال : ابعدكم الله اعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه)[1] .

وانسحاب عبدالله بن ابى مع من تبعه من اهل النفاق أُريد به اضعاف قوة المسلمين امام جيش المشركين ، لكى يحصل لهم مايتمنونه من هزيمة المسلمين وانتصار اعداء الدين .

يؤثر

وكاد انسحاب المنافقين على بعض فئات المجاهدين حتى ان بعضهم فكر بالعودة الى المدينة ، ولكنهم غالبوا الضعف الذى الم بهم ، وانتصروا على انفسهم بعد ان تولاهم الله فثبتوا مع المؤمنين ، ووصف الله ذلك بقوله : (اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[2] .

الفشل المذكور معناه الجبن[3] ، اذ كاد يحصل من طائفتين من المسلمين بسبب انسحاب المنافقين من الجيش حيث اشاع ذلك روح الضعف والجبن لدى البعض منهم الا أن الله سلم فحفظهم منه وثبتهم .

وجاءت تسمية الطائفتين عند البخارى فيما اخرجه بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : (نزلت هذه الآية فينا " اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا " بني سلمة وبني حارثة ، وما احب انها لم تنزل والله يقول " والله وليهما ")[4].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٦٤) .
(٢) سورة آل عمران (١٢٢) .
(٣) انظر تفسير النسفى (١ / ١٧٩) .
(٤) اخرجه البخارى فى المغازى /غزوة أحد /باب (اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا) (٣ / ٢٢) ، وكتاب التفسير سورة آل عمران (٣ / ١١٣) .

قال ابن حجر في معنى قوله : (وما احب انها لم تنزل والله يقول " والله وليهما " : (١)
(اى وان الآية وان كان في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم) .

من هذا الدرس ندرك مايضمره المنافقون من الغدر والخيانة والخذلان لكي يتسببوا في هزيمة المسلمين ، وعليه فانه ينبغي تصفية الجيش الاسلامي منهم حتى لايفعلوا فعل اخوانهم في النفاق .

ولقد بين القرآن الكريم في اعقاب هذا الدرس ان انسحاب عبد الله بن ابي بالمنافقين انما هو في حقيقته تنقية للصف الاسلامي وتمييزله حتى لايبقى فيهم مرجف أو مخذل .

يقول سبحانه وتعالى : (وماكان الله ليذر المؤمنين على ماانتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) . (٢)

فائدة اللام في قوله (ليذر) هي تأكيد نفي ترك المؤمنين على ماهم عليه من الاختلاط بالمنافقين ، ومعنى قوله (حتى يميز الخبيث من الطيب) اى حتى يفرق بين المؤمن والمنافق . (٣)

من هذا يتبين ان عملية فرز المنافقين عن بقية الصف الاسلامي مقصودة لذاتها لدرء شرورهم ومكائدهم ، وحتى يظهر المنافقون على حقيقتهم فينكشف زيفهم عن المسلمين بادعائهم الاسلام ، ولكي يستحقوا لعنة الله وعذابه في الآخرة .

ويؤكد هذا المعنى مانزل في حقهم في سياق بيان الحكمة مما اصاب المؤمنين في تلك الغزوة اذ يقول الحق تبارك وتعالى : (وماأصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان يقولون بافواههم ماليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون) . (٤)

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٣٥٧/٧) .
(٢) سورة آل عمران (١٧٩) .
(٣) انظر تفسير النسفي (١٩٧/١) . وتفسير فتح القدير للشوكاني (٤٠٤/١) .
(٤) سورة آل عمران (١٦٦ ، ١٦٧) .

بين الله تبارك وتعالى أن ما اصاب المسلمين في أحد انما هو باذنه سبحانه فاشار الى ان الحكمة من ذلك تمييز المؤمن الخالص من المنافق ، فتتميز بذلك الصفوف: صف اهل الايمان، وصف اهل النفاق ، ليجتنب المؤمنون المنافقين ويحذروهم .

موقف المنافقين في غزوة الخندق .

لقد ظهرت في هذه الغزوة المواقف التخذيلية للمنافقين ، وسجلها القرآن في سورة الاحزاب يقول سبحانه وتعالى : (واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا * واذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا * ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسئولا * قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل واذا لا تمتعون الا قليلا * قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءا او اراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا * اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد اشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب يسألون عن انبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا)(١) .

لقد عرضت الآيات الكريمة جملة مواقف للمنافقين في غزوة الاحزاب ، مع تحليل دقيق لنفسياتهم ، وللدوافع التي تؤثر في سلوكهم . وتفصيل الآيات وتحليل مافيها من معان دقيقة امر يطول بحثه ، لذا فسأوجز ماتعرضت له الآيات من مواقف انهزامية للمنافقين في الغزوة المذكورة كما يلي :

---

(١) سورة الاحزاب (١٢ - ٢٠)

(١) تيئيس المسلمين وتشكيكهم في وعد الله ورسوله لهم بالنصر، يدل عليه قوله تعالى : (واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا)[١] . والمراد بالوعد هنا : اعلاء الدين واحراز النصر على عدوهم .

(٢) تيئيس المسلمين في قدرتهم على مجابهة الاحزاب . يدل عليه قوله تعالى : (واذ قالت طائفة منهم يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) .

قوله (طائفة منهم) يعني طائفة من المنافقين[٢] ، وقوله (لا مقام لكم فارجعوا) معناه لا قدرة لكم على مواجهتهم ، ولذلك دعوا المسلمين الى الفرار من وجه الاعداء ، (ولكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا لمقاتلتهم وايذانا بانه ليس من قبيل الفرار المذموم)[٣] ، وهم يقصدون بقولهم هذا ان يفتوا في عضد المؤمنين وعزيمتهم على الثبات في وجه العدو ، ليتسنى للاحزاب بعد ذلك دخول المدينة واذلال المسلمين .

(٣) تثبيط المؤمنين وتوهين عزائمهم وتعويقهم عن مواجهة العدو ، يدل عليه قوله تعالى : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا) .

والمعوقون : المثبطون وهم المنافقون ، ونقل الآلوسي عن ابن السائب قوله : (الآية في عبد الله بن ابي ، ومعتب بن قشير ، ومن رجع من المنافقين من الخندق الى المدينة كانوا اذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ، ويكتبون الى اخوانهم في العسكر أن ائتونا فانا ننتظركم)[٤] .

ونقل الآلوسي كذلك عن قتادة قوله في الآية : (هي في المنافقين كانوا يقولون لاخوانهم من ساكني المدينة من انصار رسول الله ما محمد عليه الصلاة والسلام واصحابه الا اكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم ابو سفيان واصحابه فخلوهم)[٥] .

---

(١) انظر تفسير ابن السعود (٧ / ٩٤) .
(٢) انظر تفسير النسفي (٣ / ٢٩٧) .
(٣) تفسير ابو السعود (٧ / ٩٤) .
(٤ ، ٥) روح المعاني للآلوسي (٧ / ٣ / ١٦٣) .

(٤) تخاذلهم في القتال مع المؤمنين ، يدل عليه قوله تعالى : (ولا يأتون البأس الا قليلا) . اى فى الحراب والقتال وقوله (اشحة عليكم) اى بخلاء عليكم بالمنفعة والنصرة ، او بالغنيمة عند القسم.(١)

(٥) جبنهم فى المعركة ، وهلعهم وخوفهم من الاعداء ، يصوره قوله تعالى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) .

شبه حالهم من شدة ما اصابهم من الخوف من العدو بحالة المغشى عليه وقت معالجته سكرات الموت ، وذلك بجامع شدة الهلع والاضطراب فى كل .

(٦) الطعن بالمسلمين وتجريحهم بالسنتهم . يدل عليه قوله تعالى : (فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد) سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن السلق فى الآية فقال : الطعن باللسان . وشبه السنتهم بالسيف على سبيل الاستعارة المكنية ، حيث حذف المشبه به وابقى صفة من لوازمه وهى (حداد).(٢)

هذه بعض المعانى التى سجلتها الآيات الكريمة ، والتى كشفت عن مواقف المنافقين التخذيلية والانهزامية فى غزوة الاحزاب ، ولا شك ان تدوين تلك المواقف فى كتاب الله مقصود فى ذاته ولحكمة ارادها الحق تبارك وتعالى فاذا قرأ المسلمون تلك الآيات يستقون منها العبر والعظات ، ويقفون بانفسهم على تاريخ المنافقين الانهزامي منذ العهد الاول للرسالة ، ويكون هذا درسا لهم فى النصر والهزيمة .

ولقد اورد ابن هشام عن ابن اسحاق وَصْفاً لمواقف المنافقين فى غزوة الاحزاب ، ذكر فيه تخاذلهم عن معاونة المؤمنين فى حفر الخندق لحماية المدينة .

---

(١) انظر تفسير ابى السعود (٧ / ٩٦) .
(٢) انظر روح المعانى للالوسي (٧ / ٣ / ١٦٥) .

قال ابن اسحاق : (فلما سمع بهم رسول الله ، وما اجمعوا له من الامر ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيبا للمسلمين فى الاجر ، وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ويتسللون الى اهليهم بغير علم من رسول الله ولا اذن)(١) .

مواقف المنافقين فى غزوة بنى المصطلق :

اولا : لقد كشف المنافقون فى هذه الغزوة عن حقدهم الدفين على الاسلام والرسول عليه الصلاة والسلام ، وظهر ذلك عند مانشب خلاف بين رجل من الانصار وآخر من المهاجرين ، فاستغل رأس النفاق عبدالله بن ابى بن سلول هذه الحادثة لكى يشيع الروح القبلية والعصبية ، وليحرض الانصار على اخوانهم المهاجرين ليحصل له بذلك تفريق المسلمين وتمزيق وحدتهم وتفتيت قوتهم .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن جابر بن عبدالله قال : (كنا فى غزاة - قال سفيان مرة فى جيش - فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٢١٦) .

(٢) اخرجه البخارى فى التفسير / سورة المنافقون (٣ / ٢٠٣) . ومسلم فى البر والآداب والصلة / باب نصر الأخ ظالما او مظلوما (٤ / ١٩٩٨) .

(٣) تعارضت الاحاديث فى تحديد الغزوة التى قال فيها عبدالله بن ابى هذا الكلام ، والصحيح انها غزوة بنى المصطلق ، وليست تبوك . انظر فتح البارى (٨ / ٦٤٩ ، ٦٥٠) . ورد ابن كثير على من قال انها غزوة تبوك فقال : (وقوله ان ذلك كان فى غزوة تبوك فيه نظر ، بل ليس بجيد ، فان عبدالله بن ابى ابن سلول لم يكن ممن خرج فى غزوة تبوك بل رجع بطائفة من الجيش ، وانما المشهور عند اصحاب المغازى والسير ان ذلك كان فى غزوة المريسيع وهى غزوة بنى المصطلق) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٦٩) . وانظر المسألة مبسوطة ومفصلة فى رسالة الطالب / ابراهيم بن ابراهيم قريبي ، وعنوانها / مرويات غزوة بنى المصطلق - جمع وتحقيق ودراسة (١٧٦ - ١٨٣) . من منشورات المجلس العلمي بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

(٤) سفيان : احد رجال الاسناد .

(٥) كسع : الكسع هو ضرب الدبر باليد اوبالرجل . انظر فتح البارى (٨ / ٦٤٩) وانظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٨) .

فقال الانصارى :ياللانصار . وقال المهاجرى : ياللمهاجرين ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مابال دعوى جاهلية ، قالوا : يارسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار ، فقال :دعوها فانها منتنة ، فسمع بذلك عبدالله بن ابى فقال : فعلوها ، اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقام عمر فقال : يارسول الله ، دعنى اضرب عنق هذا المنافق . فقال النبى صلى الله عليه وسلم دعه لايتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه) .

قال النووى فى شرحه هذا الحديث : (واما تسميته صلى الله عليه وسلم ذلك دعوى الجاهلية فهو كراهة منه لذلك ، فانه مماكانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل فى امور الدنيا ومتعلقاتها ، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل فجاء الاسلام بابطال ذلك وفصل القضايا بالاحكام الشرعية فاذا اعتدى انسان على آخر حكم القاضى بينهما والزمه مقتضى عدوانه كما تقرر من قواعد الاسلام)(١) .

ولقد اراد عبدالله بن ابى ان يجعل مما حدث من القضية الفردية قضية عامة يواجه فيها المسلم اخاه المسلم ، ويمنع المهاجرين من البقاء فى المدينة كما صرح حتى تكون له الزعامة من بعد ذلك .

وكان موقف المنافق عبدالله بن ابى يعبر عن الغيظ الذى شحن به قلبه - اضافة الى مافيه من غيظ بسبب مااحرز المسلمون من الانتصار على بنى المصطلق فى هذه الغزوة ، فى الوقت الذى كان يتطلع فيه الى هزيمة المسلمين ليشفى غليله .

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٧) .

من هذا الموقف ندرك الدور الخطير الذى يقوم به المنافقون ، ونطلع على واحد من اساليبهم التى يستخدمونها فى الكيد للمسلمين وهو - كما أسلفت - اسلوب التفريق واشاعة الروح العصبية بين فئات المجاهدين .

ثانيا : ولتعزيز التفرقة العصبية بين المسلمين فقد دعا رأس النفاق عبد الله بن ابى الانصار الى قطع النفقة عن المهاجرين ، ونزل فى ذلك قول الله عزوجل : (هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون)(١) .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - والترمذى عن زيد بن ارقم فى سبب نزول الآية قوله : (٢) (كنت فى غزاة فسمعت عبد الله بن ابى يقول : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الاعز منها الاذل . فذكرت ذلك لعمى .. فذكره للنبى صلى الله عليه وسلم فدعانى فحدثته ، فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن ابى واصحابه فحلفوا ماقالوا ، فكذبنى رسول الله وصدقه ، فاصابنى هم لم يصبنى مثله قط ، فجلست فى البيت ، فقال لى عمى : ماأردت الى أن كذبك رسول الله ومقتك ، فانزل الله تعالى : (اذا جاءك المنافقون) فبعث الى النبى فقرأ فقال : ان الله قد صدقك يازيد) .

ثالثا : وبعد فشل المنافقين فى اثارة العصبية بين الانصار والمهاجرين عاودوا الكرة فطعنوا فى عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتهموا عائشة بهتانا وافكا من عند انفسهم لعنهم الله ، وارادوا بذلك ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم اشفاء لغيظهم ، وارادوا كذلك تشكيك المسلمين فى رسولهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام . ونزل فيهم قوله تعالى : (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم مااكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم)(٣) .

---

(١) المنافقون (٧) .

(٢) اخرجه البخارى فى التفسير / سورة المنافقين (٣ / ٢٠٢) . ومسلم فى كتاب صفات المنافقين (٤ / ٢١٤٠) . والترمذى فى التفسير / باب ومن سورة المنافقين (٥ / ٤١٥ ، ٤١٦) .

(٣) النور (١١) .

الافك:هو مايكون ابلغ من الافتراء والكذب . وقيل:هو البهتان . وعبر بلفظ المجيء ليشير الى أن ماأظهروه هو من عند انفسهم ولاأصل له . ومعنى قوله (والذى تولى كبره) اى تولى معظمه .(١)

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - قصة طعن المنافقين فى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وترويجهم للتهمة المختلقة زورا وبهتانا فى حديث طويل من طريقها ، جاء فيه أن (الذى تولى كبر الافك عبدالله بن ابى بن سلول .(٢) قال عروة - راوى الحديث عن السيدة عائشة -:أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقرّه ويستمعه ويستوشيه) .

وكادت اشاعة المنافقين الكاذبة تؤدي الى اشعال نار العصبية من جديد بين الاوس والخزرج . يبينه قول السيدة عائشة فى حديث الافك المذكور : (فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبدالله بن ابى - وهو على المنبر - فقال:يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه اذاه فى اهلى والله ماعلمت على اهلى الا خيرا . ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه الا خيرا ، ومايدخل على اهلى الا معى . قالت: فقام سعد بن معاذ - اخو بنى عبد الاشهل-فقال: انا يارسول الله اعذرك ، فان كان من الاوس ضربت عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج امرتنا ففعلنا امرك . قالت : فقام رجل من الخزرج - وكانت ام حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج . قالت : وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد : كذبت لعمر الله ، لاتقتله ، ولاتقدر على قتله ، ولوكان من رهطك ماأحببت ان يقتل . فقام اسيد بن حضير-وهو ابن عم سعد - فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله ، لنقتلنه ، فانك منافق تجادل عن المنافقين . قالت: فثار الحيّان : الاوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا

---

(١) انظر تفسير ابى السعود (٦ / ١٦٠) .
(٢) اخرجه البخارى فى المغازى /باب حديث الافك (٣ / ٣٧) . ومسلم فى التوبة باب فى حديث الافك ، وقبول توبة القاذف (٤ / ٢١٢٩) .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، قالت : فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفّضهم حتى سكتوا وسكت . . الحديث) .

من هذا العرض الموجز يتبين خطر المنافقين على الجيش الاسلامي وعلى وحدة المسلمين . وقد جاء في سياق القصة أن ذلك كان في غزوة بني المصطلق . فتكون هذه هي المحاولة الثالثة التي حاولها المنافقون في هذه الغزوة من اجل اضعاف جبهة المسلمين .

مواقف المنافقين في غزوة تبوك :

لما عزم الرسول عليه الصلاة والسلام على غزو الروم بالشام اعلن النفير . وذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل)[1] .

ذكر مجاهد انها نزلت في غزوة تبوك حيث امروا بالنفير في الصيف حين طابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج[2] .

وامرهم الله سبحانه بالنفير شبابا وشيوخا، اغنياء وفقراء، فقال تبارك وتعالى (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)[3] .

ولكن **اكثر المنافقين** تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتذروا عن الخروج في هذه الغزوة باعذار واهية، وحلفوا الايمان الكاذبة ليؤكدوا عدم استطاعتهم . وكشف الله سبحانه كذبهم، وحقيقة امرهم فقال في كتابه العزيز : (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون)[4] .

---

(١) التوبة (٣٨) .
(٢) انظر تفسير فتح القدير للشوكاني (٢ / ٣٦٣) .
(٣) التوبة (٤١) .
(٤) التوبة (٤٢) .

بين الله سبحانه في هذه الآية انهم لودعوا الى غنيمة قريبة فى سفر متوسط لما تخلفوا عنها ولوافقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى الخروج ولكنهم تثاقلوا لطول السفر اذ كانت جهة الغزوة تبوك من الشام، وكان الوقت صيفا حيث الحر الشديد . وكشف القرآن بانهم سيحلفون عند رجوع المسلمين من الغزوة معتذرين يقولون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم.(١)

وبين الله سبحانه عدم ارادتهم الخروج ابتداء ،اذ لو ارادوا لأعدوا للأمر عدته . يقول تبارك وتعالى : (ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)(٢) .

قال القرطبى : (اى لو ارادوا الجهاد لتأهبوا اهبة السفر. فتركهم الاستعداد دليل على ارادتهم التخلف)(٣) .

وذكر الله سبحانه فى هذه الآية كراهته لخروج المنافقين مع المؤمنين ، ولذلك حبسهم واقعدهم عن الجهاد . وبين الله سبحانه فى الآية التى تليها الحكمة من ذلك، فقال تبارك وتعالى : (لوخرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين)(٤) .

بين الله سبحانه للمؤمنين مايترتب على خروج المنافقين معهم من احداث الفساد والنميمة وايقاع الاختلاف والاراجيف بينهم، وهو معنى قوله (مازادوكم الا خبالا) وأكد على سعيهم من اجل التفريق بين المجاهدين فى قوله (لأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) والفتنة هنا معناها : الافساد والتحريض .(٥)

---

(١) انظر تفسير النسفى (٢ / ١٢٧) .
(٢) التوبة (٤٦) .
(٣) احكام القران للقرطبى (٨ / ١٥٦) .
(٤) التوبة (٤٧) .
(٥) انظر المعانى السابقة فى تفسير فتح القدير (٢ / ٣٦٦) . واحكام القرآن للقرطبى (٨ / ١٥٦، ١٥٧) .

وذكّر القرآن بما دبره المنافقون قبل هذه الغزوة من مؤامرات ومكائد اراد وا بها تفريق المسلمين وتشتيت وحدتهم ، كما فعل رأس النفاق عبد الله ابن ابى بن سلول فى غزوة بنى المصطلق وغيرها . يقول سبحانه وتعالى : (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الامور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) (١) .

ولم يكتف المنافقون بالقعود عن الجهاد ، بل شنوا حربا اعلامية من اجل تثبيط المؤمنين ، واستغلوا شدة الحر الذى وافق زمن الغزوة لاشاعة روح التخاذل . يقول سبحانه وتعالى : (فرح المخلفون بمقعدهم خلا ف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون) (٢) .

هذه بعض المشاهد القرآنية التى ابرزت دور المنافقين فى غزوة تبوك ، وحذرت من كيدهم وتآمرهم . وماتركت من الآيات التى تتكلم عن حركة النفاق فى غزوة تبوك كثير خاصة فى سورة التوبة ، والتى سميت بالفاضحة لانها فضحت مواقفهم ومكائدهم . واقتصرت على هذه المشاهد القرآنية للتمثيل على دورهم الانهزامي التخذيلي فى الغزوة المذكورة .

ولا يفوتنى هنا أن امثل لدور المنافقين التخذيلى فى هذه الغزوة من خلال ماجاء فى السنة والسيرة .

روى ابن هشام بسنده عن عبد الله بن حارثة قال : (بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى . . يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فبعث اليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من اصحابه وامره ان يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة . .) (٣) .

---

(١) التوبة (٤٨) .
(٢) التوبة (٨١) .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٥١٧) . ونقله عنه ابن كثير فى تاريخه (٥ / ٣) . وفى اسناده من لم يسم .

ان موقف المنافقين هذا يؤكد دورهم التخذيلى والتثبيطى ، وهو دور مؤداه اضعاف الروح المعنوية للمقاتلين ، واضعاف القوة الذاتية للمسلمين امام قوة الاعداء ، وهو دور يسعى الى خلق الانهزامية فى نفوس المقاتلين ليكون ذلك سببا فى هزيمة المسلمين . ويضاف الى موقفهم التخذيلى امر آخر ، وهو ارتباط المنافقين بقوى اجنبية عدوة ، وتآمرهم معهم . يدل عليه اجتماعهم فى بيت يهودى ليدبروا مخططاتهم من هناك . وهذا يدلنا أيضا على أن الاعداء فى الخارج - سيما اليهود - كثيرا مايعتمدون على قوى فى الداخل عميلة لهم خاصة المنافقين .

ومن صور تثبيط المنافقين فى هذه الغزوة مانقله ابن هشام عن ابن اسحاق باسناده عن عبدالله بن مسعود قال : (١) (وكان رهط من المنافقين ، منهم وديعة بن ثابت ، اخو بنى عمرو بن عوف ، ومنهم رجل من اشجع ، حليف لبنى سلمة يقال له : مُخَشِّن بن حُمَيِّر يشيرون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق الى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : اتحسبون جلاد بن الاصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال - ارجافا وترهيبا للمؤمنين - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر : ادرك القوم فانهم قد احترقوا (٢) ، فسلهم عما قالوا ، فان انكروا فقل بلى ، قلتم كذا وكذا ، فانطلق اليهم عمار فقال ذلك لهم ، فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه فقال وديعة بن ثابت ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته ، فجعل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٥٢٤/٤ ، ٥٢٥) . وعند الطبرى فى التاريخ (١٠٧/٣ ، ١٠٨) . بنفس الاسناد الذى ذكره ابن هشام .
قلت : وهو اسناد ضعيف لاجل بريدة بن سفيان الاسلمى ، فانه ضعيف انظر الضعفاء الكبير للعقيلى (١٦٤/١) . والتهذيب لابن حجر (٤٣٣/١) والتقريب له ايضا (٩٦/١) . وللحديث شواهد يتقوى بها ، وقد اورده الطبرى فى تفسيره عند قوله تعالى : (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) ٦/١٧١ - ١٧٣) .

(٢) احترقوا : اى هلكوا . والاحراق : الاهلاك ، وهو من احراق النار .
انظر غريب الحديث لابن الاثير (٣٧١/١) .

يقول وهو آخذ بحقبها (١) : يارسول الله ، انما كنا نخوض ونلعب ، فانزل الله عزوجل (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) (٢) .

وكان للمنافقين فى هذه الغزوة موقف تخريبى آخر ، وذلك فى طريق عودة المسلمين الى المدينة ، اذ كان هناك فى طريقهم عين تبوك يخرج منها القليل من الماء ، فامر الرسول صلى الله عليه وسلم من يأتيها أن لا يمسها حتى يأتيها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه . فسبقه اليها المنافقون واستقوا مافيها من الماء ، فخالفوا امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وضيقوا على المسلمين ،كيدا منهم ومكرا .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - واحمد والبيهقى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك (٣) فكان يجمع الصلاة ، فصلى الظهر والعصر جميعا ، والمغرب والعشاء جميعا ، حتى اذا كان يوما اخّر الصلاة ، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا ، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك ، فصلى المغرب والعشاء جميعا ، ثم قال : انكم ستأتون غدا ، ان شاء الله عين تبوك ، وانكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها منكم فلا يمسّ من مائها شيئا حتى آتي . فجئناها وقد سبقنا اليها رجلان . والعين مثل الشّراك تبضّ (٤) بشيء من ماء . قال فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل مستما من مائها شيئا ؟ قالا : نعم . فسبهما النبى صلى الله عليه وسلم وقال لهما ماشاء الله ان يقول . قال ثم غرفوا بايديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شيء قال وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ، ثم اعاده فيها ،

---

(١) حقبها : الحقب هو الحبل المشدود على بطن البعير . انظر غريب الحديث لابن الاثير (١ / ٤١٠ ، ٤١٧) .

(٢) التوبة (آية ٦٥) .

(٣) اخرجه الامام مسلم فى الفضائل / باب فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم (٤ / ١٧٨٤ ، ١٧٨٥) . واخرجه الامام احمد فى المسند (٥ / ٢٣٧ ، ٢٣٨) والبيهقى فى دلائل النبوة (٥ / ٢٣٦) .

(٤) والعين مثل الشراك تبض : قال النووى : (هكذا ضبطناه هنا ، تبض بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد المعجمة ، ونقل القاضي اتفاق الرواة هنا على انه بالضاد المعجمة ومعناه تسيل . . والشراك بكسر الشين . وهو سير النعل ومعناه ماء قليل جدا) . شرح النووى على صحيح مسلم (١٥ / ٤١) .

فجرت العين بماء منهمر ، اوقال غزير - شك ابو على ايهما قال - حتى استقى الناس .ثم قال : يوشك يامعاذ ان طالت بك حياة ان ترى ماهاهنا قد ملىء جنانا) .

وجاء عند ابن هشام والطبرى أن نفرا من المنافقين هم الذين سبقوا المسلمين واستقوا مافى العين من ماء.(١)

لقد اراد المنافقون بصنيعهم هذا أن يضيقوا على المؤمنين ، وهم فى اشد الحاجة الى الماء ، واراد وا أن يستفزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ينالوا من صدق نبوته عليه الصلاة والسلام. ولكن الله سبحانه خيب آمالهم وأفسد صنيعهم ، اذ ظهر صدق نبوته عليه الصلاة والسلام باجراء الماء على يديه حتى شرب المسلمون وارتووا ، بل وبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن تبوك ستصبح جنانا ، يملؤها الماء ويكسوها الزرع.

وبلغ كيد المنافقين فى هذه الغزوة الى درجة التآمر على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولة الغدر به للقضاء عليه .

اخرج الامام احمد عن ابى الطفيل قال : (لما اقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) من غزوة تبوك امر مناديا فنادى : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة(٣) فلا يأخذها احد ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ويسوق إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل غشوا عمارا وهو يسوق برسول الله عليه الصلاة والسلام ، واقبل عمار يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة قد ،(٤) قد حتى هبط رسول الله ، فلما هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل ورجع عمار فقال : ياعمار ، هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت عامة الرواحل ، والقوم متلثمون ، قال : هل تدرى ماارادوا قال : الله ورسوله اعلم. قال : ارادوا ان ينفّروا برسول الله فيطرحوه ، قال : فسارّ عمار رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نشدتك بالله كم تعلم

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ ، ٤ / ٥٢٧) . وتاريخ الامم والملوك للطبرى (٣ / ١٠٩ ، ١١٠) .

(٢) اخرجه الامام احمد فى المسند (٥ / ٤٥٣ ، ٤٥٤) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ١٩٥) : رواه احمد ورجاله رجال الصحيح . قلت : اسناده كما ذكر الهيثمى ، وهو حديث صحيح .

(٣) العقبة : الجبل . انظر مختار الصحاح / للرازى (٤٤٤) دار الكتب العربية / بيروت .

(٤) قد ، قد : قد معناها : حسب ، وتكرارها لتأكيد الامر . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ١٩) .

كان اصحاب العقبة ؟ (١) فقال : اربعة عشر ، فقال : ان كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر ، فعدد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ثلاثة ، قالوا والله ماسمعنا منادى رسول الله وما علمنا ماراد القوم ، فقال : عمار اشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، قال الوليد (احد الرواة) وذكر ابو الطفيل فى تلك الغزوة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس وذكر له ان فى الماء قلة فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا فنادى أن لايرد الماء احد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فورده رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد رهطا قد وردوه قبله فلعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ) .

لقد اطلع رسول الله عليه الصلاة والسلام على مابيته المنافقون من نية الغدر به فاختار طريقا فى الجبل لنفسه دون الجيش ، وامر أن لايسلك هذا الطريق احد ليفتضح امر المنافقين وتدبيرهم .

فقد اورد البيهقى الحديث من طريق عروة بن الزبير (٢) ، وجاء فيه : (ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك الى المدينة ، حتى اذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من اصحابه فتآمروا عليه أن يطرحوه فى عقبة فى الطريق ، فلما بلغوا العقبة ارادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر خبرهم ، فقال : من شاء منكم ان يأخذ بطن الوادى فانه اوسع لكم ، واخذ النبى صلى الله عليه وسلم العقبة ، واخذ الناس بطن الوادى الا النفر الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بامر عظيم ، وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان ، وعمار بن ياسر ، فمشيا معه . . الحديث) .

اذن فان النبى صلى الله عليه وسلم علم بمكيدتهم ابتداء ، وهم فعلوا جريمتهم عن عمد وبتخطيط سابق . والله سبحانه نجاه من كيدهم .

---

(١) نقل الساعاتى عن النووى قوله : وهذه العقبة ليست العقبة المشهورة التى كانت بها بيعة الانصار ، وانما هذه عقبة على طريق تبوك اجتمع المنافقون فيها للغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فعصمه الله منهم .
انظر الفتح الربانى ترتيب مسند الامام احمد (٢١ / ١٩٥) .

(٢) اخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥ / ٢٥٦ ، ٢٥٧) واورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ / ١٩)

وورد التصريح فى حديث آخر عند البيهقى من طريق حذيفة ان الذين دبروا هذه المكيدة هم المنافقون ، وان الهدف منها هو القضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء فيه : (١) (. . . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا ، يارسول الله ، كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب، قال عليه الصلاة والسلام : هؤلاء المنافقون الى يوم القيامة ، وهل تدرون ماارادوا قلنا : لا ، قال : ارادوا ان يزحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة، فيلقوه منها . . . الحديث) .

من هذا كله يتضح مدى خطورة المنافقين على امن الجيش الاسلامى وعلى امن الامة الاسلامية ، واذا كان قد بلغ الحدّ بهم الى التآمر على المسلمين فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل والتآمر على الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه فان تآمرهم على المسلمين من بعده لاشد وانكى .

لذا فان عداوة المنافقين لاتقل عن عداوة المشركين ، وخطرهم لايقل عن خطرهم ان لم يكن اشد وافظع . ووجودهم فى الصف الاسلامى قد يؤدى الى هزيمة المسلمين لان هذا هو مايسعون اليه ويخططون من اجله . وبناء عليه فانهم يعدون من اسباب الهزيمة التى يجب ان يحترس المسلمون منها .

- (١) اخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥ / ٢٥٦ ، ٢٥٧) .

السبب السادس:

الخـــداع فى المعركـــــة

من اهم مبادئ الحرب ممارسة الخداع العسكرى للاخلال بتوازن العدو النفسى أو المادى فى المعركة من خلال تفريق وحدة قوات العـدو وتشتيتها ، أو بجره الى معركة مبيتة دون ان يترك له فرصة الاستعداد ، أو ينصب الكمائن المختلفة من المقاتلين أو المتفجرات وغيرها لمباغتـــــــة العدو ، أو بايهامه بأمر ماثم بمفاجأته بغير ماتوقع . ، ويستخدم فى ذلك وسائـــل كثيرة ومختلفة .

اهمية الخداع فى احراز النصر :

سلاح الخديعة مهم فى المعركة ، وقد يكون احيانا اجدى من الاسلحـــة المادية ، لان الاسلحة المادية ظاهرة لاتخفى على الخصم فى الغالب فتكون داخلة فى حساباته العسكرية ومن ثم فلا خطورة كبيرة منها اذ يمكنه اعـــداد سلاح مضاد لها . . ، بينما الخديعة تكون خافية على العدو ولاتكاد تدخـــل فى حساباته العسكرية ، ومن ثم يكون تأثيرها اشد واعظم سيما وانها مدعمـــة بعنصر المفاجأة .

ولقد اشار الرسول القائد عليه الصلاة والسلام الى اهمية الخداع فى المعركة . اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - عن جابر بن عبدالله قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : (الحرب خُدعـــة)[1] .

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب الحرب خدعة (٢ / ١٧٤) .
ومسلم فى الجهاد / باب جواز الخداع فى الحرب (٣ / ١٣٦١) .

الخداع فى الاصل اظهار امر واضمار خلافه . ومعنى قوله (الحرب خدعة)[1] بفتح الخاء المعجمة مع سكون الدال المهملة اى انها تخدع اهلها ، وقال الخطابى[2] : معناه انها مرة واحدة اى اذا خدع مرة واحدة لم تقل عثرته .

وعن الحكمة فى الاتيان بالتاء فى قوله (خدعة) قال ابن حجر (للدلالة على الوحدة ، فان الخداع ان كان من المسلمين فكأنه حضهم على ذلك ولو مرة واحدة ، وان كان من الكفار فكأنه حذرهم من مكرهم ولو وقع مرة واحدة ، فلا ينبغى التهاون بهم لما ينشأ عنهم من المفسدة ولوقل .- واضاف ابن حجر مبينا مايرشد اليه الحديث فقال:- وفيه التحريض على أخذ الحذر فى الحرب ، والندب الى خداع الكفار وان من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الامر عليه)[3] اى ان الخداع يؤثر فى نتيجة المعركة نصرا و هزيمة .

وقوله عليه الصلاة والسلام (الحرب خدعة) هو من باب تعريف الكل بالجزء لاهميته كقوله عليه الصلاة والسلام[4] : (الحج عرفة) اذ ليس الوقوف بعرفة هو كل الحج وانما هو من شعائره،ولكن لاهميته عرف به الحج كله ، وكذلك فان الخداع ليس هو كل مافى الحرب، بل هو جزء منها ، ولكن لاهميته عرف به الكل ،اذ يمكن ان تُنهى المعركة مع العدو اذا اوقعته فى خديعة محكمة وتكون بالنسبة له القاضية فنكسب بخديعة واحدة الحرب كلها وتنتصر على عدوك.كما وان الاهمية تكمن فى كون عنصر الخداع يمتاز بالمباغته للعدو ، فيكون تأثيره خطيرا على العدو ، وفى المقابل لا يتكلف صاحبه المواجهة

---

(١) خدعة : فيها ثلاث لغات مشهورات ،اقتصرت على افصحها وهى الفتح ويمكن الرجوع الى المصادر المذكورة للاطلاع على البقية .

(٢) انظر فتح البارى (٦ / ١٥٨) . وطرح التثريب فى شرح التقريب للعراقى (٧ / ٢١٤) الناشر /دار المعارف حلب. دار احياء التراث العربى بيروت .

(٣) فتح البارى (٦ / ١٥٨) بتصرف واختصار .

(٤) اخرجه الترمذى فى الحج /باب ماجاء فيمن ادرك الامام بجمع فقد ادرك الحج (٣ / ٢٣٧) . وابوداود فى المناسك/باب من لم يدرك عرفه (٢ / ١٩٦) . والنسائى فى الحج /باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الامام بمزدلفة (٥ / ٢٦٤) . وابن ماجة فى المناسك /باب من اتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع(٢ / ١٠٠٣) والدارمى فى المناسك / باب بما يتم الحج (١ / ٣٨٦) . كلهم من طريق عبدالرحمن بن يعمر . واسناد الحديث صحيح .

مع خصمه فينتصر على عدوه باقل التكاليف.

قال ابن المنيّر: (١) معنى الحرب خدعة اى الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة فى مقصودها انما هى المخادعة لا المواجهة ، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر) .

من هنا ندرك أن الخداع هو من اهم اركان الحرب، ومن اهم اسباب الفوز والنصر فى المعركة .

جواز الكذب لخداع العدو فى الحرب:

ولِما للخداع من الاهمية فى المعركة فقد جوّز الرسول صلى الله عليه وسلم الكذب فى الحرب خاصة بالاضافة الى الاصلاح بين المتخاصمين ، وحديث الرجل الى زوجته .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - وابوداود عن ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط - وكانت من المهاجرات الاول اللاتى بايعن النبى صلى الله عليه وسلم - انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (٢) (ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقول خيرا وينمى خيرا قال ابن شهاب - احد رجال الاسناد- :ولم اسمع يُرَخَّص فى شىء ممايقول الناس كذبٌ الا فى ثلاث : الحرب، والاصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها) .

---

(١) انظر فتح البارى (٦ / ١٥٨) .

(٢) اخرجه الامام مسلم فى البر والاداب والصلة /باب تحريم الكذب وبيان مايباح منه (٤ / ٢٠١١) . وابوداود فى الادب/باب فى اصلاح ذات البين (٤ / ٢٨١) .

والكذب فى الحرب يعنى تزويد العدو بمعلومات خاطئة لتضليله والخداع به فى المعركة . ولم يرخص به النبى صلى الله عليه وسلم الا لاهميته وشدة الحاجة اليه فى المعركة من اجل الظفر بالعدو .

والكذب على العدو جائز بالاتفاق ، قال الامام النووى : (واتفق العلماء على جواز خداع الكفار فى الحرب وكيف امكن الخداع الا أن يكون فيه نقض عهد او امان فلا يحل)(١) . ونقل النووى عن القاضى عياض قوله : (لا خلاف فى جواز الكذب فى هذه الصور)(٢) .

يريد فى الحرب والاصلاح وكلام الرجل لزوجته وكلامها لزوجها لاظهار الود والوعد بخلاف المخادعة او أخذ ماليس له فهو حرام .

واختلفوا فى المراد بالكذب المباح فى الامور الثلاثة ، هل هو مطلق الكذب ام تقييده بالمعاريض؟

الرأى الاول :
==========

ذهبت طائفة الى جواز الكذب - فى المواضع السابقة - مطلقا واراد وا بذلك جواز حقيقة الكذب . والى هذا ذهب النووى اذ قال (٣) (والظاهر اباحة حقيقة نفس الكذب لكن الاقتصار على التعريض افضل) .

ووافقه ابن العربى فقال : (الكذب فى الحرب من المستثنى الجائز بالنص رفقا بالمسلمين لحاجتهم اليه وليس للعقل فيه مجال ولو كان تحريم الكذب بالعقل ما انقلب حلالا)(٤) .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٤٥) .
(٢) انظر المصدر السابق (١٦ / ١٥٨) .
(٣) انظر المصدر السابق (١٢ / ٤٥) .
(٤) انظر فتح البارى (٦ / ١٥٩) . ونيل الاوطار (٨ / ٨٤) .

وهذا مارجحه ابن حجر فى فتح البارى واحتج له (١) ، وتبعه فى ذلك الشوكانى (٢) .

الرأي الثاني: ذهب جماعة من العلماء الى عدم جواز الكذب مطلقا .

وحملوا ماجاء من التصريح بالكذب فى الحالات السابقة - على التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب. ومن هؤلاء العلماء الطبرى (٣) فقد قال: (٤) (انما يجوز من الكذب فى الحرب المعاريض دون حقيقة الكذب فانه لا يحل) . وهو ماذهب اليه المهلب بقوله: (٥) (ولا يجوز الكذب الحقيقى فى شىء من الدين اصلا ، -واضاف بقوله - و محال أن يأمر بالكذب من يقول: (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) (٦) . والذى اميل اليه هو أن حقيقة الكذب جائزة على الكفار ، وذلك لما اخرجه الشيخان - واللفظ للبخارى - عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (٧) (من لكعب بن الأشرف ؟ فقال محمد ابن مسلمة: اتحب أن أقتله ؟ قال: نعم . قال :فأذن لى فأقول . قال: قد فعلت) .

اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة فى أن يقول مافيه مصلحة مما يسهل عليه قتل كعب. والقول هنا اما ان يكون بالمعاريض او بالكذب، والرسول صلى الله عليه وسلم أباح عموم القول ولم يخص نوعا منه،فيفهم من ذلك

(١) انظر فتح البارى (٦ / ١٥٩) .
(٢) انظر نيل الاوطار (٨ / ٨٤) .
(٣) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٦ / ١٥٨) .
(٤) انظر المصدر السابق (١٢ / ٤٥) .
(٥) انظر فتح البارى (٦ / ١٦٠) .
(٦) الحديث اخرجه البخارى عن ابى هريرة بهذا اللفظ فى كتاب العلم/باب اثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم (١ / ٣١) وفى كتاب الادب باب من سمى باسم الانبياء (٤ / ٨٠) ومسلم فى المقدمة/باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم (١ / ١٠) . واخرجه البخارى ايضا من طريق على بن ابى طالب، والزبير بن العوام ، وانس بن مالك ، وسلمة بالفاظ مقاربة/فى كتاب العلم/باب اثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم (١ / ٣١) .
(٧) اخرجه البخارى فى الجهاد /باب الفتك باهل الحرب (٢ / ١٧٤) . ومسلم فى الجهاد والسير/ باب قتل كعب بن الاشرف (٣ / ١٤٢٥) .

ان الكذب مباح فى هذه الحالة . قال العينى : (قوله (قد فعلت) اى قال النبى صلى الله عليه وسلم قد أذنت ، ولفظ القول أعم الافعال يعبر به عن الفاظ كثيرة)[1] .

وقال ابن حجر (يدخل فيه الاذن فى الكذب تصريحا وتلويحا)[2] .

والحكمة من اباحة الكذب على العدو فى الحرب هى ـ كما اشرت سابقا ـ شدة الحاجة اليه فى المعارك والحروب لايقاع الخديعة بالعدو ، اذ إنه من الاسباب التى تعين على احراز النصر .

نماذج من خداع المسلمين للعدو واثرها فى المعركة :

ايقاع الخديعة بالاحزاب يوم الخندق : لقد اجتمعت الاحزاب من المشركين وقبائل العرب كغطفان وهوازن وغيرهما واليهود ، والمنافقون من جهة اخرى واطبقوا على المسلمين من كل جانب ، ولم يجتمع المشركون ومن مالأهم فى يوم من الايام كذاك اليوم ، فكان يوما عصيبا على المسلمين .

فى تلك الاثناء عرض نعيم بن مسعود ـ وقد جاء مسلما ولم يعلم بذلك قومه ـ عرض خدماته على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكلفه عليه الصلاة والسلام بتخذيل الاحزاب وايقاع الخديعة بهم . وكان لخديعة نعيم بالاحزاب كبير الاثر فى تفريق الاحزاب وتشتيتهم بل وتشكيكهم بعضهم ببعض مما ساعد فى رفع الحصار عن المدينة وفشل الاحزاب فى النيل من المسلمين . وسأذكر

---

(١) انظر عمدة القارى للعينى (١٤ / ٢٧٧) .
(٢) فتح البارى (٦ / ١٥٩) .

القصة كاملة من السيرة ليتضح قيمة الخداع فى المعركة، واثره فى النصر والهزيمة.

نقل ابن هشام عن ابن اسحاق قوله: (١) (ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر... من غطفان ، اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، انى قد اسلمت ، وان قومى لم يعلموا باسلامى ، فمرنى بماشئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما انت فينا رجل واحد ، فخذل عنا ان استطعت ، فان الحرب خدعة . فخرج نعيم بن مسعود حتى اتى بنى قريظة ، وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال : يابنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم فيه اموالكم وابناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون على ان تحولوا منه الى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد واصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم واموالهم ونساؤهم بغيره فليس كانتم ، فان رأوا نهزة (٢) اصابوها ، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من اشرافهم ، يكونون بايديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ، فقالوا له : لقد اشرت بالرأى .

ثم خرج حتى اتى قريشا ، فقال لابى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودى لكم وفراقى لمحمد ، وانه قد بلغنى امر قد رأيت على حقا ان ابلغكموه ، نصحا لكم ، فاكتموا عنى ، فقالوا : نفعل : قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد ارسلوا اليه : انا قد ندمنا على مافعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، من قريش وغطفان

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٢٢٩ ، ٢٣٠) . وانظر تاريخ الطبرى (٢ / ٥٧٨ ، ٥٧٩) . كلاهما عن ابن اسحاق ، ولكن لم يروها ابن اسحاق بالاسناد . وانظر امتاع الاسماع للمقريزى (١ / ٢٣٦ ، ٢٣٧) مطابع قطر الوطنية ، الطبعة الثانية ، تصحيح الاستاذ / محمود شاكر . وعزا صاحب كنز العمال (٤ / ٣٥٨) القصة للشيرازى فى الالقاب.

(٢) نهزة : فرصة . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٥ / ١٣٥) .

رجالا من اشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب اعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فارسل اليهم : أن نعم . فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى اتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان . انكم اصلى وعشيرتى واحب الناس الى ، ولا اراكم تتهموننى : قالوا : صدقت ، ماانت عندنا بمتهم ، قال : فاكتموا عنى ، قالوا : نفعل ، فما امرك ، ثم قال لهم مثل ماقال لقريش وحذرهم ماحذرهم .

قال ابن هشام : فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن ارسل ابو سفيان بن حرب ورؤس غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن ابى جهل ، فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، ونفرغ مما بيننا وبينه ، فارسلوا اليهم : ان اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا وقد كان احدث فيه بعضنا حدثا فاصابه مالم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بايدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فانا نخشى ان ضرستكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه . فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله ان الذى حدثكم نعيم ابن مسعود لحق ، فارسلوا الى بنى قريظة : انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من

رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنوقريظة ، حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، مايريد القوم الا أن يقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم فارسلوا الى قريش وغطفان : انا والله لانقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا ، فابوْا عليهم ، وخذل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم) .

لقد قام نعيم بن مسعود بدوره فى خداع الاحزاب فى احلك اللحظات ، وكان بارعا فى خداعه لكل فرقة على حِدَة حتى انطلت الخدعة عليهم جميعا .

وكسب المسلمون المعركة بخدعة نعيم بن مسعود - بعد تأييد الله لهم - واندحر الاحزاب عن المدينة خائبين لم ينالوا من المسلمين ماجاءوا من اجله ، واجتمعوا بسببه ، وانتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى قريظة بعد أن رحلت قريش ومن مالأها من قبائل العرب.

من هذا النموذج التطبيقى للخداع فى المعركة ندرك اهميته فى احراز النصر او وقوع الهزيمة .

الخداع بالتورية فى جهة الغزوة :

ومن اساليب التورية التى مارسها الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى غزواته ، تشكيك العدو فى جهة الغزو ليقاتله على حين غرة ، مستفيدا بذلك من عنصر المباغتة . ليكسب المعركة من الضربة الاولى ، اذ يكون العدو حينها غير مستعد للقتال .

اخرج الشيخان - واللفظ للبخارى - وابوداود والدارمى واحمد عن كعب ابن مالك قال[1] : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها الا ورى بغيرها . . الحديث) .

---

(١) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب من اراد غزوة فورى بغيرها (٢ / ١٦٢) . ومسلم فى التوبة / باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٤ / ٢١٢٨) وابوداود فى الجهاد / باب المكر فى الحرب (٣ / ٤٣) . والدارمى فى السير / باب الحرب خدعة (٢ / ١٣٨) . والامام احمد فى المسند (٣ / ٤٥٦ ، ٤٥٧) ، (٦ / ٣٨٧) .

والتورية هى اظهار امر مع ارادة غيره . والمراد بالتورية فى الغزوة انه عليه الصلاة والسلام اذا كان يريد أن يغزو فى جهة المشرق يسأل عن امر فى جهة المغرب ، ويتجهز للسفر فيظن من يراه وبسمعه انه يريد جهة المغرب.(١)

قال ابن القيم : (وكان يقول فى التورية اذا اراد حنينا مثلا : كيف طريق نجد ومياهها ، ومن بها من العدو ونحو ذلك)(٢) .. فمن يسمع هذا القول يظن أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد نجدا ، فيخدع أهل حنين ويفاجئهم بقواته ويأخذهم على حين غرة.

ومثل ذلك من جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم انه عندما اراد غزو بنى لحيان (اظهر انه يريد الشام ، ليصيب من القوم غرة)(٣) .

وهذا المبدأ عمل به الرسول صلى الله عليه وسلم فى معظم غزواته كما جاء فى حديث كعب بن مالك المتقدم الا غزوة تبوك لطول السفر وشدة الحر مما دعاه الى الاعلان عن جهة الغزوة.

ولا شك ان هذا المبدأ كان عاملا من عوامل القوة والنصر التى حظي بها جهاد المصطفى عليه الصلاة والسلام .

يقول "رومل" مبينا اهمية اخفاء اتجاه العمليات العسكرية واستعمال وسائل الخداع فى المعركة : (ان اخفاء النية مسألة هامة للغاية لتحقيق المفاجأة ، وبهذا تضيع على قيادة العدو استغلال الوقت اللازم لتتخذ الاجراءات المضادة ، وعلينا أن نلجأ الى كل وسائل الخداع لجعل العدو مرتبكا مترددا لا يتصرف بسرعة)(٤) .

بهذا يتبين اهمية الخداع فى المعركة ودوره فى احراز النصر.

---

(١) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦/ ١٣٣ ، ١٥٩) .
(٢) زاد المعاد لابن القيم (٢ / ١٦٦ ، ١٦٧) . بتصرف يسير جدا .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٢٧٩) .
(٤) استراتيجية الفتوحات الاسلامية / الرائد وليد جرادات ، نقلا عن مذكرات رومل (١ / ١٩١) .

السبب السابع:

المباغتـــــــــــــة

تمهيد : تستخدم مختلف الدول والنظم العسكرية عنصر المباغتة لاهداف عدوانية بدافع الاستيلاء على الارض والثروات ، واستغلال الشعوب . . ، ولا ترحم في ذلك طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا .

ومقصد الجهاد في الاسلام مقصد ديني يهدف الى الهداية والامن والعدالة وسعادة البشرية كما فصلته في بواعث الجهاد ، (١) فهو مجرد عن كل مطمع دنيوي . . ، وشرع لذلك آدابا لم تصل اليها البشرية في القرن العشرين .

وسأذكر آداب الحرب بايجاز :

اولا : عدم ايذاء وقتل المدنيين من الاطفال والنساء والشيوخ ان لم يشاركوا في القتال .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن عبدالله بن عمر : (٢) (أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم مقتولة فانكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان) .

قال النووي رحمه الله : (اجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان اذا لم يقاتلوا ، فان قاتلوا : قال جماهير العلماء يقتلون ، واما شيوخ الكفار فان كان منهم رأي قتلوا والا ففيهم) (٣) .

وقال ابن تيمية رحمه الله : (. . واما من لم يكن من اهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والاعمى والزَّمِن ، ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء الا ان يقاتل بقوله اوفعله . .) (٤) .

---

(١) انظر البواعث صفحة (٣٧) من هذه الرسالة .
(٢) اخرجه البخاري في الجهاد / باب قتل الصبيان في الحرب (٢ / ١٧٢) . ومسلم في الجهاد والسير / باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (٣ / ١٣٦٤) .
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢ / ٤٨) .
(٤) مجموعة الفتاوى لابن تيمية (٢٨ / ٣٥٤) .

ثانيا :المنع من التمثيل بالقتلى او الحرق بالنار.

اخرج البخارى عن ابى هريرة قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعث وقال : ان لقيتم فلانا وفلانا لرجلين من قريش سماهما فحرقوهما بالنار، قال : ثم اتيناه نودعه حين اردنا الخروج فقال : انى كنت امرتكم ان تحرقوا فلانا وفلانا بالنار، وان النار لا يعذب بها الا الله ، فان اخذتموهما فاقتلوهما)(١).

اخرج البخارى - واللفظ له - واحمد عن عبد الله بن يزيد الانصارى قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النهبى والمثلة)(٢).

ثالثا : تحريم الغلول والنهب.

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى وابن ماجة وابو داود عن بريدة قال(٣) : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا امر اميرا على جيش او سرية اوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . . الحديث) .

اوجب الاسلام كما ترى الالتزام بهذه الآداب الرفيعة فى المعركة ، واباح المباغتة بشرطين - مع الالتزام بالآداب السالفة الذكر - وهما :

الاول :بلوغ دعوة الاسلام للعدو.

لحديث بريدة - الذى تقدم ذكره قبل سطور قليلة - وجاء فيه : (اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال " او خلال" فايتهن ما اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم

- (١) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب لا يعذب بعذاب الله (٢ / ١٧٢) .
(٢) اخرجه البخارى فى المظالم/باب النهبى بغير اذن صاحبه (٢ / ٧٢) .
والامام احمد فى المسند (٤ / ٣٠٧) .
(٣) سبق تخريجه فى موضوع بواعث الجهاد .صفحة (٢٧) ، هامش رقم (١) .

الى الاسلام فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ،ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واخبرهم انهم ان فعلوا ذلك فلهم ماللمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين ،فان ابوا ان يتحولوا منها فاخبرهم انهم يكونون كاعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيء شيء الا ان يجاهدوا مع المسلمين ،فان هم ابوا فسلهم الجزية،ا فان هم اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم،فان هم ابوا فاستعن بالله وقاتلهم . . الحديث) .

فلم يجز الرسول صلى الله عليه وسلم القتال الا آخرالامر بعد تبليغهم الاسلام وتخييرهم بينه وبين الجزية . هذا وفى المسألة تفصيل سيأتى ذكره قريبا ان شاءالله .

الثانى : النبذ الى المعاهدين اذا خيف غدرهم :

يقول سبحانه وتعالى : (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين) .(١)

والمعنى انه يامحمد (صلى الله عليه وسلم)- وامراء المسلمين وولاتهم يدخلون فى الخطاب تبعا - اذا خفت من غدر المعاهدين ونقضهم العهد فاطرح العهد الذى بينكم (على سواء) اى بطريق مستو،باظهار نقض العهد لهم واخبارهم ذلك بالخبر الصريح ،وعدم مناجزتهم على توهم بقاءالعهد كيلا يكون منكم شبهة غدر او خيانة للعهد .(٢) واذا اتى المعاهدون بما ينقض العهد وقتالهم دون اعلامهم المسير اليهم . يدل على ذلك قتال الرسول صلى الله عليه وسلم لقريش بعد أن نقضت العهد ،واخفاؤه عليه الصلاة والسلام خبر مسيره اليهم .(٣)

على ضوء تلك البواعث وهذه الآداب والشروط يعلم مفهوم المباغتة فى الاسلام وتظهر السمة الحضارية الرائعة للتشريع الاسلامى حتى مع العدو فى المعركة ، وهو مايميز المدرسة العسكرية الاسلامية عما سواها .(٤)

---

(١) الانفال (٥٨) .
(٢) انظر تفسير ابن السعود (٤ / ٣١) .
(٤) انظر همجية الانظمة الحديثة من دول الكفر والضلال فى كتاب/الجهاد فى الاسلام /تأليف : محمد شديد صفحة (١٣٧) موءسسة الرسالة.بيروت.
(٣) انظر تفصيل ذلك فى موضوع الكتمان صفحة (٤١٤) من هذه الرسالة ، وانظر زاد المعاد لابن القيم (٢ / ٤٠٨) .

حكم مباغتة العدو قبل عرض الدعوة عليه :

اختلف العلماء فى حكم مباغتة العدو قبل دعوته الى الاسلام على ثلاثة آراء :

الرأى الاول :

جواز قتال العدو مطلقا بلغته الدعوة اولم تبلغه ، حكاه المازرى والقاضى عياض (١)
وقال النووى ببطلانه .

الرأى الثانى :

عدم جواز مباغتة العدو وقتاله مطلقا الا بعد دعوته الى الاسلام، سواء كان ممن بلغتهم الدعوة . (٢) ام لا الا ان يعجلوا المسلمين . (٣)
وهو رأى مالك والهادوية وجماعة من العلماء .

دليلهم : (١) استدلوا بما اخرجه الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى وابن ماجة وابوداود من حديث بريدة عن النبى صلى الله عليه وسلم جاء فيه : (٤)

(اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث خصال فايتها اجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم الى الاسلام فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . . فان هم ابوا فسلهم الجزية فان هم اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فان هم ابوا فاستعن بالله وقاتلهم . . الحديث) .

ووجه الدلالة فى الحديث : هو الامر بالدعوة الى الاسلام قبل القتال ، فدل ذلك على ان الدعوة واجبة قبل القتال .

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٣٦) .
(٢) انظر فتح البارى (٧ / ٤٧٨) . والدرر المضيئة شرح الدرر البهية للشوكانى (٢ / ٢٨١) .
(٣) انظر نيل الاوطار للشوكانى (٨ / ٥٣) .
(٤) سبق تخريجه فى موضوع بواعث الجهاد / صفحة (٢٧٢) هامش رقم (١) .

(٢) واستدلوا بما اخرجه الشيخان - واللفظ للبخارى - عن سهل بن سعد الساعدى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: (١) (لاعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . قال : فبات الناس يدوكون (٢) ليلتهم : ايهم يعطاها ؟ فلما اصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو ان يعطاها فقال : اين على بن ابى طالب ؟ فقيل : هو يارسول الله يشتكى عينيه . قال فارسلوا اليه . فأُتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعاله فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فاعطاه الراية . فقال على : يارسول الله ، اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . فقال انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من ان يكون لك (٣) حُمْر النَّعَم) .

والشاهد فى الحديث هو قوله عليه الصلاة والسلام : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه) وهو امر بالدعوة الى الاسلام قبل القتال .

الرأى الثالث :

قال اكثر العلماء بالتفصيل فى المسألة على الوجه التالى :

(١) من لم تبلغه الدعوة لا يجوز مباغتته بالقتال الا بعد عرض الدعوة عليه .

(٢) من بلغته الدعوة يجوز مباغتته بالقتال دون عرض الدعوة عليه ، واستحبوا دعوته الى الاسلام ثانية قبل القتال مبالغة فى الانذار .

---

(١) اخرجه البخارى فى المغازى /باب غزوة خيبر (٣ / ٥١) . وفى الجهاد /باب فضل من اسلم على يديه رجل (٢ / ١٧١) . ومسلم فى الفضائل /فضائل على ابن ابى طالب رضى الله عنه (٤ / ١٨٧٢) .

(٢) يدوكون : اى يخوضون ويموجون فيمن يدفعها اليه . انظر النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ١٤٠) .

(٣) حمر النعم : حمر بسكون الميم . والنعم ، بفتح النون والعين المهملة ، وهو من الوان الابل المحمودة . قيل المراد خير لك من ان تكون لك فتتصدق بها ، وقيل تقتنيها وتملكها ، وكانت مما تتفاخر العرب بها . انظر فتح البارى لابن حجر (٧ / ٤٧٨) .

بهذا الرأى قال نافع مولى ابن عمر والحسن البصرى والثورى والليث والشافعى (١) وابو ثور وابن المنذر والاحناف (٢) والحنابلة، (٣) ورجحه النووى (٤) وابن حجر (٥) والشوكانى (٦).

ادلتهم: استدلوا على قولهم بالتفصيل من حيث بلوغ الدعوة او عدمه كالآتى:

اولا: ادلتهم على عدم جواز المباغتة الا بعد عرض الدعوة هى نفس ادلة الفريق الثانى القائل بعدم جواز المباغتة مطلقا، وهى فى حديثى بريدة وسهل ابن سعد الساعدى، اذ يدل كلاهما على عدم جواز القتال قبل بلوغ دعوة الاسلام.

ثانيا: ادلتهم على جواز مباغتة من بلغته الدعوة هى:

(١) ما اخرجه الشيخان - واللفظ لمسلم - وابوداود وابن الجارود عن ابن عون قال: (٧) كتبت الى نافع اسأله عن الدعاء قبل القتال قال: فكتب الى انما كان ذلك فى اول الاسلام، قد اغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنى المصطلق وهم غارون (٨) وانعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم واصاب يومئذ جويرية بنت الحارث).

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/٣٦). والمجموع شرح المهذب للنووى مع تكملته للمطيعى (١٩/٢٨٥-٢٨٧).

(٢) انظر تبين الحقائق /للامام الزيلعى (٣/٢٤٣) دار المعرفة /لبنان الطبعة الثانية. والهداية للمرغينانى (٢/١٣٦).

(٣) انظر المغنى الشرح الكبير لابن قدامة (١٠/٣٨٥، ٣٨٦).

(٤) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/٣٦).

(٥) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٧/٤٧٨).

(٦) انظر نيل الاوطار للشوكانى (٨/٥٣). والسيل الجرار للشوكانى (٤/٥٢٦، ٥٢٧).

(٧) اخرجه البخارى فى كتاب العتق /باب من ملك من العرب رقيقا. (٢/٨٢، ٨٣) ومسلم فى الجهاد والسير/باب جواز الاغارة على الكفار (٣/١٣٥٦). وابوداود فى الجهاد /باب فى دعاء المشركين (٣/٤٢). وابن الجارود، فى الجهاد باب ماجاء فى ترك دعاء المشركين قبل القتال (٣٤٩).

(٨) غارون: بالغين المعجمة وتشديد الراء اى غافلون. انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/٣٦).

(١)
(٢) ماخرجه الشيخان - واللفظ للبخارى - عن انس قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا غزا قوما لم يغز حتى يصبح فان سمع اذانا أمسك وان لم يسمع اذانا اغار بعدما يصبح ، فنزلنا خيبر ليلا) .

وموضع الشاهد فى حديث نافع هو قوله : (اغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنى المصطلق وهم غارون) . اى غافلون . فالحديث صريح فى ان الرسول صلى الله عليه وسلم اغار عليهم وهم فى غفلة من الامر ممايعنى جواز الاغارة على العدو اكتفاء ببلوغ الاسلام له اولا .

وقول انس (وان لم يسمع اذانا اغار) صريح فى جواز الاغارة على العدو دون عرض الدعوة عليه قبل القتال مباشرة اكتفاء بعرضها عليه اولا .

والصحيح هو ماذهب اليه جمهور العلماء من التفصيل السابق لانهم بهذا جمعوا بين الادلة وازالوا ظاهر التعارض، سيما وان الاحاديث المذكورة كلها صحيحة بل وفى اعلى مراتب الصحة .

فى حين ان اصحاب الرأى الثانى - القائلين بعدم جواز المباغتة مطلقا - تعترضهم هذه النصوص الصحيحة والصريحة فى الدلالة كذلك .

معنى المباغتة : معنى المباغتة فى اللغة : المفاجأة .(٢)

وفى الاصطلاح العسكرى : احداث موقف لايكون العدو مستعدا له .(٣)

---

(١) سبق تخريجه فى موضوع الامن العسكرى - الكتمان - صفحة (٤١١) ، هامش (٤) .

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور (٢ / ١٠ ، ١١) .

(٣) انظر الرسول القائد صفحة (٩٤) هامش (١) . ومجلة الامة القطرية العدد السابع والخمسون /السنة الخامسة . مقال اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ .

اشكال المباغتة : تتخذ المباغتة ثلاثة اشكال :

الاول = المباغتة في الزمان بضرب العدو في وقت لا يتوقعه .

الثاني = المباغتة في المكان بضرب العدو في مكان لا يتوقعه .

الثالث = المباغتة في الاسلوب بضرب العدو باسلوب قتالي لا يتوقعه ، سواء كان خطة حربية جديدة على العدو او سلاحاً جديداً كذلك .

اهمية المباغتة في المعركة :

يعدّ العسكريون المباغتة من اهم مبادئ الحرب لما لها من الاثر الحاسم في احراز النصر او الاصابة بالهزيمة .

وتكمن اهمية عنصر المباغتة في وقوع الفعل على خلاف توقعات العدو ، أي أن مايحدث لايكون داخلا في حساباته العسكرية وهنا تكمن الخطورة ، اذ يؤدي ذلك في الغالب الى احد امرين :

الاول : تحطيم العدو وشل قدراته تماما في المعركة وفي مدة قصيرة من جراء الضربة الاولى المباغتة ، او بسبب سلاح خطير لم يعرفه العدو فتحسم به المعركة بسرعة ، او بضرب مركز القيادة في الجيش ، او القطاعات الحساسة فيه كقواعد الصواريخ وسلاح الطيران مما يعني الهزيمة والاستسلام .

الثاني : او تحدث المباغتة ارباكا لقيادة العدو ومايؤدي الى فقدان اوضعف سيطرتها على المعركة وافشال خططها العسكرية ، وتحدث كذلك اختلالاً في التوازن العسكري للجيش ، وهذا وذاك يؤثر في سير المعركة ونتائجها .

من هذا العرض الموجز تبرز اهمية المباغتة في المعركة واثرها في النصر والهزيمة . ووقائع السيرة - فضلا عن وقائع التاريخ الحديث للمسلمين - تثبت ذلك كما سترى .

نماذج عملية للمباغتة من جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم واثرها فى المعركة :

من المدهش حقا ان الباحث لا يكاد يجد غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم الا وفيها نوع مباغتة ، وفى المقابل لم يكد يحدث أن فوجىء المسلمون بمعركة سوى حنين رغم كثرة المعارك التى خاضوها ، وكثرة اعدائهم كذلك .

ولعل ذلك عائد الى شدة حذر النبى صلى الله عليه وسلم واحتياطه من اعدائه ، وانتشار عيونه واستطلاعاته الذين يأتونه بالاخبار أولا بأول ، ومعاجلته الاعداء بالقتال قبل ان يهموا به وقبل ان يجمعوا امرهم ويتخذوا عدتهم .

(١) مباغتة بنى المصطلق : وصلت الاخبار الى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق بريدة الاسلمى - وقد كان عينا للمسلمين - ومفادها ان بنى المصطلق يستعدون لقتال المسلمين ويجمعون السلاح ويستنفرون القبائل (١) ، فاعد الرسول صلى الله عليه وسلم العدة وتجهز لقتالهم . ثم عاجلهم الضربة فاصابهم على حين غرة وقتل رجالهم وسبى نساءهم .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - وابوداود وابن الجارود عن ابن عون عن نافع قال : ((٢) اغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنى المصطلق وهم غارون وانعامهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلتهم ، وسبى سبيهم ، واصاب يومئذ جويرية بنت الحارث) .

ولا شك ان لعنصر المباغتة اثره الكبير فى عدم تمكين بنى المصطلق من اتمام استعداداتهم وتجميع قبائل العرب معهم ، وساهم فى مفاجأتهم بما لا يتوقعونه من حال المسلمين ، مما ادى الى تحطيم قواتهم ، واحراز النصر عليهم .

---

(١) انظر ذلك فى سيرة ابن هشام ، (٣، ٤ / ٢٩٠) .

(٢) سبق تخريجه صفحة (٤٧٥) من هذا المبحث ، هامش رقم (٧) .

وحصول المباغتة لبنى المصطلق فى وقت تستعد فيه للقتال من اعظم صور المباغتـــــة .

(٢) مباغتة يهود خيبر وقت الفجر : سبق ان ذكرت فى موضوع الكتمان بالمسير (١) الليلى ان الرسول صلى الله عليه وسلم تحرك الى يهود خيبر ليلا ليكتم حركته عنهم .

والهدف من كتمان المسلمين حركتهم بالمسير الليلى هو التمكن من مباغتة اليهود فى ارضهم، وهو ما حدث بالضبط .

لقد بدأ هجوم المسلمين عند طلوع الشمس، وكان اليهود خارجين من اجل الزراعة والفلاحة يحملون الفؤوس والقفف معهم ، فكان الامر بالنسبة لهم مجهولا تماما والا لما خرجوا على تلك الحال ، ولكانوا اختبأوا فى حصونهم - كما هى عادتهم - مما يدل علـــى مدى دقة الرسول صلى الله عليه وسلم واتقانه فى مباغتتهم المباغتة الكاملة .

اخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن انس قال : (كنت رِدْفَ (٢) ابى طلحة يوم خيبر وقدمى تمسّ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاتيناهم حين بزغت الشمس وقد اخرجوا مواشيهم وخرجوا بفئوسهم ومكاتلهم (٣) ومرورهم (٤) فقالوا : محمـــد والخميس، (٥) قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خربت خيبر ، انا اذا نزلنـــا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ، قال : فهزمهم الله عزوجل) .

---

(١) انظر موضوع الامن العسكرى / الكتمان ، صفحة (٤١١) من هذه الرسالة .
(٢) سبق تخريجه فى صفحة (٢٢٣) ، هامش (١) .
(٣) مكاتلهم : جمـــع مكتل ، بكسر الميم وهو القفة يقال له مكتل وقفة وزبيل وزنبل وزنبيل وعرق وسفيفة . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٦٥) . والنهاية فى غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ١٥٠) .
(٤) مرورهم : قال القاضى عياض : قيل هى حبالهم التى يصعدون بها الى النخل واحدها مرومر ، وقيل مساحيهم واحدها مر لاغير . انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ١٦٥) .
(٥) الخميس : الجيش ، سمى به لانه مقسوم بخمسة اقسام : المقدمة ، والساقة ، والميمنة والميسرة ، والقلب . وقيل لانه تخمس فيه الغنائم . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ٧٩) .

قال النووى : (قال القاضى فى هذا الحديث ان الاغارة على العدو يستحب كونها اول النهار عند الصبح لانه وقت غرتهم وغفلة اكثرهم ، ثم يضىء لهم النهار لما يحتاج اليه)(١) .

ووقت الفجر يؤمن المباغتة لان العدو يكون بين نائم لا يفيد فى القتال او مستيقظ غير متهيىء له ، وهؤلاء جميعا غير مهيئين للقتال ، ولا جدوى منهم للنهوض باعباء الحرب.

وهو مايعنى ان الفرصة تكون سانحة لتحطيم قوات العدو وهزيمتها فى هذه اللحظات ، ممايحقق النصر السريع على العدو(٢) .

(٣) مباغتة هوازن فى الليل : ومن صور مباغتة المسلمين للاعداء الهجوم الليلى ، وهو مايطلق عليه العلماء (تبييت الكفار) اى شن الغارة على العدو فى الليل ليؤخذوابغتة ، ويترجم المحدثون فى كتبهم لاحاديث هذا الباب بهذا العنوان او بعنوان (بيات الكفار) .

ولا شك ان وقت الليل وقت غرة لانه وقت النوم المعتاد ، ولذا فان الهجوم فى هذا الوقت يوفر للمهاجم عنصر المباغتة للعدو اذ يكون مستغرقا فى نومه وان وجدت الحراسات فهى قليلة ولاتكفى لايقاف الهجوم ، وهذا يساعد على نجاح الهجوم واحراز النصر .

وهذا الاسلوب من المباغتة طبقه المسلمون فى غزوهم هوازن .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢ / ٦٥ ١) .

(٢) لاتعارض بين ماذكرته هنا من مباغتة المسلمين يهود خيبر ، وبين مانقلته سابقا من حديث سهل بن سعد الساعدى - فى حكم المباغتة - حيث استوقف الرسول صلى الله عليه وسلم على بن ابى طالب - قائد الجيش فى هذه الغزوة - وامره ان يدعوهم الى الاسلام قبل القتال . لان المباغتة كانت فى مسير المسلمين اليهم ووقوفهم على روءوسهم ولا يدرون ، فكان الامر مفاجئا لليهود . واما حديث (سهل) فالمراد به انه عليه الصلاة والسلام لم يأذن للمسلمين بمباشرة قتال اليهود قبل دعوتهم ، فتكون قد حصلت المباغتة فى المسير والوقوف فى مواجهتهم ، وحصلت الدعوة ساعة مواجهتهم وقبل قتالهم . ولاتعارض فى هذا .

اخرج الامام احمد وابوداود - واللفظ له - وابن ماجه والدارمى والحاكم عن سلمة بن الاكوع قال : (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ابابكر رضى الله عنه فغزونا ناسا من المشركين فبيتناهم نقتلهم ، وكان شعارنا تلك الليلة : امت، امت، قال سلمة : فقتلت بيدى تلك الليلة سبعة اهل ابيات من المشركين) .

وعند الامام احمد ان الناس هم هوازن ، ولفظه :

(بيتنا هوازن مع ابى بكر الصديق رضى الله عنه وكان امّره علينا النبى صلى الله عليه وسلم) .

(٤) مباغتة بنى ملوح بالكديد ليلا : هذه صورة اخرى للمباغتة الليلية للعدو .

اخرج الامام احمد - واللفظ له - وابوداود عن جندب بن مكيث الجهنى قال : (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الكلبى ، كلب ليث (٣) (يعنى الليثى) الى بنى ملوح بالكديد وامره ان يغير عليهم ، فخرج فكنت فى سريته فمضينا حتى اذا كنا بقديد (٤) لقينا بها الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء الليثى فاخذناه فقال : انما جئت لاسلم ، فقال غالب بن عبد الله : ان كنت انما جئت مسلما فلن يضرك رباط يوم وليلة ، وان كنت على غير ذلك استوثقنا منك ، قال : فاوثقه رباطا ثم خلف عليه رجلا اسود كان معنا فقال : امكث معه حتى نمر عليك ، فان نازعك فاحتز رأسه ، قال ثم مضينا حتى اتينا بطن الكديد فنزلنا عشيشية بعد العصر ، فبعثنى (٥) اصحابى فى ربيئة فعمدت الى تل يطلعنى على الحاضر فانبطحت عليه وذلك المغرب (٦)

---

(١) سبق تخريجه فى صفحة (٣٩٢) ، هامش (١) .

(٢) اخرجه الامام احمد فى المسند (٣ / ٤٦٧ ، ٤٦٨) . واخرج ابوداود بعضه فى الجهاد / باب فى الاسير يوثق (٣ / ٥٦) . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ٢٠٣) : رواه احمد والطبرانى ورجاله ثقات فقد صرح ابن اسحاق بالسماع فى رواية الطبرانى .

(٣) الكديد : موضع بين مكة والمدينة . انظر معجم مااستعجم (٢ / ١١١٩) تاليف / عبد الله البكرى الأندلسى

(٤) قُدَيْد : مصغرا ، وهو موضع بين مكة والمدينة . انظر النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير .

(٥) عشيشية : قال ابن الاثير : هى تصغير عَشِيَّة على غير قياس ، أُبدل من الياء الوسطى شين كأن اصلها : عُشَيِّيَة . يقال : أتيته عشيشية وعُشَيَّاناً ، وعُشَيَّانة ، وعُشيشياناً . انظر النهاية فى غريب الحديث (٣ / ٢٤٣) .

(٦) ربيئة : هو العين والطليعة الذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون الا على جبل اوشَرَف ينظرُ منه . وارتبأت الجبل : اى صعدته . انظر النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ١٧٩) .

فخرج منهم فنظر فرآنى منبطحا على التل فقال لامرأته : والله انى لارى على هذا التل سوادا مارأيته اول النهار، فانظرى لاتكون الكلاب اجترت بعض اوعيتك قال فنظرت فقالت: لا والله ماافقد شيئا ، قال : فناوليني قوسى وسهمين من كنانتى ، قال : فناولَتْه فرمانى بسهم فوضعه فى جنبى قال : فنزعته فوضعته ولم اتحرك ،ثم رمانى بآخر فوضعه فى رأسى منكبى فنزعته فوضعته ولم اتحرك ، فقال لامرأته : والله لقد خالطه سهماى ، ولوكان دابة لتحرك ، فاذا اصبحت فابتغى سهمى فخذيهما لاتمضغهما على الكلاب ، قال : وامهلناهم حتى راحت رائحتهم (١) (٢) حتى اذا احتلبوا وعطنوا او سكنوا وذهبت عتمة من الليل شننا عليهم الغارة فقتلنا من قتلنا منهم واستقنا النعم فتوجهنا قافلين ، وخرج صريخ القوم الى (٣) قومهم مغوثا وخرجنا سراعا حتى نمر بالحارث بن البرصاء وصاحبه فانطلقنا به معنا ، واتانا صريخ الناس فجاءنا مالا قبل لنا به ، حتى اذالم يكن بيننا وبينهم الا بطن الوادى اقبل سيل حال بيننا وبينهم بعثه الله تعالى من حيث شاء مارأينا قبل ذلك مطرا ولا حالا ، فجاء بمالا يقدر احدان يقوم عليه ، فلقد رأيناهم (٤) وقوفا ينظرون الينا مايقدر احد منهم ان يتقدم ونحن نحوزها سراعا حتى اسندناها (٥) فى المشلل ثم حدرنا ها عنا ، فاعجزنا القوم بمافى ايدينا) .

من خلال مامر من نماذج المباغتة من جهاد الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام يتأكد لنا ان عنصر المباغتة هو واحد من اهم الاسباب والوسائل العسكرية التى اتبعها المسلمون فى جهادهم مع اعدائهم، ويتأكد ايضا انها سبب من اسباب انتصاراتهم على اعدائهم.

---

(١) احتلبوا : اى حلبوا مواشيهم.
(٢) عطّنوا : اى اراحوا مواشيهم واغنامهم، سمى المراح وهو مأواها عطنا . انظر النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير (٣ / ٢٥٨) .
(٣) مُغوّثا : الاغاثة: الاعانة، وقد اغاثه يغيثه . انظر المصدر السابق (٣ / ٣٩٢) .
(٤) نحوزها : اى نسوق ماغنمناه من النعم.
(٥) المُشَلَّل : بضم الميم وفتح الشين وتشديد اللام الاولى وفتحها : موضع بين مكة والمدينة . انظر غريب الحديث لابن الاثير (٤ / ٣٣٤) .

لذا ينبغى أن يعي المسلمون اليوم هذا الدرس ويأخذوا به فى جهادهم مع عدوهم ، وينبغى فى المقابل ان يحذر المسلمون من مباغتة عدوهم لهم لان هذا سيكون سببا فى هزيمتهم .

الحذر من مباغتة العدو للمسلمين :

عنصر المباغتة سلاح يساهم فى نصر من يأخذ به ، ويسبب الهزيمة لمن يتركه ولا يكون على حذر منه .

وقد حذر القران الكريم المجاهدين من مباغتة المشركين لهم فى المعركة وقت ادائهم الصلاة خاصة ، وهو تحذير لهم من عدوهم فى كل اوقات المعركة وفى كل احوالهم ، ولكن خص الله سبحانه وقت الصلاة بالذات لانه مظنة هجوم الكفار ومباغتتهم للمسلمين لعلمهم بانشغال المسلمين بها ، ولئلا يهمل المسلمون الحذر من عدوهم بسبب الصلاة ، لذا فقد علمهم الصلاة فى الحرب مع اخذ الحذر والاحتياط العسكرى .

يقول سبحانه وتعالى : (واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا) (١) .

الخطاب فى الآية للرسول صلى الله عليه وسلم ولمن يتأتى له الخطاب من المسلمين ، ومعنى قوله (فاقمت الصلاة) اى اردت الاقامة . (فلتقم طائفة منهم معك) بعد ان جعلتهم طائفتين : طائفة تقوم بالحراسة من العدو ، وطائفة تقوم معك بالصلاة . (وليأخذوا اسلحتهم) اى الطائفة التى تصلى ، ونبههم الى اخذ السلاح وقت الصلاة ليعلمهم عدم ترك اسلحتهم باى حال من الاحوال من باب اولى ، كى يكونوا على اتم استعداد فى كل هذه الاحوال ، ولكى لا يتمكن العدو من غدرهم

---

(١) النساء (١٠٢) .

باى حال من الاحوال .

وقال سبحانه (فاذا سجدوا) اى المصلين منهم (فليكونوا) اى فرقة الحراسة (من ورائكم) اى من وراء المصلين (لتأت طائفة اخرى) وهى فرقة الحراسة التى لم تصل (فليصلوا معك) كما صلى اخوانهم (وليأخذوا) اى هذه الطائفة التى صلت اولا (حذرهم واسلحتهم) للحراسة (ولعل زيادة الامر بالحذر فى هذه المرة لكونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شغل شاغل واما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب)[1] . ولم يذكر[2] القرآن كم تصلى كل طائفة من الطائفتين ، ولكن بينته السنة .

وعللت الآية سبب ما ورد من ذكر الحذر والحراسة والصلاة بتلك الكيفية فى قوله (ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) اى ان العلة هى تمنى الاعداء وحرصهم الشديد على ان ينالوا من المسلمين غرة ليهجموا عليهم دفعة واحدة بغرض القضاء عليهم .

وأمر[3] المصلى بحمل السلاح وقت الصلاة حمله اهل الظاهر على الوجوب ، بخلاف كثير من العلماء[4] حيث حملوا الامر على الندب .

ورخص الله سبحانه بوضع السلاح فى احوال يثقل فيها حمله ، وختم الآية بالتحذير من العدو لئلا يهجم عليهم غيلة فقال سبحانه (ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم) .

---

(١) انظر تفسير ابن السعود (٢ / ٢٢٧) .

(٢) وردت احاديث كثيرة فى صلاة الخوف وارشدت الى هيئات متعددة .
قال الامام احمد : (لا اعلم انه روى فى صلاة الخوف الا حديث ثابت ، وهى كلها صحاح ثابتة ، فعلى اى حديث صلى منها المصلى صلاة الخوف اجزأه ان شاء الله) انظر احكام القران للقرطبى (٥ / ٣٦٥ ، ٣٦٦) . قلت : تعدد هيئات صلاة الخوف بادلتها الصحيحة هو تيسير من الشارع على المجاهدين لان ظروف القتال واحواله كثيرة وشاقة ، لذا فقد احتاج الامر الى التيسير .

(٣) انظر فتح القدير للشوكانى (١ / ٥٠٨) .

(٤) انظر احكام القران لابن العربى (١ / ٤٩٤) . واحكام القران للقرطبى (٥ / ٣٧١) .

تدلنا هذه الآية الكريمة على خطورة المباغتة من العدو على المسلمين ووجوب الحذر والسهر فى المعركة والترقب خوفا من غدر العدو، واتباع مبدأ الحراسة العسكرية لحماية المقاتلين والمعسكر الاسلامى .

حث الرسول صلى الله عليه وسلم على حراسة معسكر المسلمين خشية مباغتة الاعداء لهم :

رغب الرسول صلى الله عليه وسلم فى حراسة معسكر المسلمين وحثهم عليها فى احاديث كثيرة لا يتسع هذا المقام لذكرها ، وسأكتفى بالقليل منها ، ثم اعقبها بذكر نماذج من حراسة المسلمين لمعسكراتهم فى الحرب.

اخرج الامام احمد والترمذى وابن ماجه والدارمى والحاكم - واللفظ له - عن عثمان بن عفان رضى الله عنه انه قال وهو يخطب على المنبر : (انى محدثكم (١) حديثا لم يمنعنى ان احدثكم به الا الضن (٢) بكم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حرس ليلة فى سبيل الله افضل من الف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها) .

اخرج الحاكم بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الا انبئكم بليلة افضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس فى ارض خوف لعله ان لا يرجع الى اهله) (٣) .

---

(١) اخرجه ابن ماجة فى الجهاد / باب فضل الرباط فى سبيل الله (٢ / ٩٢٤) . والحاكم فى المستدرك (٢ / ٨١) وصححه . والامام احمد فى المسند (١ / ٦١ ، ٦٥) . والترمذى فى فضائل الجهاد / باب ماجاء فى فضل المرابط (٤ / ١٨٩ ، ١٩٠) . وقال : هذا حديث حسن صحيح . واخرجه الدارمى فى الجهاد / باب فضل من رابط يوما وليلة (٢ / ١٣٠) .
قلت : الحديث حسن بمجموع طرقه .

(٢) الضن : بكسر الضاد المعجمة مشددة اى البخل ، والمعنى ان عثمان رضى الله عنه كان يبخل تبليغ هذا الحديث لاصحابه خشية فراقهم ، ولكن لما كان تبليغ العلم مطلوبا شرعا آثر تبليغ ماسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان فيه مفارقة لاصحابه . انظر غريب الحديث (٣ / ١٠٤) لابن الاثير . والفتح الربانى : ترتيب مسند الامام احمد للامام احمد عبد الرحمن البنا (الساعاتى) (١٤ / ٩) .

(٣) اخرجه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٨٠ ، ٨١) . وصححه . قلت : الحديث صحيح ورجاله ثقات .

نماذج من الحراسة فى المعسكر الاسلامى : لقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ الحراسة فى غزواته وتحركاته العسكرية لئلا يتيح للعدو فرصة مباغتة المسلمين . وسأمثل على ذلك بمثلين من جهاده عليه الصلاة والسلام .

(١) حراسة معسكر المسلمين فى حنين : اخرج الحاكم وابوداود - واللفظ له - عن سهل بن الحنظلية : (انهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من يحرسنا الليلة ؟ قال انس بن ابى مَرثَد الغنوى : انا يارسول الله ، قال : فاركب ، فركب فرساله فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : استقبل هذا الشعب حتى تكون فى اعلاه ، ولا نغرن من قبلك الليلة . فلما اصبحنا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصلاه فركع ركعتين ثم قال : هل احسستم فارسكم ؟ فقالوا يارسول الله ماحسسناه . فثوّب بالصلاة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو يلتفت الى الشعب حتى اذا قضى صلاته وسلم قال : ابشروا ، فقد جاءكم فارسكم ، فجعلنا ننظر الى خلال الشجر فى الشعب ، فاذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم فقال : انى انطلقت حتى كنت فى اعلى هذا الشعب حيث امرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما اصبحت اطّلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم ار احدا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهل نزلت الليلة ؟ قال : لا ، الا مصليا او قاضيا حاجة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد اوجبت فلا عليك ان لاتعمل بعدها) .[1]

---

(١) سبق تخريجه فى موضوع الحرب النفسية (٢٢٩) هامش (١) .

فى هذا الحديث نموذج للحراسة الليلية التى قام بها انس بن ابى مرثد ونموذج لدقة الحارس وامانته فى اداء مهمته ، فهاهو انس بن ابى مرثد لم يفارق الشعب الذى اشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم الا لضرورة . وكافأه الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك بتبشيره انه نال منزلة اهل الجنة بحراسته هذه .

(٢) حراسة ابو ريحانة والانصارى معسكر المسلمين ليلا :-

اخرج النسائى والدارمى والحاكم واحمد - واللفظ له - عن ابى ريحانة قال : (١) (٢) كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأتينا ذات ليلة الى شرف فبتنا عليه ، فاصابنا برد شديد حتى رأيت من يحفر فى الارض حفرة يدخل فيها ويلقى عليه الجحفة يعنى الترس، فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس نادى : من يحرسنا الليلة وادعوله بدعاء يكون فيه فضل ؟ فقال رجل من الانصار : انا يارسول الله ، فقال :ادنه ، فدنا قال : من انت ؟ فتسمى له الانصارى ، ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء فاكثر منه ، قال ابو ريحانة : فلما سمعت مادعابه رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: انا رجل آخر ، فقال : ادنه فدنوت ، فقال : من انت ؟ فقلت : انا ابو ريحانة ، فدعا بدعاء هو دون مادعا للانصارى ثم قال : حرمت النار على عين دمعت اوبكت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله ، او قال حرمت النار على عين اخرى ثالثة لم يسمها محمد بن سمير - احد الرواة- .

---

(١) اخرجه النسائى فى الجهاد / باب ثواب عين سهرت فى سبيل الله عزوجل (٦ / ١٥) . والدارمى فى الجهاد /باب فى الذى يسهر فى سبيل الله حارسا (٢ / ١٢٣) ، كلاهما : باختصار . واخرجه الحاكم بطوله فى المستدرك (٢ / ٨٣) وصححه . والامام احمد فى المسند (٤ / ١٣٤ ، ١٣٥) . واللفظ له . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥ / ٢٨٧) : رواه احمد والطبرانى فى الكبير والاوسط ، ورجال احمد ثقات. قلت: الحديث مداره على محمد بن شمير وقيل سمير الرعينى ابو الصباح ، وهو مقبول. انظر التقريب (٢ / ١٧٠) .ولكن للحديث شاهد بمعناه من حديث ابن عباس مرفوعا اخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد باب ماجاء فى فضل الحرس فى سبيل الله (٤ / ١٧٥) . وبذلك فان الحديث يصبح حسنا بشاهده .

(٢) شرف : اى مكان مرتفع. انظر غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ٤٦٢).

هذا مثل آخر للحراسة فى الغزو لتأمين سلامة جيش المسلمين من الاذى ومباغتة العدو لهم ليلا . والامثلة كثيرة لا يمكن جمعها فى هذا المقام.

ومن هذا كله يتبين قيمة عنصر المباغتة فى المعركة وضرورة الاخذ به ضد العدو، وضرورة التحرز منه فى المقابل خشية ان يستخدمه العدو ضدنا ، وذلك باعتباره سببا من اسباب النصر والهزيمة .

الحذر من مباغتة العدو بالمرابطة فى الثغور :

وكما ان الحراسة هى من مقتضيات الحذر وامن المباغتة فالرباط ايضا هو من مقتضيات الحذر وامن المباغتة .

فالحراسة تؤمن معسكرات المجاهدين من مداهمة العدو لها فى ساحة القتال ، والرباط يؤمن الحدود والثغور من مباغتة الاعداء كذلك .

والفرق بين الحراسة والمرابطة هى ان الحراسة تكون فى الاماكن التى فيها القتال سواء كانت الحراسة في اثناء القتال ام لا ، بينما المرابطة تكون فى المواضع التى لا قتال فيها اصلا ولكن يخشى من العدو ان يداهمها (١) .

وعرّف ابن عطية الرباط بقوله : (هو الملازمة فى سبيل الله . اصلها من رباط الخيل ، ثم سمى كل ملازم لثغر من ثغور الاسلام مرابطا ، فارسا كان او راجلا . واللفظ مأخوذ من الربط (٢)) .

وعرفه ابن حجر بقوله : (ملازمة المكان الذى بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم (٣)) . والمرابطة فى الثغور ضرورية لان تلك الثغور هى مظنة مداهمة العدو للنفوذ منها الى بلاد المسلمين . واذا كانت كل الحدود مهددة بمباغتة العدو فانها كلها تصبح موطن رباط ، يجب الملازمة فيه حتى لا ينفذ منه العدو .

---

(١) انظر الجهاد والفدائية للشيخ حسن ايوب (٤٠٣/ ٤ هـ ٨٣) . دار الندوة الجديدة بيروت ط الثانية

(٢) انظر احكام القرآن للقرطبى (٤ / ٣٢٣) . وانظر مثل ذلك فى النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير (٢ / ١٨٥ ، ١٨٦) .

(٣) فتح البارى لابن حجر العسقلانى (٦ / ٨٥) .

وحث الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز المؤمنين على المرابطة بقوله : (يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)[1] .

حث الله سبحانه - فى هذه الآية - على الصبر عموما ، وفى الجهاد خصوصا ، وعلى المرابطة فى الثغور تحرزا من غدر الاعداء .

قال الآلوسى رحمه الله - فى معنى قوله تعالى (ورابطوا) : (اى اقيموا فى الثغور رابطين خيولكم فيها حابسين لها ، مترصدين للغزو ، مستعدين له ، بالغين فى ذلك المبلغ الاوفى اكثر من اعدائكم)[2] .

والتعقيب بقوله : (لعلكم تفلحون) بعد الحث على الصبر والمصابرة والرباط والتقوى ، فيه اعلام للمؤمنين بان تلك الامور هى من اسباب الفوز بثواب الله ورضوانه فى الآخرة كما انها من اسباب الفوز فى الدنيا على الاعداء الذين يصابرونهم فى الجهاد ، ويرابطون امامهم فى الثغور .

وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على الرباط ببيان عظيم منزلته وجزيل ثوابه .

اخرج الشيخان والترمذى - واللفظ للبخارى - عن سهل بن سعد رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وماعليها ، وموضع سوط احدكم من الجنة خير من الدنيا وماعليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله او الغدوة خير من الدنيا وماعليها)[3] .

---

(١) آل عمران (٢٠٠) .
(٢) روح المعانى للآلوسى (٢ / ١ / ١٧٥) .
(٣) اخرجه البخارى فى الجهاد / باب فضل رباط يوم فى سبيل الله (٢ / ١٥١ ، ١٥٢) .
ومسلم فى الامارة / باب فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله (٣ / ١٥٠٠)
والترمذى فى فضائل الجهاد / باب ماجاء فى فضل الرباط (٤ / ١٨٨) .

بين الرسول صلى الله عليه وسلم ان رباط يوم فى سبيل الله عزوجل خير من الدنيا وماعليها ،اى ان ماأعده الله سبحانه لمن رابط فى سبيله يوما واحدا ، من الثواب والنعيم المقيم خير من الدنيا قاطبة ،بكل مافيها من المتاع واللهو والزينة .

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر - فضل الرباط فى سبيل الله على الصيام والقيام .

اخرج الامام مسلم - واللفظ له - والترمذى والنسائى عن سلمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وان مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، واجرى عليه رزقه ، وامن الفتّان)[1] .

وبين العلماء ان المرابطة فى الثغور افضل من المقام فى المساجد الثلاثة بنية العبادة .

سأل شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن سكنى مكة و بيت المقدس والمدينة المنورة على نية العبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والسكنى بدمياط والاسكندرية وطرابلس على نية الرباط ، ايهم افضل ؟ فأجاب بقوله : (الحمد لله بل المقام فى ثغور المسلمين كالثغور الشامية والمصرية افضل من المجاورة فى المساجد الثلاثة ، وماعلم فى هذا نزاعا بين اهل العلم وقد نص على ذلك غير واحد من الائمة ، وذلك لان الرباط من جنس الجهاد والمجاورة غايتها ان تكون من جنس الحج كما قال تعالى : (اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله)[2] .[3]

---

(١) اخرجه الامام مسلم فى الامارة/باب فضل الرباط فى سبيل الله عزوجل (٣ / ١٥٢٠) .
والترمذى فى فضائل الجهاد /باب ماجاء فى فضل الرباط (٤ / ١٨٨ ، ١٨٩)
والنسائى فى الجهاد /باب فضل الرباط (٦ / ٣٩) .

(٢) سورة التوبة (١٩) .

(٣) مجموعة فتاوى ابن تيمية (٢٨ / ٥) .

الخاتمة

الخاتمـــــــــــــة

سبق تفصيل موضوع النصر والهزيمة واسبابهما من خلال الكتاب والسنـــــة .

واحب فى خاتمة هذا البحث ان اثبت خلاصة ماسبق تفصيله فى فقرات موجزة اضعها بين يدى القارىء ليطلع من خلالها على مجمل ماحوته هذه الرسالـــــــة وهذه هى الخلاصـــة .

اولا : رفع الاسلام من شأن الجهاد وجعله اسمى العبادات ، وخصه بالفضل العظيم والثواب العميم ، وذلك لما فيه من مصلحة دنيوية واخروية للمسلمين .

ثانيا : مقاصد الجهاد فى الاسلام مقاصد اصلاحية ، تهدف الى اسعاد البشريـــة .

ثالثا : الجهاد هو طريق النصر والتمكين ، والقعود عنه سبيل المذلة والهزيمـــــة .

يقول سبحانه وتعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم)(١) .

رابعا : النصر والتمكين - الذى وعد الله به المؤمنين - منوط بنصرهم لدينه واقامتهم لأحكام شرعه ، وبامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

يقول سبحانه وتعالى : (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز * الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)(٢) .

خامسا : الغاية من النصر هى ان ينتصر الايمان على الكفر والحق على الباطـــــل والخير على الشر مما يساهم فى الاخذ بيد البشرية الى الصلاح والسعادة والفـــــلاح .

---

(١) التوبة (١٤) .

(٢) الحج (٤٠ ، ٤١) .

سادسا : للنصر والهزيمة وجوه كثيرة ، يعز فيها الله عزوجل الحق واهله ويذل الباطل واعوانه .

سابعا : انتصار المؤمنين وهزيمة الكافرين هما وعد الله القاطع وسنته الثابتة الاكيدة التي لاتتغير او تتبدل ، مادام المسلمون قد تمسكوا بدينهم ، واخلصوا في جهادهم ، واخذوا بالاسباب التي امرهم الله بها بقدر استطاعتهم .

يقول سبحانه وتعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * انهم لهم المنصورون * وان جندنا لهم الغالبون)(١) .

ويقول سبحانه : (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)(٢) .

ثامنا : هزيمة المؤمنين في بعض المواطن امام اعدائهم لاتقع الا باسباب من المؤمنين انفسهم ، وليس اخلافا من الله سبحانه لوعده ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ورغم هذا فان مايقع من هزيمة لايخلو من حِكم وعِظات وعِبر ينبغي ان يتعلمها المسلمون ليستفيدوا منها في جولاتهم القادمة مع اعدائهم .

يقول سبحانه وتعالى مجيبا على تساؤل المؤمنين عن سبب ماأصابهم في غزوة (احد) : (اولما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انا هذا قل هو من عند انفسكم ان الله على كل شيء قدير * وماأصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا . .)(٣) .

---

(١) الصافات (١٧١ - ١٧٣) .
(٢) غافر (٥١) .
(٣) آل عمران (١٦٥ — ١٦٧) .

تاسعا : النصر والهزيمة لا يحدثان بالمصادفة والغوضى ، وانما سن الله سبحانه لهما سنة ثابتة تقتضى ان حدوث اى منهما متعلق باسبابه الخاصة به .

عاشرا : وهذه الاسباب تنقسم الى نوعين : اسباب معنوية ، ويدخل فى جملتها الاسباب الشرعية كالدعاء والتوكل والذكر والتقوى . . ، والاسباب المادية .

حادى عشر :

ويمكن اجمال وتلخيص الاسباب المعنوية على الوجه التالى : -

١ - الايمان والعقيدة البناءة ، وذلك لان النصر الرباني خاص بالمؤمنين . يقول سبحانه وتعالى : (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)(١) .

ويقول سبحانه وتعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض الى قوله - يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون)(٢) .

وقال سبحانه وتعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)(٣) .

وايضا فان لاركان الايمان والعقيدة الاسلامية الاثر البالغ فى حفز المجاهدين ، وفى جعلهم يستبسلون فى القتال لنصرة هذه العقيدة .

٢ - ان يكون الجهاد خالصا لله تعالى ، من اجل اعلاء كلمته فى الارض ، وذلك لان الله سبحانه لا يقبل من العمل الا ماكان خالصا له ، ولا ينصر الا من قاتل فى سبيله ، لنصرة دينه .

يقول سبحانه وتعالى : (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز * الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)(٤) .

---

(١) غافر (٥١) .
(٢) النور (٥٥) .
(٣) الروم (٤٧) .
(٤) الحج (٤٠ ، ٤١) .

ويقول سبحانه : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم (١)) .

وهذا هو الذى يميز جهاد اهل الايمان عن قتال اتباع الشرك والطغيان . يقول سبحانه وتعالى : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت (٢)) .

٣- التزود من حقيقة التقوى والعمل الصالح والبعد عن المعاصى والذنوب، وذلك لان التقوى تقرب العبد من الله فيقرب من نصرالله ، واما المعاصى فانها تبعد صاحبها عن الله فيكون بعيدا عن نصرالله . وكلما اكثر المؤمنون من زاد التقوى فان الله سبحانه يزيد لهم فى العون والنصر اكثر من ذى قبل .

يقول سبحانه وتعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين (٣)) .

ويقول سبحانه : (ولقد نصركم اللهببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى ان تصبروا و تتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وماجعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وماالنصر الا من عند الله العزيز الحكيم (٤)) .

---

(١) محمد (٧) .
(٢) النساء (٧٦) .
(٣) التوبة (٣٦) .
(٤) آل عمران (١٢٣ - ١٢٦) .

٤ـ مشاورة القائد لجنوده في المعركة والاخذ بمشورتهم ، وذلك لان الشورى تسهم في الوصول الى اسلم القرارات . . ، وتسهم في توثيق العلاقة بين القاعدة والقيادة ، وتسهم في اطلاق الطاقات والمواهب، الى غير ذلك من الفوائد التي تنطوي عليها الشورى مما يسهم في احراز النصر.

٥ـ استخدام الحرب النفسية ضد العدو،وذلك من اجل تحطيم معنوياته وافقاده الثقة بقوته وقدرته على الدخول في المعركة او الصمود في اثنائها ، واشاعة اسباب الخلاف والفرقة بين صفوفه . . ممايسهم في وصول العدو الى الهزيمة النفسية التي تعد مقدمة للهزيمة في المعركة.

وفي المقابل استخدام اسباب الوقاية من الحرب النفسية التي يشنها الاعداء .

٦ـ عدم الاعجاب بالكثرة او اليأس من القلة ، وذلك لان الاعجاب و اليأس ينشآن من الاعتماد على النفس، وهذا سبب يمنع من نزول نصر الله لانه (السبب) في حقيقته اعتماد على غير الله . واذا توقف امداد الله ونصره عن فئة فلا ناصر لها من دونه سبحانه .

يقول سبحانه وتعالى : (ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) (١) .

٧ـ الاتحاد ، وترك اسباب الخلاف والتنازع ، وذلك لان الاتحاد قوة والتفرق ضعف. وبالتالي فان الاتحاد من اسباب النصر،والتنازع من اسباب الهزيمة. يقول سبحانه وتعالى : (ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (٢) .

---

(١) التوبة (٢٥) .
(٢) الانفال (٤٦) .

٨- تحلى القادة والمجاهدين بروح الشجاعة والفداء ، لان هذا يمكنهم من خوض المعارك والحروب واحرازالانتصارات على الاعداء ، واما الخوف والجبن فانهما يمنعان من خوض المعركة ويتسببان فى الفرار والهزيمة.

٩- التوكل على الله فى قضاء الامور عامة وفى طلب النصر خاصة وذلك لان النصر من عند الله ، يهبه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء ، فينبغى الاعتماد عليه وتفويض الامر اليه.

واذا توكل المؤمنون على الله فانه سبحانه هو نعم المولى ونعم النصير ، واما اذا اعتمدوا على غير الله فانه يكلهم الى من اعتمدوا عليه ، ثم لا يجدون لهم من دونه وليا ولا نصيرا.

يقول سبحانه : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) (١).

١٠- الطاعة والانضباط فى المعركة ، وذلك لانهما من اسس الجندية التى لا يستقيم بدونها الجهاد ، ولا يتم تنفيذ الخطط والتعليمات اللازمة لخوض المعركة واحراز النصر. وعصيان الاوامر والتعليمات يؤدى الى افشال هذه الخطط مما يسهم فى وقوع الهزيمة.

وقد عنّف القرآن على عصيان الرماة فى أُحد لأمر أميرهم عبد الله بن جبير وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بان لا يبرحوا الجبل الذى أُوقفهم عليه بحال الا بأمر منه - علّق بما يكشف عن كونه من اسباب فشلهم.

يقول سبحانه وتعالى : (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم) (٢).

---

(١) آل عمران (١٧٣ ، ١٧٤).
(٢) آل عمران (١٥٢).

١١ـ الاكثار من الدعاء والذكر فى المعركة وذلك لما يترتب عليهما من نزول السكينة فى قلوب المجاهدين وحصول الطمأنينة واليقين فى نصر الله.

ولانهما من العبادات المشروعة فى كل وقت،وعند الجهاد خاصة، والتى تكسب صاحبها رضى الله ونصره ومدده.والدعاء فى المعركة هو توجه الى الله سبحانه بطلب النصر. وان الله سبحانه يجيب دعوة الداعى اذا دعاه وخاصة دعاء المجاهد وقت المعركة، ممايكون سببا فى نزول النصر وحصول الظفر.

١٢ـ الصبروالثبات فى المعركة ، وذلك لانهما من الاخلاق الاساسية التى ينبغى ان يتحلى بها المجاهدون.

يقول سبحانه وتعالى : (ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)(١).

والنصر قرين الصبر كما بين القرآن فى قوله تعالى : (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لايفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين)(٢).

ثانى عشر: ويمكن اجمال الاسباب المادية وتلخيصها فيما يلى :ـ

١ـ وجود القيادة الراشدة التى تتحلى باكبر قدر من الصفات التى تؤهلها للقيام بواجباتها القيادية من التخطيط والتنظيم وادارة المعركة ،

---

(١) الانفال (٤٥).
(٢) الانفال (٦٥ ، ٦٦).

والتى توءهلها ايضا لكسب ثقة المقاتلين والتأثير فيهم ، واستغلال طاقاتهم وتنظيمها . وان تكون هذه القيادة قدوة لمقاتليها ، وان تلتزم وتلزم جنودها باحكام الاسلام لكى تفوز برضى الله ونصره .

٢ـ الاعداد للمعركة ، كما امر الله سبحانه فى قوله : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (١) . وينبغى ان يشمل الاعداد كل مايزيد فى قوة المسلمين ، وباقصى درجة يستطيعها المسلمون .

ويشتمل الاعداد على امور اساسية هى :ـ

أـ اعداد المقاتلين الأكفاء بالاستنفار والتعبئة العامة فى الجانب العددى ، وبالاعداد النوعى من خلال التربية الايمانية ، والخلقية ، والنفسية ، والعلمية ، والقتالية .

ب ـ اعداد السلاح والعتاد اللازم للمعركة ، وتصنيع مايمكن تصنيعه منه داخل بلاد المسلمين ، وشراء مالم يتمكنوا من تصنيعه من البلاد الاخرى .

جـ ـ اعداد المال اللازم للانفاق على المعركة . وهذا ماحث عليه الاسلام وامر به ، وسماه جهادا وجعله قرين الجهاد بالنفس .

يقول سبحانه : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون) (٢) .

---

(١) الانفال (٦٠) .
(٢) التوبة (٢٠) .

٣ـ التخطيط والتنظيم العسكرى ، وذلك لانهما من الاركان التى تقوم عليها المعركة. ويمكن من خلالهما اتباع افضل الخطط والتنظيمات العسكرية التى تسهم فى احراز النصر على العدو.

بينما العفوية تؤدى الى الضياع والهزيمة والنكسة.

وهناك نماذج كثيرة للتخطيط والتنظيم العسكرى التى اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزواته و التى أسهمت فى احراز النصر على الاعداء.

٤ـ الأمن العسكرى ، وهذا من اخطر الاسلحة فى المعركة ، وذلك لان كشف سر من اسرار العدو قد يكون فية مقتله وهزيمته.

والأمن ينقسم الى اقسام ، هى أ ـ الكتمان ، اى كتمان اسرار الجيش من معلومات وتحركات عن عيون العدو وجواسيسه ، وهو ما حرَص عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وطبقه باستخدام وسائل مختلفة كالتورية فى الغزوات والرسائل المكتومة.

(ب) الاستخبار ، وذلك بجمع المعلومات عن قوة العدو وتحركاته واسراره العسكرية المختلفة ، من خلال ارسال العيون لالتقاط هذه الاخبار والاسرار.

(جـ) الاستطلاع : وذلك بوجود فرق عسكرية تتقدم الجيش مهمتها استطلاع ارض المعركة وتحركات العدو.

وذلك لازم للحفاظ على أمن الجيش خلال اقامته او تحركاته خشية وقوعه فى كمائن للعدو.

٥ـ نبذ المنافقين والمخذلين والحذر منهم ، وذلك لانهم يستوون فى العداوة مع الاعداء الآخرين ، بل هم اخطر لوجودهم داخل المجتمع الاسلامي فيتمكنون من الاطلاع على عورات المسلمين.

وللمنافقين ادوار انهزامية تخذيلية تضعف الروح المعنوية للجيش وتسبب تخاذلهم ، كما انهم يُعدّون اعوانا للاعداء الآخرين اذ يتفقون معهم فى عداوة المسلمين ، ولهم من المكائد الكثيرة التى لا تكاد تخلو منها غزوة من غزوات المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أرادوا بها تخذيل المسلمين والتسبب فى هزيمتهم .

٦- اتباع وسائل الخداع العسكرى ضد العدو . وهو سلاح خطير ، اذ بخديعة واحدة تتمكن من تمريرها على العدو يمكنك بها ان تكسب المعركة وتنتصر عليه باذن الله .

٧- مباغتة العدو وذلك بضربه فى زمان او مكان او بسلاح يجهله . وهذا ايضا من الاسلحة الخطيرة فى المعركة ، اذ يمكن من خلال الضربة المباغتة ان تصيب العدو فى اخطر مراكزه العسكرية كالقيادات او قواعد الصواريخ والطيران مما يسبب له الشلل التام والاستسلام .

ويعد ،

فمن خلال ماسبق ذكره يتبين موقف الاسلام اتجاه اخطر قضية يعيشها العالم الاسلامى اليوم الا وهى قضية الضعف الذى دبَّ فى أوصاله ، والهزيمة التى تخيّم على اقطاره .

ويتبين منهج الاسلام الاصيل والكفيل بتخطى المسلمين للمحنة التى يمرون بها اليوم اذا ماالتزموا به .

ويمكن للمسلمين اليوم وفى كل يوم ان يحرزوا النصر ويحققوا الظفر وذلك باتباع منهج الله والالتزام بحكمه وشرعه ، وباعداد القوة واتخاذ اسباب النصر ، وباعلان الجهاد كما امر الله سبحانه .

فاذا فعل المسلمون ذلك بصدق واخلاص فلن تقف في وجوههم قوة من قوى الارض . ومهما بلغت او كثرت هذه القوة فانها ضعيفة، بل معدومة امام قوة الله ونصره وتأييده ، وما النصر الا من عند الله .

ان طريق النصر واضح ومعروف كما ان طريق الهزيمة واضح ومعروف، فمن يقعد عن الجهاد ويترك الاعداد ويعصى رب العباد فلن يحصد الّا مرّ الهزيمة وشر الحصاد .

والذى ننشده هو ان يترجم المسلمون - افرادا وشعوبا وحكومات - تعاليم الكتاب والسنة التى فصلت لنا طريق النصر واسبابه فى برنامج عمل يبدأ بالأمة من المكان الذى تقف فيه لتسير على هدى من هذه التعاليم حتى تصل الى النصر المنشود .

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالى ان يقيل عثرات المسلمين ، وان ينقذهم من ذل الهزيمة وان يأخذ بأيديهم الى النصر والظفر ، وان يمكن لهم في الارض كما مكن لاخوانهم من قبل ، انه سميع مجيب .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

والصلاة على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهارس

فهـــرس الموضـــــوعـــات

الموضـــــوع	الصفحـــة
المقدمـــــة . . .	د - ﻫ
الباب الأول (تمهيـــــدى) الجهاد والنصر فى الكتاب والسنـــة	
وفيه فصـــلان :	
الفصـــل الأول (الجهاد فى الكتاب والسنة)	٢- ٩٩
وفيه تمهيد وأربعة مباحث :	
التمهيد . . .	٣
المبحث الأول : فضل الجهـاد والشهادة فى الكتاب والسنة	
وفيه مطالب :	
الاول : فضل الجهاد فى القرآن . .	٤
الثانى : فضل الجهاد فى السنة	٩
الثالث : فضل الشهادة فى الكتاب والسنة .	١٦
المبحث الثانى : حكم الجهاد فى الكتاب والسنة	
وفيه مطالب :	
الاول : حكم الجهاد فى الاصل . .	٢٢
الثانى : الحالات التى يصير الجهاد فيها فرض عين .	٢٤
الثالث : المعذورون من الجهاد . .	٢٩

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث : بواعـــــث الجهـــاد	
وفيه تمهيد واربعة بواعث :	
التمهيـــد	٣٧
الباعث الاول : حماية الدولة الاسلامية من الفتن الداخلية ، وهى :	
(١) المرتدون .	٤٢
(٢) البغاة .	٤٤
(٣) قطاع الطرق والعصابات التى تهدد الامن .	٥٠
(٤) المنازعات بين المسلمين .	٥٢
الباعث الثانى : المحافظـــة على العهود والمواثيق	
(١) المعاهدون .	٥٥
(٢) اهل الذمة .	٥٧
الباعث الثالث : رد الاعتداء وانقاذ المسلمين المستضعفيـــن	٥٩
الباعث الرابع : تأمين حرية نشر الدعوة ، وفيه مطالب :	
الاول : واجب الامة الاسلامية أن تدعو الى الاسلام	٦٦
الثانى : قتال من يصد الدعوة	٦٦
الثالث : ممن تؤخذ الجزية ؟	٧٠
الرابع : دحض شبهة الاكراه	٧٨
المبحث الرابع : الجهاد طريق النصـــــر	٨٦ - ٩٨

الموضوع	الصفحة
الفصـــــــــل الثانـــــــى النصر والهزيمة فى الكتاب والسنة	٩٩- ١٥٨
وفيه تمهيد وستة مباحث:	
التمهيـــد	١٠٠
المبحث الاول : مفهوم النصر والهزيمة فى الاسلام.	١٠١
المبحث الثانى : غاية النصر فى الكتاب والسنة .	١٠٤
المبحث الثالث: وجوه النصر الرباني للمؤمنين ، وفيه :	
(١) تمهيد	١٠٩
(٢) الوجه الاول : النصر الفكرى بقوة الحجة والبرهان.	١١٠
(٢) الوجه الثانى : النصر بانجاء المؤمنين من كيد الاعـــــــــداء.	١١٩
(٣) الوجه الثالث: نصر المؤمنين بانـــــزال المهلكات بالاعـــــــداء.	١٢٢
(٤) الوجه الرابع: النصر العسكرى	١٢٦
المبحث الرابع: وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين ،ووعيده للمشركين بالهزيمة.	
وفيه مطلبان :	
الاول : وعد الله للمؤمنين بالنصر.	١٢٩
الثانى : وعيد الله للمشركين بالهزيمة.	١٣٤
المبحث الخامس: الحكمة فيما يقع للمسلمين من الهزيمة .	١٣٨- ١٤٣

الموضوع	الصفحة
المبحث السادس: سنة الله فى النصر والهزيمة	
وفيه مطالب:	
الاول : سنة الله فى تحقيق المسببات هى اتخاذ الاسباب.	١٤٤
الثانى : تأثير الاسباب فى المسببات .	١٤٨
الثالث: الاسباب والمسببات من خلق الله .	١٤٩
الرابع: اتخاذ الاسباب ، سنة الله فى النصر والهزيمة .	١٥٢
الباب الثاني	
الاسباب المعنوية للنصر والهزيمة فى الكتاب والسنة	١٥٩- ٣١٦
ويشتمل على تمهيد ، واثنى عشر سببا :	
التمهيد	١٦٠
السبب الاول : الايمان والعقيدة البناءة .	١٦٢- ١٧٥
وفيه مطالب:	
الاول : الايمان بالله سر انتصارات المسلمين .	١٦٢
الثانى : اركان الايمان واثرها فى تحقيق النصر.	١٦٨
الثالث: شهادات الاعداء باثر الايمان والعقيدة الاسلامية فى احراز النصر .	١٧٣
السبب الثانى :	
الاخلاص وسلامة المقصد	١٧٦- ١٨٦
وفيه مطالب:	
الاول : باعث الجهاد لدى المسلمين .	١٧٦
الثانى : باعث القتال عند الكفار.	١٨١
الثالث: اهمية كون الجهاد " فى سبيل الله" فى احراز النصر.	١٨٣

الموضوع	الصفحة
السبب الثالث: التقوى وعدم مقارفة المعاصي والذنوب	١٨٧- ١٩٤
وفيه مطلبان :	
الاول : تقوى الله تجلب نصر الله وتدفع كيد الاعداء .	١٨٧
الثاني : المعاصي سبب للهزيمة .	١٩٠
السبب الرابع: الشـــــورى فى المعركـــــة	١٩٥- ٢٠٣
وفيه مطالب:	
الاول : حث الاسلام على الشورى .	١٩٥
الثاني : نماذج للشورى من جهاد الرسول.	١٩٦
الثالث: قيمة الشورى فى المعركة .	٢٠١
السبب الخامس: الحرب النفسيـــــــــــة	٢٠٤ - ٢٣٠
وفيه مطالب:	
الاول : تعريف الحرب النفسية ، ومجالاتها .	٢٠٤
الثاني : اهداف الحرب النفسية ووسائلها .	٢٠٥
الثالث: اثر الحرب النفسية فى احراز النصر.	٢٠٦
الرابع: تطبيقات الحرب النفسية فى جهاد الرسول واثرها فى احراز النصـــــر .	٢١٦
الخامس: الوقاية من الحرب النفسية فى الاسلام.	٢٢٤
السادس: مصاولة الحرب النفسية فى المعركة.	٢٢٨

الموضوع	الصفحة

السبب السادس: عدم الاعجاب بالكثرة او اليأس للقلة ٢٣١- ٢٤٣

وفيه مطالب:

الاول: انهزام المؤمنين فى حنين لاغترارهم بكثرتهم . ٢٣١

الثاني: نصر الله للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وفيه:

(١) انتصار طالوت عليه السلام على جالوت. ٢٣٤

(٢) انتصار القلة المؤمنة فى بدر. ٢٣٦

(٣) معركة أحد . ٢٣٨

(٤) معركة الخندق . ٢٣٩

(٥) غزوة مؤتة . ٢٣٩

(٦) معركة اليرموك . ٢٤٠

(٧) معركة القادسية . ٢٤١

(٨) معركة جلولاء . ٢٤١

(٩) فى الاندلس. ٢٤٢

السبب السابع: الاتحاد فى المعركة ٢٤٤- ٢٥٠

وفيه مطالب:

الاول: الاتحاد فريضة شرعية . ٢٤٤

الثاني: واجب الاتحاد فى المعركة. ٢٤٦

الثالث: اثر الاتحاد فى احراز النصر. ٢٤٧

الرابع: الاختلاف والتنازع سلاح يستخدمه العدو لاضعاف المسلمين . ٢٤٩

الموضوع		الصفحة
السبب الثامن :	الشجاعة وارادة القتال	٢٥١- ٢٦٥
وفيه مطالب:		
الاول :	معنى الشجاعة.	٢٥١
الثاني :	الشجاعة من المبادىء الاساسية للحرب.	٢٥١
الثالث:	دوافع الشجاعة فى الاسلام.	٢٥٢
الرابع:	استئصال الاسلام للخوف والجبن من النفس.	٢٥٧
الخامس:	امثلة من شجاعة الرسول والصحابة واثرها فى المعركـــــــة.	٢٦٠
السبب التاسع:	التوكل على اللـــــــه	٢٦٦- ٢٧٧
وفيه مطالب:		
الاول :	معنى التوكل :	٢٦٦
الثاني :	التوكل لاينفى العمل باسباب النصر.	٢٦٦
الثالث:	الامر بالتوكل على الله .	٢٦٧
الرابع:	التوكل على الله فى طلب النصر.	٢٦٩
السبب العاشر :	الطاعة والانضباط فى المعركة	٢٧٨- ٢٨٧
وفيه مطالب:		
الاول :	طاعة الامراء واجبة فى غير معصية.	٢٧٨
الثاني :	حض المجاهدين على الطاعة والانضباط فى المعركـــــــة .	٢٨٠
الثالث:	اثر الطاعة والانضباط فى احراز النصر.	٢٨٢

الموضوع	الصفحة
السبب الحادى عشر : الذكر والدعاء فى المعركة	٢٨٨- ٣٠٠
وفيه مطالب:	
الاول : الحث على الذكر فى المعركة .	٢٨٨
الثاني : الاستنصار بالضعفاء .	٢٩٠
الثالث: الدعاء سلاح اهل الايمان من الامم السابقة .	٢٩١
الرابع: سلاح الدعاء فى معارك المسلمين .	٢٩٤
السبب الثانى عشر : الصبر والثبات فى المعركة	٣٠١ - ٣١٦
وفيه مطالب:	
الاول : معنى الصبروالثبات .	٣٠١
الثاني : النصر مع الصبر .	٣٠١
الثالث: الامر بالصبر فى المعركة .	٣٠٥
الرابع: البيعة على الصبر والثبات فى المعركة .	٣٠٦
الخامس: تحريم الفرار من المعركة .	٣٠٨
السادس: نماذج من صبر جيش النصر .	٣١٢
الباب الثالث	
الاسباب المادية للنصر والهزيمة فى الكتاب والسنة	٣١٧- ٤٩٠
ويشتمل على تمهيد وسبعة اسباب:	
التمهيد	٣١٨

الموضوع		الصفحة
السبب الاول :	القيادة الراشـــــدة	٣١٩- ٣٤٤
وفيه مطالب:		
الاول : اهمية القيادة واثرها فى احراز النصر.		٣١٩
الثاني : الصفات التى يجب ان يتحلى بها القائد .		
وفيه (أ) امثلة تطبيقية للقسم الاول من الصفات :		
(١) الشجاعة.		٣٢٦
(٢) التوازن النفسي		٣٢٨
(٣) معرفة القائد بجنوده .		٣٣١
(٤) المعرفة بمبادىء الحرب.		٣٣٩
(ب) امثلة للقسم الثاني من الصفات :		
(١) مشاورة القائد لاتباعه .		٣٤٠
(٢) اهتمام القائد بالجنود .		٣٤٠
(٣) مشاركة الجنود فى مهماتهم.		٣٤١
السبب الثانى :	الاعداد والتعبئة العامـــة	٣٤٥- ٣٧٦
وفيه تمهيـــــد		٣٤٥
ـــ والاعداد ينقسم الى انواع ثلاثة :		
اولا : اعداد المقاتلين الاكفاء		
ويشمل (١) الاعداد الكمى :		٣٤٨
(أ) النفير العام.		
(ب) النفير الخاص .		
(٢) الاعداد النوعى :		٣٥٢
(أ) الاعداد الايماني .		
(ب) الاعداد الخلقى .		

الموضوع	الصفحة
(جـ) الاعداد المعنوى .	
(د) الاعداد العلمى .	
(هـ) الاعداد العسكرى .	
ثانيا : اعداد السلاح والعتاد .	٣٦٢
ثالثا : اعداد المال للانفاق العسكرى	٣٧١
السبب الثالث : التخطيط والتنظيم العسكـــــرى	٣٧٧- ٤٠٦
وفيه مطالب:	
الاول : اهمية التخطيط والتنظيم العسكرى فى احـــراز النصـــــر .	٣٧٧
الثاني : التخطيط فى جهاد الرسول القائد .	٣٧٩
الثالث : ملامح التخطيط فى جهاد الرسول .	٣٨٢
الرابع : ملامح التنظيم العسكرى لدى الرسول .	٣٨٥
(١) اتخاذ الامراء على السرايا والبعوث .	٣٨٥
(٢) التعبئة وتوزيع القوات .	٣٨٧
(٣) اتخاذ الرايات والالوية للجيش .	٣٨٩
(٤) اتخاذ الشعار فى المعركة .	٣٩٠
الخامس : نماذج من تخطيط المسلمين وتنظيمهم للمعـــــارك .	٣٩٢
(١) التخطيط والتنظيم فى معركة بدر .	٣٩٣
(٢) التخطيط والتنظيم فى غزوة الفتح .	٣٩٨
(٣) التخطيط والتنظيم فى معركة اليرموك .	٤٠٣

الموضوع	الصفحة
السبب الرابع: الأمـــــن العسكـــــــرى	٤٠٧- ٤٣٦
وفيه :	
(١) تمهيـــــد	٤٠٧
(٢) والامن ينقسم الى ثلاثة انواع:	
اولا : الكتمان ، وفيه :	
(١) حض الاسلام على كتمان الاسرار .	٤٠٩
(٢) نماذج من الكتمان فى جهاد الرسول .	
(أ) الكتمان بالمسير الليلى .	٤١٠
(ب) الرسائل السرية .	٤١٢
(جـ) التورية فى الغزوات .	٤١٣
(د) الحذر من عيون العدو وجواسيسه .	٤١٣
(هـ) كتمان مسير المسلمين لفتح مكة .	٤١٤
(٣) حكم الجاسوس المعاهد والذمى والمسلم .	٤١٧
ثانيا : الاستخبار ، وفيه النماذج التالية :	
(١) الاستخبار فى غزوة الخندق .	٤٢٤
(٢) الاستخبار فى غزوة حنين .	٤٢٨
(٣) الاستخبار فى غزوة الحديبية .	٤٢٩
ثالثا : الاستطلاع ، وفيـــــــه :	
(١) مهام وحدات الاستطلاع .	٤٣٠
(٢) نماذج من الاستطلاع فى غزوة بدر .	٤٣١
(٣) سرية عاصم بن ثابت الاستطلاعية .	٤٣٤
(٤) سرية عبدالله بن جحش الاستطلاعية .	٤٣٥

الموضوع	الصفحة
السبب الخامس: نبذ المنافقين والمخذلين والحذر من مكائدهم	٤٣٧- ٤٥٩
وفيه مطالب:	
الاول : خطورة المنافقين على الجيش الاسلامى .	٤٣٧
الثاني : نماذج من مواقف المنافقين الانهزامية فى المعارك .	
(أ) موقف المنافقين فى أحد .	٤٤٢
(ب) موقف المنافقين فى غزوة الاحزاب.	٤٤٥
(جـ) مواقف المنافقين فى غزوة بنى المصطلق .	٤٤٨
(د) مواقف المنافقين فى غزوة تبوك .	٤٥٢
السبب السادس: الخداع فى المعركة	٤٦٠- ٤٦٩
وفيه مطالب:	
الاول : اهمية الخداع فى احراز النصر.	٤٦٠
الثاني : جواز الكذب لخداع العدو فى الحرب.	٤٦٢
الثالث : نماذج من خداع المسلمين للعدو فى المعركة .	
(أ) ايقاع الخديعة بالاحزاب يوم الخندق .	٤٦٥
(ب) الخداع بالتورية فى جهة الغزوة .	٤٦٨
السبب السابع: المباغتة	٤٧٠- ٤٩٠
وفيه مطالب:	
الاول : تمهيد	٤٧٠
الثاني : حكم مباغتة العدو قبل عرض الدعوة عليه .	٤٧٣
الثالث: معنى المباغتة .	٤٧٦
الرابع: اشكال المباغتة .	٤٧٧

الموضوع	الصفحة
الخامس: اهمية المباغتة فى المعركة.	٤٧٧
السادس: نماذج عملية للمباغتة من جهاد الرسول واثرها	
(أ) مباغتة بنى المصطلق.	٤٧٨
(ب) مباغتة يهود خيبر وقت الفجر.	٤٧٩
(جـ) مباغتة هوازن بالليل.	٤٨٠
(د) مباغتة بنى ملوح بالكديد.	٤٨١
السابع: الحذر من مباغتة العدو للمسلمين.	٤٨٣
الثامن: حث الرسول على حراسة معسكر المسلمين.	٤٨٥
التاسع: نماذج من الحراسة فى المعسكر الاسلامي	
(أ) حراسة معسكر المسلمين فى حنين.	٤٨٦
(ب) حراسة ابو ريحانة والانصارى.	٤٨٧
العاشر: الحذر من مباغتة العدو بالمرابطة فى الثغور.	٤٨٨
الخاتمـــــــــــــة.....	٤٩١ - ٥٠١
فهرس الموضـــوعات.....	٥٠٢ - ٥١٤
فهرس الاحاديث والآثار.....	٥١٥ - ٥٢٤
فهرس المراجـــــــع	٥٢٥ - ٥٤٥

فهرس الأحاديث والآثار

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
١	اتحب ذلك ياأبابكر . .	عمربن الخطاب	٣١٥
٢	اجتنبوا السبع الموبقات . .	ابو هريرة	٣١٠
٣	احبس اباسفيان عند خطم	عروة بن الزبير	٢١٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٦
٤	ادرك القوم فانهم قد . .	ابن مسعود	٤٥٥
٥	اذا اكتبوكم فارموهم . .	ابو أسيد	٣٩٦
٦	اذا كان ثلاثة فى سفر . . .	ابو سعيد الخدرى وابو هريرة	٣٨٥
٧	اذا نظرت فى كتابى هذا .	جندب بن عبدالله	٤١٢
٨	اذا يعنى ضن الناس . .	ابن عمر	٩٥
٩	اذهب فادخل بالقوم . .	جابر	٤٢٨
١٠	ارم فداك ابي وامى . .	سعد بن ابى وقاص	٣٢٩
١١	ارموا بني اسماعيل . .	سلمة بن الاكوع	٣٥٨
١٢	ارواحهم فى جوف طير	عبدالله بن مسعود	١٧
١٣	اشيروا ايها الناس علىّ .	المسور ومروان بن الحكم	٢٠٠ ، ٤٢٩
١٤	اطلبوه واقتلوه	سلمةبن الاكوع	٤١٣ ، ٤١٧
١٥	اعطيت خمسا لم يعطهن . .	جابر بن عبدالله	٢١٠
١٦	اعقلها وتوكل	أنس	٢٦٧
١٧	اغزوا باسم الله ،	بريدة	٧٢ ، ٣٢٥ ، ٤٧١ ، ٤٧٣
١٨	اكتبوا لى من تلفظ . .	حذيفة	٣٨٣
١٩	الآن نغزوهم ولا يغزوننا . .	سليمان بن صرد	٣٣١
٢٠	الا اخبرك ماقال الله . .	جابر بن عبدالله	١٨

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
٢١	الا انبئكم بليلة افضل . .	عبدالله بن عمر	٤٨٥
٢٢	الا ان القوة الرمـــى . .	عقبة بن عامـــر	٣٦٨
٢٣	الا رجل يأ تينى بخبر . .	حذيفـــــة .	٤٢٦
٢٤	الله اكبر خربت خيبر . .	أنـــــس	٤٧٩ ، ٣٣٣
٢٥	اللهم ان تهلك هذه الغئة . .	على بن ابى طالب	٣٤١
٢٦	اللهم انت عضـــدى . .	أنـــــس	٢٧١
٢٧	اللهم انجز لى ماوعدتنى	عمربن الخطاب	٢٩٤ ، ١٢٨
٢٨	اللهم انى اعوذبـــك . .	سعد بن ابى وقا ص	٢٥٩
٢٩	اللهم منزل الكتـــاب . .	عبدالله بن ابى أوفى	
٣٠	امابعد ، فان اخوانكـــم ، . .	المسور بن مخرمة	٣٨٦
٣١	امابعد ، فقد عجبـــت . .	(اثر) لعمربن الخطاب	٢٩٨
٣٢	امر رسول الله زيدا فجاء . .	البـــراء	٢٩
٣٣	امر رسول الله علينا ابابكر . .	سلمة بن الاكوع	٤٨١ ، ٣٩٢
٣٤	امرت ان اقاتل الناس . .	ابو هريـــرة	٧٠
٣٥	ان ابواب الجنة تحـــت . .	عبدالله بن قيس	١٤
٣٦	ان الله زوى لى الارض . .	ثوبـــان	و
٣٧	ان الله قد صدقك . .	زيد بن ارقـــم	٤٥٠
٣٨	ان الله يدخل بالسهم . .	عقبة بن عامـــر	٣٦٩
٣٩	ان الله يرضى لكـــم . .	ابو هريـــرة	٢٤٤
٤٠	ان امرأة وجدت فى بعض . .	عبدالله بن عمر	٤٧٠
٤١	ان بالمدينة لرجالا	جابـــر	٢٩

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
٤٢	ان تطعنوا فى امارته ..	ابن عمر	٣٣٨
٤٣	ان رأيتمونا تخطفنا ..	البراء بن عازب	٢٨٢
٤٤	ان ربى تبارك وتعالى استشارنى..	حذيفة بن اليمان	٢١١
٤٥	ان رسول الله جعل للفرس..	ابن عمر	٣٦٧
٤٦	ان رسول الله شاور ..	أنس	١٩٧، ٤٣٣
٤٧	ان قتل زيد فجعفر..	عبدالله بن عمر	٢٨٦، ٣٨٦
٤٨	ان منكم رجالا نكلهم..	فرات بن حيان	٤١٨
٤٩	ان النبى خرج فى رمضان ..	ابن عباس	
٥٠	ان النبى نصب المنجنيق .	(اثر) لمكحول	٣٧٠
٥١	ان يهود بنى النضير..	عبدالله بن عمر	٥٧
٥٢	انا كنا اذل قوم فاعزنا . الله..	(اثر) لعمربن الخطاب	١٠٨
٥٣	انا مدلجون ، فلايدلجن ..	ثوبان	٤١١
٥٤	انايوم الخندق نحفر...	جابر	٣١٤، ٣٤٢
٥٥	انطلقوا حتى تأتوا روضة..	على بن ابى طالب	٤١٤
٥٦	انكم ستأتون غدا . ، عين تبوك ..	معاذبن جبل	٤٥٦
٥٧	انكم ستلقون العدو غدا..	البراء بن عازب	٣٩١
٥٨	انما تكثر الجنود بالنصر..	(اثر) لخالدبن الوليد	٢٤٠
٥٩	انما سعى النبى بالبيت..	ابن عباس	٢٢٢
٦٠	انما محمد واصحابه كأكلة..	أنس	٢٣٧
٦١	انما ينصر الله هذه الامة..	مصعب بن سعد	
٦٢	انه ستكون هنات وهنات..	عرفجة	٤٨

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
٦٣	انه قدجاءنى كتابكم تستمدوننى..	(اثر) لعمربن الخطاب	٢٧٢
٦٤	أنه كان اذا ظهر على قوم..	ابو طلحة	٢٢٣
٦٥	انه لم يكتب على النساء جهاد..	ام سلمة	٣٢
٦٦	انها طيبة تنفى الذنوب..	زيد بن ثابت	٤٤٢
٦٧	اني اريد منهم كلمة...	ابن عباس	٧٣
٦٨	انى ذكرت نبيا من الانبياء..	صهيب	٢٣٣
٦٩	انى كنت امرتكم ان تحرقوا..	ابو هريرة	٤٧١
٧٠	انى لفى الصف يوم بدر..	عبدالرحمن بن عوف	٢٦٣
٧١	اهج المشركين فان جبريل..	البراء بن عازب	٢١٧
٧٢	اهجو قريشا فانه اشد..	عائشة	٢١٧
٧٣	اوصيكم باصحابي..	عمر	٢٤٥
٧٤	اوعب مع رسول الله المهاجرون..	ابن عباس	٣٩٩
٧٥	اول ماغزا النبى الابواء..	ابو اسحاق	٣٢٣
٧٦	اى عباس، ناد اصحاب السمرة..	العباس	٣٢٦
٧٧	ايها الناس لاتمنوا لقاء العدو..	عبدالله بنى ابى اوفى	٣٠٦، ١٣

ب

٧٨	بشرهذه الامة بالسناء..	ابى بن كعب	هـ
٧٩	بعثك رسول الله بسيسة..	أنس	٤٣١
٨٠	بعث رسول الله غالب..	جندب بن مكيث	٤٨١
٨١	بعث النبى سرية عينا..	ابو هريرة	٤٣٤

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
٨٢	بعثنا رسول الله وأمَّرَ..	جابـــــر	٣١٤
٨٣	بلغ رسول الله ان ناسا ..	عبد الله بن حارثة	٤٥٤
٨٤	بينما الحبشة يلعبون . .	ابو هريرة	٣٥٩
٨٥	(ت) تضمن الله لمن خرج ..	ابوهريرة	١٧٨ ، ٩
٨٦	تلك غنيمة المسلمين ..	سهل بن الحنظلية	٢٢٩
٨٧	التوبة هى الفاضحة ..	ابن عباس	٤٣٨
٨٨	(ث) ثنتان لاتردان	سهل بن سعد	٢٩٠
٨٩	(ج) جاهدوا المشركين باموالكم ...	أنس	٢١٤ ، ٣٧٣
٩٠	جرح وجه رسول الله . .	سهل بن سعد	٢٧٥ ، ٣٢٩
٩١	جهاد كن الحج	عائشة	٣١
٩٢	(ح) الحج عرفـــــة	عبد الرحمن بن يعمر	٤٦١
٩٣	الحرب خدعـــة	جابر بن عبد الله	٤٦٠
٩٤	حرس ليلة فى سبيل الله ..	عثمان	٤٨٥
٩٥	(خ) خرجنا مع رسول الله فى غزاة ..	ابو موسى	٣١٣
٩٦	خير الاصحاب اربعة . .	ابن عباس	٢٤٣
٩٧	الخيل معقود بنواصيها ..	جرير بن عبد الله	٣٦٧
٩٨	(ر) رأيت كأنى فى درع..	جابر	١٩٨
٩٩	رب أعنى ولاتعن على، وانصرنى ..	ابن عباس	٢٩٧
١٠٠	رباط يوم فى سبيل الله خير ..	سهل بن سعد	٤٨٩
١٠١	رباط يوم وليلة خير من . .	سلمان	٤٩٠
١٠٢	رجعنا من العام المقبل . .	ابن عمر	٣٠٦

الرقم	طرف الاحاديث	الراوى	الصفحة
	(س)		
١٠٣	ستفتح عليكم ارضون ..	عقبة بن عامر	٣٦٠
١٠٤	السمع والطاعة حق مالم ..	ابن عمر	٢٧٩
١٠٥	سمعتم بمدينة جانب . .	ابوهريرة	٣٠٠
١٠٦	سنوا بهم سنة اهل الكتاب .	عبدالرحمن بن عوف	٧١
	(ص)		
١٠٧	صففنا يوم بدر فبدرت ..	ابو ايوب	٣٩٤
	(ط)		
١٠٨	طوبى لعبد آخذ بعنان . . .	ابو هريرة	٢٨١
	(ع)		
١٠٩	عبأنا رسول الله ببدر ..	عبدالرحمن بن عوف	٣٩٤
١١٠	على المرء المسلم السمع ..	ابن عمر	٤٤
١١١	عليك السمع والطاعة . . .	ابو هريرة	٢٨٠
	(غ)		
١١٢	غزا رسول الله اربعا وعشرين ..	سعيدبن المسيب	٣٢٢
١١٣	الغزو غزوان . . .	معاذ بن جبل	٢٨١
١١٤	غزوت مع رسول الله . .	ام عطية	٣٤
١١٥	غزوت مع رسول الله قبل نجد ..	ابن عمر	٣٨٨
١١٦	غزوت مع النبى سبع . .	سلمة بن الاكوع	٣٣٩ ، ٣٨٥
	(ف)		
١١٧	فانطلقنا فما شاء أحد . .	ابوهريرة	٢٨٧
	(ق)		
١١٨	قال غلام منا من الانصار ..	أنس	٢٣٢
١١٩	القتلى ثلاثة	عتبة بن عبدالله السلمى	٢١
١٢٠	قد اغار رسول الله على . .	نافع	٤٧٥ ، ٤٧٨
١٢١	قدمنا الحديبية مع رسول الله ..	سلمة بن الاكوع	٣٥٦
١٢٢	القوم الف ،كل جزورلمائة . .	على بن ابى طالب	
١٢٣	قوموا الى جنة عرضها ..	انس	٢٥٦ ، ٢٨٦

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
	(ك)		
١٢٤	كان رسول الله قلما يريد غزوة..	كعب بن مالك	٤٦٨
١٢٥	كان رسول الله يغزوا بامسليم..	أنس	٣٥
١٢٦	كان شعار المهاجرين ..	سمرة بن جندب	٣٩٥
١٢٧	كان النبى احسن الناس. .	أنس	٢٦٠
١٢٨	كان النبى اذا غزا قوما . . .	أنس	٤١١ ، ٤٧٦
١٢٩	كانت اموال بنى النضير. .	عمر بن الخطاب	٣٧٤
١٣٠	كانت راية رسول الله . .	ابن عباس	٣٨٩
١٣١	كانت سوداء مربعة. .	البراء بن عازب	٣٨٩
١٣٢	كنا مع رسول الله يوم الفتح . .	ابو هريرة	٤٠٠ ، ٤٠٢
١٣٣	كنا مع النبى نسقى . .	الربيع بنت معوذ	٣٤
١٣٤	كنا والله اذا احمر. .	البراء بن عازب	٢٦١ ، ٣٢٦
١٣٥	كنا يوم الحديبية الفا واربعمائة..	جابربن عبدالله	٣٠٧
١٣٦	كنت الى جنب زيد بن أرقم..	ابو اسحاق	٣٢٢
١٣٧	كنت انا وامى ممن عذر الله..	ابن عباس	٦٥
١٣٨	كنت كاتبا لجزء بن معاوية..	بجالة	٧١
١٣٩	لاتفعل ، فان مقام احدكم . .	ابو هريرة	١٢
	(ل)		
١٤٠	لاسبق الا فى خف . . .	ابوهريرة	٣٥٧
١٤١	لاهجرة ، ولكن جهاد . .	ابن عباس	٢٥
١٤٢	لايحل دم امرى مسلم الا . .	عبدالله بن مسعود	٤٣
١٤٣	لايخلون رجل بامرأة. . .	ابن عباس	٣٨٣
١٤٤	لايقدمن احد منكم الى شىء..	أنس	٢٨٦

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
١٤٥	لاعطين الراية رجلا . .	سهل بن سعد	٣٩٠ ، ٤٧٤
١٤٦	لصوت ابى طلحة . . .	أنس	٣٣٣
١٤٧	لغدوة فى سبيل الله . .	أنس	١٥
١٤٨	لقد رأيتنا يوم بدر . . .	على بن ابى طالب	٢٦٢
١٤٩	لك بها يوم القيامة سبعمائة . .	ابو مسعود الانصارى	٣٧٣
١٥٠	للشهيد عند الله ست خصال . .	المقدام بن معد يكرب	٢٠
١٥١	لما اصيب اخوانكم بأُحد . .	ابن عباس	١٧
١٥٢	لما اقبل رسول الله من . . تبوك . .	ابو الطفيل	٤٥٧
١٥٣	لما توفى النبى واستخلف ابوبكر .	ابوهريرة	٤٤
١٥٤	لما كان يوم أُحد انهزم . .	أنس	٣٥ ، ٣٣٤
١٥٥	لما كان يوم الاحزاب . .	البراء بن عازب	٣٤٢
١٥٦	لما نزلت " ان يكن منكم عشرون " . .	ابن عباس	٣١١
١٥٧	لئن اشهدنى الله . .	أنس	٢٦٢
١٥٨	لو انكم كنتم توكلون . .	عمر بن الخطاب	٢٦٩
١٥٩	ليس الكذاب الذى يصلح . .	ام كلثوم	٤٦٢
١٦٠	ماانتما باقوى منى . . (م)	عبد الله بن مسعود	٣٤٣
١٦١	مابال دعوى جاهلية . .	جابر بن عبد الله	٤٤٩
١٦٢	ماضر ابن عفان ماعمل . .	عبد الرحمن بن سمرة	٣٧٥
١٦٣	ماعلى عثمان ماعمل	عبد الرحمن بن خباب	٣٧٥
١٦٤	مامن احد يدخل الجنة يحب . .	أنس بن مالك	١٦
١٦٥	مانصر النبى فى موطن كما نصر فى أُحد	ابن عباس	٢٨٥
١٦٦	ماهذا الخنجر ؟ . .	أنس	٣٥

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
١٦٧	مثل المجاهد فى سبيل الله ..	ابوهريرة	١١
١٦٨	المسلم اخو المسلم ..	ابوهريرة	٦١
١٦٩	من اتاكم وامركم جميع ..	عرفجة	٢٤٥
١٧٠	من احتبس فرسا ..	ابوهريرة	٣٦٦
١٧١	من اطاعنى فقد ..	ابوهريرة	٢٧٩
١٧٢	من بدل دينه ...	ابن عباس	٤٣
١٧٣	من جهز غازيا ...	زيد بن خالد	٣٧٣
١٧٤	من خرج من الطاعة ..	ابوهريرة	٥٢
١٧٥	من خلع يدا من طاعة ..	عبدالله بن عمر	٤٥
١٧٦	من شاء منكم بطن الوادى ..	عروة بن الزبير	٤٥٨
١٧٧	من علم الرمى . ثم تركه .	عقبة بن عامر	٣٦٠
١٧٨	من قاتل لتكون كلمة الله ..	ابو موسى	
١٧٩	من كذب على متعمدا ..	ابوهريرة	٤٦٤
١٨٠	من لكعب بن الاشرف؟..	جابر	٤٦٤
١٨١	من مات ولم يغز ..	ابو هريرة	١٦٥
١٨٢	من يأتى بنى قريظة ..	عبدالله بن الزبير	٤٢٥
١٨٣	من يأتينا بخبر القوم ..	جابر	٤٢٥
١٨٤	من يأخذ منى هذا السيف ..	أنس	٣٣٢
١٨٥	من يحرسنا الليلة ..	ابو ريحانة	٤٨٧
١٨٦	من يذهب فى اثرهم ..	عائشة	١٦٣
١٨٧	المؤمن القوى خير ..	ابو هريرة	٣٥٦
١٨٨	المؤمن للمؤمن كالبنيان ..	ابو موسى	٢٤٥

الرقم	طرف الحديث	الراوى	الصفحة
	(ن)		
١٨٩	نزلت فى عبدالله بن حذافة..	ابن عباس	٢٧٩
١٩٠	نزلت هذه الآية فينا...	جابر	٤٤٣
١٩١	نستعين بالله ..	(اثر) لسعد	
١٩٢	نعم. عليهن جهاد لا قتال فيه..	عائشة	٣٢
١٩٣	نهى رسول الله عن النهبى...	عبدالله بن زيد	٤٧١
	(هـ)		
١٩٤	هزم المشركون يوم احد . . .	عائشة	٢٨٣
١٩٥	هل تنتصرون الا بضعفائكم.	مصعب بن سعد	٢٩٠
١٩٦	هل عرفتم القوم؟ . .	حذيفة	٤٥٩
	(و)		
١٩٧	والله لقد رأيت رسول الله . . .	عائشة	٣٥٩
١٩٨	والله ليأذنن رسول الله . .	ابن عباس	٢١٩
١٩٩	والله لينصرن الله وليه . .	(اثر) لسعد	١٩٣
٢٠٠	وانما خرج رسول الله .موهبا للعدو...	عكرمة	٢٢٤
٢٠١	وجدت فى نفسى حين سألت . .	الزبير	٣٣٢
٢٠٢	ويل للعرب من شر . .	زينب	١٩٣
	(ى)		
٢٠٣	يا ابا عياش لو اعطيت هذا الفرس..	—	٣٣٢
٢٠٤	يا ايها الناس انكم تتألون . .	ابو ايوب	٩٤
٢٠٥	يا قوم ان التى تطلبون . .	(اثر) لعبدالله بن رواحة	٢٣٩
٢٠٦	يا معشر المسلمين خمس..	ابن عمر	١٠٧
٢٠٧	يا معشر المسلمين من يعذرنى..	عائشة	٤٥١
٢٠٨	يقتل عمارا الفئة . .	ام سلمة	٤٨
٢٠٩	يقدم عليكم وفد وهنهم . .	ابن عباس	٢٢٢
٢١٠	يوشك ان تداعى عليكم . .	ثوبان	٩٦

فهـــــرس المراجـــــــــــــــع

* آثار الحرب فى الفقه الاسلامى .

الاستاذ / وهبه الـزحيلى .

دار الفكـــــر

* ابو زرعة الرازى وجهوده فى السنة النبوية .

رسالة دكتوراه اعداد / سعدى الهاشمى .

من منشورات المجلس العلمى بالجامعة الاسلامية بالمدينة . الطبعة الاولى (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

* أجنحة المكر الثلاثـــــة .

د . عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني .

دار القلم - الطبعة الثانية (١٤٠٠ / ١٩٨٠م) .

* أحكـــــام القـــــرآن .

ابوبكر احمد بن على الجصاص.

دار الكتاب العربي - بيروت .

* أحكـــــام القـــــرآن .

ابوبكر محمد بن عبدالله المعروف بـ (ابن العربي) .

تحقيق على البجاوى/مطبعة البابي الحلبي .

* ارادة القتال فى الجهاد الاسلامي .

اللواء الركن / محمود شيت خطاب.

دار الفكر/ الطبعة الثالثة ١٣٩٨ / ١٩٧٨م.

* ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم.

ابو السعود محمد بن محمد العمادى .

دار احياء التراث العربي - بيروت.

* ارواء الغليل فى تخريج احاديث منار السبيل .

الشيخ /محمد ناصر الدين الالباني .

المكتب الاسلامى - الطبعة الاولى ١٣٩٩/١٩٧٩ .

* استراتيجية الفتوحات الاسلامية .

الرائد / وليد محمد جرادات .

مديرية المطابع العسكرية .

* اسرار الحرب العالمية الثانية فى سيرة ابرز قائد الماني" فون رونشتد" .

تأليف/اللواء كونثر بلو منتريت .

ترجمة /اللواء الركن محمود شيت خطاب .

دارالحياة - بيروت .

* الاسلام والنصـــــر .

اللواء الركن / محمود شيت خطاب .

دار الفكر - الطبعة الاولى ١٣٩٢/١٩٧٢ .

* أصـــــول الادارة .

د . محمـــــود عســـاف .

طبع بمصر /١٩٨٢ .

* اقتباس النظام العسكرى فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

تأليف اللواء الركن / محمود شيت خطاب .

اللواء الركن / محمد جمال الدين محفوظ .

الشيخ / عبداللطيف زايـــــد .

مطابع قطر الوطنية - الدوحة قطر .

* الله أو الدمـــــار .

الاستاذ / سعد جمعـــــه .

المختار الاسلامي / الطبعة الثالثة/١٣٩٦ - ١٩٧٦ .

* الأم.

الامام/محمد بن ادريس الشافعي.

دار المعرفة/بيروت/ الطبعة الثانية ١٣٩٣/ ١٩٧٣.

* اهداف اسرائيل التوسعيـــة.

اللواء الركن / محمود شيت خطاب.

دار النصر للطباعة /توزيع دار الاعتصام.

* آيات الجهاد في القرآن الكريم.

د / كامل سلامة الدقس.

دار البيان / الكويت.

* بدائع الصنائـــــــع.

الامام/ علاء الدين ابوبكر بن مسعود الكاساني.

دار الكتاب العربي /بيروت/ الطبعة الثانية ١٣٩٤/١٩٧٤.

* البداية والنهايـــــــة.

ابو الفداء اسماعيل بن كثير.

مكتبة العارف /بيروت/ الطبعة الثانية ١٣٩٤ /١٩٧٤ .

* بلوغ المرام من جمع ادلة الاحكام.

الامام احمد بن على بن حجر العسقلاني.

دار الجيل للطباعة / مصر.

* تاريخ أسماء الثقـــات.

الحافظ ابو حفص عمر بن احمد بن عثمان المعروف بابن شاهين.

تحقيق د / عبدالمعطى قلعجي.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الاولى ١٤٠٦/١٩٨٦.

* تاريخ الامم والملـــــوك .

ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى .

دار سويدان / لبنان .

* تاريخ الثقـــــات .

الامام الحافظ احمد بن عبدالله بن صالح ابى الحسن العجلي .

ترتيب الحافظ نور الدين على بن ابى بكر الهيثمي .

تحقيق د / عبدالمعطى قلعجي . دار الكتب العلمية/بيروت/ط. الاولى

(١٤٠٥/١٩٨٤م) .

* تاريخ عثمان بن سعيد الدارمي .

تحقيق د / احمد محمد نور سيف .

دار المأمون للتراث ، دمشق ، بيروت ، من منشورات مركز البحث العلمى

بجامعة ام القرى .

* تاريخ المذاهب الاسلاميـــة .

الشيخ / محمد ابوزهرة .

دار الفكر العربي .

* تبيين الحقائـــــــق .

الامام جمال الدين ابو محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي .

دار المعرفة/لبنان / الطبعة الثانية .

* تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى .

الامام/ محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفورى .

دار الفكر/الطبعة الثالثة ١٣٩٩/١٩٧٩ .

* الترغيب والترهيـــــــب .

الامام زكى الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى بن سلامة المنذرى الدمشقى .

دار الفكـــــــر .

* التعريفـــــات.

الامام على بن محمد الجرجاني.

دار الكتب العلمية /بيروت/الطبعة الاولى ١٤٠٣/١٩٨٣.

* تفسير البحر المحيط.

الامام محمد بن يوسف ،الشهيربأبي حيان الاندلسي.

دار الفكر/ بيروت/الطبعة الثانية ١٣٩٨/١٩٧٨.

* تفسير القرآن العظيم.

ابو الفداء اسماعيل بن كثير.

دار المعرفة /بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣.

*تفسير القرآن الكريم.

الشيخ العلامة/ محمود شلتوت.

دار الشروق/ الطبعة العاشرة ١٩٧٣.

* تفسير المنـــــار.

الاستاذ/ محمد رشيد رضا.

الهيئة المصرية العامة للكتاب.

* تفسير النسفي.

الامام عبدالله بن احمد بن محمود النسفي.

دار الكتاب العربي /بيروت.

*التفسير الواضـــــح.

د/ محمد محمود حجازي.

دار الجيل /مطبعة الاستقلال الكبرى/القاهرة الطبعة السادسة.

(١٣٨٩/١٩٦٩).

* تقريب التهذيـــــــب.

الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلاني .

تحقيق /الشيخ عبدالوهاب عبداللطيف.

دار المعرفة/الطبعة الثانية ١٣٩٥/١٩٧٥.

* تلخيص الحبير فى تخريج احاديث الرافعي الكبير.

الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلاني .

دار نشر الكتب الاسلامية.

* تهذيب التهذيـــــــب.

الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلاني .

تحقيق الشيخ / عبدالوهاب عبداللطيف.

دار المعرفة /الطبعة الثانية ١٣٩٥/١٩٧٥.

* جامع الاصول فى احاديث الرسول .

الامام مجدالدين ابو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الاثير.

تحقيق عبدالقادر الارناؤوط.

نشر وتوزيع مكتبة الحلواني ، ١٣٩٢/١٩٧٢.

* جامع البيان عن تأويل آى القرآن .

الامام محمد بن جرير الطبرى.

دار الفكر/بيروت، ١٤٠٥/١٩٨٤.

* الجامع الصحيح : سنن الترمـــــذى.

الامام ابوعيسى محمد بن عيسى بن سورة.

تحقيق الاستاذ /احمد شاكر. داراحياء التراث العربى /بيروت.

* الجامع لأحكـــام القرآن .

الامام محمد بن احمد القرطبي .

دار الكتب المصرية / الطبعة الثالثة .

* الجرح والتعديـــــل .

الامام عبدالرحمن بن ابى حاتم الرازى .

دار المعارف ، حيدرآباد / الطبعة الاولى / دار الكتب العلمية .

* الجهـــــــاد .

الامام الحافظ المجاهد عبدالله بن المبارك .

تحقيق د / نزيه حماد .

طباعة دار العلم للطباعة والنشر ، جده . الناشر دار المطبوعات الحديثه جده .

* الجهـــــاد فى الاسلام .

الاستاذ / محمد شديد .

مؤسسة الرسالة / بيروت ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

* الجهـــاد والفدائيـــة .

الشيخ حسن ايوب .

دار الندوة الجديدة / بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

* جوامـع السيرة النبويـــة .

الامام ابن حزم الاندلسي .

مراجعة وتعليق الشيخ / نايف العباس .

مؤسسة علوم القرآن / دمشق / بيروت / الطبعة الاولى ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

* حتى يغيروا مابأنفسهم.

الاستاذ / جودت سعيد .

مطبعة الحسين الجديدة/القاهرة/الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

* الحرب النفسيـــــة.

د / احمد نوفـــــل .

دار الفرقان /الاردن /الطبعة الاولى ١٤٠٥ / ١٩٨٥م.

* الخرشي على مختصر سيدى خليل .

الشيخ على بن احمد الصعيدى العدوى .

دار الفكر/ بيروت.

* الدرر فى اختصار المغازى والسير.

الحافظ ابو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمرى .

خرج نصوصه وعلق عليه الدكتور/مصطفى ديب البغا .

مؤسسة علوم القرآن /دمشق /بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٤ / ١٩٨٤م.

* الدعوة الى الاسلام.

تأليف / توماس ارنولـــد .

ترجمة /حسن ابراهيم حسن .

مكتبة النهضة المصرية/الطبعة الثالثة ١٩٧٠.

* دلائـل النبـــــوة.

الامام احمد بن الحسين البيهقى .

تحقيق الدكتور/ عبدالمعطى قلعجى .

دار الكتب العلمية/بيروت/الطبعة الاولى ١٤٠٥ / ١٩٨٥م.

* الاذكـــــــار.

الامام محى الدين بن يحى بن شرف النووى .

دار الفكـــــــر.

* ذيل ميزان الاعتـــــدال .

الحافظ ابو الفضل عبد الرحيم بن الحسين المعروف بالعراقي .

تحقيق الدكتور/ عبد القيوم عبد رب النبى .

من منشورات مركز البحث العلمى بجامعة ام القرى . الطبعة الاولى ١٤٠٦ .

* الرسول القائـــــــد .

اللواء الركن / محمود شيت خطاب.

دار الفكر/الطبعة الخامســـة .

* روح المعانى فى تفسير القران العظيم والسبع المثاني .

الامام شهاب الدين السيد محمود الآلوسي .

دار الفكر/بيروت ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

* روضة الطالبيـــــن .

الامام محيي الدين يحى بن شرف النووى .

المكتب الاسلامى .

* زاد المعاد فى هدى خير العباد .

الامام محمد بن ابى بكر الشهير بابن قيم الجوزية .

تحقيق محمد حامد الفقى . مطبعة السنة المحمدية .

*سبل الســـــــــــلام شرح بلوغ المرام.

الامام محمد بن اسماعيل الصنعاني .

مكتبة الرسالة الحديثة .

* سنن ابن ماجـــــة .

الامام محمد بن يزيد القزويني .

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

طبعة دار الفكر/بيروت

* سنـــن ابى داود .

الامام سليمان بن اشعث السجستاني .

مراجعة وتعليق الاستاذ / محمد محي الدين عبد الحميد .

دار احياء التراث العربي /بيروت.

* سنن الدارمـــــــي .

الامام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي.

تحقيق وتخريج السيد عبد الله هاشم المدني .

الناشر /حديث اكادمي /باكستان ١٤٠٤/١٩٨٤.

* السنـــن الكبـــــرى .

الامام احمد بن الحسين البيهقى .

دائرة المعارف العثمانية /حيدر آياد ،الهند ،الطبعة الاولى .

* سنن النسائى بشرح السيوطـــي .

الامام احمد بن شعيب النسائى .

طبعة دار الفكر/بيروت/الطبعة الاولى / ١٣٤٨، ١٩٣٠.

* السياسة الشرعية فى اصلاح الراعي والرعيـــــة .

الامام احمد بن تيميـــــة .

دار الكتاب العربي .

* السيرة النبويـــــــة .

محمد بن عبد الملك بن هشام.

تحقيق الاستاذ / مصطفى السقا .

مطبعة البابي الحلبي . الطبعة الثانية ١٣٧٥/١٩٥٥.

* السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة.

الدكتور/ الشيخ محمد محمد ابوشهبة.

مطبعة القاهرة الحديثة/الطبعة الثانية.

* السيل الجرار المتدفق على حدائق الازهار.

الامام محمد بن على بن محمد الشوكانى.

تحقيق الشيخ /محمود زايد.

الطبعة الاولى /دار الكتب العلمية /بيروت ١٤٠٥/١٩٨٥.

* شرح فتح القدير.

الكمال بن الهمام.

دار احياء التراث العربي.

* شرح منتهى الايرادات.

الامام منصور البهوتي.

دار الفكر.

* الاصابة فى معرفة الصحابة.

الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلاني.

* الصبر فى القرآن.

الشيخ /يوسف القرضاوى.

مؤسسة الرسالة/الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

* صحيح البخارى.

الامام محمد بن اسماعيل البخارى.

طبعة دار المعرفة/بيروت ١٩٧٨.

* صحيح الجامع الصغير.

الشيخ /محمد ناصر الدين الالباني.

المكتب الاسلامى /الطبعة الاولى ١٣٨٨/١٩٦٩.

** صحيح مسلـــــــم.

الامام مسلم بن الحجاج القشيرى.

تحقيق الشيخ /محمد فؤاد عبد الباقي.

دار الفكر/بيروت.

* صحيح مسلم بشرح النووى.

دار احياء التراث العربي /بيروت/الطبعة الثانية ١٣٩٢/١٩٧٢.

* صلاح الدين الايوبـــــي.

الاستاذ / عبد الله ناصح علوان.

دار السلام للطباعة والنشر/الطبعة الرابعة ١٤٠٣/١٩٨٣.

* الضعفاء الكبيـــــــر.

الحافظ محمد بن عمر بن موسى بن حماد العقيلى.

تحقيق الدكتور/ عبد المعطى قلعجي.

دار الكتب العلمية /الطبعة الاولى ١٤٠٤/١٩٨٤.

* الطبقات الكبـــــــرى.

الامام محمد بن سعد.

دار صادر/ بيروت.

* طرح التثريب فى شرح التقريب.

الامام زين الدين ابو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقى.

الناشر/دار المعارف - حلب. دار احياء التراث العربي /بيروت.

* طريق الدعوة فى ظلال القرآن .

الاستاذ /احمد فائز.

مؤسسة الرسالة ١٤٠١/١٩٨١ .

* العبرة مماجاء فى الغزو والشهادة والهجرة .

ابو الطيب صديق بن حسن القنوجي .

تحقيق /ابو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول .

دار الكتب العلمية/بيروت/الطبعة الاولى ١٤٠٥/١٩٨٥ .

* عبقرية محمد (صلى الله عليه وسلم)

الاستاذ / عباس محمود العقا د .

دار الهلال .

* عمدة القارى شرح صحيح البخارى .

الامام بدرالدين العينى .

دار احياء التراث العربي /بيروت .

* هـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الاسلامي .

الاستاذ / شوقى ابو خليل .

دار الفكر/ ١٤٠١/١٩٨١ .

* الفتاوى .

الامام احمد بن تيمية .

نشر وتوزيع الرئاسة العامة لشئون الحرمين .

* فتح البارى شرح صحيح البخارى .

الامام احمد بن على بن حجر العسقلاني .

ترتيب الشيخ /محمد فؤاد عبد القباقى .

نشر وتوزيع رئاسة ادارة البحوث العلمية والافتاء بالسعودية .

* الفتح الرباني : ترتيب مسند الإمام احمد بن حنبل الشيباني .

الشيخ احمد بن عبدالرحمن البنا المعروف بالساعاتي .

دار العلم للطباعة والنشر/جدة/دار الشهاب /القاهرة .

* فتح القدير .

الامام محمد بن علي بن محمد الشوكاني .

النا شر /محفوظ العلي / بيروت .

* فقه السنـــــة .

الشيخ سيد سابق .

دار الكتاب العربي /بيروت .

* الفقه على المذاهب الأربعة .

الشيخ عبدالرحمن الجزيرى .

دار احياء التراث العربي .

* الفوائـــــد .

الامام محمد بن ابى بكر المعروف بابن قيم الجوزية .

دار الفكر .

* فى ظلال القـــــرآن

الشهيد / سيد قطـــب .

دار الشروق / الطبعة الثامنة ١٣٩٩/١٩٧٩ .

* القتال فى الاسلام .

الاستاذ / احمد نار .

نشر وتوزيع المكتبة الاسلامية - حمص/الطبعة الثانية ١٣٨٨/١٩٦٨ .

* الكافى فى فقه اهل المدينة المالكي .

الامام يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبى .

تحقيق الدكتور/ محمد محمد احيد ولد ماديك الموريتانى .

مكتبة الرياض الحديثة/الطبعة الاولى ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

* كشف الاستار عن زوائد البزار .

الحافظ نور الدين على بن ابى بكر الهيثمي .

تحقيق الشيخ /حبيب الرحمن الاعظمى .

مؤسسة الرسالة . /الطبعة الثانية ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

* كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على السنة الناس.

الشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي .

تصحيح وتعليق الاستاذ / احمد القلاش.

مؤسسة الرسالة /بيروت/الطبعة الرابعة ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

* لسان العـــــرب.

الامام ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور.

دار صادر/بيروت /نشر المكتبة الفيصلية .

* اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخـــان .

وضعه الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي .

المكتبة الاسلامية/استانبول - تركيا .

* المجتمع المدني فى عهد النبوة.

الدكتور/ اكرم ضياء العمرى .

الطبعة الاولى ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

الحافظ نور الدين على بن ابى بكر الهيثمي .

دار الكتاب العربي / بيروت / الطبعة الثالثة ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

* المجموع شرح المهذب مع تكملته للمطيعي .

العلامة محى الدين بن يحى بن شرف النووى .

دار الفكر .

* مختار الصحـــــاح .

محمد بن ابى بكر بن عبد القادر الرازى .

الناشر / دار الكتب العربية / بيروت .

* مذكرات مونتجمرى .

ترجمة / ن . البعلبكي .

دار القلم / بيروت / الطبعة الثانية ١٩٧١ .

* المراسيـــــــل .

الامام سليمان بن اشعث السجستانى (ابوداود) .

مطبعة محمد على صبيح - مصر .

* مرويات غزوة بـــــــدر .

رسالة ماجستير اعداد الطالب / احمد محمد العليمي باوزير .

مكتبة طيبة - المدينة المنورة / الطبعة الاولى ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

* مرويات غزوة بنى المصطلق .

رسالة دكتوراه اعداد الطالب / ابراهيم بن ابراهيم قريبي .

من منشورات المجلس العلمي بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

* المستدرك على الصحيحيـــــــن .

الامام الحاكم ابو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابورى .

مطابع النصر الحديثـــــة .

* مستقبل الاسلام فى الغـــــرب.

الاستاذ / رجاء جارودى .

ترجمة د / رفيق المصرى .

دار العلم للطباعة والنشر/الطبعة الاولى ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .

* مستند الاجناد فى آلات الجهاد ، ومختصر فى فضل الجهاد .

الامام بدرالدين محمد بن ابراهيم بن جماعة الكناني الحموى .

تحقيق الاستاذ /اسامة النقشبندى .

دار الحرية للطباعة /بغداد /من منشورات وزارة الثقافة العراقية

(١٩٨٣) .

* المسنـــــــد .

الامام احمد بن حنبـــــل .

المكتب الاسلامى /بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

* مسند الامام احمد بن حنبـــــل .

تحقيق الشيخ / احمد شاكر .

دار المعرفة - مصر ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

* مشكاة المصابيح للتبريزى .

تحقيق الشيخ / محمد ناصر الدين الالباني .

المكتب الاسلامي .

* المصنـــــــف .

ابوبكر بن ابي شيبـــــة .

الدار السلفية - الهند /الطبعة الاولى ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

* المعجـــم الصغيـــــر .

الحافظ ابو القاسم سليمان بن احمد بن ايوب اللخمى الطبراني .

دار الفكر/الطبعة الثانية ١٤٠١/١٩٨١ .

* معجم مااستعجم من اسماء البلاد والمواضـــع .

تأليف الامام/ عبدالله بن عبد العزيز البكرى الاندلسي .

تحقيق /مصطفى السقا .

عالم الكتب - بيروت .

* المعجم المفهـــرس لألفاظ الحديث النبـــوى .

ترتيب جماعة من المستشرقيـــن .

* معرفـــة الرواة المتكلم فيهم بمالا يوجب الـــرد .

الامام/ابوعبدالله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله الذهبي .

تحقيق /ابوعبدالله ابراهيم سعيداى ادريس .

دار المعرفة /بيروت/الطبعة الاولى ١٤٠٦/١٩٨٦ .

* المغازى .

تأليف /محمد بن عمر بن واقد (الواقدى) .

تحقيق /مارسدن جونس .

عالم الكتب - بيروت .

* المغنى بالشرح الكبيـــــــر .

الامام موفق الدين بن قدامة المقدسي .

دار الكتاب العربي /بيروت ١٣٩٢/١٩٧٢ .

* مفتاح كنوز السنـــــة .

تأليف د/ أ . ى . فنسنك .

ترجمة الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي .

دار احياء التراث العربي /بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣ .

* المقدمـــــات .

الامام محمد بن احمد بن رشد .

دار السعادة - مصر ، دار صادر - بيروت .

* مقدمة ابن خلدون .

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون .

دار احياء التراث العربي / الطبعة الرابعة .

* المقنـــــع .

الامام موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي .

المؤسسة السعيدية / الطبعة الثالثة .

* الملل والنحـــــل .

الامام محمد بن عبد الكريم بن احمد ابو الفتح (الشهرستاني) .

مكتبة الانجلو المصرية / الطبعة الاولى ١٩٧٧ .

* من كلام ابى زكريا " يحى بن معين" فى الرجال .

تحقيق الدكتور / احمد محمد نور سيف .

دار المأمون للتراث / دمشق - بيروت .

من منشورات مركز البحث العلمى بجامعة ام القرى .

* منال الطالب فى شرح طوال الـــغرائب .

الامام مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد بن الاثير .

تحقيق الدكتور / محمود الطناحي .

مطبعة المدني - من منشورات مركز البحث العلمى بجامعة ام القرى .

* المنتقـــــى .

الامام عبد الله بن على الجارود .

مطابع الاشرف / باكستان . الناشر / حديث آكادمى / باكستان

الطبعة الاولى ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

* موارد الظمآن لدروس الزمـــــان .

عبد العزيز السلمان .

مطبعة المدينة - الرياض/ الطبعة الثالثة .

* موارد الظمآن الى زوائد ابن حبـــان .

الحافظ نور الدين على بن ابى بكر الهيثمي .

تحقيق /محمد عبد الرزاق حمزة .

دار الكتب العلمية - بيروت .

* مواهب الجليل لشرح مختصر خليل .

الامام محمد بن محمد الطرابلسى المعروف بالحطاب .

مكتبة النجاح ليبيا / مطابع دار الكتاب اللبناني /بيروت .

* الموطـــــــــأ .

الامام مالك بن أنـــس .

اعداد احمد راتب عرموش .

دار النفائس /بيروت/الطبعة السابعة ١٤٠٤/١٩٨٣ .

* ميزان الاعتدال فى نقد الرجال .

الحافظ ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان الذهبي .

تحقيق /الاستاذ على البجاوى .

دار المعرفة - بيروت .

* نتائج الافكار فى تخريج احاديث الاذكـــار .

الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلاني .

تحقيق / حمدى عبد المجيد السلفى .

مطبعة الارشاد - بغداد /منشورات مكتبة المثنى ببغداد .

* نصب الراية لاحاديث الهدايـــــة .

الامام عبدالله بن يوسف الحنفى /الزيلعى .

الناشر/ المكتبة الاسلامية /الطبعة الثانية ١٣٩٣/١٩٧٣ .

* النظرية الاسلامية فى الاستطلاع والامن ومقاومة الجاسوسية .

اللواء الركن /محمد جمال الدين محفوظ .

دار الاعتصام .

* النظرية الاسلامية فى القيادة الحربية .

اللواء الركن /محمد جمال الدين محفوظ .

دار الاعتصام .

* النهاية فى غريب الحديث والاثر .

الامام مجد الدين ابو السعادات المبارك بن الجزرى ابن الاثير .

تحقيق /د . طاهر الزاوى ود . محمود الطناحي .

المكتبة الاسلامية .

* نهاية المحتاج الى شرح المنهـــــاج .

الامام شمس الدين الرملي .

مطبعة البابى الحلبي /الطبعة الاخيرة ١٣٨٦/١٩٦٧ .

* نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار .

الامام محمد بن على بن محمد الشوكاني .

دار الجيل /بيروت ١٩٧٣ .

* الهداية شرح بداية المبتدى .

الامام على بن ابى بكر المرغيناني .

مطبعة البابى الحلبي / الطبعة الاخيرة .